عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت
484

علم الاجتماع الرقمي

منظورات نقدية

تحرير: كيت أورتون - جونسون
ونيك بريور
ترجمة: هاني خميس أحمد عبده



توضيح

نحيط عناية القراء الكرام علما بأن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب سيستأنف نشر وتوزيع إصداراته الدورية بداية من شهر يوليو 2021، بعد توقفها قسرا منذ شهر أبريل 2020، بسبب جائحة كورونا (كوفيد 19)، تلك الجائحة التي كانت سببا في توقف طباعة هذه الإصدارات وعدم وصولها إلى القراء الكرام، لأسباب كثيرة، منها صعوبة حركة النقل والسفر بين دول العالم... وتفضلوا بقبول كل التقدير.



عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت
صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

علم الاجتماع الرقمي
منظورات نقدية

تحرير: كيت أورتون - جونسون
ونيك بريور
ترجمة: هاني خميس أحمد عبده



يوليو 2021
484

إلى القراء الكرام

مع هذا العدد من «عالم المعرفة»، تعود هذه السلسلة، التي تحرص دولة الكويت، ممثلة بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، على استمرارها لتُقَدم الزادَ الثقافي الموضوعي الذي يثري المكتبة العربية. لقد أجبرتنا جائحة كورونا «كوفيد – 19» - مثلما أجبرت العالم كله - على تغيير الخطط؛ فتوقف إصدار السلسلة بسبب توقف المطابع وشركات التوزيع عن العمل، إذ إن آخر إصدار للسلسلة كان العدد الذي يحمل الرقم 483، الصادر في أبريل من العام الماضي 2020. وخلال هذا الوقت العصيب، اضطلع الزملاء بمتابعة مهماتهم التحريرية من اختيار للكتب ومتابعة إجراءات ترجمتها ومراجعتها وتحريرها؛ فتراكم عدد من الكتب الجاهزة للطباعة والنشر. وبعودة «عالم المعرفة» إلى قرّائها اليوم، في يوليو من العام 2021، بعد أربعة عشر شهرًا من التوقف القسري، نكمل المسيرة انطلاقًا من رقم العدد الذي توقفنا عنده؛ لترى تلك الكتب المتراكمة النور متتابعة ابتداءً من هذا العدد الذي يحمل الرقم 484.

لقد آثرت هيئة التحرير أن تكتب هذا التقديم لشرح سبب الانقطاع، والذي سوف يتساءل عنه القارئ في السنوات المقبلة وليس قارئ اليوم؛ فيعرف أن هذا الانقطاع قسري في ظل ظروف وبائية غير مسبوقة في عصرنا.

وبعد؛ فإنه يسرنا أن نعود من جديد، مقدمين كل الشكر والامتنان لفريق التحرير والجهات المساعدة في المجلس الوطني والهيئة الاستشارية، مستبشرين خيرًا بعودة كل إصدارات المجلس الوطني الرافدة للثقافة العربية الجادة إلى الصدور من جديد، متمنين الخير والسلامة للأمة العربية والعالم.

مستشار السلسلة

محمد الرميحي

يوليو 2021



سلسلة شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب

ترسل الاقتراحات على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: 28613 - الصفاة

الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

هاتف: 22431704 (965)

www.kuwaitculture.org.kw

التنضيد والإخراج والتنفيذ

وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 676 - 8

العنوان الأصلي للكتاب

Digital Sociology:

Critical Perspectives

By

Kate Orton-Johnson

And

Nick Prior

Palgrave Macmillan

First published in English under the title

Digital Sociology; Critical Perspectives

Edited by K. Orton-Johnson and N. Prior, edition: 1

طُبع من هذا الكتاب اثنان وثلاثون ألفا ومئتان وخمسون نسخة

ذو القعدة 1442 هـ - يوليو 2021

المحتوى

المقدمة

كيت أورتون - جونسون ونيك بريور

أدَّى الانتشارُ المتزايدُ للتكنولوجياتِ الرقمية digital technologies في الحياةِ اليوميةِ إلى تأجيج الجدل الأكاديمي حول العلاقات والبنى الاجتماعية فيما سُمي بـ «عصر المعلومات» Information Age. ولقد نشأ عن هذه الجدالات مجالٌ بحثي في إطار «العلوم البينية» interdisciplinary، يُعنى بالتعقيدات والتناقضات المتعلقة بالتحولات التي يُعتَقد أن «تكنولوجيات الاتصال والمعلومات» information and communication technologies (ICTs) تُحدثها عبر الممارسات الاقتصادية والسياسية والثقافية (Baym, 2010; Bijker & Law, 1997; Jones, 1995a, 1995b, 1997; Wellman & Haythornthwaite 2003).

وبوصفنا علماءَ اجتماع، فنحن نجد فرصا مثيرة ومهمة لهذا المجال للإسهام في النطاق الناشئ والمتنوع للعمل النظري والتجريبي لرصد

> «إذا كانت تكنولوجيا الاتصالِ قد صاغت مجتمعاتٍ جديدةً ذاتَ اهتمام وارتباط وانتماءٍ مشترك، فإنها عزَّزت أيضا الحواجز والمواقع والثقافات الاجتماعية السائدة»

هذه التغيرات. ويمكن القول إن علم الاجتماع وخيالنا السوسيولوجي يواجهان مشاهد رقمية جديدة new digital landscapes، بدءا من الذوات الإلكترونية cyberselves إلى مجتمعات الإنترنت online communities، ومن حرب الإعلام إلى اللامساواة الشبكية، ومن الثقافة إلى البنية الاجتماعية.

ولقد أمدَّ مجال بحث الإنترنت internet research (IR) الباحثين بالكم الهائل من البحوث التي أسهمت في إعادة تركيز وتحدي وإعادة صياغة السياقات لمفاهيم ظلت ثابتة فترةً طويلة في البحث السوسيولوجي. وعبْرَ تاريخِه القصير نسبيا والغني في الوقت ذاته، فإن بحث الإنترنت هو الذي رسم معالم النقاشات المكثفة عن المستقبل الثوري والتحولي، وما تنطوي عليه الممارسات الافتراضية من تداعيات اجتماعية قد تسبب الأذى. وفي حين أن البعض قد يزعم أنه يمكننا الآن إعلان نهاية «المبالغة الحوسبية» cyberbole(*) (Woolgar, 200)، فإن هدف هذه المجموعة لا يتمثل في تلخيص هذه الأدبيات والمناقشات أو تقييمها. فاهتمامنا بوصفنا علماء اجتماع دفعنا إلى الاستفسار عن موقع هذا المجال البحثي ضمن مشهد العلوم البينية المتداخلة. وقد نتجت هذه المجموعة عن فضولنا حول السبل التي كان يتعامل بها علم الاجتماع مع ما نرى أنه حقبة جديدة في بحث الإنترنت. وانتشار صنوف التكنولوجيا الرقمية المعاصرة والتآلف معها بحد ذاته يعنيان أن مجالات البحث الاجتماعي قلَّما تُوجَد بمعزل عن شكل من أشكال التجلي الرقمي. ولم يعد بحث الإنترنت مجرد دراسة لفضاء إلكتروني cyberspace غريب، أو غامض، أو مستقل، فلقد شعرنا بالاستياء والحيرة من كم الغموض وانعدام اليقين، الذي يواجهه علماء الاجتماع وهم يحاولون التفكير على نحو نقدي في نقاط التقاطع والتواصل والتدفق الجديدة بين المجالين الاجتماعي والرقمي. لقد ارتأينا أن تكون هذه المجموعة بمنزلة وقفة تخصصية أكاديمية للتفكير، وتقديم فضاء للتأمل حول الطرق التي تُسْتكشَف من خلالها الاهتمامات والملامح الأساسية لعلم الاجتماع وتفنيدها وتشكيلها وإعادة صياغتها من خلال طرق متنوعة وإبداعية.

(*) الادعاءُ المبالغ فيه بشأن تقدُّم تكنولوجيا المعلومات وتأثيرها في المجتمع، كالادعاء القائل إن الحاسب الآلي سوف يؤدي إلى إنهاء التعامل بالمستندات الورقية في مؤسسات العمل. [المترجم].

وبوصفنا علماءَ اجتماع مهتمين بعلم اجتماع التكنولوجيا sociology of technology وبتكنولوجيات المجال الاجتماعي technologies of the social، فإن هذه المجموعة تشكَّلت من خلال التساؤلات الموجودة لدينا حول طبيعة هذا الفرع المعرفي في العصر الرقمي: فهل المفاهيم السوسيولوجية السائدة لاتزال تفي بالغرض أو أنها تمددت إلى درجة فقدت معها شكلها عبر التطبيقات الجديدة والسياقات الاجتماعية المتغيرة؟ وكيف يمكن لعلم الاجتماع إعادةُ تقييم أفكاره الأساسية في مشهد من العلوم البينية المتداخلة؟ وإلى أي حد يُعتبَر «الخيال السوسيولوجي» أساسا كافيا يصلح لإجراء استقصاءات حول العوالم الرقمية digital worlds بالاستعانة بمؤشرات متداخلة بين المجالات المعرفية أو حتى عابرة لها؟ وإذا كان هذا المجال المعرفي ناقصا، فأي نوع من الاستعارات من مجالات معرفية أخرى، وأي نوع من التركيبات والتعارضات نتوقعها أو حتى نشجعها؟

إن مؤلفي الفصول المقبلة لديهم مهمة مفتوحة لاستكشاف هذه التساؤلات، ولذلك فإن هذه المجموعة تعج بالخطابات والحوارات المتنافسة. وتكشف هذه الفصول مجتمعةً الخلافاتِ والتناقضات والتحديات التي تواجه علم الاجتماع، وتؤكد تنوعَ هذا التخصص الأكاديمي والمجال الثري للنقاشات التي ستكون متاحة للبحث السوسيولوجي. وعلى الرغم من هذا التنوع فإن أحد القواسم المشتركة المهمة والرئيسة عبر هذه الفصول يتمثل في تأكيد حاجة علم الاجتماع إلى أن يتجاوز مفاهيميًّا التضادات الثنائية المتمثلة في الافتراضي/الواقعي، والتحول/الاستمرارية والتي تميز جزءا كبيرا من الجدل القائم. هذه النزعة الرجعية نحو الثنائية هي التي شكَّلت الأساليب التي نفهم من خلالها العلاقة بين التكنولوجيا والمجتمع والثقافة. إن روح هذه المجموعة إجمالا، والفصول على نحو فردي، تتمثل في التفكُّر في زيادة التآلف مع العالم الرقمي ودمجه في الحياة اليومية، ومقاومة النزعات الثنائية، وتسليط الضوء على الفوضى والترابطات في المشاهد الاجتماعية الرقمية الجديدة. إن هذه الفصول تعتمد بروح تأملية على غموض الثقافات الرقمية لاستقراء الطرق التي تعمل التكنولوجيا من خلالها على بلورة المجالات السوسيولوجية الأساسية، أو حتى تركها من دون تغيير.

وهناك عدد من الفصول التي تؤيد رؤية بير Beer وباروز Burrows (2007) حول الشيء الذي يشكل أساسا لعلم اجتماع وسائل التواصل الاجتماعي للجيل الثاني

من شبكة الإنترنت web 2.0، كما تؤيد تقديم وصفٍ أفضل وتفسيرات أكثر تفصيلا للمفاهيم والسياقات الجديدة التي تطرحها التكنولوجيات الرقمية:

نحن من أصحاب الرؤية القائلة إنه من الأفضل لهذا المجال الأكاديمي في المرحلة الحالية... أن يتبنى اهتماما متجددا في الوصف السوسيولوجي sociological description كما هو مطبَّق في التحولات الرقمية الجديدة للثقافة... في هذا الوقت الذي تتسارع فيه وتيرة التغير السوسيوثقافي، يبدو منطقيا بالنسبة إلينا أن نجدد التأكيد على الأوصاف السوسيولوجية الجيدة - النقدية والمميزة والغليظة - للظواهر الرقمية الطارئة، وذلك استباقا لأي اندفاع طائش باتجاه التحليل. نحن نحتاج إلى فهم بعض المعايير الأساسية للموضوعات الرقمية الجديدة للدراسة السوسيولوجية قبل أن نتمكن من تصنيف تلك الموضوعات بشكل مُرضٍ ضمن إطارات أوسع للمرجعية النظرية (11 :2007).

نحن نؤمن بأن هذا يظل هدفا صالحا وحيويا في خضم البحث لتفسير المفاهيم الجديدة والتعامل مع التحديات الجديدة التي تواجه المبادئ الحالية لعلم الاجتماع. ومن ناحية أخرى فإن مهمة النقد ليست بائدة، والفصول في هذه المجموعة تؤدي وظيفة الجسر الذي يصل بين الحاجات الوصفية والتساؤلات النقدية والتي تُعد حيوية بالنسبة إلى علماء الاجتماع الذين يحاولون فهم معالم هذا المجال العلمي.

وتَمثَّل أحد المواضيع المحدثة والمهمة في هذه المجموعة في التأكيد على استدامة الجانب المادي. وهذا الأمر يشكل عودة إلى الماديات، ليس فقط في إطار الأفعال الموقفية المعيشة، بل أيضا في التعامل «الغليظ» مع الأدوات والعمليات والممارسات التي ترتبط عادة بالحياة التي تتخللها التكنولوجيا الرقمية digitally mediated lives. وبذلك فإننا نعتقد أن هذه المجموعة عبارة عن منطلق استكشافي للنقاشات التي لا تهدف إلى تعزيز موقف أو تثبيت ادعاء معرفي، بل إلى تقييم لغات وأدوات مفاهيمية جديدة، يمكننا من خلالها استعراض خيالاتنا السوسيولوجية، وإثارة واستكشاف مجموعة من التساؤلات الجوهرية عن طبيعة علم الاجتماع في المرحلة ما بعد الرقمية.

تنقسم هذه المجموعة إلى خمسة أجزاء، يضم كل منها فصلين مترابطين، ويركز كل جزء على اهتمامات سوسيولوجية أساسية: العلاقات، والفضاءات، والبنى، واستخدام الوسائط، والممارسات. وهذه التوليفة لا تهدف إلى تقديم صورة شاملة للأجزاء الجوهرية لهذا المجال المعرفي، بل إن الهدف منها هو أن يُقرَأ كل فصلين مترابطين على أنهما حوار،

وأن يعمل النص بأكمله على تعزيز التفاعل عبْر بنية هذا المجال المعرفي. وبهذه الروح فإنه توجد في نهاية كل فصلين كلمة ختامية يجري من خلالها تأمل موضوع إعادة التفكير النقدي لهذه المجموعة وإثارة التساؤلات حول كيف يمكن لعلم الاجتماع أن يتذكر مفاهيمه الأساسية أو يعيد النظر فيها، أو ينقِّحها، أو يُزيل الشوائب منها، وذلك في ضوء الاستفزازات الرقمية.

العلاقات

يعالج الفصلان في الجزء الأول مجال العلاقات والحياة الشخصية في خضم عملية استكشاف للطبيعة الجندرية للمشاهد الرقمية. وتبسِّط جيميسون Jamieson، في إطار تأملها عملَها السابق الذي يحمل عنوان: «الحميمية: العلاقات الشخصية في المجتمعات الحديثة» Intimacy: Personal Relationships in Modern Societies (1997)، الثنائياتِ المتفائلةَ والمتشائمة والتي تتضافر في مناقشات التكنولوجيات الرقمية والحياة الشخصية التي تتخللها تلك التكنولوجيات. وفي إطار مراجعة السرديات التفاعلية الكلاسيكية للذات، في سياق مجتمع شبكي networked society، فإن هذا الفصل يقيِّم افتراض الحضور المادي المشترك في المقاربات النظرية القائمة لفهم العلاقات الشخصية. وعبْر تبني مقاربة نقدية نحو قدرات affordances الفضاء الإلكتروني لإنتاج أشكال جديدة من الحميمية و«الفردية الشبكية» networked individualism (Wellman et al. 2006) فإن جيميسون تُبين أهمية استمرارية الهرميات وعلاقات القوة حول الجنسانية sexuality والنوع الاجتماعي gender، مثيرةً التساؤلات عن التأثير التحولي للتفاعلات والعلاقات المحكومة بالوسائط. وهذا التحفظ من جانبها إنما يشير إلى الحاجة إلى الاعتراف بالاستمراريات النظرية للسرديات التقليدية للعلاقات الشخصية، أما دعوتها إلى تجديد الرؤى النظرية القائمة (بدلا من إخضاعها لعملية إصلاح شامل)، فإنها تؤكد الحاجة إلى الاعتراف بوجود سياقات تاريخية وعالمية ومحلية في الفهم السوسيولوجي للنوع الاجتماعي والهوية على شبكة الإنترنت.

ويطور كلٌّ من غرين Green وسنغلتون Singleton هذا الموضوع من خلال المحاججة بأننا نحتاج إلى النظر في الأساليب التي غالبًا ما يُخْفَى فيها النوع الاجتماعي

في النقاشات السوسيولوجية حول الشأن الرقمي. وفي معالجتهما لمسألتي «إضفاء النوع الاجتماعي» gendering على، و«وجود النوع الاجتماعي» gender-in في، التغير الاجتماعي والتكنولوجي، فإنهما يفحصان التحديات النظرية التي يثيرها المجتمع الشبكي، ويزعمان أن علم اجتماع التكنولوجيا يمكن أن يستفيد من الآراء والانتقادات التي قدمها علم الاجتماع النسوي feminist sociology منذ زمن بعيد. وعلى غرار جيميسون، فإن غرين وسنغلتون يناديان بالحذر النقدي في مواجهة السرديات التحولية الثنائية، ويؤكدان ضرورة أن يظل النوع الاجتماعي بمنزلة العدسة السوسيولوجية المهمة التي يمكن للمرء أن يفهم من خلالها العلاقات والبيئات المحكومة بالوسائط. وفي بحثهما التجريبي عن النشاط الاجتماعي الرقمي digital sociality يستخدم غرين وسنغلتون الهاتف النقال مثالا على السبل التي يمكن للتكنولوجيا من خلالها تحديد معالم علاقات النوع الاجتماعي وكشفها، فضلا على كونها تقنية تتيح الطرق الكفيلة بـ «التعبير» عن الحميمية والانتماء.

إن كلا الفصلين يطرح تساؤلات مثيرة حول السبل التي يجري فيها إقحام التكنولوجيا في العلاقات الشخصية، وفي التوازن بين الفضاءات العامة والخاصة، وبين مجالات المنزل والعمل، كما أنهما يجبراننا على التفكر فيما قد تعنيه الحرية والرقابة بوصفهما جزءًا من الحياة اليومية الرقمية التي يُبْرَز فيها النوع الاجتماعي. ومن خلال صياغة هذه الأنواع من الأسئلة، فإن هذين الفصلين يقدمان المسارات المستقبلية الممكنة التي تمكِّن علم الاجتماع من استقراء تعقيدات صنوف الحياة والحميمية المحكومة بالوسائط.

الفضاءات

إن تغيُّر مفاهيم الفضاء والمجتمع والاتصال connectivity مارس دورا رئيسا في الجدال حول الفضاء الإلكتروني والأماكن الرقمية digital localities(*) والخرائط الافتراضية virtual cartographies. واعتمادا على المعلوماتية الحضرية urban informatics فإن الفصل الأول في هذا الجزء يتحدى التمايزات الوجودية بين «المكان» place و«التدفق» flow . وفي حين أن هذا الفصل لا يشكل بالضرورة

(*) الأماكن الرقمية عبارة عن بيئات افتراضية يتفاعل فيها الناس حول مواضيع معينة (مثل الدين والسياسة والصحة... إلخ)، وهي تشمل جميع الأشخاص المهتمين بالتفاعل حول هذا الموضوع أو ذاك، بغض النظر عن أماكنهم الجغرافية. [المحرر].

منطلقا سوسيولوجيا واضحا، فإن باروز وبير يبينان الأسباب التي تدفعهما إلى النظر خارج هذا المجال المعرفي بحثا عن معلومات مفاهيمية وتجريبية حول كيف يمكن لعلم الاجتماع فهم المكان والفضاء على نحو أفضل. واستنادا إلى أهمية بيانات المعاملات transactional data، والأشكال الجديدة من الثقافة الإلكترونية technoculture والممارسات الجديدة من إنتاج التكنولوجيا واستهلاكها، فإن هذا الفصل يحاول أن يبين أن التساؤلات السوسيولوجية عن المراقبة، والثقة، والخطر، والحراك mobility تُدفَع إلى الواجهة في النقاشات الجديدة حول النشاط الإنساني والفضاءات الافتراضية/المادية التي تتخللها الأجهزة المربوطة بشبكات الاتصال والموجودة في كل مكان. ومن خلال تسليط الضوء على العلاقات التي تزداد تعقيدا بين الأفراد والبيئات التي يسكنون فيها، والإنتاج التقني الاجتماعي للحياة اليومية، فإن باروز وبير يقترحان هدفا جديدا للتحليل الاجتماعي على هيئة «اللاوعي التكنولوجي technological unconscious» ويحثان على إعادة صياغة مفردات هذا المجال المعرفي ومقارباته المنهجية ومنظوراته التقليدية تجاه الحياة الحضرية.

يعالج الفصل الثاني في هذا الجزء المفهوم العابر والمتغير للمجتمع المحلي community. وتزعم إيفانز Evans أن الفضاءات الرقمية والتكنولوجيات، بدلاً من أن تصبح أدوات تحولية للأشكال الجديدة للمجتمع الكوني، فإنها استنسخت التشكيلات والشبكات الاجتماعية قديمة العهد. وتعالج إيفانز النقاشات المبكرة حول الاحتمالات المثالية التي يتيحها الفضاء الإلكتروني لتشكيل المجتمع وتستخدم فكرة المجتمع كأداة نقدية لإثارة التساؤلات عن كيف يمكن لعلم الاجتماع فهم الاتصال الذي يحدث بواسطة الحاسب الآلي computer mediated communication (CMC)، والعلاقات الاجتماعية المحكومة بالوسائط. وتزعم إيفانز أنه إذا كانت تكنولوجيا الاتصال قد صاغت مجتمعات جديدة ذات اهتمام وارتباط وانتماء مشترك، فإنها عزَّزت أيضا الحواجز والمواقع والثقافات الاجتماعية السائدة. وفي سياق اعتراضها على الآمال التي انتعشت في السابق حول الابتكار والتحرر في الفضاء الإلكتروني، تطرح إيفانز تساؤلات مثيرة عن معنى المجتمع في بيئات الترفيه والاستهلاك والإعلان عبر الإنترنت، حيث يزداد طمس الحدود الفاصلة بين وسائل الإعلام والرأسمالية الرقمية. وفي نقدها للطبيعة المنقسمة و«الهشة» للاتصال عبر

الإنترنت، تزعم إيفانز أن مهمة علم الاجتماع يجب أن تتمثل في إجراء مزيد من التفحص للأشكال الجديدة للنشاط الاجتماعي المرتبط بشبكة الإنترنت networked sociality، والتي كانت المسؤولة عن نقل مفهوم المجتمع إلى الواجهة وتفكيكه.

البنى

إن استمرار وإعادة إنتاج اللامساواة وعلاقات القوة والهرميات السائدة تُشكِّل موضوعات تتخطى هذه المجموعة، وتركز الفصول في هذا الجزء على البنى الاجتماعية من منظورين هما: اللامساواة البنيوية، ومثال تجريبي عن السبل التي تستطيع تكنولوجيات المعلومات من خلالها بلورةَ البنى الاجتماعية.

يعالج الفصل الأول قضية «الفجوة الرقمية» digital divide من خلال زعم أن التكنولوجيات، بدلا من فتح الشبكات المتاحة للاتصال وتأمين الفرص، تتمتع بالقدرة، ومن دون تدخُّل سياسي، على خلق اللامساواة في المجتمع ومفاقمتها. وفي إطار ملاحظة التمييز المفاهيمي بين مجتمع «الشبكة» ومجتمع «المعلومات»، يزعم فان دايك Van Dijk أن الشبكات الإعلامية والاجتماعية، التي تبلور صورة المجتمع، تتمتع بعدد من الخصائص البنيوية التي تسهم في اللامساواة التعليمية والاجتماعية والمادية. وبما أن فان دايك يتناول هذه الأشكال من اللامساواة بوصفها محطَّ اهتمام سوسيولوجي كلاسيكي، فإنه يشكك في سرديات الحداثة التي تميز النقاش حول الفجوة الرقمية بوصفها ظاهرة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتكنولوجيا. ومن خلال الخوض في قضايا تأمين التواصل، والبنى الاجتماعية، وعلاقات القوة، والفعل الفردي individual agency، فإن الرسالة التي يسعى هذا الفصل إلى توصيلها هي أن تكنولوجيات المعلومات والاتصالات ICTs تعمِّق اللامساواة القائمة وتعززها. وفي حين أن هذا الأمر يشير إلى وجود روابط قوية مع الاهتمامات السوسيولوجية القديمة، وفئات الاختلاف البنيوي والديموغرافي، فإن فان دايك يزعم أن التحليل الشبكي network analysis البديل يمكن أن يكون أكثر قيمة في تفسير اللامساواة اللامادية التي توجد في مجتمع المعلومات.

يستخدم الفصل الثاني مثال أسواق المال بوصفها مرآة يمكن من خلالها دراسة المفاهيم الاجتماعية للزمن والفضاء والثقافة والإمكان contingency. ومن خلال شرح الطابع التكنولوجي للأسواق، فإن هذا الفصل يتعقب التحولات السوسيولوجية

في فهم العلاقة بين المال والمعلومات، ويزعم أن المال، بوصفه موضوعا للدراسة، يمثل مجالا ثريا لاستكشاف الارتباطات بين تكنولوجيات المعلومات والاتصالات والاقتصاد والبنى الاجتماعية. ويعتمد باردو غيرا Pardo-Guerra على مفاهيم البنية والتدفق ليؤكد أن الأشكال الجديدة للمال تقدم أمثلة مثيرة عن كيفية إقحام التكنولوجيات في تنظيم التفاعل وإنتاج المعرفة (المعارف) والتطور المشترك للممارسة والتنظيم. ويثير هذا الفصل بالنسبة إلى علم الاجتماع تساؤلات مواتية عن البنى الاجتماعية المادية واللامادية، كما يشدد، من خلال استحضار مضمون بعض الفصول الأخرى الموجودة في هذه المجموعة، على الحاجة إلى تجاوز الثنائيات الرقمية/التناظرية التي فشلت في وصف الفروق التجريبية الدقيقة بين البنى الاجتماعية.

استخدام الوسائط

يقدم الفصل الأول في هذا الجزء مثالا على كيفية إعادة التكنولوجيا تشكيل مشاهدنا الإعلامية وتغيير دور الفاعلين الاجتماعيين social actors في الأشكال الجديدة لاستخدام الوسائط الرقمية digital mediation. واعتمادا على استخدام المواطن العادي للوسائط الاجتماعية، يستخدم ألن Allen وماثيسون Matheson التحقيق الصحافي للحرب لاستكشاف الطرق التي يمكن لعلم الاجتماع أن يفهم من خلالها أوجه التقارب بين الوسائط القديمة والجديدة. ومن خلال استقصائهما لثنائية التقارير «الاحتفالية» و«الاستنكارية» عن التكنولوجيا والتوافق الرقمي، فإنهما يركزان على الاحتمالات الاجتماعية والجوانب المادية لاستخدام الوسائط التكنولوجية. ومن خلال تناوله للأسئلة التي تخص الجانب الافتراضي، والخطورة والجوانب المادية الجديدة، فإن هذا الفصل يقدم مثالا رئيسا لحاجة علم الاجتماع إلى الوصف المفصَّل والمفردات النقدية والأكثر دقة من أجل فهم طبيعة التغير التكنولوجي.

ويركز الفصل الثاني في هذا الجزء على طبيعة الشبكات في المجتمع المحكوم بالوسائط mediated society، ويلتقي مع ألن وماثيسون في الاهتمام بإعادة النظر فيما نقصده بعبارة «محكوم بالوسائط»، ويدعو إلى إعادة تصور الطرق التي نفهم من خلالها الشبكات الرقمية والاجتماعية. وتزعم كافانا Cavanagh، من خلال

الإشارة إلى التاريخ الطويل لعلم الاجتماع في كشف الطرق التي تتشكل أو تتمثل من خلالها الظواهر الاجتماعية، أنه يمكن النظر إلى الإنترنت كعدسة فريدة من نوعها يمكن من خلالها استكشاف الرأسمالية المتأخرة late capitalism والسرديات السائدة للشبكات، بيد أنه لا يمكن تعميم ذلك على كل الشبكات الاجتماعية. وتجدر الإشارة إلى أن كافانا تشير، في سياق هذه المجموعة، إلى أن الخطاب الشعبي يتمتع بطبيعة مشتركة عبر المجالات الأكاديمية بخصوص التحليل الشبكي، كما تنظر في الطريقة التي يمكن أن يؤدي بها ذلك إلى إثراء البحث السوسيولوجي في هذا المجال. وعلى غرار بعض الفصول الأخرى في هذه المجموعة، تشير كافانا إلى الافتقار إلى الوضوح المفاهيمي حول أساليب التعريف الإجرائي للمصطلحات عبر هذا المجال الأكاديمي، وذلك على الصعيدين المنهجي والتجريبي، ثم تطرح السؤال التالي: «ما معنى أن ننظر إلى المجتمع بوصفه شبكة؟» من خلال تفحص مضامين أشكال الفهم السوسيولوجي والسوسيوتقني socio-technical للشبكات، فإن هذا الفصل يبحث في الطرق التي يسعى من خلالها علم الاجتماع إلى تصور الأساليب التي تتمكن من خلالها الوسائط والبنى الجديدة من الربط بين الفاعلين الاجتماعيين.

الممارسات

يعالج الجزء الأخير من الكتاب الممارسات الاجتماعية في التعليم والصحة على المستوى الرقمي. وبما أنه كان ينظر إليهما تقليديا على أنهما بنيتان أساسيتان في المجتمع، فإننا اعتمدنا على فكرة الممارسات في الفحص النقدي للطرق التي أخذ من خلالها التغيير والابتكار التكنولوجي يتحدى، شيئا فشيئا، الفهمَ التقليدي للتعليم والتعلُّم والرعاية الصحية.

ولقد تناول سيلوين Selwyn في حينه النقاشات حول دور الدولة والاقتصاد، وسبل التعلم الشخصي، إذ يزعم أن علم الاجتماع له دور نقدي يمكن أن يؤديه في تحليل الأنماط «الجديدة» للتعليم والتعلم، والتي أُعيدت صياغتها من خلال التكنولوجيات الرقمية. كما ألقى سيلوين الضوء على التأكيد المتزايد على الفرد وعلى تجارب التعلم التشاركية والتعاونية والمحكومة بالوسائط والتي تتبع منطق الجيل الثاني من شبكة الإنترنت للشبكات غير الرسمية لإنتاج المعرفة واستهلاكها.

على رغم ذلك فإنه يعارض السرديات التحولية للتغير التعليمي-التكنولوجي في تسليط الضوء على تحصين الممارسات القائمة في التعليم والتعلُّم واستمراريتها. وفي هذا الإطار فإن هذا الفصل يلقي الضوء على أكثر الموضوعات أهمية في هذه المجموعة؛ فمن المهم جدا بالنسبة إلى علم الاجتماع أن يتوقف للتحليل والتأمل، ويتجاوز المقاربات المثالية والبائسة للتكنولوجيات الرقمية، ويعترف بالواقع الفوضوي للتأثيرات والممارسات والبيئات السوسيوتقنية المتغيرة.

وفي الفصل الثاني من هذا الجزء يُسْتَعرض أحد نماذج هذا الواقع الفوضوي عندما تسلط كيفيتز Kivitz الضوء على الطبيعة المتنوعة والمتنازع عليها والجامعة لأكثر من تخصص أكاديمي لما يسمى «الصحة الإلكترونية» e-health. وبإجراء مقارنة بين الرؤية الطبية والرؤية السوسيولوجية، تثير كيفيتز قضايا مشابهة لتلك التي أثارها سيلوين حول النماذج الجديدة لإنتاج المعلومات واستهلاكها. وفي سياق الصحة فإن ذلك يفرض تساؤلات حول الفعل، والثقة، والقوة، والخبرة في وقت تشهد فيه العلاقة المعروفة تقليديا بين الطبيب والمريض ونظرية دور المريض تحديات من خلال النماذج الجديدة للبحث عن المعلومات الصحية عبر شبكة الإنترنت.

وتزعم كيفيتز أن الأبحاث عن الإنترنت والصحة والمرض قد قدمت لعلم الاجتماع فرصا لإعادة تقييم موضوعات دراسته التقليدية، وتشير إلى الطرق الجديدة المحكومة بالوسائط لممارسة العمل في المجال الصحي وفهمه. ومن ناحية أخرى تعكس كيفيتز تأكيد الفصول الأولى على الحاجة إلى مقاربة تتسم بقدر أكبر من الحذر والنقد تجاه التجارب والسياقات الخاصة بممارسات الصحة والمرض المحكومة بالوسائط على المستوى الرقمي، وتؤكد أن علم الاجتماع المعاصر للصحة والمرض يجب أن يوسع مجال الفاعلين الاجتماعيين المعنيين في هذه العلاقات والسياقات المتغيرة.

وبوجهٍ عام نحن ننظر إلى هذه المجموعة بوصفها لحظة تأمل واعٍ لتقييم سلسلة من المزاعم والمزاعم المضادة والمفاهيم في بحوث الإنترنت. وفي حينٍ أنه كان هناك العديد من المجموعات والإسهامات المهمة بخصوص النقاشات حول جوانب معينة من الإنترنت والتكنولوجيات الرقمية وتكنولوجيات المعلومات والاتصالات، فإن أيا منها لم يعمد إلى متابعة منظمة لما هو مميز (أو غير مميز) حول استجابة

علم الاجتماع. ونحن نأمل أن يقدِّم الحوار المتاح هنا للباحثين فرصةً للتفكير في دور علم الاجتماع في الرد على النقاشات المستجدة حول طبيعة الجوانب الاجتماعية والثقافية والتقنية وانتقادها والتأثير فيها، وذلك في سياق البيئات التي تتخللها التكنولوجيا الرقمية digitally mediated environments.

الباب الأول

العلاقات

العلاقات الشخصية والحميمية والذات في عصر رقمي كوني محكوم بالوسائط

لين جيميسون

مقدمة

قلَّما يختلفُ أحدٌ معَ روجر سيلفرستون Roger Silverstone على أن تعرُّضَ معظمِ الأفرادِ لمحتوى وسائل الإعلام بأشكالها المختلفة على نطاق شبه عالمي يؤثر بنحوٍ خفي في جزء كبير من الأفعال الاجتماعية والمعتقدات ويقيدها (Silverstone, 1994: 133). وهناك قدر أقل من الإجماع بشأن التحديد الدقيق لطبيعة هذا التأثير، لاسيما في مجال الحياة الشخصية. ويتناول هذا الفصل أهمية أشكال الاتصال والحميمية عبر الوسائط الرقمية في العلاقات الشخصية. وكانت أعمالي التي نُشرت في تسعينيات القرن الماضي قد سعت إلى فك التشابك بين المزاعم المتناقضة بشأن التغير الاجتماعي والذاتية

«عندما تستمرُّ العلاقاتُ عبْر الإنترنت بين من كانوا غرباء في البداية فترات مطولة، فإنها في الأغلب تبدأ في اتخاذ شكل الصداقة التي تتطور خارج الإنترنت»

selfhood ونوعية العلاقات الشخصية، وإعادة ربط النظرية بالأدلة التجريبية. وكان المتفائلون المشتركون في النقاش آنذاك، ويمثلهم أنتوني غيدنز Anthony Giddens، يرون أن العلاقات الشخصية تتحول إلى مشاريع أكثر عمقا وتنطوي على قدرٍ أكبرَ من التعاون من الناحية الديموقراطية؛ حيث يسعى الناس إلى الاحتماء بالحميمية في هذه العوالم المتغيرة بسرعة. أما بالنسبة إلى المتشائمين، والذين يمثلهم زيغمونت باومان Zygmunt Bauman وأولريتش بيك Ulrich Beck، فإن قوى التغير السريع المذكورة كانت تعمل على تآكل العلاقات الشخصية، فتجعل الحميمية مبتذلة وتافهة وهشة للغاية. كما تسيطر المواقف المتفائلة والمتشائمة المبالغ فيها على المناقشات المتعلقة بالتكنولوجيات الرقمية والحياة الشخصية اليومية، وفي كلتا الحالتين تُقحَم النظريات الخاصة بالذاتية والتغير الاجتماعي.

عندما نُشر كتاب «الحميمية: العلاقات الشخصية في المجتمعات الحديثة» أولَ مرة، ظهرت مراجعة نقدية له اشتكى الكاتب فيها من أن مواضيع الجنس عبْر الفضاء الإلكتروني cybersex والاتصالات الحاسوبية computer-mediated communication قد حُذفت منه. كما تحدث كاتب تلك المراجعة بإسهاب عن الفرصة الضائعة، وهي أن الكتاب كان ينبغي أن يتناول التكهنات الشائعة من ناحية، مثل «التراجع المحتمل لممارسة الجنس عبر التلامس الجسدي واكتساب الجسد أبعادًا جديدة»، وتراكم الأدلة الجديدة بشأن تأثير الإنترنت في الحياة الشخصية من ناحية أخرى. وقد أشار كاتب المراجعة، من خلال تقديم الأمثلة إلى «أن البيانات تشير بالفعل إلى أن التواعد عبر الإنترنت cyber-dating يمكنه تقليل خطر الأذى العاطفي الذي تتعرض له الفتيات» (Stevenson, 1999: 849). وفي الوقت نفسه كان هناك تباكٍ على الصمت بشأن نظرية أحرار الجنس queer theory، و«إشكالية النوع gender trouble»، والتنظير لما بعد الحداثة، وربما كان ذلك يشير أيضا إلى الطريقة التي كان ينظر بها كاتب المراجعة إلى الأدوات النظرية المناسبة لتحليل الاتصالات باستخدام الحاسوب. في ذلك الوقت، وعلى الرغم من أنني كنت مهتما بهذه التيارات النظرية، فإنني كنت أنفر بقوة من أخذ التكهنات المثيرة بشأن الجنس الإلكتروني على محمل الجد. كما كنتُ أرى أن مجموعة الأدلة التي تتناول بالتفصيل تأثير الاتصالات الحاسوبية في العلاقات الشخصية باعتبارها واهية نوعا ما، سواء بصفة عامة أو فيما

يتعلق بالمثال المحدد بشأن التواعد عبر الإنترنت. وربما كنتُ أزعم أيضا أن القضايا الضمنية المحيطة بالنوع، والجنسانية، والهوية، والتجسيد، والثقة قد تُنووِلت بالتأكيد وبنحوٍ موسع في جميع أنحاء الكتاب، جنبا إلى جنب مع العلاقة بين الخطاب والممارسة اليومية، باعتبارها أحد جوانب موضوعي المتعلق بالحميمية. وعلى الرغم من ذلك فقد كان كاتب المراجعة أساسا على حق؛ حيث إنه كان يجب التطرق صراحةً إلى أسئلة نظرية أكثر تحديدا بشأن الدور الذي تضطلع به تكنولوجيات العصر الرقمي في تحولات العلاقات الشخصية والحميمية والذات. وبالمقارنة مع ما كان عليه الوضع في العام 1998، فإنه من الأسهل الاضطلاع بذلك الآن بسبب وجود مجموعة أكبر من البيانات التجريبية ذات الصلة للمساعدة في تقديم الإجابات (Valentine,2006).

ويتلاقى الجدل حول الحميمية مع المخاوف النظرية والتاريخية الأوسع نطاقا مثل: التصورات المتعلقة بالذاتية و«الذات» وبطبيعة التغيير الاجتماعي. وفي القسم الأول أؤكد أن التفسيرات التفاعلية الكلاسيكية للذات، مع بعض التجديد، يمكن أن تظل ملائمة للأغراض النظرية في العصر الرقمي، على الرغم من أنها - أي الذات - تبدو وكأنها تتجاهل العلاقات الشخصية وجها لوجه باعتبارها ضرورات وجودية. كما أتطرق إلى الانسجام الأفضل كما يبدو بين «مجتمع الشبكة» والتأكيد النظري على الذوات التي تتشكل بواسطة الخطاب وليس من خلال العلاقات. وفي القسم الثاني أعود إلى التحليل السابق للكيفية التي يقوم بها الأشخاص بإنشاء العلاقات الحميمية والحفاظ عليها لإعادة النظر في التفاعلات التي تترافق معها وتكون محكومة بالوسائط الرقمية على صعيد ممارسات الحميمية (Jamieson, 2011). وفي الأقسام الأخيرة، ألقي نظرة سريعة على الأدبيات التجريبية، بدءا بتلك التي تتناول العلاقات التي يحدث تخيلها وتكوينها من خلال الوسائل الرقمية، ثم أنتقل إلى تلك التي تتحدث عن تدخل الوسائط الرقمية بالعلاقات التي تتمتع في الوقت نفسه بسجل من اللقاءات المباشرة وجها لوجه.

التنظير للذات في العصر الرقمي

يحتل التفاعل وجها لوجه face-to-face interaction والعلاقات الشخصية مكانة متميزة في مختلف فروع علم النفس، وكذلك في علم الوجود ontology

وعلم المعرفة epistemology المرتبطَين بتقاليد التفاعلية الرمزية symbolic interactionism (Mead, 1934) وعلم الظواهر Phenomenology (Schutz, 1932)، فالتفاعلات الاتصالية المكثفة والمستمرة وجها لوجه ينتج عنها شعور الذات بالفعل والاستقلالية، فضلا على الإحساس بعالم اجتماعي منظم معياريا ترتكز عليه الذات. ويرى ميد Mead أن التفاعل مع الآخرين المجسدين في الطفولة هو الذي ينتج عنه حوار داخلي مع «الآخر المعمم» genrelised other. فأهمية التفاعل الجسدي والعاطفي من أجل رفاهية الأطفال وأهمية الحفاظ على الأمن الوجودي تحظى بالقبول على نطاق واسع في العلوم الاجتماعية، وتظهر جليا في علم النفس، حيث يعاني الناس ضررا طويل المدى إذا كانت طفولتهم تفتقر إلى واحدة أو أكثر من علاقات الحب التي توفر الاتصال الجسدي والرعاية المصحوبة بالاهتمام. (يُستخدم الأمن الوجودي هنا بمعنى أمن الإحساس بالذات والثقة في استمرارية وجود المرء في العالم. ومن المعروف أن هذا المصطلح استُخدم أول مرة من قبل غيدنز (1984)، الذي اعتمد على مجالات الطب النفسي وعلم النفس التحليلي، ولاسيما إريكسون Erikson (1963) وسوليفان Sullivan (1955). وقد كان مفهوما أساسيا عند لينغ Laing (1960)، كما اقتُبس بشكلٍ مختصر من قبل غيدنز، الذي أُعيد تقييم إسهاماته في مجال علم الاجتماع أخيرا من قبل سكوت Scott وثورب Thorpe (2006). ويستمر العديد من العلماء الاجتماعيين المعاصرين الذين يكتبون عن الذاتية أو الحياة الشخصية أو كلتيهما في الاعتماد على علم النفس التحليلي والتفاعلية الرمزية وعلم الظواهر، حتى لو بنحوٍ انتقائي وليس حصريا. وعلى مدى العقود الماضية، شُرحت رؤاهم الأساسية وأُضيف إليها من خلال مقاربات أخرى أكثر اهتماما بقضايا النوع الاجتماعي والقوة واللامساواة. ولاتزال العلاقات المباشرة والمستمرة والمشحونة عاطفيا مع العائلة والأصدقاء الذين يعيشون معا أو يوجدون معا في أغلب الأحيان تتمتع بأهمية كبيرة في بعض فروع النظريات المعاصرة، على اعتبار أن هؤلاء يشكلون الفئة الأبرز من «الأشخاص المهمين في حياة المرء» significant others الذين يسهمون في بلورة الإحساس بالذات، لاسيما في مرحلة الطفولة، أما بقية الأشخاص فيحظون بدرجة أقل من الأهمية (Berger and Luckmann, 1966). وإذا كانت العلاقات الشخصية

تتعرض بنحوٍ متزايد للتدخل من قبل الوسائط الرقمية، فهل فرضيات الوجود المشترك هي التي تحتاج فقط إلى التعديل، أو أن ذلك يشير إلى الحاجة إلى فك الترابط نظريا بين تكوين الذات والعلاقات الشخصية المباشرة؟

إن الأهمية النظرية للعلاقات المباشرة بين الأشخاص بالنسبة إلى تشكيل الذوات والعوالم الاجتماعية قد أصبحت موضع شك بفضل بعض التطبيقات العملية لأعمال ميشيل فوكو Michel Foucault التي بُنيت على تحليل الفترة التاريخية الممتدة منذ عصر التنوير، ما يعني أنها سبقت الثورة الرقمية بفترة طويلة. وعلى الرغم من أن الأنشطة العملية للآباء الذين يعتنون بالأطفال تظهر في وصف فوكو Foucault للإنتاج الاجتماعي للأجسام ذاتية الانضباط social production of self-disciplined bodies (Foucault,1978) فإن الجانب المتعلق بتنظيره، والذي كان له تأثير خاص، يتمثل في توصيفه لقدرة الخطاب على تشكيل الذوات، ولاسيما الخطاب باعتباره معرفة غير متحيزة وموضوعية وناجمة عن الخبرة، وهو موضوع تناوله نيكولاس روز (Rose, 1966) Nicholas Rose. ويقود روز نوعا من التنظير الذي يقوم فيه الخطاب المحكوم بالوسائط، وليس العلاقات بين الأشخاص، بالتصدي بقوة لتشكيل الذوات، ولهذا فهو ليس في حاجة إلى الفصل بين تلك الدائرة الداخلية من الأشخاص المقربين الذين يُعرفون بـ «الأشخاص المهمين» وبين «الأشخاص الأقل أهمية». وعادة ما يتفادى مستخدمو هذا النوع التمييز بين العمليات التي تخلق أدوات الإحساس بالذات في مرحلة الطفولة المبكرة وعملية حفاظ المرء على طبيعته في مرحلة البلوغ.

وقد ربط مانويل كاستيلز Manuel Castells، الذي كتب في هذا الموضوع بالتزامن مع روز، ظهورَ الإنترنت بنمط تشكيل العلاقات التي أطلق عليها باري ويلمان Barry Wellman فيما بعد اسمَ «الفردية الشبكية» (Wellman et. al., 2006). وعرَّف كاستيلز «الفردية» بوصفها مشاريع وعلاقات ذاتية التوجيه (وليست موجهة من خلال التقاليد)، مشيرا إلى أنها «تجد في الإنترنت التكنولوجيا الملائمة لها للتعبير والتنظيم» (2002: xxx–xxxi). ويشير مصطلح «الفردية الشبكية» إلى حدوث تحول تاريخي في التأكيد الذي انتقل من الولاءات طويلة المدى بين العائلة والأصدقاء والمجتمعات القائمة على المكان إلى الشبكات الاجتماعية الأكثر انتشارا

وتغيرا. إن التعارض التلقائي الضمني بين الولاءات لطبيعة أكثر رسوخا على مستوى العلاقات وبين شكل خاص من «الفردية» هو عبارة عن مناورة قديمة مفتوحة للتحدي على المستويين النظري والتجريبي (Jamieson, 1987, 2005). ولا يعتبر كاستيلز ولا ويلمان راديكاليين مثل روز في تصريحاتهما النظرية المتعلقة بعدم أهمية العلاقات الشخصية المباشرة، لكنهما أوضحا أن شبكة الإنترنت ساعدت في تحويل تركيز النمو الفردي والاجتماعي بعيدا عن الروابط القوية وتوجيهه نحو الروابط الضعيفة (Granovetter, 1973). وفي تركيزه على الشبكات، فإن ويلمان قلما يكترث بكيفية اكتساب قدرٍ كافٍ من الأمن الوجودي من أجل تحضير الناس للاتصال النشط بالإنترنت ليتمكنوا من «الازدهار، أو حتى البقاء على قيد الحياة بنحوٍ مريح»، نظرا إلى أنه لا يمكن التعويل على اضطلاع أي جماعة أو جيران أو عائلةٍ بـ «العناية بالأشياء من أجلهم» (Wellman et. al., 2006: 164-165).

لقد كانت رؤية فوكو Foucault لتشكيل الذوات من خلال فرض الرقابة الذاتية على الأداء منسجمة مع التقارير النسوية للبناء الاجتماعي للنوع والجنسانية، على الرغم من أن هذه التقارير كُتبت وفق التقاليد النظرية التي تؤكد التفاعل في العلاقات الحميمة والمباشرة بوصفها محطات رئيسة للتواصل الاجتماعي، بدلا من التوجه نحو الخطاب المحكوم بالوسائط. كما برز تركيز مختلف على مرونة الذوات fluidity of selves والهويات والأداء في العمل الفلسفي للباحثة جوديث بتلر Judith Butler (1990)، من دون أي اعتراف يُذكر بهذه التقاليد التفاعلية. ومن خلال علم اجتماع المعرفة العلمية، ربطت دونا هاروای Donna Haraway بين المرونة الراديكالية للذات والتطورات التكنولوجية في إعلانها الذاتي بأنها عبارة عن «كائن سايبورغ» cyborg(*)، وفي دعوتها إلى تسخير القدرات التي توفرها التكنولوجيات من أجل الأداء النسوي (Haraway,1997; Wajcman, 2004). ولا تعود العلاقات الحميمة والمباشرة تحظى بأهمية نظرية تُذكر في هذا الجزء من الكتابة عن الذوات، حيث تبقى أهميتها في التجربة المعيشة بعيدة عن الأنظار نظرا إلى أن الاهتمام قد انتقل إلى الجانب المعزز تقنيا والمحكوم بالوسائط.

(*) كائن سايبورغ إنسان مسيَّر آلي يتكون من مزيج من واقع اجتماعي وقصص خيالية. [المترجم].

ويوجد كثير من المنظِّرين الذين لهم موقف معتدل بين هذه المواقف ويعترفون بقوة الخطاب المحكوم بالوسائط في صياغة الهويات المتعددة والمتغيرة من دون إنكار أهمية العلاقات الحميمة والمباشرة بالنسبة إلى الأمن الوجودي. ومن الممكن الاعتراف بالفضل للتفاعلية الرمزية أو لعلم الظواهر والانتباه لقوة الخطاب، ومن أمثلة هؤلاء عالم النفس الاجتماعي بيتر هيويت (2007) Peter Hewitt والمؤلفة النسوية دوروثي سميث (1987) Dorothy Smith. ويشير المدافعون عن التقليد التفاعلي إلى أنه ليس من الضروري أن يؤول هذا التقليد بشكل يتعارض مع مرونة الذوات. ويمكن العثور على الإحساس بالذات بوصفها مرنة ومجزأة في أعمال ميد: «يرى ميد ومعظم الذين يتبعون هذا التقليد أن هناك أنواعا مختلفة من الذوات التي تتطابق مع مختلف أنواع ردود الأفعال الاجتماعية المختلفة» (Mead, 1962: 142; Holmes, 2010: 145). وهذا يتماشى مع الكتابات التفاعلية لدى برغر Berger ولكمان (1966) Luckmann، بشأن الخطاب المحكوم بالوسائط الذي يشكل جزءا من «الأشخاص الذين ليس لديهم تأثير قوي» والذين يؤدون دورا داعما في الحفاظ على الإحساس بالذات، وربما هذا يشمل إعادة تنشيط «الآخر المعمم» (Holdsworth and Morgan, 2007). وهذا يتلاءم مع ذلك النوع من الدراسات الإعلامية، الذي يجسده تحليل مورلي Morley (1986) للتلفزيون ووسائل الترفيه المنزلية، والذي يقر بأهمية العلاقات الشخصية لكيفية تناغم الناس مع الخطاب المحكوم بالوسائط وسماعه وتفسيره. ولكن إذا انضم الخطاب المحكوم بالوسائط وغير المجسَّد إلى «الأشخاص الذين ليس لديهم تأثير قوي»، فإنه قد يتسلل إلى الكيفية التي يتخيل بها جميع الأطراف علاقاتهم ويخططون لها ويؤدونها. على الرغم من ذلك، فإن «الأشخاص المهمين في حياة المرء»، والذين يقيم معهم علاقات متجسدة وشخصية، يستمرون في تأدية الدور الرئيس. لكن في العصر الرقمي، فإن طريقة أداء هؤلاء «الأشخاص المهمين» لدورهم تشمل الاتصال المحكوم بالوسائط بالإضافة إلى التفاعل المقترن بالوجود المشترك co-present interaction.

التنظير للحميمية في العصر الرقمي

استخدم أنتوني غيدنز مصطلح «العلاقة النقية» pure relationship (1990, 1991, 1992) لوصف العلاقات القائمة على ما أصِفُه بـ «الإفصاح عن الحميمية»

disclosing intimacy، وهي جدلية للإفصاح المتبادل عن الذات، وتقاسم الأفكار والمشاعر الداخلية. واستخدم غيدنز مصطلح «نقية» لأن استدامة العلاقة تعتمد فقط على رغبة المشاركين في الاستمرار بسبب المتعة المتبادلة فيها. ولا تعطي عناصرُ التعريف، في حد ذاتها، أيَّ أفضلية للتعايش المادي الذي تتميز به العلاقات التي تكون وجها لوجه. فهي في جوهرها تشير إلى حميمية الذات وليس حميمية الجسد على الرغم من أنها يمكن أن تتعزز من خلال الحميمية الجسدية. ومن الممكن نظريا ممارسة الإفصاح عن الذات عبر الإنترنت، بواسطة التكنولوجيا الرقمية، إما من خلال توليد شعور عابر من الحميمية بين الغرباء، وإما من خلال تطوير الحميمية في علاقة قائمة بالفعل وكانت قد بدأت بالوجود المشترك. وعندما تستمر العلاقات عبر الإنترنت بين من كانوا غرباء في البداية فتراتٍ مطولةً، فإنها في الأغلب تبدأ في اتخاذ شكل الصداقة التي تتطور خارج الإنترنت (Chan and Cheng, 2004)، ولكن هذا التقارب غالبا ما ينطوي على تبني وسائل تواصل إضافية خارج السياق الرقمي الأولي (Baym, 2010). تشير الأبحاث إلى أن الإفصاح المتبادل عن المشكلات الشخصية في البيئات الإلكترونية المنشأة لهذا الغرض يوفر دعما عاطفيا فعليا (Miyata, 2002). ومع ذلك، وكما بينتُ باستخدام الأدلة البحثية عن الحياة اليومية للأصدقاء والمحبين والأزواج والعائلات والأقارب (2005، 1999، Jamieson 1998)، فإن «العلاقة النقية» توجد في الحديث عن العلاقات بنحوٍ أقوى مما يوجد في العلاقات الاعتيادية. ففي العلاقات الاعتيادية لا يُعتبر الإفصاحُ المتبادل الطريقةَ الوحيدة لتثبيت الحميمية، وقد لا يكون دائما طريقة كافية للحفاظ على علاقة حميمة. بالإضافة إلى ذلك، وعلى الرغم من أن العلاقات التي تتكون من بُعد يمكن أن تكون علاقاتٍ حميمة ذاتَ مغزى، فإن الوجود المشترك يُعتبر، بالنسبة إلى بعض الطرق التي يولِّد بها الأشخاص الحميمية، جانبا أكثر أهمية من «الإفصاح عن الحميمية»، مثلما يحدث عندما يمضي الأشخاص الوقت معا ويهتمون بعضهم ببعض من خلال الأفعال العملية ويظهرون المودة جسديا.

أحد أشكال الوجود المشترك، والتي تُعدُّ ممارسة للحميمية في حد ذاتها، تتمثل في اختيار قضاء بعض الوقت معا للاستمتاع بالبهجة التي يمنحها هذا الوجود المشترك. فالوجود معا يمكن أن يعبِّر عن الحميمية ويفعِّلها في الوقت ذاته. كما أن

إعطاء الأولوية لهذا الوقت وتفضيله على بقية الأوقات والسعي إلى جعله «أجمل الأوقات» هي جميعها طرق للتعبير عن الحميمية. ويمكن أيضا أن يزداد الشعور بالحميمية من خلال تمضية الوقت معا، فضلا على أن الوجود المشترك يمكن أن يفضي إلى مزيد من ممارسات الحميمية، مثل الإفصاح عن العلاقة الحميمية، أو القيام بأفعال عملية تنم عن الاهتمام. وتكشف الأبحاث ذات الصلة عن حالات يدعي فيها الأزواج المَحبة والمعرفة المشتركة والتفاهم المتبادل العميق، على الرغم من ملاحظة أنهم قلما يحتاجون إلى التحدث، وأن الأحاديث التي تدور بينهم قليلة جدا. مثل هؤلاء الأزواج يتواصلون بالنظرات ولغة الجسد والروتين اليومي المشترك وأفعال الرعاية العملية. إن عمق التعاطف والحب الذي يصل إليه بعض الأزواج من خلال الوجود الجسدي المشترك، على الرغم من قلة الكلام المتبادل فيما بينهم، يبدو مستبعدا أن يُستنسخ «بصمت» أخرى في ظل وجود مشترك افتراضي وغير مجسد يعتمد على مخزون الإيماءات والهدايا الإلكترونية مثل «النكزة» أو «مشاركة الحب» أو خيارات «إرسال...». العديدة التي تقدمها مواقع شبكات التواصل الاجتماعي وألعاب المحاكاة المرتبطة بها. وقد يؤدي تطوير استخدام الرموز التعبيرية، مثل الوجوه المبتسمة التي طُورت لتُستخدم في الرسائل النصية، إلى إضافة إحساس وعمق عاطفي بين المحترفين في مجال الرسائل النصية والبريد الإلكتروني (Barker, 2007) ولكن يبدو مستبعدا أن يكون لها مفعول كبير وحدها. فهذه الإيماءات الرقمية لاتزال تبدو محدودة مقارنة بالفرص التي تفضي إلى تطوير شعور لدى الناس بأنهم يعرفون بعضُهم بعضا بعمق، والتي تُتاح لفئة قليلي الكلام الذين يعيشون بتعاطف واهتمام جنبا إلى جنب. إن تمضية الوقت معا باستخدام الوسائط الرقمية قد يضاهي إلى حد ما بناء علاقة من خلال تمضية الوقت معا عبر الوجود المشترك، ولكن من غير المحتمل أن يؤدي ذلك إلى الشعور بالحميمية من دون الإفصاح عبر وسائل التفاعل التي تتضمن الحديث، مثل غرف الدردشة والبريد الإلكتروني والمهاتفة عبر الإنترنت.

هناك عدة أنواع من العلاقات التي يمكن بناء الحميمية فيها والحفاظ عليها من خلال بعض الأفعال العملية المتمثلة في الاهتمام بالآخرين، أو تلبية احتياجاتهم أو تقاسم الأشياء معهم. ومن الممكن التنسيق بين الأفعال العملية المتمثلة في

العناية بشخص ما وبين التعبير عن الاهتمام بهذا الشخص عبر الإنترنت. على سبيل المثال تتحدث بارينياس Parreñas (2005) عن الأمهات الفلبينيات اللاتي يعشن في الخارج ويوفرن الرعاية الاقتصادية والعاطفية لأطفالهن الصغار والبالغين في موطنهم الأصلي من خلال وضع الأموال في حسابات مصرفية مشتركة، وإجراء مكالمات هاتفية روتينية، وإرسال الرسائل النصية الاعتيادية والطرود المحملة بالهدايا والاحتياجات الضرورية اليومية. كما تقدم الدراسات المتعلقة بالعائلات التي تعيش خارج حدود بلدانها أمثلة على الأشخاص الذين يقدمون الرعاية للأقارب المسنين من مسافات بعيدة. لكن من الواضح أن العلاقات التي تنشأ من بُعد لديها إمكانات محدودة لتقديم الرعاية العملية مباشرة. ففي الحالات التي يأمل فيها الناس الحصولَ على مساعدة عملية أو يترقبون مثل تلك المساعدة، فإن العجز عن الحضور لتقديمها قد يؤدي إلى تقويض الحميمية التي لاتزال الممارسات الأخرى تنجح في الحفاظ عليها. إن التأطير الثقافي لبعض العلاقات يتطلب، وبنحوٍ أقوى، «الحضور» بكل معنى الكلمة. على سبيل المثال لطالما هددت المفاهيم الذكورية بشأن السلوك المناسب لـ «الأمهات الصالحات» بتقويض جهود الأمهات الفلبينيات المهاجرات في رعاية أطفالهن من مسافة بعيدة.

الاتصال الجسدي يتطلب بالضرورة الوجود المشترك. فاللمس لا يحدث دائما في سياق علاقة حميمية، ويمكن بالطبع أن يكون عنيفا ومؤذيا. ومع ذلك غالبا ما يشير القرب واللمس الجسدي إلى مظاهر أخرى من الحميمية ويكملانها، بما في ذلك طرق أخرى لإظهار الاهتمام ومنحه. على سبيل المثال يمكن أن يكون التعبير عن الحميمية العاطفية من خلال العناق الذي ينم عن الحب أو عبر مزيد من اللمسات العابرة التي تعبِّر عن الارتياح. وهناك العديد من العلاقات المشحونة عاطفيا التي تنطوي حتما على الحميمية الجسدية. وهذا ينطبق على العلاقات بين الأطفال الصغار وأولياء أمورهم، أو المعتنين الرئيسين بهم. وعبر عديد من السياقات الثقافية، فإن مفهوم «الأم الصالحة»، وفي بعض الأحيان، «الأب الصالح» يعني الوجود الجسدي لإعطاء العناق الودي للأطفال والاهتمام العملي. وعندما يحتاج الناس إلى الاهتمام الجسدي، فإن تلقي وتقديم الأفعال العملية التي تنم عن العناية بالجسد من دون أي عناية بالشخص يمكن أن يُنظر إليه باعتباره يثير المشاكل من قبل الشخص

المعتني والمعتنَى به على حد سواء (Twigg, 2000). ويُذكرنا أوري (2002) Urry بأهمية التواصل البصري واللمس في تطوير الحميمية، من خلال زيادة إمكانات الاهتمام المتبادل وتسهيل تطوير الثقة. وحتى عندما تسمح الكاميرات الرقمية المتصلة بالشبكة للناس بأن يرى بعضُهم بعضا في الوقت الحقيقي من خلال الحديث عبر الإنترنت، فإن عمليات «التعرُّف» على شخص آخر باستخدام الوسائط الرقمية تشوبها عيوبٌ واضحة مقارنة بالعلاقات المباشرة. كما تنطوي الثقة بالآخَر غير المرئي على قدرٍ أكبر من المشاكل، وهو ما تحذر منه عادةً التعليماتُ بشأن آداب التعامل على الإنترنت netiquette (انظر أيضا: الدراما الوثائقية «سمكة القرموط» Catfish، العام 2010، من إخراج هنري جوست Henry Joost وأرييل شولمان Ariel Schulman).

وفي بعض الأحيان تُستخدم الحميميةُ على سبيل التلطيف اللغوي للإشارة إلى الاتصال الجنسي. إن العلاقة الجنسية المثالية النموذجية التي يُحتفى بها في الثقافة «الغربية» تجمع بين الحميمية الجسدية والعاطفية في «العلاقة». وقد استُخدم مصطلح الجنس عبر الإنترنت Cybersex بنحوٍ فضفاض جدا، ولكنه بدأ يقتصر شيئا فشيئا على الأشخاص الحقيقيين الذين ينخرطون في التفاعل الجنسي والشهواني بعضهم مع بعض، حيث يكون ذلك في أغلب الأحيان عبارة عن محاكاة لأحاديث الجنس، وفي الوقت الحقيقي غالبا ما ينطوي ذلك على استخدام البيئات المعدلة بواسطة الكمبيوتر والمعدة بوضوح لهذا الغرض (Attwood, 2009, Daneback et al., 2005, Waskul, et al, 2000, Waskul, 2002). وعلى الرغم من عدم وجود أرقام دقيقة بشأن استخدام الشبكة لأغراض مرتبطة بالجنس sex-related Web use، فإن الأدلة تشير إلى أن استخدامها الأفلام الإباحية والبحث عن شركاء لممارسة الجنس بنحوٍ شخصي يفوق إلى حد كبير استخدامها من أجل «الجنس عبر الإنترنت» (Daneback et al., 2007, 2007) ، لقد تم تأمين صناعة للجنس بملايين الجنيهات عبر الإنترنت، وهي تشمل توسعا هائلا في الممارسات الجنسية التجارية والتي كانت سائدة من قبل، لاسيما البغاء والمواد الإباحية (Altman, 2001; Bernstein, 2007; Jeffreys, 2008). كما وفرت الإنترنت فضاءات جديدة من أجل البحث عن «شريك»، سواء لاتخاذه خليلا (جنسيا) على المدى القصير، أو شريك حياة محتملا

(Jagger, 2001, 2005, Lawson and Leck, 2006; McKenna, 2007; Pascoe, 2009; Whitty and Carr, 2006). وكما سنرى في القسم التالي أيضا، فإنه لا توجد أي علامات لأشكال من ممارسة الجنس تتدخل فيها الوسائط الرقمية تهدد بتغيير شكل العلاقات الجنسية «التي تنطوي على التلامس الجسدي» أو بالإحلال محلها.

تأثير الوسائط في الحياة الشخصية وتغييرها: تخيُّل الحميمية والبحث عنها

تُعَد قصص الحب الرومانسي واحدة من أكثر القصص المستمرة والمنتشرة حول الحياة الشخصية. وتشهد الإصدارات القديمة والجديدة لها انتشارا كونيا في ثقافة وسائل الإعلام. فالنسخة المهيمنة التقليدية من الرجال البارعين الذين يفوزون بالحب والجنس من النساء اللاتي يشعرن بالامتنان أصبحت تطغى عليها بدائل تخريبية. وتحليل هذا المحتوى من الرسائل، على سبيل المثال، والطرقِ التي يُصوَّر بها النوع والجيل ضمن قصص خرجت من هوليوود وبوليوود، لا يخبرنا في حد ذاته عن تأثيرها في العلاقات الشخصية. وكما قال مورلي (1986) عن التلفزيون، فإنه لا يمكن فهم نمط مشاهدة التلفزيون، أو الإحساس الذي يتكون لدى الناس من خلال ما يشاهدونه، خارج السياق الاجتماعي والتفاعلات والأنشطة والأحاديث التي ترافق عملية المشاهدة. ولا يمكن إنكار أن محاور القصة المهيمنة هي مصدر للمعلومات والإلهام اللذين يتعامل معهما الناس ضِمن سياق حياتهم الخاصة عند تكوين فهمهم الخاص لإمكانات العلاقات الشخصية. فمن غير الممكن نظريا استخلاص التأثير المحدد للرسائل الإعلامية مع أن تأثيرها معترف به على نطاق واسع. على سبيل المثال، في تحليل النوع والقوة والعاطفة بين الأزواج البريطانيين، أشار دانكومب Duncombe ومارسدن Marsden إلى تأثير قصص الخيال «الشعبي» في كيفية إدارة الرجال والنساء «العملية الرومانسية» staging the romance (Duncombe and Marsden, 1995). وكما تشير مجموعة من الأعمال المختارة التي حُررت من قِبل اختصاصيين في الأنثروبولوجيا، فإن «التداول الكوني للأفكار المعاصرة للحب «الحديث» هو في حالة من الحوار المتواصل والتوتر العرضي مع الأفكار التقليدية والمحلية للحب والترابط» (Padilla et al., 2007: xxi). ويشير

مارك باديلا Mark Padilla والمؤلفون المشاركون معه إلى أن طُرُق التصوير المعاصرة للعلاقات الحميمية في وسائل الإعلام تروِّج لاتجاه «مغاير للمفاهيم «التقليدية» للعائلة التي تؤكد دور الالتزام الاجتماعي في استنساخ أنظمة القرابة» (XV: 2007). ومع ذلك فإن الدراسات التجريبية التي تُجرَى داخل النص غالبا ما تُظهر شكوى نسوية قديمة بشأن كيفية اضطلاع الحب بـ «تجميل» سلطة الرجل على المرأة أو إعطائها بعدا شرعيا وإنسانيا. ويمكن للحوارات التي تُجرَى عبر الوسائط بشأن الحب والحميمية المتبادلة أن تؤثر في الجوانب الذاتية، وأن تضع إطارا للقاءات المجسَّدة، ولكن هناك حاجة إلى ما هو أكثر بكثير من الوصول إلى القصص الرومانسية من أجل تغيير علاقات القوة جذريا والتي أُضفِي عليها الطابعُ المؤسسي في تقسيمات العمل وتوزيعات الموارد.

وأشار كاستيلز إلى أن تكنولوجيا الإنترنت تتمتع بخاصية تعزز الذات المستقلة التي تعارض الهرميات التقليدية، بما في ذلك العلاقات الشخصية الأبوية (2007). ويشير التنظير النسوي إلى أن كاستيلز يقلل من شأن الجذور المتعددة لقوة الذكور ومن إمكانية أن تتنقل مقاومة المساواة بين الجنسين بين المجالين الخاص والعام (Walby, 1997). ومازالت الأبحاث المتعلقة بالعلاقات الرومانسية والجنسية بين الشباب البالغين، حتى في السياقات الوطنية التي تروِّج للمساواة بين الجنسين، تبرز صورة ملتبسة إلى حد ما على صعيد تغير قواعد السلوك الجنسي التقليدية القائمة على أساس المغايرة(*). وعلى الجانب الإيجابي فقد أتاحت التكنولوجيات الرقمية فرصا جديدة لمغازلة الشركاء الجنسيين المحتملين والتعرف عليهم بعيدا عن أنظمة المواعدة الأبوية التي يَختار فيها الرجال في حين تنتظر النساء أن يُختَرن. بالإضافة إلى ذلك، يتيح الاتصال الإلكتروني لكل من الشبان والشابات، طرقا جديدة للبدء في المغازلة بنحوٍ آمن ومراقَب نسبيا (Doring 2000; Miller, 2011) مما يسمح بـ «السيطرة على نقاط الضعف» و«ضبط اللامبالاة» (Boyd, 2007; Pascoe, 2009). ومع ذلك، لم يؤدِّ هذا إلى تحول جذري في الثقافة الجنسية في مرحلة المراهقة بين «المواطنين الرقميين» digital natives. على سبيل المثال وجدت

(*) المغايرة (الجنسية) heterosexuality هي نقيض المثلية (الجنسية) homosexuality. [المحرر].

الدراسة الإثنوغرافية، التي أجرتها سي جيه باسكو C J Pascoe في المدارس عن المراهقين في ولاية كاليفورنيا، أن هناك ثقافة غنية برهاب المثلية والميل إلى المغايرة التقليدية بين الجنسين، وهي ثقافة تدعمها بعض الترتيبات المؤسسية مثل «الحفلات الموسيقية» التي تُقام في المدارس (Pascoe, 2007). لايزال ينتابني شعور بالسخرية تجاه «الجنس عبر الإنترنت»، وهو ما يمنعني من الانجراف خلف موجة الحماس تجاه التحرير والابتكار، الذي يتخطى قوانين الجسد والجنس المتعارف عليه تقليديا. فإلى جانب خلق إمكانات جديدة لإيجاد الفضاءات الآمنة والتوزيع المتساوي للقوة والعبث بالنوع الاجتماعي وتحريره، فإن الإنترنت تتيح أيضا إحداث توسع هائل في وسائل إعادة خلق الهرميات التقليدية للجنسانية والنوع الاجتماعي.

ويُعتبر الجنس عبر الإنترنت قريبا من الإباحية في مدى فصله بين الحميمية الجنسية والأشكال الأخرى من الحميمية، وإن كان هناك احتمال أكبر لوجود استثناءات تفسد هذا الفصل. ويشير عدد قليل من الدراسات البحثية النوعية إلى أنه بالنسبة إلى المشاركين في التفاعلات الجنسية النصية والتلفزيونية (Attwood, 2009; Waskul, et al., 2000; Waskul, 2002)، فإن طمس أسمائهم وعدم وجود احتمال لأن يُتعرَّف عليهم، الأمر الذي جعل الجنس عبر الإنترنت غير مرئي في بقية حياتهم، كان شرطا مهما للمشاركة وعنصرا من عناصر الإثارة في آن معا، مما سمح لهم بالتخلص من الكبت وبإطلاق العنان لانفعالاتهم الجنسية. بيد أن هذا كان أيضا بمنزلة قيد أقر به الرجال والنساء، نظرا إلى أنه يحدُّ من الحميمية من خلال تقييد مدة إمكانية معرفة «الذات الحقيقية» من قِبل الآخرين. وعادةً ما يُظهر الجنس، الذي يحدث عبر الإنترنت باستخدام الكاميرا، كلَّ شيء عدا الوجه، مع إظهار الأعضاء التناسلية للمشاركين وشركائهم أحيانا جنبا إلى جنب على الشاشة. وفي حين أن المشاركين من النساء والرجال يكشفون عن الطاقة الجنسية التي تتولد لديهم نتيجة ذلك، وعن إحساسهم العالي بالجاذبية واللذة الجنسية، كانت هناك شكاوى شائعة بأنهم «مجرد جسد آخر» ولا يوجد اعتبار لأشخاصهم. وتشير دراسة أُجريت على مستخدمي غرفة الدردشة الجنسية الذكورية إلى أن الطريقة السائدة التي ينظر بها المشاركون إلى الجنس عبر الإنترنت هي أنه شكل من أشكال اللعب الذي يعبِّر عن رغباتهم، وأنه يشبه إلى حد كبير المواد الإباحية وألعاب تمثيل الأدوار

على الكمبيوتر، أكثر من أنه طريقة لتطوير العلاقات مع الشركاء الجنسيين. لكن من خلال السؤال عن «أفضل التجارب» توصلنا إلى إجابات توحي بوجود لحظات من الحميمية مثل: «المتعة المتبادلة» و«الثقة» و«تلاقي الأفكار» والشريك «الذي يمتلك موهبة حقيقية في الحوار» (Attwood, 2009). وعلى الرغم من أن بعض المشاركين في هذه الدراسات تحدثوا عن التعلم الذي يمكن أن يحدث من خلال الاطلاع على مخزون أوسع من الممارسات الجنسية وحتى من خلال اكتشاف مزيد عما يحبه الجنس الآخر، كان هناك أيضا المشاركون الذين رأوا أن الجنس عبر الإنترنت منفصل تماما عن الجنس في «الحياة الحقيقية». فأولئك الذين تحدثوا عن «تجربة أشياء جديدة» و«إطلاق العنان لخيالات جنسية» مغايرة لما يفعلونه في «الجنس الحقيقي»، أشاروا في بعض الأحيان إلى أن هذا الأمر ساعدهم في حياتهم الجنسية الحقيقية إما عن طريق طرد الأمراض والأوهام من أجسادهم أو من خلال زيادة رغبتهم الجنسية. وهذه تُعتبَر أيضا تبريرات شائعة لاستخدام المواد الإباحية والبغاء.

وتشير الدلائل التي لاتزال محدودة إلى أن الجنس عبر الإنترنت مرشَّح لإعادة إنتاج المعايير التقليدية القائمة على تغاير الجنسين مثلما هو مرشح لتقويضها. ويفوق عدد الرجال بنحوٍ ملحوظ عددَ النساء بين المشاركين من ذوي التوجه الجنسي المغاير في مجال «تمكين النساء» عبر الإنترنت من خلال منحهم سلطة رفض العديد من المتوددين لهن عند اختيار الشركاء الذين سيعرضن أجسادهن معهم (Waskul, 2002). ولكن هذا التمكين اندمج مع شعورهن بأنهن محاطات بالرجال الذين يحاولون لفت انتباههن من خلال استعراضهم المبالغ فيه لذكورتهم الطاغية. واعترف المشاركون من الذكور بأن الاستعراض المفرط للذكورة قد احتد بسبب المنافسة. كما أن الجنس الإلكتروني باستخدام الرسائل النصية فقط مكَّن المشاركين من إنشاء هويات متعددة وإعادة إنشائها بنحوٍ مختلف عن ذواتهم الجنسية اليومية المتجسدة في ظل غياب إمكانية «التحقق على أرض الواقع»، ولكن المشاركين كانوا عادة يتقمصون تصرفات مصطنعة وحركات جسدية تتطابق مع المعايير المحددة ثقافيا للجمال والإثارة، وذلك بنحوٍ أدى بهم إلى إعادة إنتاج الأعراف التي تدعم التسلسل الهرمي للنوع والعمر والقوة بدلا من تقويضه (Waskul et al, 2000) وانظر أيضا (Slater, 1998). ولم يكن هناك أي تأثير واضح

من حيث تغير السلوك أو تغير الإحساس بالذات لدى الرجال الذين جربوا الجنس عبر الإنترنت بشخصية أنثوية (Attwood, 2009). كما أن استخدام الأعراف التي تشمل الأشخاص الذين يحملون هوية جنسية نمطية هو أيضا سمة تميز أشكال الألعاب الجنسية عبر الإنترنت باستخدام الصور الرمزية (Biever, 2006).

إن إمكانية التغيير التي يبشر بها الجنس عبْر الإنترنت بعيدة كل البعد عن الطرق التي تُعتبر فيها الإنترنت فاعلا اجتماعيا في الحياة الجنسية لكثير من الناس. فالاستخدامات الموثقة ذات الصلة بالجنس لشبكة الإنترنت واسعة النطاق، ولكن الأدلة تشير إلى أن المواد الإباحية تتفوق على جميع الأشكال الأخرى من الناحيتين المجازية والحرفية، حيث يُعتبر الاستهلاك الانفرادي للمواد الإباحية على الإنترنت في أثناء الاستمناء أكثر أشكال هذا الاستخدام شيوعا. كما أن إيجاد وتنسيق الاجتماعات مع شركاء الجنس، سواء كان ذلك ينطوي على دفع المال أو لا (بدءا من «طلب العرائس بالمراسلة» والعاهرات وصولا إلى «الخليلات» و«رفقاء الفراش»)، هو أيضا شكل رئيس من أشكال التداخل بين شبكة الإنترنت والجنس. وتشمل الاستخدامات الأخرى البحث عن المعلومات حول الجنس، وتعبير المرء عن هويته الجنسية، وتسامره مع أولئك الذين يتمتعون بهوية مماثلة، وكذلك البحث عن الدعم لحل المشكلات المتعلقة بالجنس. وتُمَكِّن الإنترنت بعض الشباب من تجاوز الوصم بالعار والشك في الذات. فهي تتيح أشكالا من الحميمية والدعم التي لن تكون ممكنة وجها لوجه، وكما قال أحد الشبان المثليين: «يمكنك التحدث عن الأشياء مع الناس، ومن ثم لن تضطر إلى النظر إلى وجوههم مرة أخرى في اليوم التالي» (Valentine, 2006: 383). في بعض الحالات يساعد ذلك الناس على تجاوز الحدود الاجتماعية (Phua and Kaufman, 2003). ولكنه يسهل أيضا العلاقات الاستغلالية والأذى الجنسي، وقد يشمل الشكل السائد لتخطي الحدود الذكور المقيمين في الدول الغنية الذين يبحثون عن خدمات جنسية من خلال النساء والأولاد المهاجرين من الدول الفقيرة. وتشمل صناعة الجنس التي تدر أرباحا بملايين الجنيهات الإسترلينية، والتي يسَّرتها الإنترنت، التوسعَ الهائل والتدويل الأكثر عمقا للممارسات الجنسية التجارية القائمة سابقا، لاسيما البغاء والمواد الإباحية (Altman, 2001; Jeffreys, 2008)، كما أنها تمكِّن المرأة من العمل في مجال الجنس بشروط أفضل (Bernstein, 2007). وكثير

من هذا يتبع الأعراف التي سبقت الإنترنت، والتي أحدثت تحولا في حجم أنظمة الإعلان والتوزيع والتوصيل وكفاءتها، فمكَّنت الأغنياء نسبيا من الوصول إلى أجساد الفقراء نسبيا، فضلا على أنها سهّلت عملية العثور على «رفيق الروح» بالنسبة إلى المتساوين في المكانة الاجتماعية. وبعبارة أخرى، لا يوجد خط سردي واضح حول حدوث تغيير جذري أو تأثير تحويلي ناشئ عن فرص تطوير العلاقات الشخصية والجنسية مع أشخاص آخرين غير معروفين وذلك من خلال التكنولوجيات الرقمية.

العلاقات المحكومة بالوسائط:
الاحتفاظ بالحميمية وتعميقها

ماذا عن تأثير التكنولوجيات الرقمية في العلاقات الشخصية الوطيدة التي لها تاريخ من اللقاءات المباشرة؟ ثمة تكهنات تشاؤمية ودرامية كثيرة لم تتحقق حول تأثير العلاقات المحكومة بالوسائط الرقمية في الحياة الشخصية. ويقول الباحثون الآن إن العلاقات اليومية المباشرة، التي أُعيد وصفُها الآن باعتبارها علاقات «تُبنى خارج إطار الإنترنت»، لا يُستعاض عنها بالعلاقات الافتراضية والمحكومة بالوسائط الإلكترونية والتي «تُبنى عبر الإنترنت». ويوجد قدر متزايد من الأبحاث يوفر نموذجا أكثر دقة من التأثيرات الإيجابية والسلبية، حيث أصبحت التكنولوجيات الرقمية جزءا لا يتجزأ من الممارسات اليومية العادية (Baym, 2010; Gershuny, 2003; Wellman and Haythornthwaite, 2002; Kennedy and Wellman, 2007; Livingstone, 2008; Mesch and Talmud, 2010; Miller, 2011; Miller and Slater, 2000; Tyler, 2002; Wajcman et al., 2009; Wellman et al., 2006).

ولقد ركزت بعض الدراسات على وجود أجهزة تنبعث منها رسائل إعلامية حول العلاقات ضمن البيئة الداخلية للمنزل. على سبيل المثال وَجدت الدراسة التي أجرتها ليم Lim بشأن أسر الطبقة الوسطى في الصين وكوريا الجنوبية أن كلا من أجهزة التلفزيون والكمبيوتر يُنظر إليها باعتبارها تعزز وقت الأسرة وحياتها، وهذا يتفق مع وصف مورلي للتلفزيون باعتباره «بيت العائلة» Family Hearth (Morley, 1986). وفي تعليق يقدم صورة معكوسة وطريفة عن الشكوى التي كثيرا ما تُسمع في المملكة المتحدة بشأن الأطفال الذين ابتعدوا عن الكتب، قالت إحدى الأمهات من بكين: «جميعنا نلتقي معا لمشاهدة

التلفزيون والدردشة، وإلا فإن (ابني) سيقرأ كتبه ويتجاهلنا» (Lim, 2008: 200–201). وفيما يخص الأبحاث بشأن الأطفال والأهل في المملكة المتحدة، يشير فلنتاين Valentine إلى أن تكنولوجيات الاتصال عبر الإنترنت «أصبحت بمنزلة الغراء الذي يزيد اللُّحمة بين بعض العائلات» (2006: 317) من خلال التفاعل بين الأهل والأطفال حول شاشة الكمبيوتر. أما في أوروبا فإن البحث الذي أجرته سونيا ليفنغستون Sonia Livingstone (2009) يوثِّق اتجاها نحو الاستخدام الفردي والخاص لتكنولوجيات الكمبيوتر التي تتماشى مع العيش معا وتمضية الوقت بشكلٍ منفرد بدلا من الحفاظ على «بيت العائلة». وهي تشير إلى الاختفاء المتزايد لأجهزة التلفزيون والحاسبات الآلية العائلية مع انتشار الأجهزة ذات الاستخدام الفردي في الفضاء الشخصي لغرف النوم. ويشير بحث ليم إلى أن الأسر الآسيوية الغنية بالوسائط الإلكترونية والتي تنتمي إلى الطبقة الوسطى لا تلاحظ، حتى الآن، اختفاء الأطفال ضمن «ثقافة غرفة النوم» التي تتحدث عنها سونيا ليفنغستون. بل لاتزال أجهزة التلفزيون والحاسبات الآلية في غرف المعيشة أو غرف الدراسة المشتركة أو غرف نوم الوالدين وليس في غرف الأطفال. ويشير المؤلفون إلى أن أماكن وضع الحاسبات الآلية والتلفزيون تعكس جزئيا الاستراتيجيات المتخذة لمواجهة الضغوط المتعلقة بتأمين الحيز المكاني، كما تعكس تصميم الأهل للإشراف على استخدام أطفالهم للوسائط الإلكترونية وضبطه.

وعلى الصعيد الكوني يوجد عدد كبير من الاتصالات الهاتفية عبر الحاسب الآلي والهاتف المحمول مع العائلة والأصدقاء، بما في ذلك – على الأقل في بعض أجزاء العالم – بين أولئك الذين يتشاركون في الإقامة ويرون بعضُهم بعضا كل يوم. وتوصي نصائح مواقع شبكات التواصل الاجتماعي بجعل «الأصدقاء» يقتصرون على المعارف، وكما يلاحظ هولمز Holmes (2011)، فإن قوانين آداب الصداقة تتبع عموما قوانين البيئة غير المتصلة بالإنترنت. ومن المسلَّم به الآن على نطاق واسع أن الهاتف المحمول على وجه الخصوص يمكن أن يخلق شعورا بالارتباط المستمر بالآخرين، الأمر الذي يلغي الحدود بين الحضور والغياب (Wajcman, 2008). وكان أحد المخاوف المبكرة إزاء العواقب المحتملة يتمحور حول ما إذا كان العمل مدفوعُ الأجر سيزيد من غزو الحياة الأسرية والحياة المنزلية وتقويضها. لكن التوافر الدائم للاتصال contsant connectedness يجعل هذا الأمر مستبعدا من الناحية الفنية

مثلما هو مستبعد أن تهيمن العلاقات «في المنزل» على الأجواء «في العمل». من الناحية العملية فإن النوع الاجتماعي والتوجه نحو التوظيف يؤديان دورا فيما يحدث، وليس فقط التكنولوجيا. وتلاحظ جودي واسمان Judy Wajcman أنه مع مرور الوقت، «ربما ستفقد الحدود المكانية والتنظيمية وحتى النفسية بين الوقت في المنزل والوقت في العمل أهميتها» (Wajcman, 2008). وتوفر إمكانية الاتصال المستمر فرصا جديدة لتفعيل الانتباه والرعاية عبر المسافات. وكما بيَّن دانيال ميلر Daniel Miller ودون سلاتر (2000) Don Slater فيما يتعلق بالترينيداديين(*) المقيمين في الشتات، حيث تشكل «الأحاديث التافهة» أو المجاملات جانبا مهما بوصفها جزءا لا يتجزأ من العلاقة أو مجموعة الصداقة أو المجتمع، فإن الهاتف المحمول ومواقع التواصل الاجتماعي يمكن أن تمكِّن الغائبين جسديا من المشاركة. وليس من المستغرب، بالنظر إلى ارتفاع معدلات استخدام الهاتف المحمول بوصفه وسيلة اتصال تكميلية أو مكملة، فإن أولئك الذين هم أغنياء اجتماعيا في العلاقات الشخصية والمباشرة غالبا ما يكونون أغنياء في العلاقات الرقمية. وكما قال فالنتاين (2006)، فإنه بالنسبة إلى أولئك الذين يعيشون معا ولكنهم يقضون وقتا أطول بمفردهم، وأيضا بالنسبة إلى العائلات والأقارب الذين ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم وحدة واحدة على الرغم من المسافات التي تفصل بينهم، فإن مثل هذه التقنيات تساعد على الحميمية من خلال توفير «طرق جديدة للقيام بالأشياء القديمة» (Tyler, 2002). وبالمثل، لم تتوصل الأبحاث حول الهاتف المحمول إلى أن التآكل التام للخصوصية الشخصية أو «اختفاء الحدود من حياة العائلات» قد حدث نتيجة زوال أي حدود فاصلة بينه وبين العمل مدفوع الأجر والاستغلال التجاري.

ولقد تمت الإشارة إلى أن إمكانية الاتصال المستمر التي يوفرها الهاتف المحمول والاتصالات الحاسوبية يمكن أن تخلق أشكالا جديدة من الحميمية الشديدة، وتزيد أعباء التوقعات والفرص الجديدة للمراقبة والتحكم. واعتمادا على التحليل التفصيلي للدراسات الاستقصائية واسعة النطاق لطبيعة وتوقيت مكالمات الهاتف

(*) تقع ترينيداد جنوبي الكاريبي على بُعد 11 كيلومترا من السواحل الشمالية الشرقية لفنزويلا. [المترجم].

المحمول الخاصة بالسكان الأستراليين، تزعم جودي واسمان وزملاؤها في دراستهم أن الوعي بوجود إمكانية مستمرة للاتصال يخلق شعورا معززا بالارتباط والحميمية المتزايدة. ومن الناحية العملية، يستخدم الهاتف المحمول في الأغلب للتنسيق المصغر micro-coordination - «متى ستعود إلى المنزل؟»، «هل يمكنك جلب بعض الخبز؟» - ولكن حتى تلك المكالمات العادية تزيد من الإحساس بالتواصل في الحياة. فهي تشير إلى أن البقاء على اتصال على الرغم من وجود مسافات فاصلة لا يدل فقط على الحميمية ولكنه يساعد أيضا على تكوين الحميمية (Wajcman et al., 2009: 636). ووجدت ليم من خلال العينة الصغيرة التي درستها حول استخدامات الهاتف المحمول لدى العائلات الآسيوية أن أمثلة التواصل المحكوم بالوسائط، والذي يعزز الحميمية، كانت تشمل عادة الرسائل النصية. ثم تضيف «من بين العائلات الصينية والكورية التي شملتها الدراسة، كانت المسافة بين الأب والطفل لاتزال ملموسة، في حين أن التواصل بواسطة التكنولوجيا غالبا ما كان يسهم في سد هذه الفجوة». وتُدرج أيضا أمثلة على «التواصل الذي يتسم بقدر أكبر من المرح والانفتاح والذي ربما كان صعبا أو مربكا أن يُطلق وجها لوجه بين الزوجين (Lim 2008 : 119-200). وفي تحليل ليم تتيح القدرات التي تتمتع بها تكنولوجيا الهواتف المحمولة الاتصال خارج القوانين التي تؤثر في الاتصال المباشر. ولا تلتزم الرسائل النصية بالأعراف الثقافية التي تضمن احتراما مناسبا للتسلسل الهرمي العمري والجنساني الذي لايزال يحكم العلاقات الأسرية المثالية في المجتمعات الآسيوية. وبعبارة أخرى، فإن الخروج على هذه القوانين ممكن في الرسائل النصية من دون فقدان ماء الوجه الذي يترتب على هذا الأمر بالنسبة إلى الأب/الزوج في أثناء التواصل المباشر. ومن هنا فإنه يمكن استخدام الرسائل النصية لاسترضاء الطفل أو الكلام المعسول لاستمالة الشريك في حين أن هذا الأمر قد يؤدي إلى إظهار الضعف في اللقاءات المباشرة. وتشير الدراسات حول العلاقات الشخصية للمراهقين أيضا إلى بروز ممارسات جديدة ومُحسَّنة للحميمية من خلال الاستخدام المشترك للهواتف المحمولة والرسائل الفورية ومواقع الشبكات الاجتماعية (Pascoe, 2009).

وفي الوقت نفسه تأتي التكنولوجيات الجديدة بأعباء جديدة من التوقعات. وفي مثل هذه العلاقات، أو مجموعات الصداقة أو المجتمعات، قد لا يُبرَّر عدم

إرسال الرسائل المنتظمة بحجة الغياب، بل يمكن تفسيره باعتباره دليلا على نقص الاهتمام. وتعلق سونيا ليفنغستون على الكيفية التي ينشر بها الشباب الرسائل على مواقع أصدقائهم في المملكة المتحدة أنها قد أصبحت «ضرورية لإعادة تأكيد وضع الفرد في شبكة الأقران» (Livingstone, 2008: 404). ويؤدي استخدام الشباب مواقعَ الشبكات الاجتماعية إلى إنشاء ملف شخصي يكون مرئيا باستمرار بالنسبة إلى الأشخاص المدرجين بوصفهم أصدقاء على موقعهم. من الشائع أن ينشر الشباب تحديثات يومية عن أنفسهم لأصدقائهم، وكما تلاحظ باسكو، فإن الملفات الخاصة بهم على مواقع الشبكات الاجتماعية هي «أماكن رئيسة للتعبير عن الحميمية، حيث توفر مجموعة متنوعة من الطرق للإشارة إلى عمق علاقة معينة من خلال التمثيل النصي والبصري». وهذا يعني أيضا أن على الشباب إدارة الظهور العام، سواء بالنسبة إليهم أو إلى أصدقائهم السابقين، في أثناء انهيار العلاقات الرومانسية وعلاقات الصداقة ثم إعادة تشكيلها، كما أن مزيج العائلة والأصدقاء وزملاء العمل الذين هم «أصدقاء» على مواقع الشبكات الاجتماعية يخلق متطلبات عاطفية جديدة، وهذا يتطلب من الناس التفكير في معضلات إنهاء الصداقة واحتمالات تسبيب الإحراج والإساءة (Holmes, 2011; Miller, 2011).

لكن كما هو الحال بالنسبة إلى التحدث وجها لوجه، فإن التواصل عبر الوسائط ينطوي على أساليب أخرى في التخاطب إلى جانب تلك التي تسهم في تعميق الحميمية. ويمكن تسخير المحادثة المباشرة والتواصل عبر الوسائط على حد سواء في ممارسة التسلُّط أو المراقبة أو بعض أشكال التحكم. وكما هو الحال أيضا بالنسبة إلى الحديث من دون وسائط، هناك احتمال حصول تباين في كيفية تفسير أطراف العلاقة لتواصلهم. ففي المملكة المتحدة كان هناك عدد من الدراسات التي تشير إلى أن الحديث بين الأهل وأبنائهم المراهقين، والذي يدعي الأهل أنه دليل على الحميمية، يمكن أن يعتبره الأبناء بمنزلة مراقبة (Solomon et al; 2002، انظر أيضا Kurz, 2006 in the US). وتشير دراسة لينغ Ling وإيتري (2006) Yttri إلى أن الأطفال ينظرون إلى مكالمات الهاتف المحمول التي يجريها أهلهم بوجهٍ عام بوصفها تأتي ضمن إطار ممارسة المراقبة والتسلط. وبالمثل يتحدث ميلر (2011: 176)عن الإحباط الذي يشعر به الأطفال عندما يُدقق آباؤهم في

صفحاتهم على الفيسبوك. كما تورد الأبحاث التي أُجريت حول رومانسية سن المراهقة في الولايات المتحدة احتمال أن تتحول إمكانية الاتصال المستمر إلى قمع ناجم عن المراقبة المستمرة، وهذه الأبحاث توثق اضطلاع الهاتف المحمول بدور «الكابح» الذي يراقب من خلاله المراهقون الذين تربطهم علاقة معينة بعضهم ببعض (Pascoe, 2009). وبالمثل، فإن الضغوط لإثبات الحميمية والثقة من خلال تبادل كلمات المرور في مواقع الشبكات الاجتماعية تؤدي أيضا إلى السماح بمراقبة الفضاءات الخاصة داخل الموقع، ونشوء شعور لدى المرء بأنه مراقب ولا يمكن الوثوق به قد يؤدي بدوره إلى تقويض الحميمية.

الخلاصة

مع بعض التجديد، يمكن أن تبقى الاعتبارات التفاعلية التقليدية للذات ملائمة لغرض نظري في العصر الرقمي، على الرغم من وجود ما يوحي، كما يبدو، بأنها تُسلِّم جدلا بأن العلاقات الشخصية المباشرة هي مجرد ضرورات وجودية. والواقع أنه من السابق لأوانه الإقدام على فك الارتباط نظريا بين تشكُّل الذات والعلاقات الشخصية المباشرة، على الرغم من التجديد المطلوب لفهم تطور الذات والحفاظ عليها في العوالم «الرقمية» للتخاطب غير المجسَّد والعلاقات المحكومة بالوسائط. والأدوار الرئيسة التي تُمنح للعائلة والأصدقاء بوصفهم «الأشخاص المهمين» الذين يطورون الأمن الوجودي، لاسيما في مرحلة الطفولة، لا يمكن منطقيا الاستعاضة عنها بذواتٍ تتشكل حصريا في «مجتمع شبكات الاتصال». ولايزال من الصعب تخيُّل منظومة الأمن الوجودي من دون وجود علاقات حميمية ومباشرة. ولكن في الوقت الحالي، تُقام الأدوار الرئيسة التي يضطلع بها أفراد الأسرة والأصدقاء عادة عبْر الإنترنت، وكذلك من خلال التفاعل التقليدي المباشر خارج الإنترنت. فالتخاطب له دور في التشكيل والتأطير، لكنه لا يتفوق على التفاعل الواقعي المتجسِّد مع الآخرين الحميمين.

ويظل الحضور المشترك مهما أيضا لتطوير الحميمية، بمعنى الشعور بالقرب والعلاقة الخاصة مع شخص آخر، على الرغم من أنه بالنسبة إلى البالغين قد لا يكون هذا الحضور شرطا ضروريا أو كافيا للوصول إلى شيء من الحميمية. وتظل فرص

بناء الحميمية محدودة بقدر أكبر في حال عدم توافر الحضور المشترك، وهي تقتصر إلى حدٍ كبير على الإفصاح الذاتي اللفظي/النصي، على الرغم من انتشار الإيماءات الرقمية غير اللفظية. وعادة ما يتطلب الأمر وجود مخزون من الممارسات المتعلقة بالحميمية لخلق حميمية «متماسكة» وللحفاظ على حميمية العلاقات على المدى الطويل. أما الحميمية القائمة فقط على الإفصاح الشفهي من دون أن يكون لها أي تاريخ من الحضور المشترك فإنه سيُنظر إليها على الأرجح بوصفها «هشة» وأحادية البُعد، وذلك حتى بالمقارنة مع الحميمية التي تتطور من خلال الحضور المشترك المصحوب بالصمت. بالإضافة إلى ذلك فإن الحميمية من دون الحضور المشترك ستبدو على الأرجح ناقصة فيما إذا كان أحد طرفي العلاقة يتوق إلى الاتصال الجسدي أو الاهتمام العملي، أو إذا كانت الأعراف الثقافية تشدد على «وجود» كلا الطرفين أحدهما مع الآخر.

وهذا لا يعني أن العواقب التي تنجم عن التفاعل بين التكنولوجيا الرقمية والحياة الشخصية قليلة أو معدومة. هناك تزايد في حجم العلاقات الشخصية التي تبدأ عبر التكنولوجيا الرقمية، حيث يبقى بعضها ضمن النطاق الرقمي، أما نسبة العلاقات الشخصية الرئيسة المباشرة التي لا تتدخل فيها التكنولوجيات الرقمية فهي في تضاؤل مستمر. ومع ذلك فإن «عواقب» أو «تأثيرات» التكنولوجيات الرقمية ليست في العادة نتائج تحددها هذه التكنولوجيات، بل هي تنبثق عن الطريقة التي يعيش بها الناس حياتهم في أثناء تفاعلهم مع هذه التكنولوجيات. على سبيل المثال تُعتبر شاشة الكمبيوتر المكانَ الذي يُعبَّر حوله عن «تماسك العائلة الآسيوية» وليست المصدرَ الذي يولِّد هذا التماسك، أما العائلات في المملكة المتحدة فتعبر عن «العيش معا مع الحفاظ على الاستقلالية الفردية» من خلال وجود أجندة رقمية مستقلة لكل فرد، وكذلك أجهزة مستقلة في أجزاء مختلفة من المنزل من دون أن تكون هذه الأجهزة هي السبب الرئيس. فخلفية الأعراف المتعلقة بسلوك الأصدقاء والعائلة وممارسات الصداقة والطريقة التي تمارس بها الأسرة حياتها تؤدي إلى تعديل المزايا الناشئة عن الإمكانيات الجديدة للاتصال الرقمي. على سبيل المثال الثقافاتُ التي تشترط أن تكون العلاقة بين الجنسين وكذلك بين الأجيال قائمة على التبعية إلى درجة كبح جماح التعبير العاطفي المباشر، إنما تتيح فرصا أكبر للأجهزة

التي تقدم اتصالا شفهيا أو نصيا باستخدام الوسائط الرقمية لتوفير إمكانات جديدة كليا للتعبير عن المشاعر. وبالمثل فإن احتمال الشعور بالتواصل الهاتفي الرقمي مع الأشخاص المقربين باعتباره يتأرجح بين الحميمية المكثفة والمراقبة إنما يعكس التوترات التي تشوب العلاقات، سواء داخل الأسرة أو مع الأصدقاء، وهذه التوترات تكون أكثر حدة في السياقات الثقافية؛ التي يريد فيها الآباء أن يكونوا مثل الأصدقاء ويستمروا في ممارسة الرقابة. وتظهر دراسات العلوم والتكنولوجيا أن الحاسبات الآلية والهواتف المحمولة تضطلع بدور نشط في الأنظمة الاجتماعية التي تشكل الحياة؛ والعلاقات الشخصية هي أيضا أنظمة اجتماعية تعمل على تعديل القدرات أو «الإمكانات» التي تتمتع بها التكنولوجيات الرقمية.

ويخلق الجنس عبر الإنترنت حميمية جسدية متخيلة، ولكن عادة ما يكون ذلك باستخدام نصوص تغلب عليها النظرة التقليدية للنوع الاجتماعي، كما يتجلى في سلوك يُنظر إليه باعتباره أقرب إلى اللعب والخيال منه إلى العلاقات الشخصية والحميمية الحقيقية. وعلى الرغم من أن الجنس عبر الإنترنت يتضمن التفاعل، فإن النزعة إلى اختزال الأشخاص باعتبارهم «مجرد جسد آخر» تجعله أقرب إلى الإباحية، التي تمثل الطريقة الأكثر شيوعا لاستخدام الإنترنت، منه إلى التواعد عبر الإنترنت، الذي يمثل الطريقة الرئيسة الأخرى التي ترتبط بها الإنترنت مع الحياة الجنسية للأشخاص. وعادة ما يُستخدَم التواعد عبر الإنترنت بنيّة الانتقال بسرعة نحو اللقاء المباشر بحثا عن «الكيمياء» الصحيحة للحفاظ على علاقة تكون مصحوبة بالحضور المشترك. ومع الاعتراف بإسهام الإنترنت في حدوث تزايد هائل في نسبة التخاطب حول الجنس وفي فرص الحصول على المعلومات الجنسية والاتصال الجنسي، فإن جميع هذه الاستخدامات للإنترنت من أجل الجنس لا تشير أبدا إلى بروز اتجاه نحو تحول جذري يحتمل أن يحل محل الجنس «الذي ينطوي على التلامس الجسدي». فضلا على ذلك ثمة تعارض بين الأحلام بإقامة علاقات حميمية ومتكافئة مستوحاة من الخطابات المتداولة عالميا عن الحب بين شريكين يتبادلان الاهتمام كل منهما بالآخر، وأيضا بين المشاركة في الجنس عبر الإنترنت والذي يمكن أن يوسع نطاق إمكانات المتعة الجنسية من دون تحيُّز لأحد الجنسين من جهة، وبين الأنظمة التي تعمل بطريقة مؤسسية على إدامة أشكال انعدام المساواة بين الرجل والمرأة من جهة أخرى.

2

إضفاءُ النوعِ على العصرِ الرقمي: تأثيرُ منظوراتِ النوع والتكنولوجيا في الخيال السوسيولوجي

إيلين غرين وكاري سِنغلتون

يعرضُ هذا الفصلُ الحججَ المؤيدةَ لإضفاءِ النوعِ على العصرِ الرقمي، ويؤكد الاعتراف المتزايد بالأبعاد القائمة على النوع للتكنولوجيا الرقمية في الحياة اليومية. وعلى مر السنين ظهرت مجموعة كبيرة من الأعمال النظرية والتجريبية حول النوع والتكنولوجيا تحمل إسهامات قيِّمة نفَّذها أنصار النسوية وعلماء الاجتماع على حد سواء (Wajcman, 2004, 2007; Wyatt, 2008). وقد كان لهذه الأعمال بعض التأثيرات الجديرة بالملاحظة، بما في ذلك التنظير للبلورة الاجتماعية للتكنولوجيا من خلال تطوير مفاهيم التشكيل المتبادل للعلاقات القائمة على أساس النوع والتكنولوجيا؛ وتأطير

«الحريةُ في إعادةِ صياغةِ النوع الاجتماعي ليست بالضرورةَ تحرُّرا من الانقســـامات وحالات انعدام المســاواة التي تشكلت من خلال النوع وحوله»

المناظرات حول هويات النوع والتكنولوجيا وكشف الأبعاد القائمة على أساس النوع لأعمال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات والوصول إليها واستخدامها. وقد دفعت بعض هذه الأعمال بأجندات سياسية للمساواة بين الجنسين إلى حد كبير، ولاسيما بالتركيز على دور المرأة واستخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات لتحقيق أهداف تحررية. ولكن على الرغم من هذه الإسهامات، والأدلة المقدمة، فغالبا ما يكون النوع غائبا في التنظيرات الكبرى macro-theorising حول التغيرات الاجتماعية والتكنولوجية، بل في كثير من الدراسات التجريبية حول استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات. ويهدف هذا الفصل إلى معالجة هذا الإغفال من خلال طرح أسئلة مهمة مثل: ما الطرق التي يُعاد بها النظر في النوع في الحياة اليومية في العصر الرقمي؟ وكيف نفسر ونشرح التعقيدات التكنولوجية القائمة على أساس النوع وتناقضاتها المعاصرة والوصول إليها واستخدامها؟ ولماذا يكون النوع غائبا على نحو متكرر في التنظيرات السائدة للعصر الرقمي؟ وكيف نفسر استمرار الأوجه المتأصلة لعدم المساواة بين الجنسين في العصر الرقمي؟ وما مسارات البحث التي يمكن استحداثها في المستقبل لمعالجة هذه القضايا؟

وتتكون المناقشة التي نحن بصددها من ثلاثة أجزاء. أولا: نحن نرى أن التطورات من داخل علم الاجتماع النسوي feminist sociology والدراسات النسوية للتكنولوجيا ستستفيد استفادة كبيرة من هذا التناغم المتجدد والمتبادل بينها. وبوصفنا اختصاصيين في علم الاجتماع النسوي فإننا نقول: إن هناك حاجة إلى معالجة التحديات النظرية الجديدة التي يثيرها العصر الرقمي. ويتعين على المناصرين للنسوية مواصلة طرح الأسئلة الملحَّة حول ترتيب المجالات الأساسية للحياة اليومية ومدى ظهورها في العصر الرقمي، مثل أعمال الرعاية القائمة على أساس النوع، والعمل في الخدمة المنزلية، والعمل العاطفي، والأسرة، والصداقة، والمجتمع والترفيه، والطرق التي تعيد بها التكنولوجيات الرقمية الجديدة تشكيل هذه المجالات. وعلاوة على ذلك فإننا نرى أن نظرية التكنولوجيا النسوية ستستفيد استفادة كبيرة من الرؤى التي طُرحت داخل علم الاجتماع النسوي، خصوصا تلك الرؤى التي طرحها علماء الاجتماع والناتجة عن إمعانهم النظر في الحياة اليومية بوصفها وسيلة لترسيخ مفهوم النوع والتكنولوجيا داخل العلاقات الاجتماعية

والمادية. ومن المهم هنا الحديث عن نداء جاكسون (Jackson (1999:24 التحذيري، الذي وجَّهه إلى أنصار النسوية منذ أكثر من عَقد من الزمان، حول مخاطر فقدان الرؤى الخاصة بـ «الطابع المادي للعلاقات الاجتماعية». وفي إطار تسليط الضوء مباشرة على مفاهيم مثل الهويات الافتراضية virtual identities والفضاءات الافتراضية virtual spaces المرنة التي قد تتيح للأفراد إمكان مواجهة اللامساواة بين الجنسين، فإننا نخاطر بفقدان الرؤى الخاصة بالسياقات الاجتماعية المحددة والعلاقات الاجتماعية المتغيرة التي تنطوي على هؤلاء الأفراد، وتلك الفضاءات الافتراضية.

في هذا الصددِ يستكشف الجزء الثاني من المناقشة الأوصاف والتفسيرات السوسيولوجية للعصر الرقمي. يقال إن التكنولوجيات الرقمية الجديدة(*) تشكِّل حياتنا اليومية (وتُشكَّل من قِبلها)، وتربط فضاءات المنزل/أماكن العمل، وتتيح إمكان العمل العاطفي، وتنفيذ الواجبات المنزلية من بُعد، وتعمل على إعادة تجميع أنماط النشاط الاجتماعي والتواصل. ومن الجدير بالملاحظة أن بعض خصائص العصر الرقمي تتداخل مع خصائص عصر المعلومات، خصوصا فيما يتعلق بسلاسة ومرونة الزمان، والمكان، وانعكاسية العلاقات الاجتماعية والشخصية وإضفاء الطابع الفردي عليها. ومن أهم السمات الرئيسة المميزة للعصر الجديد تلك التي تتعلق بفكرة «النشاط الاجتماعي الرقمي» والأشكال الجديدة التي ظهرت في مجال الترابط والانتماء. لكن من الأهمية تسليط الضوء على المنظور الجنساني في هذه الميادين الرئيسة التي تتمثل في الزمان/الفضاء، والعلاقات الشخصية، والألفة الاجتماعية.

وهذا الوصف للعصر الرقمي في إطار السلاسة والمرونة تتردد أصداؤه في بعض الوسائل مع مفاهيم حديثة/متقدمة للعلاقات الاجتماعية بوصفها أمورا عابرة ومؤقتة ومشتتة، وبوصف النوع أمرا متغيرا ومختارا. ولكن علماء اجتماع النسوية طرحوا بعض الأفكار حول الانقسام، والسلاسة والمرونة بوصفها إشكاليات

(*) تشمل التكنولوجيات الرقمية: الكاميرات الرقمية، والإنترنت، والشبكة العالمية، والتلفزيون، وأجهزة الحاسب الآلي الشخصية، وأجهزة الآي بود، والهواتف المحمولة مدرجة هنا أيضا نظرا إلى مكوناتها الرقمية (الكاميرا، والإنترنت وغيرها)، وأيضا لأنها أعادت تشكيل العلاقات الاجتماعية بطرق أدت دورا مُهما للغاية في التنظير للعصر الرقمي. [المؤلف].

غير سياسية وغير تاريخية ومضادة للتوجه المادي والواقعي (راجع Jakson, 1999; Delamont, 2003). ويؤكد أدكنز (2004) Adkins خطورة الخلط بين الانعكاسية والحرية: فالحرية في إعادة صياغة النوع الاجتماعي ليست بالضرورة تحررا من الانقسامات وحالات انعدام المساواة التي تشكلت من خلال النوع وحوله (والفئات المرتبطة به). أما البحوث التجريبية حول النوع والتكنولوجيا، بما في ذلك، على سبيل المثال، بحثُنا حول الهواتف المحمولة (Green and Singleton, 2009)، الذي يُظهر درجات التعقيد الموجودة في الحياة اليومية، فإنها تكشف باستمرار عن وجود علاقات/ديناميكيات دائمة للنوع (على سبيل المثال، إعادة إنتاج تقسيمات العمل على أساس النوع، وعبء ممارسة الأمومة من بُعد remote mothering) وغيرها، مما يؤدي إلى استمرار إعادة تشكيل أوجه عدم المساواة في مكان العمل (مثل قلة عدد النساء في قطاع تكنولوجيا المعلومات والاتصالات) في سياقات اجتماعية جديدة. ولاتزال الموضوعات، مثل مكان العمل، والمنزل، التي شغلت تفكير أنصار النسوية في عقود سابقة ذات أهمية في العصر الرقمي كما كانت في السابق.

والجزء الأخير من المناقشة التي نحن بصددها يتعلق بالتنظير للروابط بين النظرية والتقارير التجريبية حول النوع والتكنولوجيا. ويثير هذا الفصل قلقا بالغا يتمثل في أن التفاعل الاجتماعي القائم على النوع، وكذلك أوجه عدم المساواة البنيوية في إطار النوع، قد يحجبهما العصر الرقمي ما لم نعزز الروابط بين النظرية النسوية والخيال السوسيولوجي والخبرات الرقمية في عالمنا اليومي. ونحن في حاجة إلى النظر إلى العصر الرقمي باعتباره منظورا مُهما يمكن لعلماء الاجتماع من خلاله الاستمرار في تحليل الطبيعة المحددة للحياة اليومية، بما في ذلك السياقات والسلوكيات القائمة على النوع، بدلا من الانبهار بالآفاق البراقة الجديدة التي يبدو أن العصر الرقمي يفسح مجالا لها. كما تعد ممارسة الخيال السوسيولوجي أمرا ضروريا لتفسير العصر الرقمي بأساليب نقدية وإبداعية.

ومن هنا يتضح أن هدفنا العام هو تقديم الحجج التي تبرر إضفاء النوع على العصر الرقمي. وللاضطلاع بذلك فإننا نبدأ بتخطيط الإسهامات الأساسية لعلم الاجتماع النسوي والنظريات النسوية للتكنولوجيا في مشروع التنظير للعصر

الرقمي. واستنادا إلى أبحاثنا التجريبية، فإننا نواصل مناقشة تأثير التقنيات الرقمية، وتحديدا الهواتف المحمولة، في العلاقات الشخصية، وهي أحد مجالات الاهتمام السوسيولوجي الأساسية، ونقدم بيانات دراسة الحالة من أجل توضيح العلاقات الاجتماعية المصغرة للنوع والتكوينات المرتبطة بالأنوثة والذكورة في الحياة اليومية. وختاما نؤكد أنه في العصر الرقمي القائم على النوع، فإن النوع والعصر الرقمي ليسا مجالين منفصلين، بل هما يتشكلان ويُعاد تشكيلهما على نحوٍ متبادل ومستمر. ويتسم هذا «العصر» بتوترات وتناقضات وتعقيدات قائمة على النوع، وهو ما قد يفتح الطريق أمام احتمالات جديدة للمساواة بين الجنسين، ولكنه أيضا عصر يجب ألا نغفُل فيه عن أوجه عدم المساواة البنيوية الأوسع نطاقا إضافة إلى الفوارق المحلية (Jackon, 1999). وسيؤدي الجمع بين النظرية النسوية والخيال السوسيولوجي إلى تعزيز تحليلات العصر الرقمي بدءا من الميدان الاجتماعي المصغر المتمثل في العلاقات الشخصية في الحياة اليومية وصولا إلى «النظرية الكبرى» grand theory.

إضفاء النوع على التحول الرقمي: مناقشات تاريخية

في المجتمعات الغربية التي تركز على المستهلك في مرحلة ما بعد التصنيع، تؤدي التكنولوجيات الرقمية الجديدة دورا مهما في تشكيل العلاقات الاجتماعية المعاصرة، و«إعادة» تكوينات الهوية والمجتمع وأنماط النشاط الاجتماعي. وقد أظهرت لنا نظرية التشكيل الاجتماعي social shaping theory (SST) أن التكنولوجيات تعتمد على السياق من الناحية الاجتماعية وأن تصميمها، وتطويرها، واستخدامها، وإدماجها، ورفضها تتشكل من خلال العلاقات الاجتماعية المعاصرة (Silverstone and Hirsch, 1992, Mackenzie and Wajcman 1998). ولكن الأمر الذي غالبا ما يُتجاهل هو أن هذه العلاقات أيضا تقوم على النوع. وهنا أوضحَ جليا أصحابُ النظريات النسوية للتكنولوجيا أن العمليات الاجتماعية المتأصلة في الاستخدام والاستيعاب والتطور التكنولوجي تقوم على النوع (Green and Adam, 1998)، وهذا بدوره له مضامين مهمة بالنسبة إلى

تشكيل هوية النوع، والنوع، وإعادة تشكيلهما في العلاقات الاجتماعية المَعيشة (Adkins, 2004).

النظريات النسوية للتكنولوجيا

من الضروري هنا تقديم نظرة عامة موجزة على الإسهامات النظرية النسوية للعصر الرقمي من أجل وضع معايير النقاش داخل هذا الفصل(*). ولقد كانت التنظيرات النسوية المبكرة حول النوع والتكنولوجيا الرقمية، والمنبثقة عن سلسلة من الفروع الأكاديمية، تتفرع عادة إلى مواقف نظرية وسياسية إيجابية أو سلبية بنحوٍ علني، حيث أكد بعضها أهمية التكنولوجيا الرقمية (الإنترنت) بوصفها وسيلةً للتغلب على عدم المساواة بين الجنسين، بينما تبنى بعضها الآخر مقاربةً أكثر تخوفا من التكنولوجيا أكدت الطابع الذكوري المتأصل في هذه التقنيات، وحثت المرأة على مقاومة القمع الأبوي من خلال أشكال المشاركة النسوية في الثورة الرقمية.

وقد كانت الهوية واحدة من أكثر الموضوعات التي خضعت للمناقشة باستفاضة في مجال الدراسات حول النوع والتكنولوجيا، ولاسيما قدرة الإنترنت على إحداث تحوُّل راديكالي في تشكيل مستقبلٍ «خالٍ من التمييز بين الجنسين». وقد أدى العمل الريادي الذي قدمته بلانْت Plant (1997) (وإن كان موضعا للخلاف) بعنوان «الأصفار والآحاد» Zeros and Ones إلى إعادة صياغة الثورة الرقمية باعتبارها تمثل تحريرا للمرأة. وعلى هذا الصعيد فإن الإنترنت بوصفه تكنولوجيا نسوية يزعزع استقرار المجتمع الأبوي المهيمن من الداخل ويوفر للمرأة إمكانات افتراضية لا حدود لها. وهذا التفاؤل بدخول الفضاء الإلكتروني قد أوجزه هارواي Haraway (1985) الذي استخدم استعارة سايبورغ «الرجل الآلي» Cyborg ليؤكد أن المرأة في حاجة إلى اغتنام الفرص التي يوفرها العلم التكنولوجي بوصفه وسيلة نحو التحرر. وبالمثل فإن الموضوع الرئيس الذي استكشفته شيري توركل Sherry Turkle في كتاب «الحياة على الشاشة»

(*) للاطلاع على المناقشات الكاملة والتاريخية للنظريات النسوية للتكنولوجيا، انظر واسمان (2004) ووايات (2008). [المؤلف].

Life on the Screen يدور حول فكرة الهوية الرقمية والإنترنت بوصفها مجالا رقميا جديدا يمكن للمرأة من خلاله الاستكشاف والمقاومة والهدم وخلق هويات وذوات جديدة. ومع ذلك فإن الأبحاث الحديثة توضح أن [إعادة] التفاوض بشأن النوع في الفضاءات المتاحة عبر الإنترنت ليست هي العمل المثالي المرجو هنا. هناك كم هائل من الأدلة التي تشير إلى أن التحيز الجنساني Sexism والأشكال المتداخلة الأخرى من اللامساواة قد أعيد إنتاجها في العصر الرقمي. وكما لوحظ في العقد الأخير (Green and Adam, 1979)، وكما أكدت الأبحاث الحديثة التي أُجريت حول المدونات الإلكترونية weblogs والتدوين blogging (van Doorn, et al., 2007)، فإن هويات الأفراد على الإنترنت تعكس عادةً خصائصَهم الذكورية والأنثوية في العالم الواقعي أو خارج الإنترنت.

كما ركز أنصار النسوية على الطبيعة القائمة على النوع للأدوات التكنولوجية المصنوعة (Oudshoorn et al., 2002)، بما في ذلك تكنولوجيات الترفيه (Green, 2001). ولقد كان ذلك مُهما في إعادة تأكيد الطابع المادي للعلاقات بين النوع والتكنولوجيا والتحقيق في عمليات تمثيل النوع في السلع الاستهلاكية والإعلانات بدءا من مرحلة التصميم وحتى مرحلة التوطين. ولقد ركزت المساعي النسوية الأخرى على الاستخدامات الاجتماعية والثقافية للتكنولوجيا وما يترتب على ذلك من آثار سياسية ذات صلة بالمرأة في العصر الرقمي، بما في ذلك، على سبيل المثال، استكشاف فوائد مجموعات دعم المرأة على الإنترنت (أشكال التمكين المعتمِدة على الإنترنت)، واستخدام المرأة لمقاهي الإنترنت، وتنظيم النساء ودعوتهن إلى التغيير عبر الإنترنت (Shade, 2002). وبينما يعد هذا التأكيد مهما، فإنه يميل إلى التركيز على إمكانات التكنولوجيا ذاتها، أو على الطرق التي استطاعت المرأة من خلالها الوصول إلى التكنولوجيا واستخدامها، بدلا من المناقشات السوسيولوجية الأوسع نطاقا بشأن آثار التكنولوجيا على العلاقات الاجتماعية في إطار النوع. على سبيل المثال، من الواضح أنه من خلال استخدام مقاهي الإنترنت وعضوية شبكات الدعم عبر الإنترنت، وأخيرا من خلال استخدام تطبيقات الجيل الثاني من شبكة الإنترنت، مثل فيسبوك وتويتر، يواصل العديد من النساء أيضا أداء أعمال الأنشطة الاجتماعية وتلك المتعلقة بالأسرة والصداقة. ومن خلال فهم الأهمية الدائمة والمحورية لهذه

العلاقات الاجتماعية القائمة على أساس النوع وإبرازها، يمكن لعلم الاجتماع تقديم مساهمات كثيرة للدراسات حول العصر الرقمي. وبالإضافة إلى ذلك فمن خلال هذا التحليل السوسيولوجي المصغر نوضح الأدلة على «أداء الدور» المنوط بالنوع الاجتماعي، أي النوع بوصفه عملية. ووفقا للأطروحات التي أُفصِح عنها أول مرة منذ عَقد (Green, 2001)، فإننا في حاجة إلى التركيز على الحياة اليومية من أجل فهم العلاقة بين عمليات الابتكار التكنولوجي والطرق التي تُستهلَك من خلالها تقنيات المعلومات والاتصالات المختلفة ويُعمَد إلى تبنيها. وبدلا من التركيز على إمكانات التكنولوجيا الرقمية لتحقيق ما يفوق التوقعات، فعلينا أن نتذكر أن تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، مثل الهواتف المحمولة والشبكات الاجتماعية عبر الإنترنت، قادرة على أن تصبح جزءا روتينيا من «الحياة اليومية العادية»، وأن تعيد تشكيل إدراكنا لمكونات هذه الحياة، وهو ما يعد أمرا مهما.

ويتمثل أحد الإسهامات الرئيسة التي قدَّمها أنصار النسوية للتفسيرات السوسيولوجية للتكنولوجيا في «النسوية التكنولوجية» technofeminism (Wajcman, 2004)، وهي رؤية نظرية تربط بين نسوية السايبورغ cyborg feminism والنظرية البنائية الاجتماعية social constructivist theory للتكنولوجيا. ومن خلال الاضطلاع بذلك فإن المؤلفين، من أمثال واسمان، يسلكون طريقا وسطا بين الموقفين الاستقطابيين المتمثلين في الولع بالتكنولوجيا technophilia ورهاب التكنولوجيا technophobia بهدف الوصول إلى تحليل أكثر دقة للنوع والتكنولوجيا يُشار من خلاله إلى أن العلاقات بين النوع والتكنولوجيا متغيرة ومرنة. وعلاوة على ذلك تبين واسمان أن السياسات النسوية، وليست التكنولوجيا بحد ذاتها، هي السبيل الذي ينبغي سلوكه لخلق المساواة بين الجنسين. وعلى الرغم من تأثير هذه المنظورات النسوية في نظرية التشكيل الاجتماعي، فقد ظل التنظير السوسيولوجي السائد حول عصر المعلومات محايدا من ناحية النوع (Wyatt, 2008)، ما أثار أسئلة مهمة حول تأثير الرؤى النقدية المستمدة من نظرية التشكيل الاجتماعي النسوي، وعلم الاجتماع النسوي في التنظير السائد بوجهٍ عام. ويرى وايت Wyatt بالاتفاق مع واسمان أن السياسات النسوية، وليست التكنولوجيا، هي التي تؤدي دورا جوهريا في تحقيق المساواة بين الجنسين، في حين أنهما معا

(أي السياسات النسوية والتكنولوجيا) تدعوان إلى إجراء دراسات اجتماعية أكثر دقة حول التكنولوجيا بوصفها تمثل طريقة للكشف عن تعقيدات العلاقات بين الجنسين وأوجه انعدام المساواة بينهما.

عصرُنا الرقمي

في الحقبة الأخيرة من عصرنا الرقمي نرى أن هناك حاجة إلى تناول بعض القضايا النظرية والتجريبية (وأحيانا المتناقضة) والمعقدة والمثيرة للاهتمام التي تتعلق بالتكنولوجيا والنوع. فعلى سبيل المثال هناك بعض الاتجاهات الشاملة المثيرة للاهتمام التي تتعلق بوصول النوع إلى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات واستيعابها واستخدامها. وبينما تشير الإحصائيات في المملكة المتحدة إلى أن الرجال لديهم وسائل لدخول الإنترنت أكثر من النساء، وأن الرجال يستخدمون الإنترنت أكثر من النساء يوميا، فإن النساء، ولاسيما الفتيات منهن، يستخدمن الإنترنت بأعداد كبيرة نسبيا ولأغراض متعددة (بما في ذلك التواصل مع الأسرة والأصدقاء)، وغالبا ما يشعرن بالسعادة والمتعة من جراء استخدامها (ONS, 2011). وعلاوة على ذلك تَستخدم النساء الهواتف الثابتة بنحوٍ منتظم أكثر من الرجال، على الرغم من أن استخدام الهواتف المحمولة متساوٍ تقريبا بين الجنسين (Ofcom, 2008). وهناك أدلة على أنه على الرغم من أن الفجوة الواسعة بين الجنسين في استخدام الإنترنت آخذة في الانكماش، فقد بدأت تظهر فجوات أحدث وأكثر تعقيدا، وهي تتمركز، على سبيل المثال، حول نقاط التقاطع بين العمر والطبقة الاجتماعية والإعاقة والنوع الاجتماعي (Liff and Shepherd, 2004; Ofcom, 2011; ONS, 2011). وعلاوة على ذلك فقد أتاحت لنا الدراسات النوعية والمتعمقة للنوع الاجتماعي واستخدام الإنترنت، ولاسيما تلك المتعلقة بتواصل الجنسين وأدائهما في الفضاءات الافتراضية، إمكان مشاهدة هذه التقاطعات المعقدة كما نُعايشها ونمارسها في الحياة اليومية (Green and Singleton, 2009; van Doorn et al., 2007).

ومن أحدث المناقشات التي برزت داخل علم الاجتماع التكنولوجي أهمية تطوير الفهم السوسيولوجي لتكنولوجيات الجيل الثاني من شبكة الإنترنت (Beer and Burrows, 2007). وينجح بير وباروز في تصوير الحماسة الناتجة

عن انتشار المواقع التي تندرج تحت مفهوم الجيل الثاني من شبكة الإنترنت الجديدة (على سبيل المثال، مواقع الويكي wikis، وأنظمة الفهرسة الجماعية folksonomies، وعمليات تهجين تطبيقات الويب mashups ومواقع الشبكات الاجتماعية مثل ماي سبيس، وفيسبوك، وتويتر)، حيث يتناولان ضرورة مشاركة علماء الاجتماع في تطوير التكنولوجيات عبر الإنترنت كي لا نتخلف عن السباق لفهم أهميتها وتأثيرها الاجتماعي. ومع ذلك يمكن القول: إن علماء الاجتماع في أثناء سعيهم إلى دخول مجتمعات الإنترنت من أجل مراقبة ما يجري ووصفه، و«للاطلاع أكثر على التكنولوجيا» (2007:2)، فإنهم معرَّضون لخطر إغفال طرح أسئلة أكبر حول الطبيعة الاجتماعية والمعاني المرتبطة بهذا الشكل من النشاط. وفي حين أنهم كانوا على حق في ملاحظة حقيقة أن تكنولوجيات الجيل الثاني من شبكة الإنترنت ستصبح جزءا من الحياة اليومية العادية (وهي الآن كذلك)، فإنه لا يوجد أي سرد لجوانب السلوك الجنساني عبر الإنترنت. وعلى الرغم من أن الأبحاث حول النوع والهوية وتكنولوجيات الجيل الثاني من شبكة الإنترنت قد بدأت في الظهور، مثل أداء الهويات الجنسانية عبر المدونات الإلكترونية (van Doorn et al., 2007)، فلاتزال تقع على عاتق أنصار النسوية إعادةُ النوع (مرة أخرى) إلى أجندة الأبحاث (الجديدة) هذه. وبينما يتضح أن مفهوم «الأصدقاء» قد تغير، كما يزعم البعض أن قيمته قد تدهورت وتحول إلى سلعة، في الوقت الذي يتنافس فيه المستخدمون ليصبحوا ذلك «الصديق» الأكثر شعبية و«الأغنى» على مواقع الشبكات الاجتماعية مثل فيسبوك وماي سبيس، فإننا لا نعلم سوى القليل عن الطرق التي ربما تكون هذه الوسيلة قد غيرت بها العلاقات الاجتماعية القائمة على أساس النوع بين الفئات العمرية المختلفة مثل مستخدميها/متبنيها.

وقد استكشفت الأبحاث المبتكرة حول المدونات الإلكترونية (Herring et al., 2004; van Doorn et.al., 2007) ممارساتِ التدوين الذي يوفر منتدى جديدا لعرض الذات، ويتيح لمؤلفي المدونات الإلكترونية مبدئيا إمكان تقديم هويات أكثر سلاسة على الإنترنت. ويقول فان دورن van Doorn وآخرون (2007) إنه على الرغم من أن المدونات تبدو كأنها تساعد على تقديم تعبيرات متنوعة ومتعددة للهوية الجنسانية، وتوفر منتدى

مهما للرجال والنساء لتمثيل أنفسهم بوسائل مرنة لا يظهر فيها الاختلاف في النوع، فلاتزال أغلبية قصص المدونات الإلكترونية مرتبطة ارتباطا وثيقا بنظام النوع الثنائي. وتشير أبحاثهم إلى أنه على الرغم من أن المدونات الإلكترونية قد تشجع الرجال على تغيير أدائهم الذكوري التقليدي من خلال تبني المهارة الأنثوية تاريخيا والمتمثلة في كتابة اليوميات على شكل مدونات للحياة الشخصية، «فلاتزال عروض الهوية الجنسانية عبر المدونات الإلكترونية مرتبطة ارتباطا وثيقا بفكرة الذات في «الحياة الواقعية» والتجارب اليومية التي تشكلها» (van Doorn et. al., 2007: 155). وبالمثل فمن خلال تبني المدونات الإلكترونية التي وصفتها الوسائط في الوقت نفسه على أنها ذكورية (Herring et al., 2004)، وإنشاء مذكرات تخص الحياة اليومية، تصبح المرأة في وضع يشكِّل نقطة التقاء بين الكتابة الأنثوية التقليدية لليوميات وبيئة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات التي عادة ما يشغلها الرجال (van Doorn et al., 2007: 147). ويُعَد ذلك مثالا جيدا على التوتر بين إعادة صياغة الممارسات الأنثوية والذكورية التقليدية والتحديات المحتملة التي تواجه هذه المعارضات الثنائية التي تطرحها تكنولوجيا المعلومات والاتصالات المعاصرة. بيد أن التشوش الذي يصيب المرء بسبب «حداثة» الابتكارات الرقمية يشتت الانتباه بعيدا عن الأسئلة الأساسية مثل: كيف أدت تكنولوجيا الجيل الثاني من شبكة الإنترنت والتكنولوجيات الرقمية بصفة عامة إلى تغيير الشبكات الاجتماعية والمعاني المرتبطة بهذا التفاعل الاجتماعي؟ ولكي نفهم كيف يمكن إعادة تشكيل الصداقة عند تفاعلها مع تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، فنحن في حاجة إلى البحث في التصورات السوسيولوجية للترفيه والصداقة (Green et al., 1990; Spencer and Pahl, 2006).

وفي محاولة لضبط التصورات المعاصرة لهذه التعقيدات فقد اطلع بعض أصحاب النظريات التكنولوجية النسوية على المناقشات حول عمليات التداخل لتفسير اختلاف استخدام التكنولوجيا (Kennedy, 2005). وقد كانت الرؤى الصادرة عن النسوية وما بعد الاستعمار مفيدةً أيضا في تشكيل المنظورات النسوية المعاصرة حول التكنولوجيا. ويرى هاردينغ Harding (2008) أن مؤسسات الحداثة، بفلسفاتها العلمية والسياسية، كانت دائما تخلق تصورات مخيفة حول «المؤنث» و«البدائي». وهنا يقاس التقدم العلمي والتكنولوجي الغربي وفق البُعد عن هذه التصورات، مما يثير تساؤلات حول المستفيد من هذا «التقدم». فالتحليلات النقدية للتكنولوجيا، بما

في ذلك تلك المتعلقة بالعصر الرقمي، في حاجة إلى الدخول في التطبيقات الاجتماعية والسياسية للتكنولوجيا من خلال منظور نسوي.

وفي الوقت نفسه أكد علم الاجتماع النسوي التحديات التي يفرضها التحول الثقافي (Jackson, 1999) والمناقشات حول عمليات التداخل والتعقيد، حيث تؤكد الأخيرة أنه في حين أن الاعتراف بأهمية التداخلات، على سبيل المثال بين النوع ، والسن، والطبقة، والعرق، في فهم الأوجه المعقدة لعدم المساواة، فإن التحول إلى مفاهيم التداخل الأكثر التصاقا بفترة ما بعد الحداثة من خلال الهوية هو أمر إشكالي بسبب النسبية والانقسام (Walby, 2002). والسؤال الذي يُطرح هنا هو: كيف نفسر مجموعة من القضايا المعقدة المتعلقة بالنوع، بما في ذلك التعايش بين الهويات الجنسانية المُعاد تشكيلها والمبهمة والتقليدية في الفضاءات الرقمية، وبين أوجه اللامساواة البنيوية في استخدام التكنولوجيا وأيضا عبر هذا الاستخدام، وبين السياقات المحلية والمختلفة التي يجري بها كل ذلك؟ وتوضح دراسة الحالة التالية السبب في أن التنظير حول النوع لايزال مهما بالنسبة إلى الخيال السوسيولوجي المعاصر خلال تفسيره للتحول الرقمي. وهي تهدف إلى الإسهام في تفسيرات «النوع في» العصر الرقمي وفي عملية «إضفاء النوع» على هذا العصر.

إضفاء النوع على التحول الرقمي: الهواتف المحمولة في العلاقات الشخصية

استخدام التكنولوجيا والترابط الاجتماعي

لقد أصبح استخدام الهاتف المحمول مجالا عاما للبحوث التجريبية عبر المنظورات المختلفة للعلوم الاجتماعية ومن بينها علم الاجتماع. فقد أصبحت الهواتف المحمولة تمثل مفهوما لتكنولوجيات التواصل، إضافة إلى تكنولوجيات الأمان والتحرر، مما يتيح للمستخدمين إمكان التواصل مع الأسرة والأصدقاء طوال الوقت (Ling, 2004). إن دور التكنولوجيا في الحفاظ على العلاقات الشخصية له تاريخ طويل؛ حيث إن التطورات التكنولوجية المرتبطة بالحداثة جعلت الاتصال بين كلٍ من المتقاربين والمتباعدين أرخص وأسرع وأيسر حالا. وقد أظهرت الأبحاث المعاصرة التي أُجريت حول «التنقلات» أنه على الرغم من تزايد معدل تنقلات

الأفراد من خلال السفر، فإن نسبة التواصل تزداد أيضا من خلال تكنولوجيا الاتصالات، وهو ما يثير تساؤلات مهمة حول القرب الجغرافي والعاطفي الذي تنطوي عليه العلاقات الاجتماعية القائمة على أساس النوع ومدى احتياج الأفراد إلى الاتصال المباشر وجها لوجه من أجل الشعور بالقرب العاطفي من الأصدقاء والأسرة (Urry, 2007; Larsen et al., 2006; Urry and Sheller, 2006). وكما ذكرنا آنفا يُعتقد أن الصداقة بوجهٍ عام قد شهدت تغيرات جوهرية، ما أدى إلى تعزيز روابط الصداقة، وفي بعض الحالات إلى تكونها، من خلال الوسائط الرقمية، الأمر الذي يتيح للأفراد إمكان التواصل مع الأصدقاء على كلا المستويين المحلي والعالمي بسهولة ويسر.

علاوة على ذلك، فهناك نقاش سوسيولوجي متواصل حول طبيعة العلاقات الشخصية المعاصرة، وخصوصا حول أنواع العلاقات التي تحل محل روابط التضامن التقليدية التي تتشكل من خلال الأقارب والعشيرة والجيران (Spencer and pahl, 2006). ويفترض بعض أصحاب النظريات أن الروابط الشخصية المعاصرة قد ازدادت هشاشتها وسطحيتها وعدم ديمومتها مقارنة بما قبل (Beck and Beck Gernsheim, 2002, Bauman, 2003)، بينما يدعي آخرون أن الصداقات قد أصبحت ذات أهمية متزايدة بوصفها ساحات هادفة للنشاط الاجتماعي (Allan, 1996). بل يلاحظ سبنسر Spencer وبال (2006) Pahl، أنه على الرغم من ميل الأفراد إلى تكوين شبكات من المقربين، تتسم بقدر أكبر من المرونة وبتوفير مساحة أكبر من الاختيار والتنوع بشأن من يصادقونهم، ومدة العلاقة التي يقيمونها معهم ومعناها والغرض منها، فإنه يظل لديهم التزام بالحفاظ على التضامن الدائم والهادف. كما تعكس المناقشات حول الأسرة تلك التحولات الأوسع نطاقا نحو المرونة والاختيار وسقوط الحدود الجغرافية (Smart, 2008)؛ ولكن كان هناك اهتمام أقل بدور التكنولوجيا في دعم التفاعل والتواصل مع الأسرة والأصدقاء وبالأبعاد الجنسانية لتلك التفاعلات.

وفي النظريات التي وُضعت حول المجتمع الشبكي، يُنظر إلى الشبكات الاجتماعية على أنها غير مرتبطة بالمكان والزمان مما يوفر للأفراد حرية البحث عن أنماط جديدة من الأنشطة الاجتماعية في الفضاءات الرقمية (النزعة

الفردية الشبكية). وفي هذا الاتجاه يمكن للأفراد التواصل في «مجتمعات من اختيارهم» communities of choice مع آخرين يشاركونهم اهتماماتهم وعلاقاتهم (Castells, 2003: 132). وهذا يثير تساؤلات سوسيولوجية مهمة حول علاقات النوع وعمليات الاتصال القائمة على أساس النوع، وخاصة كيفية تناغم الأنشطة الاجتماعية الافتراضية مع أدوار الأمومة والأبوة والأسرة والتزامات العمل التي غالبا ما تضرب بجذورها في الزمان والمكان. وعلاوة على ذلك تنتقد واسمان (2004) مفهوم كاستلز Castells للمجتمع المحلي، وتقول إن العلاقات المجتمعية - والمعروفة تاريخيا أنها من اختصاص المرأة - بدأت تحل محلها مجتمعات الإنترنت الشبكية وذات النزعة الذكورية التي لا تتقيد بمسؤوليات الأسرة والمنزل (المعتمدة على الزمان والمكان). وهذا يؤدي إلى إبراز النقاشات المهمة حول دخول المرأة مجتمعات الإنترنت الشبكية، وشبكات الدعم عموما سواء أكانت الافتراضية أم التي تعتمد على المكان. ويوضح بحثنا التجريبي، وكذلك الأبحاث الأخرى، أن الهواتف المحمولة هي نوع أساسي من أنواع التكنولوجيا التي تظهر وتسجل فيها علاقات النوع حول الأسرة والصداقة والعمل، وخصوصا عندما نركز على العلاقات الشخصية و«تكوين» الأسرة والصداقة والمجتمع(*). وتؤكد الأبحاث مرارا وتكرارا (Frissen, 1995) أن المرأة تستخدم كلا من الهواتف الثابتة والهواتف المحمولة أكثر من الرجل في تقديم الرعاية، وأغراض العمل العاطفي، وخاصة الحفاظ على علاقات الأسرة والصداقة والتواصل بين الأشخاص (Wajcman et al., 2008).

ويستند القسم التالي إلى نتائج من دراسة نوعية لاستخدام الهاتف المحمول والمعاني المرتبطة بهذه التكنولوجيا تحديدا بالنسبة إلى الشباب والفتيات الباكستانيين والبريطانيين. واعتمد البحث على اختيار المشاركين في البحث من مدينة تقع في شمال شرق إنجلترا في الفترة من ديسمبر 2004 وحتى أبريل 2005، وتركز المناقشة على مجموعات بحثية تتكون من ست سيدات وثلاثة رجال، وتضم 47 مشاركا تتراوح أعمارهم بين 14 و25 عاما (29 سيدة و18 رجلا). وقد أكد هذا البحث

(*) انظر غرين وسنغلتون (2007 و2009) للحصول على مناقشات أكثر تفصيلا لهذا البحث. [المؤلف].

أنه على الرغم من اتساع نطاق التكنولوجيات الرقمية فإن كثيرا من الديناميكيات الجنسانية للأنشطة الاجتماعية التي تتخللها التكنولوجيا تظل ثابتة بنحوٍ ملحوظ.

الأبعاد الجنسانية للأنشطة الاجتماعية عبر الهواتف المحمولة

أشار بحثنا إلى المعاني ذات الصلة بالتواصل مع الأصدقاء والأسرة من خلال الهواتف المحمولة بدلا من التركيز فقط على مدى التواصل ونوعه، وهو الأمر الذي غالبا ما يكون مختلفا بالنسبة إلى الرجل والمرأة. وكشفت بيانات الدراسة مزيجا مركبا من المعاني والممارسات السوسيولوجية التكنولوجية، التي تعكس مفهومنا للعصر الرقمي الذي يتسم بالغموض، ويعيد صياغة هويات النوع. وبالنسبة إلى بعض الرجال، وليس الكل، الذين شملهم بحثنا، فإن الهواتف المحمولة كانت في المقام الأول ترتبط بمكانة الشخص من حيث كونه «رجل أعمال له علاقات جيدة» من خلال جهات اتصال وشبكات اجتماعية مكثفة. وهذه المجموعة من الرجال كانت تربطهم صداقة سنواتٍ عديدة حتى بعد مرحلة الدراسة، وارتبط كثير منهم بالمشاريع التجارية الأسرية في المنطقة المحلية. وهنا توصف الهواتف المحمولة بأنها «ضرورة أساسية للاستخدام الفعال بدلا من الاستخدام التعبيري في الحفاظ على جهات الاتصال عبر روابط اجتماعية متعددة، بما في ذلك شبكات الأعمال والهواتف المحمولة التي كانت جزءا من «التعبير عن الذكورية». وقد كانت هذه الشبكات عادة متسعة ومتداخلة، وتمتاز بعدد كبير من الروابط الفعالة، والارتباط بالبحث الذي يشير إلى أن حياة الرجال عادة ما تكون أكثر عمومية من حياة النساء، لهذا السبب يصبحون على اتصال بشبكات أوسع من الأفراد من خلال العمل والترفيه (Allan, 1996).

وعلى الرغم من أن النساء قد تحدثن أيضا عن الهواتف المحمولة بوصفها ضرورة، ففي هذه الدراسة تحديدا كان لتلك الهواتف قيمة اجتماعية مختلفة وكانت تُستخدم في مجال الأسرة والصداقة، أكثر مما كانت تُستخدَم في مجال العمل والتوظيف. ويعتمد ذلك على الأبحاث حول الهواتف الأرضية والتي أكدت أن كثيرا من المشاركين في البحث من الذكور كانوا أقل مشاركة في «عملية التواصل» التي تحدث بواسطة الهاتف، معتبرين أن ذلك من «اختصاص المرأة»

(Lohan, 2001:201-202). ونجد في بحثنا أن تصورات الرجال لكيفية الحديث وإرسال الرسائل النصية تختلف عن تصورات النساء؛ فتبادلهم للمعلومات قصير ومباشر وعملي المنحى (على سبيل المثال مكالمة مختصرة لترتيب اجتماع)، بينما عادة ما يُنظر إلى حديث المرأة في الهاتف المحمول على أنه طويل ومستهلك للوقت وحميمي، وكذلك يوصف بأنه «ثرثرة» و«محادثة تافهة» (Frissen, 1995). ويرتبط هذا بالأبحاث الأخرى حول صداقة الرجال، وهو ما يُظهر أنه بينما يرغب كل من الرجال والنساء في التقارب، فإن الرجال يعتبرون أن الأنشطة تشكل النقطة المحورية والأساسية للصداقة، بينما تَعتبر النساء أن العامل الأهم يتمثل في جوانب بناء العلاقات مثل «التحدث» وإيجاد أرضية مشتركة مع الأصدقاء المقربين (Allan, 1996; Green, 1998). ويبدو أن هذه العلاقات الاجتماعية القائمة على النوع تنعكس بنحوٍ مماثل في استخدامهم للتكنولوجيا، حيث تعمل «الثرثرة» في الهاتف النقال على إضفاء المرونة على روابط الصداقة بين الإناث.

بيد أن الأبحاث السابقة حول الهاتف هي التي أدت دورا أساسيا في إيجاد روابط عميقة بين النوع والمجتمع المحلي واستخدام التكنولوجيا. فقد حددت تلك الأعمال مفهوم الهاتف على أنه تكنولوجيا قائمة على أساس النوع، وأكدت أهمية الهواتف الثابتة في الحفاظ على الصداقة وعلاقات القرابة، وخصوصا بالنسبة إلى المرأة (راجع Frissen, 1995). فعلى سبيل المثال عرَّف مويال (Moyal (1992:87 «ثقافة الهاتف بوصفها ثقافة نسوية ديناميكية» يشكل فيها الهاتف «جزءا من عملية التشكيل الثقافي؛ فهو جزء من الخطابات التي تتشكل فيها هويات النوع...». وهكذا فإن النساء لسن مجرد أشخاص يحبون كثرة التحدث مع كلٍ من الأسرة والأصدقاء (عادة من النساء)، ولكنهن أيضا فاعلات أساسيات في نظام الدعم الاجتماعي الذي يحافَظ عليه من خلال استخدام الهواتف (التكنولوجيا). وبالإضافة إلى ذلك وجد راكو (Rakow (1992:87 أنه على الرغم من أن النساء يقدمن دعما اجتماعيا نقديا من خلال الهاتف، فإن «محادثات» النساء غالبا ما كان يُقلَّل من شأنها باعتبارها مجرد «دردشة» أو «ثرثرة» ليست ذات قيمة. وعلى الرغم من ذلك فإن المناقشات الأخيرة حول الطبيعة المتغيرة للمجتمعات المحلية، و«كل ما هو محلي»، تشير إلى أن «ثرثرة» المرأة تظل عملية اجتماعية أساسية في تماسك روابط الصداقة والأسرة والمجتمع المحلي (Morgan, 2005). ويتحقق هذا

التواصل على نحو متزايد من خلال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة التي تتضمن الإنترنت والبريد الإلكتروني. وعلى الرغم من وجود بعض التفاهات في سلوك المرأة عبر الهاتف، فإنه يمكن القول إنها تشكل أساس الترابط الاجتماعي والاتصال.

وقد توصلنا في بحثنا إلى أن الشباب انخرطوا في عمل «تكوين» المجتمعات الرقمية من خلال هواتفهم المحمولة: أي إنهم كانوا يشاركون بنشاط في شبكات مخصصة للاتصالات تضمنت أعضاء من الأسرة والأصدقاء والمعارف عبر فضاءات محلية وكونية هُيِّئت من خلال استخدام التكنولوجيا الرقمية. كما استخدمت الفتياتُ على وجه التحديد الهواتفَ المحمولة بطرق تماثل «الحارة» الهاتفية telephone "neighbourhood" (Moyal, 1992) الواردة في البحوث السابقة، وهي تشكل فضاء محوريا تُجرى فيه «أحاديث البنات» في شكل محادثات وإرسال رسائل نصية (Coates, 1996). وتتضمن اتصالات الهواتف المحمولة بالنسبة إلى النساء تبادلا مستمرا لرسائل الصداقة والنكات والثرثرات ومحادثات عامة طوال الليل: أي كل جوانب «تكوين الصداقة» من خلال أحاديث النساء. وهؤلاء الفتيات يحولن غالبا رسائلَ «الثرثرة» إلى معلومات اجتماعية وشخصية أو استفسارات، عبر شبكات الهاتف المحمول لمشاركة خبراتهن وتعزيز الحميمية في علاقاتهن الشخصية. وبعيدا عن الرسائل السطحية والعشوائية، فإن هذه المحادثات النصية مخصصة لخلق روح الانتماء والعلاقات الشخصية الهادفة والحفاظ عليها. وتبادل رسائل «الصداقة» الحميمية باستخدام هذه الطقوس الخاصة بالهواتف المحمولة على وجه الخصوص يؤكد مكانة الفتيات بوصفهن صديقات مقربات، كما أنهن بذلك يقدمن العمل الأساسي اللازم للحفاظ على الحياة الاجتماعية عندما يصبحن بالغات. وبالإضافة إلى ذلك فإن الرجال أنفسهم يتحدثون عن كونهم أكثر ارتباطا عبر الهواتف المحمولة مما يثير تساؤلات حول تأثير التكنولوجيات الرقمية الجديدة في الأشكال المعاصرة من النزعة الذكورية. وهذا يرجع إلى تأكيد راكو (1992) السابق أن التكنولوجيات المحمولة تضعف أنماط الاتصال والهويات القائمة على النوع وتعيد صياغتها.

إن تحولات الحياة مثل الزواج والأبوة تعيد أيضا تشكيل استخدام التكنولوجيا وعادة ما تؤثر في النساء والرجال بطرق مختلفة، فعلى سبيل المثال مناقشتنا مع

مجموعة من الأمهات والفتيات المتزوجات قد كشفت علاقات مهمة بهواتفهن المحمولة التي تغيرت مع الزواج والأمومة. وعلى الرغم من أن الهواتف المحمولة تظل مهمة بالنسبة إلى الفتيات المتزوجات باعتبارها وسيلة للتواصل ومخزنا للأسرار الشخصية مثل الصور وقائمة المتصلين، فإنه يبدأ استخدامها في أغراض متعددة، مما يوضح مشاركتها في أشكال مختلفة من الأنشطة الاجتماعية؛ حيث تبعد المرأة عن المشاركة النشطة بنحوٍ مكثف في مجموعات الصداقة النسائية، وتتجه نحو أدوار متعددة الأوجه في شبكة علاقات القرابة الممتدة. كما يتطلب الدور الجديد للمرأة في المنزل توفير قدر كبير من الوقت المستغرَق في أنشطة الرعاية وإدارة شؤون المنزل. وبالنسبة إلى الفتيات تأتي المسؤوليات المنزلية والأسرية في المقدمة، ما يؤدي إلى الحد من الوقت المخصص للتواصل مع الأصدقاء. وعلى الرغم من عدم اشتمال العينة على أي أزواج شباب لتوضيح منظوراتهم، فقد ألمحت الفتيات إلى أن استخدام شركائهن للهاتف لم يطرأ عليه قدر مماثل من التغيير.

وسلطت دراستنا عن الهواتف المحمولة أيضا الضوء على العمليات التي أصبحت بها الفتيات زوجاتٍ وأمهات، وعلى التغيرات من العلاقات القوية مع مجموعات الأقران إلى هوية «مزدوجة» تتداخل مع الأمومة، وهو مجال يهتم به علماء الاجتماع دائما. وهذه النظرة للأمومة من خلال الهواتف المحمولة تكشف أنه في هذه اللحظة من حيواتهن تُعطى الأولوية لعلاقاتهن الزوجية والأبوية والأسرية، وذلك على حساب الوقت المخصص للأصدقاء؛ ولكن يمكن أن يعزى ذلك إلى الاختلافات الثقافية في تقييم العلاقات الأسرية والصداقة (Spencer and Pahl, 2006) وللصعوبات التي تواجهها النساء باستمرار في قضاء وقت الفراغ خارج المنزل من دون أزواجهن (Green et al., 1990). ويمكن النظر إلى الهاتف المحمول على أنه تكنولوجيا مفيدة على وجه الخصوص للأمهات الحبيسات في منازلهن؛ حيث يتيح لهن إمكان إرسال رسائل لإعادة تأكيد الروابط الاجتماعية والاتصال بالناس فتراتٍ قصيرة. ومع ذلك فإن فضاءات التحدث والخروج مع الأصدقاء تصبح مقيدة ويجب أن تتناسب مع الروتين الأسري (للمتزوجة)، وذلك على عكس ما كان عليه الأمر عندما كنّ عَزَبات. وعلى الرغم من الوعد بالاتصال الدائم عبر تكنولوجيات المعلومات والاتصالات الجديدة، فإن القيود الثقافية

والمادية حول الاتصال المباشر يمكن أن تؤدي إلى إضعاف قوة بعض أنماط الروابط الشخصية. وعلاوة على ذلك فإن ذلك يثير تساؤلات جادة حول التأكيد المعاصر على حرية اختيار من نصادقهم وتوقيت ذلك.

النتائج

عرض هذا الفصل أدلة تشير إلى أن هناك إضفاءً للنوع الاجتماعي على العصر الرقمي، مبينا وجود اعتراف متزايد بالأبعاد الجنسانية للتكنولوجيا الرقمية في الحياة اليومية. ومن وحي هذه الرؤى المأخوذة من مجموعة كبيرة وقيمة من الأعمال حول النوع الاجتماعي والتكنولوجيا، فإننا نقترح أنه قد حان الوقت لنقل هذا النقاش إلى مرحلة أحدث من خلال الانتقال إلى العصر الرقمي. فقد تجاوز أصحاب النظريات النسوية، بمن في ذلك علماء الاجتماع، المفاهيمَ الثنائية التبسيطية للتكنولوجيا بوصفها قمعية أو تحررية بالنسبة إلى المرأة، وأصبحوا يعترفون بأن التكنولوجيا الرقمية نعمة ونقمة في آن واحد. غير أننا لانزال في انتظار «الوعد» المنشود للتكنولوجيات الرقمية في مواجهة أوجه عدم المساواة القائمة على أساس النوع في الحياة اليومية. وعلاوة على ذلك فبوصفنا علماء للاجتماع النسوي، قد أكدنا وجود ضرورة ملحة لمواجهة التحديات النظرية الجديدة التي يثيرها العصر الرقمي، من أجل تفادي المحو (المحتمل) لمنظورات النوع من المجالات الأساسية في الحياة اليومية التي تصبح رقمية على نحوٍ متزايد، وكذلك تناول الأساليب التي ربما تعيد التكنولوجيات الرقمية من خلالها تشكيل الحياة اليومية، فضلا عن صياغة مفهوم النوع ذاته. ولقد تمثل محور اهتمامنا الأساسي في تسليط الضوء على المجالات التي يظهر فيها النوع والتكنولوجيا، ويتطوران بأساليب جديدة ومعقدة ومثيرة للاهتمام، بما في ذلك زمان ومكان ذلك الظهور. وتتمثل المهمة النقدية لأنصار الاتجاه النسوي في التركيز على تلك التعقيدات وتفسيرها وعلى الآليات والعمليات التي تشكلها في أثناء ظهورها. وبوصفنا نسويين فنحن نشهد أيضا التوترات بين الأوجه الدائمة لعدم المساواة بين الجنسين والاحتمالات الجديدة للتحدي والتغيير. وفي عصورنا التي تتسم بمزيد من المرونة والسلاسة فهناك حاجة إلى إخضاع التجديد والإثارة التي تنطوي عليها المجالات الجديدة للبحث الرقمي

في مناقشات سوسيولوجية ونسوية على نطاق أوسع. وللعودة إلى ما ورد في بداية الفصل، فإن ممارسة الخيال السوسيولوجي النسوي هي أمر جوهري لتفسير العصر الرقمي بأساليب نقدية وإبداعية ولإحياء النظرية السوسيولوجية.

وأخيرا نحن على وعي بتأثير المنظرين السوسيولوجيين الكلاسيكيين مثل سي رايت ميلز (1970) ,C. Wright Mills، وبرغر Berger ولكمان (1967) Luckman الذين أطلقوا نصيحتهم الشهيرة لحثّنا على الالتزام بالمساعي الفكرية والأخلاقية لتمثيل الحياة اليومية بأكثر الطرق دقة وشمولا. وبالمثل فنحن نحتج بأن التحول الرقمي الحديث يؤدي إلى تحول سياسات التكنولوجيا بطرق معقدة، ما يحتم على علماء الاجتماع النسوي أن يكون لديهم التزام أخلاقي وسياسي بكشف السرديات الجنسانية للتكنولوجيا في الحياة اليومية. بل هناك كثير من الأعمال المطلوب إنجازُها. ولا يتسع المجال في هذا الفصل للدخول في الإمكانات والتحديات الهائلة التي تواجه علماء الاجتماع النسوي في هذا العصر الرقمي، ولكننا حاولنا استخدام هذا الفضاء لعرض بعض الأفكار حول كيفية إعادة التنظير للتكنولوجيا الرقمية وأيضا حول مسارات البحث في المستقبل. والعصر الرقمي لا يواجه التحديات التجريبية والنظرية فقط، بل يواجه أيضا التحديات المنهجية بما في ذلك بحث معاني التحول الرقمي بالنسبة إلى مناهج البحث النسوي. وهناك قضايا اجتماعية وسياسية كبرى في العصر الرقمي تحتاج إلى البحث أيضا، بدءا من المجالات العامة لعدم المساواة الاجتماعية وتمثيلات النوع في الإعلام الرقمي، وصولا إلى المجالات المحددة للبحث بما في ذلك العنف ضد المرأة على الإنترنت، ومشاركة المرأة وتمثيلها في الفضاءات الرقمية، وتأثير التكنولوجيات في العلاقات بين الأشخاص القائمة على أساس النوع وتقسيم العمل. وإن ممارسة خيالنا السوسيولوجي هو مورد حيوي للحفاظ على قوة منظورات النوع، والأهم من ذلك التركيز على تطور العلاقات الاجتماعية التي تنطوي على التكنولوجيا؛ وهي إجراء يتفادى التثمين المغالَى فيه للمستقبل الرقمي.

3

كلمةٌ ختامية: العلاقات الرقمية والأمل النِسوي

ديبرا فيرداي

إنَّ أيَّ إعادةِ تفكيرٍ نقديةٍ في العلاقاتِ في العصرِ الرقمي تشملُ، إلى حدٍّ ما، «الحديث عن الماضي». ويتميز هذا المجال تاريخيا، ربما أكثر من أي مجال من المجالات الدراسية الأخرى المتعلقة بالوسائط والتكنولوجيا الرقمية، بالتأمل غير المستنِد إلى الوقائع وبالادعاءات العشوائية التي تبدو لنا، إذا ما ألقينا نظرة إلى الماضي، وكأنها تهدف تقريبا إلى إحداث الذعر لدى علماء الاجتماع والنسويين على حد سواء. بل إن دراسة العلائقية relationality والذاتية في سياقات شبكة الإنترنت هي أحد المجالات التي ربما نرغب فيها في توجيه النقد لفكرة «العصر الرقمي» خاصةً. والسؤال الذي تطرحه النظريات النسوية حول العصر الرقمي

«السيــاساتُ النسوية، وليست التكنولوجيـــا، هي التـي تؤدي دورا جوهريا في تحقيق المساواة بين الجنسين»

هو كيف نتجنب فكرة أن العصر الرقمي يمثل ثورة اجتماعية ضخمة تتطلب تحولا مماثلا في التفكير السوسيولوجي، عندما يكون جزءٌ كبيرٌ مما نراه في الفضاءات الرقمية لايزال مألوفا على نحو محبط؟ وكيف للمرء أن يفعل ذلك من دون أن يتصف بالسلبية والتبسيطية التي يبدو أن تلك الجملة توحي بهما؟

ينخرط كلا الفصلين في هذا الجزء في هذه العملية من الحديث عن الماضي، وهو مشروع أرى أنه جوهري بالنسبة إلى مواضيع النوع والعلائقية، وذلك لسببين: أولهما أن التنظير المثالي أو بالأحرى غير النقدي حول المجال الرقمي يعد غير مُرضٍ من الناحية التاريخية في تعامله مع التساؤلات عن النوع والسلوك الجنسي. وثانيهما: في الفترة نفسها طرحت النظرية الاجتماعية طرقا جديدة للتفكير في العلاقات، والعلائقية، والذات، بيد أنها لم تقدم دائما حوارا مثمرا مع النظريات الخاصة بالشأن الرقمي على رغم انشغال الأخيرة بالطرق التي يمكن أن يُعاد بها تشكيل العلائقية من خلال التكنولوجيات الجديدة. كما أن التحول الرقمي في الحياة الاجتماعية قد تزامن مع التحول الوجداني في النظرية الاجتماعية، ولكن على الرغم من ذلك فإنه يبدو في بعض الأحيان أنهما يسيران على خطين متوازيين من دون أن يتقابلا. وعلى الرغم من أن الباحثين النسويين في الثقافة الرقمية على وجه الخصوص كانوا دائما مهتمين بصياغة السياسات الوجدانية والعلائقية للثقافات الرقمية، فإن الأعمال المميزة لم تبدأ بالظهور إلا أخيرا في هذا المجال السوسيولوجي والرقمي في الحوار. (انظر، على سبيل المثال، كونتسمان Kuntsman وكراتزوجياني Karatzogianni (2012)).

وقد تعامل كلا الفصلين في هذا الجزء مع العلائقيات الرقمية من منظور نسوي، وبهذا الشكل فإنهما ينخرطان في عملية الحديث عن الماضي التي ستكون مألوفة بالنسبة إلى العديد من الباحثين النسويين في المجال الرقمي. وفي الأيام الأولى للتعامل الأكاديمي مع تكنولوجيات المحمول والإنترنت، برز كثير من المزاعم المتكلفة حول القوة التحولية للتكنولوجيا إلى درجة أنها – وهذا مثير للسخرية بالنظر إلى الرؤية ما بعد الحداثوية التي يتمتع بها جزء كبير من هذا التنظير – شكّلت تقريبا سردية كبرى: عن التكنولوجيا بوصفها أداة للتحرر، وعن إسقاط النظم الراسخة للنوع والجنسانية، وعن التجربة الوهمية التي تنطوي على بوادر التحول ظاهريا، ويطلق عليها «الجنس الإلكتروني». وبالنسبة إلى علم الاجتماع فإن أهم الآثار الجانبية لهذا التنظير تتمثل

في الاستجابة النسوية التي تظهر وتتفاعل بقوة وبحسم وتطرح نقاشات وتساؤلات جديدة. وعلى نحوٍ مؤكد فإن السؤال الذي يُطرَح في كلا المقالين - والذي يتعلق بكيفية التوفيق بين النظرية الاجتماعية والتحليل النسوي الفعال والموجه إلى النقد - يظهر بوصفه مجالا مهما لعلم الاجتماع في العصر الرقمي. وبالنسبة إلى لين جيمسون Lynn Jamieson التي تتذكر هنا رد الفعل النقدي على عملها المبدع «الحميمية: العلاقات الشخصية في المجتمعات الحديثة» الذي نشر في العام 1997، والذي تعرضت فيه للاتهام بأنها تجاهلت بعض الموضوعات مثل «التراجع المحتمل للجنس الذي يشمل التلامس الجسدي واكتساب الجسد أبعادا جديدة»، فإن ذلك السيل من الأعمال التي تحتفل بـ «الجنس الإلكتروني» وبالعبث بالنوع الاجتماعي عبر الإنترنت، والتي ظهرت في التسعينيات، عملت على إسكات النقد النسوي للأساليب التي يمكن من خلالها إعادة إنتاج علاقات النوع المعيارية في الفضاءات الرقمية. وفي هذا الاتجاه، هي تسجل «سخريتها حول [سرديات] التحرر والابتكار، متجاوزةً الجسد والنصوص التقليدية للجنس والنوع»؛ لأنه وفقا للملاحظة الموفقة التي تطلقها فإنه «بالإضافة إلى إتاحة الإمكانات لفضاءات آمنة، وتوجيه القوة، والعبث بالنوع الاجتماعي وتحريره، فإن الإنترنت تتيح أيضا الإمكانات لإعادة خلق منظومات الجنسانية والنوع» (هذا المجلد). وإذا ما ألقينا نظرة إلى الوراء، فسنجد أن هذا الشك يبدو مبرَّرا: فالحياة على الإنترنت، بوجهٍ عام، لم تتطور وفق المسارات التي تصورها منظرو ما بعد الحداثة في التسعينيات من القرن العشرين. والاتجاهات الأكثر إثارة للاهتمام بالنسبة إلى علم الاجتماع المعاصر - بما في ذلك دمج تكنولوجيات المحمول في الحياة اليومية، وأهمية الأسرة وعلاقات الأصدقاء وظهور ثقافة التدوين - يبدو أنها، من خلال تأكيدها على الأمور الدنيوية واليومية، تشكل النقيض التام للمجاز الذي ينظر إلى الإنترنت بوصفها ملعبا مجهولا. وفي الوقت ذاته فإن الاستجابات النظرية الأكثر أهمية للثقافة الرقمية هي التي انبثقت من الأعمال التي انتقدت هذه المركزية التكنولوجية technocentrism، وبالأخص تلك التي انبثقت من الدراسات الخاصة بالمدرسة النسوية وبفترة ما بعد الاستعمار.

لقد كانت الكتابة المبكرة عن النوع الرقمي والجنسانية تتميز بادعاءات كثيرة مستمدة من الخيال العلمي، وأيضا من القراءة المتحمسة نوعا ما لنظرية ما بعد الحداثة الأكاديمية جنبا إلى جنب مع ما أرى أنه قراءة خاطئة لرؤية بتلر؛ فالنوع، في

السرديات الشعبية للثقافة الإلكترونية cyberculture، كان يُنظر إليه على أنه مسألة تتعلق إلى حد كبير بالفعل الشخصي، أو بوصفه رداءً يُرتدى ويُنزَع، على الرغم من أن بتلر حذرت من أن يُقرَأ عملها بهذه الطريقة. وهذه القراءات الخاطئة والحذف وانتشار التمني أدت إلى إخفاء النوع، وأيضا إلى اتجاه أكاديمي تفاؤلي يعرف بالنسوية الإلكترونية cyberfeminism التي تهدف إلى تفسير مسألتي القوة والتقاطع. وكما يلاحظ كل من غرين Green وسِنغلتون، فإن النوع غالبا ما يُخْفَى في عملية التنظير الكبرى حول التغير التكنولوجي والاجتماعي، وفي العديد من الدراسات التجريبية عن استخدام تكنولوجيا المعلومات (هذا المجلد). وإلى حد ما يتعامل كل واحد من هذه المقالات مع موضوع الاختفاء؛ ومع حالات الغياب والصمت والحذف التي يصبح النوع من خلالها بمنزلة الغائب الحاضر structuring absence ضمن دراسات الثقافة الإلكترونية بوصفها فرعا أكاديميا ناشئا ومثيرا للجدل. وهذا الأمر يصبح أكثر إثارة للدهشة إذا ما أخذنا في الاعتبار الاهتمام الشديد لعلماء الاجتماع النسويين في المجال الرقمي. بل إن كل مقال يشارك جزئيا في ضبط الدراسات النسوية للمجال الرقمي من خلال لفت الانتباه إلى مجموعة الأعمال التي أُنتجت ضمن علم الاجتماع ودراسات النوع ودراسات التكنولوجيا والعلوم وعبْر الحدود الفاصلة بين هذه الفروع الأكاديمية. وغالبا ما يتضمن هذا المشروع ملاحظة الظواهر الاجتماعية عبر شبكة الإنترنت: وهنا يقدم غرين وسِنغلتون حجة قوية لإجراء دراسة سوسيولوجية للمجال الرقمي تكون قائمة على التجربة؛ حيث يزعمان أننا في حاجة إلى النظر إلى المجال الرقمي بوصفه عدسة مهمة يستطيع من خلالها علماء الاجتماع الاستمرار في تحليل الطبيعة المحلية للحياة اليومية، بما في ذلك السلوكيات والسياقات القائمة على أساس النوع، بدلا من الانبهار بالمشهد الجديد واللامع الذي يتيحه العصر الرقمي كما يبدو (هذا المجلد). وهذا الأمر بالتأكيد لا يهدف إلى الإيحاء بوجود ثنائية تكون فيها النظرية مجردة وغير ذات أهمية، في حين يصبح البحث التجريبي إلى حد ما أكثر صحة وواقعية. الأمر الذي أقترحه، في أعقاب الفصلين اللذين يتضمنهما هذا الباب، هو أن النظرية يجب أن تتجاوب مع التجربة المعيشة، فهي ليست أداة يطبقها المرء للوصول إلى نتيجة محددة مسبقا، بل يجب أن تنبثق من الحوار والاستماع، وهذا يُعَد صحيحا إلى حدٍّ كبير فيما يتعلق بتأمل مواضيع الذاتية والحميمية.

وبأساليب مختلفة، فإن كلا المقالين لا يشير إلى ضرورة إعادة النظر في علم الاجتماع لمواجهة التكنولوجيا الرقمية، بقدر ما يشيران إلى أنه قد يكون من الضروري والمفيد النظر إلى علم الاجتماع والتكنولوجيا الرقمية معا بطرق يمكن أن تكون جديدة كليا. وأحد العناصر الأساسية في هذا التفكير يتمثل في الاهتمام بمدى تغلغل التكنولوجيات «الجديدة» في الحياة الاجتماعية والشخصية اليومية. وبدلا من النظر إلى التكنولوجيا الرقمية بوصفها مجالا منفصلا ومتميزا للتأملات النظرية، فإن هذين الفصلين يوضحان أن التكنولوجيا الرقمية مجال مندمج في الحياة اليومية ومواكب لها. وكما تلاحظ لين جيميسون فإن ذلك لا يعني إنكار أن هذه التكنولوجيا يمكن أن تفتح فضاءات لأشكال جديدة من المشاركة والانتماء. وبعيدا عن التعميمات الشاملة للنظرية الإلكترونية cyber theory، فإن التكنولوجيا الرقمية تُعتبر مجالا ثريا بالنسبة إلى الخيال السوسيولوجي. والسؤال هو كيف يمكن لعلم الاجتماع، وبالأخص علم الاجتماع النسوي في هذه الحالة، أن يهتم بتنوع الثقافات الرقمية وتعقيدها؟ يُثار هذا السؤال من قِبل غرين وسِنغلتون في مقالهما عن إضفاء النوع على المجال الرقمي، حيث يزعمان أن مشروع «ربط النظرية النسوية بالخيال السوسيولوجي» قادر على تغيير هذا الاختصاص الأكاديمي وإنتاج تحليلات أفضل وأكثر دقة للأساليب التي نتعايش فيها مع التكنولوجيا الرقمية، والتي تخلف تأثيرا محتملا بدءا من الميدان الاجتماعي المصغَّر المتمثل في العلاقات الشخصية في الحياة اليومية وصولا إلى «النظرية الكبرى». ومن المفيد أيضا أن نتذكر أن «إعادة النظر» قد لا تنطوي فقط على إنتاج نظريات جديدة و«اتجاهات» جديدة، بل قد تشمل أيضا التذكُّر. ففي الفصل الذي خصصته للحديث عن الحميمية والذات، تُذكِّرنا جيميسون بأن النقاشات التي تدور حول الحميمية ليست مقصورة على العصر الرقمي، بل هي تنبثق من قضايا الذاتية والهوية التي شغلت اهتمام علماء الاجتماع منذ وقت طويل. ولذلك فإن إعادة النظر قد تشمل تذكُّر بعض النظريات عن الذات (وهي في هذه الحالة تتمثل في النظرية الاجتماعية التفاعلية الكلاسيكية) والتي لاتزال - مع بعض التجديد - «تفي بالغرض»، فضلا على كونها تولد منظورات نظرية جديدة يمكن من خلالها النظر في العلائقيات الرقمية.

ولا تُعَد النقاشات حول الذوات الرقمية المشتركة digital intersubjectivities ضمن هذا السياق جديدةً: إذ إن فكرة وجود ذوات ناشئة محكومة بالوسائط تُبْنَى

من خلال الحوار مع التكنولوجيا، أي فكرة أن تصبح التكنولوجيا محورا للشأن الاجتماعي، تعود على الأقل إلى الفترة التي كتب فيها ماكلوهان Mcluhan عن التلفاز (1969). ومن هذا المنظور فإن حجة غرين وسِنغلتون بأننا «نحتاج إلى التركيز على الحياة اليومية من أجل فهم العلاقة بين عمليات الابتكار التكنولوجي والأساليب التي تُستهلَك من خلالها مختلف تكنولوجيات الاتصال والمعلومات تنشئ سلسلة متصلة بين التكنولوجيا الرقمية والتكنولوجيات الأقدم للذات». وأخيرا اهتم علماء الاجتماع بإقحام التكنولوجيا الرقمية في حوار مع النظريات الاجتماعية المتعلقة بالعلائقية والحميمية والذات، بينما أدى تأثير دراسات العلوم التقنية النسوية إلى قراءة أكثر نقدا ودقة للطرق التي يجري من خلالها إضفاء النوع على الثقافات الرقمية، فضلا على لفت الانتباه إلى الطرق التي يمكن من خلالها لهذه الثقافات خلق لحظات من التغيير المحتمل، قد تبدو - نظرا إلى كونها طارئة ومحدودة النطاق وغير مثيرة، وليست من النوع القادر على إحداث تغيير شامل - مختلفةً كثيرا عما يمكن أن توحي به الإسقاطات السلبية أو الإيجابية المفرطة للدراسات المبكرة للثقافة الإلكترونية. وكما كتبت باتريشيا كلوف Patricia Clough، فإن التطورات التكنولوجية الجديدة كانت مفيدة معرفيا بالنسبة إلى النظرية الاجتماعية لكونها «[تمكننا] من "رؤية" الانفعالات وإنتاج قدرات جسدية انفعالية تتجاوز قيود الجسد العضوية والفسيولوجية» (2007:3). ويُعَد ذلك مفيدا ليس لأنه يسمح بتجاوز الجسد بطريقة أو بأخرى، بل لأنه يسمح لنا بأن نرى ما كان ينظِّر له علماء الاجتماع النسوي منذ وقت طويل، وهو أن فكرة الذات بوصفها وحدة متناهية هي من الأوهام التي أفرزتها الثقافة، حتى إن كانت من الأوهام التي تتمتع بقوة هيكلية. وكما لاحظت ديبورا غامب Deborah Gamb (في سياق الكتابة عن التجسيد التكنولوجي technological embodiment)، فإنه قد يكون صحيحا أن «تكنولوجيا المعلومات والاتصالات تتمتع بالقوة لإلغاء التمييزات بين الطبيعة والثقافات، وبين العضوي واللاعضوي، وبين الآلة والإنسان»، ولكن رغبتنا في إبطال هذه «التناقضات اليسيرة» لا تعني أننا لا نعيشها بوصفها أشياء حقيقية (110 :2007). والذوات «الجديدة» التي نشكلها في إطار علاقتنا بالتكنولوجيا قد لا تكون جديدة بالنسبة إلينا إلا بوصفنا أفرادا، وليست بالضرورة «جديدة»، بمعنى أنها متطرفة سياسيا أو قادرة على إحداث التحول الاجتماعي. فعلى سبيل المثال يسجل

غرين وسِنغلتون إنشاء أحد المشاركين لهوية «رجل أعمال له صلات بذوي الشأن» من خلال علاقته بهاتفه المحمول. وهذه النتيجة، التي تمثل نموذجا للرجال الذين تُجْرَى معهم مقابلاتٌ في هذه الدراسة، تتلاقى مع الانتقادات السوسيولوجية المهمة لمدى تأثير التكنولوجيات الرقمية في إنتاج ذوات نيو ليبرالية، كما تتلاقى مع الأعمال الحديثة التي تتناول الخصائص الذكورية.

وحديثا زعم الباحثون أن أشكال الحميمية والمشاركة الوجدانية تعد أساسية لاقتصاد المعرفة knowledge economy. ويُبْحَث هذا الأمر، على سبيل المثال، في عمل مليسا غريغ Melissa Gregg عن حميمية العمل الرقمي. وفي عملها عن وسائل التواصل الاجتماعي والعمل والطبقة تستكشف غريغ كيف يتطلب التحول إلى اقتصاد المعلومات وجود علاقة جديدة وحميمية بالعمل: فالعمل يقتحم الحياة خارج نطاق الإنترنت ويُفسدها، حيث يحتكر الزمان والمكان بطريقة يصبح فيها الحراك الاجتماعي والهوية الطبقية مرتبطين ارتباطا حميميا بالقدرة على إنتاج ذاتٍ رقمية ذكورية ومتماسكة (2007). وإن الإثارة حول الأشكال الجديدة للتواصل الاجتماعي والتعامل مع الإنترنت غالبا ما تعمل على إخفاء الولاءات التجارية والحرفية لمثل هذه المواقع، كما تحجب الأساليب التي تستنسخ من خلالها اللامساواة على صعيد الطبقة ورأس المال والاتصال بالإنترنت، وأيضا على صعيد النوع والجنسانية. ومن ناحية أخرى فإن التكنولوجيات الرقمية تحتاج أيضا إلى أشكال جديدة من التعاطي من قِبل الباحثين. فقراءة التكنولوجيات الرقمية ببساطة لا تكفي لإثبات الهيمنة الذكورية، أو الليبرالية الجديدة، أو ما شابه: فهذه ليست نصوصا إعلامية يمكننا ببساطة أن نطبق عليها أدوات نظرية، بل هي سجلات عن التجربة الحياتية، كما أنها تشكل في حد ذاتها تجربة حياتية. وكما لاحظ ليس باك Les Back، فإن الجوانب الأكثر أهمية للتكنولوجيات الجديدة بالنسبة إلى علم الاجتماع قد تتمثل في أنها تُنشئ طرقا جديدة للاستماع، وأنها تتطلب منا أن «نبدأ في التفكير على نحو مختلف في العلاقة بين القائم بالملاحظة والشيء الملاحَظ» (2007:11). فالمدونات والشبكات الاجتماعية والوسائط الأخرى لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات تتفق مع الحجة التي يثيرها باك بأن تسجيلات المشاركين في البحث فيما يتعلق بحياتهم الشخصية لا تشكل «صوت نشاز حقيقيا»، بل هي عبارة عن «خبرة جزئية» يُفترَض أن تؤخذ على محمل الجد (المرجع السابق). وهذه الإعادة

للصياغة فيما يتعلق بالمعلومات الرقمية بوصفها أرشيفا هي التي، في رأيي، تترك الأثر الأكبر في التفكير السوسيولوجي حول الذوات والعلاقات. وكما تزعم آدي كونتسمان Adi Kuntsman، الأنثروبولوجية النسوية، فإن الفضاءات الرقمية، مثل المدونات، تمثل أرشيفا للمشاعر «فالسرعة والانتشار في الثقافات الرقمية السائدة في الوقت الحالي يتعايشان مع ذلك الكم الهائل من التوثيق والحفظ؛ وبموجبهما تتحول التفاعلات والأحداث والمشاعر الرقمية إلى «متحجرات افتراضية» virtual fossils مجمدة في أرشيفات إلكترونية، وتظل محفوظة على الخوادم لعدد من السنين» (2010)، ويمثل هذا الأرشيف المكون من المشاعر والعلاقات فرصة كبيرة لعلم الاجتماع كي لا يُنتج أو يستنسخ خطابا شموليا يشرح كل شيء، بل ليهتم بخصوصيات الحياة على الإنترنت وخارجها وبالآفاق المفتوحة أمامها.

إن ذلك يعيدني إلى الفصول التي يضمها هذا الجزء، وبالأخص إلى ملخص غرين وسِنغلتون عن الموقف النسوي التكنولوجي المتمثل في عمل جودي واسمان؛ حيث يشيران إلى أن هذا العمل يمثل خطوة إلى الأمام بالنسبة إلى التعاطي النسوي مع التكنولوجيا الرقمية من خلال كونه يخط لنفسه، كما يبدو، مسارا وسطيا بين الموقفين المستقطبين المتمثلين في رهاب التكنولوجيا والولع بها بغية الوصول إلى تحليل أكثر دقة للنوع والتكنولوجيا يبين أن العلاقات بين النوع والتكنولوجيا تتسم بالتغير والمرونة. (Wajcman 2004). ويعد عملُ واسمان طموحا نظرا إلى أنه يتضمن نقدا قويا للحتمية التكنولوجية technological determinism وجوهرية النوع gender essentialism، مع الإبقاء على إمكانية الترقب الدقيق والانعكاسي الناقد تجاه السبل التي من خلالها يُغرَس الأمل في التكنولوجيا الرقمية جنبا إلى جنب مع اقترانها باللامساواة والإقصاء. ومن خلال الدعوة إلى إعادة إحياء السياسات النسوية الرافضة للفكرة التكنولوجية المركزية التي تنص على أن التكنولوجيات في حد ذاتها تفسح المجال لأشكال جديدة من الذاتية والحراك، فإن عمل واسمان يذكرنا بأن السياسات النسوية، وليس التكنولوجيا، هي التي تؤدي دورا جوهريا في تحقيق المساواة بين الجنسين (Green and Singleton, هذا المجلد). وإذا كانت «ممارسة الخيال السوسيولوجي»، على حد زعم غرين وسِنغلتون، «تؤدي دورا جوهريا في تفسير المجال الرقمي بطرق إبداعية ونقدية» (المرجع السابق)، فإن مثل تلك السياسات النسوية الطموحة تشكل جزءا أساسيا من هذا المشروع.

الباب الثاني

الفضاءات

4

إعادةُ النظر في الفضاء: المعلوماتية الحضرية والخيال السوسيولوجي

روجر باروز وديفيد بير

«الشفرةُ هي شريانُ الحياةِ في مجتمع الشبكة، تماما كما كان البخارُ في بدايةَ العصر الصناعي»

ما المقصود بالمعلوماتية الحضرية؟

قدْ يبدو تحليلُ المعلوماتيةِ الحضرية Urban Informatics في البداية كأنه مهمة فنية وغامضة؛ أي أنه شيء يجب حصره في بعض الكتب والنشرات والمؤتمرات المتخصصة، بدلا من كونه موضوعا ذا أهمية سوسيولوجية وعامة على الأرجح. ومهمة هذا الفصل هي إقناع القارئ الذي ربما يكون متشككا بخلاف ذلك؛ أي أن التركيز التحليلي على المعلوماتية الحضرية يوفر كمًّا هائلا من الأفكار عن كيفية إعادة النظر في الخيال السوسيولوجي المعاصر الأكثر إنتاجا للعصر الرقمي. وتعد فكرة المعلوماتية الحضرية

اختراعا حديثا نسبيا صُمِّم كي يسجل من الناحية المفاهيمية أننا نعيش الآن في ظل ظروف لم يعد فيها التمييز الوجودي (الأنطولوجي) البالي بين «فضاء الأماكن» space of places و«فضاء التدفقات» space of flows مستداما (Castells, 1996). إنها الدراسة التي تتعلق بكيفية تشابك المعلومات والأنساق الحضرية من أجل إنتاج ما يراه البعض أنطولوجيا اجتماعية مميزة تتطلب قدرا كبيرا من إعادة النظر في الممارسة السوسيولوجية.

وفي حين أن معظم القراء سيكونون على دراية بمفهوم الحضرية - ذلك أن علم الاجتماع الحضري يتمتع بتاريخ طويل ومترسخ جيدا في هذا التخصص العلمي (Parker, 2004) - فإنه قد تكون لديهم دراية أقل بفكرة المعلوماتية. نتبع هنا المحللة الثقافية كاثرين هايلز (313 :1999) Katherine Hayles من خلال استخدام تعريف واسع للغاية، حيث تقول هايلز:

> أقصد بـ «المعلوماتية» تلك البنى المادية والتكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية التي تجعل عصر المعلومات ممكنا... [الأجهزة] والبرمجيات التي دمجت الاتصالات مع تكنولوجيا الحاسب الآلي، وأنماط المعيشة التي تنشأ من الوصول إلى بنوك البيانات الكبيرة، وتعتمد على الوصول الفوري للرسائل، وتغيير عادات تموضع الجسم، وتركيز العين، وحركات اليد، والروابط العصبية التي تعيد تكوين جسم الإنسان بالتزامن مع تكنولوجيات المعلومات.

ويمكن للمرء أن يشير إلى عدد لا حصر له من المصادر التي حاولت تدوين هذا المجال على مدى السنوات القليلة الماضية، ولكن المجلدات الأكثر دلالة تشمل بالتأكيد ما يلي: كتاب غراهام (2004) Graham بشأن المدن الإلكترونية Cybercities؛ ومجموعة الدراسات التي جُمِعت في كتاب أعده إليسون وآخرون (2007) Ellison et al. وأخيرا ظهر كتاب ضخم يحمل عنوان «كتيب الأبحاث حول المعلوماتية الحضرية» (فوث، 2009) Handbook of Research on Urban Informatics (Foth, 2009). أما روايات «الخيال غير العلمي» الأخيرة لويليام غيبسون William Gibson مثل «تمييز الأنماط» Pattern Recognition 2003، وبصفة خاصة رواية «بلد الأشباح» (2007) Spook Country، فتقدم أيضا

نظرة تحليلية عميقة عن الأنطولوجيا الاجتماعية الجديدة التي يُزعَم أن التطورات في المعلوماتية الحضرية تنبئ بها. والموارد النظرية التي يعتمد عليها هذا المجال متنوعة، ومستمدة من الدراسات الثقافية، ونظرية التصميم والجغرافيا البشرية وكذلك علم الاجتماع، ولكن الإسهامات الرئيسة التي سنفحص بعضها أدناه تشمل الكتابات المعاصرة لدى مايك كرانغ Mike Crang، ومارتن دودج Martin Dodge، وستيفن غراهام Stephen Graham، وروب كيتشين Rob Kitchin، وسكوت لاش Scott Lash، وبيل ميتشل Bill Mitchell، وبروس ستيرلنغ Bruce Sterling، ونايجل ثريفت Nigel Thrift، وكذلك كاثرين هايلز. وبالتفكير في قائمة الأسماء هذه من الممكن أن نقترح من البداية أن ما هو مطلوب في إعادة النظر في علم الاجتماع وإعادة النظر في الفضاء في العصر الرقمي هو التعاطي الروتيني مع الدراسات والمناقشات التي تقع خارج حدود التخصص العلمي الأكاديمي لعلم الاجتماع. هذه الموارد الخارجية هي المكان الذي نشعر فيه بأن علم الاجتماع قد يحدد رؤى واستراتيجيات مفاهيمية وتجريبية من شأنها أن تغذي أي تجديد ضروري لهذا المجال العلمي في ضوء السياق المتغير.

ما يقع على المحك سوسيولوجيا؟

ربما تتمثل أفضل طريقة لشرح الأمور الواقعة على المحك سوسيولوجيا، إذا ما قَبِـل المرء الفرضية الأساسية للعمل المعلوماتي الحضري المعاصر، في تتبع التطور المفاهيمي لأحد هؤلاء الكُتاب – وهو عالم الاجتماع الثقافي سكوت لاش – وذلك لما لهذا الأمر من صلة بتحليل الجغرافيا الاجتماعية social geography في العصر الرقمي. ولا تدل الطريقة التي يعيد بها لاش التفكير في موقفه فقط على أنماط أوسع من إعادة التنظير التي أثارها التدفق الهائل لعمليات الرقمنة digitisation، ولكنها أيضا مثال وثيق الصلة بضرورة «تسريع» أعمال التنظير السوسيولوجي من أجل مواكبة أنماط التغير السوسيوتقني والممارسات الثقافية المرتبطة به (Gane, 2006).

لقد كان لاش (2002) في الآونة الأخيرة راضيا تماما فيما يتعلق بالحفاظ على التمييز بين «فضاء الأماكن» و«فضاء التدفقات». وفي هذا التمييز أدرك لاش أن

الاهتمامات السوسيولوجية التقليدية بالعلاقات الاجتماعية القريبة التي تحدث داخل أماكن محددة تحتاج إلى أن تأخذ في الاعتبار ما كان يُعتبَر في ذلك الوقت بمنزلة إمكانات جديدة يوفرها الإدخال واسع النطاق للأجهزة الرقمية المرتبطة بالشبكة بأنواع مختلفة. هذه الأجهزة الجديدة فتحت فضاء الأماكن على نوع جديد من الفضاء؛ إنه الفضاء الذي جعل حصول التفاعل الاجتماعي في الوقت الحقيقي أمرا ممكنا على نطاق عالمي من دون الحاجة إلى التجاور المادي، وذلك بفضل تدفق البرمجيات والشفرات والمعلومات الرقمية. ويرى لاش في الواقع أن هذا التمييز بين فضاء الأماكن وفضاء التدفقات وهذه الطريقة التفاضلية، التي بدأ هذان الفضاءان بالتفاعل من خلالها، قد تُصُوِّرا على أنهما يوفران الأساس لجغرافيا اجتماعية كونية ناشئة حديثا. وبالنسبة إلى لاش، بدا أن الجغرافيا الاجتماعية أصبحت مجزأة نتيجة للتفاعل بين محركين رئيسين: الكثافة المتغيرة «لتدفقات المعلومات» التي تملأ فضاء التدفقات، والطبيعة السابقة «لفضاءات الهوية» التي غطتها هذه التدفقات في فضاء الأماكن. وقد ميَّز لاش (2002: 28-29) بين ما سمَّاه المناطق «الحية» والمناطق «الميتة» في المشاهد الافتراضية المرنة للمعلومات والتي رأى ظهورها في جميع أنحاء العالم. كانت المناطق الحية توجد في الأماكن التي كانت فيها هذه التدفقات في أوج كثافتها، في حين كانت المناطق الميتة توجد في الأماكن التي كانت فيها التدفقات في أخف حالاتها. لكن بالنسبة إلى لاش، كان هذا المشهد الافتراضي للمعلومات يتقاطع بطرق متغيرة مع مناطق من نوع آخر - حيث أطلق عليها اسم المناطق «المستأنسة» و«البرية» لفضاء الأماكن. يقول: «تشير المناطق الحية والميتة للفضاءات الاقتصادية إلى الحضور (أو الغياب النسبي) للتدفقات، وتشير فضاءات الهوية إلى ما يفعله الفاعلون الاجتماعيون بها». وقد سمحت هاتان المجموعتان من الفوارق (الحية/الميتة، والمستأنسة/البرية) بالنسبة إلى لاش بتحديد أربعة أنواع مختلفة من المناطق الاجتماعية المكانية وهي عبارة عن «أخلاط» amalgams مكونة من التداخلات التقاطعية المتغيرة بين فضاء الأماكن وفضاء التدفقات، وذلك على الشكل التالي: مناطق حية/مستأنسة؛ ومناطق حية/برية؛ ومناطق ميتة/مستأنسة؛ ومناطق ميتة/برية (Ellison and Burrows, 2007).

ومع ذلك، أصبح لاش (2006, 2007a, 2007b) في تنظيره الحديث يدرك أن هذا التمييز غير مستدام، وأن «الأشياء» التي تشكل النسيج الاجتماعي قد تغيرت – فلم يعد الأمر يتعلق فقط بالخصائص الطارئة التي تنتج عن النفاذ المعقد لـ «التدفقات» إلى داخل «الأماكن»؛ وبدلا من ذلك فإن التفاعلات والعلاقات الاجتماعية لم تعد تتخللها البرامج والشفرة فقط، بل أصبحت أيضا تتشكل شيئا فشيئا من خلالها. وباستخدام مصطلحات لاش فإن «ما كان وسيطا... قد أصبح شيئا، أو منتَجا» (Lash, 2007a: 18). ولم تعد المعلومات مجرد معتقدات معرفية، بل أصبحت أنطولوجية على نحو متزايد. فالمعلومات الآن ليست مجرد وسيلة نتعرف بها على العالم؛ ولكنها أيضا عامل نشط في بنائه (:Lash, 2006 581). ويشير لاش إلى أننا حتى الآن قد نفكر بطريقة مفيدة فيما يتعلق بظهور أنطولوجيا جديدة تتمثل في «الوسائط الجديدة» (Lash, 2007b)، والتي أصبح فيها العديد من الركائز الأساسية للحياة الاجتماعية – لاسيما فعاليات القوة – أقرب إلى «الخوارزمية» أكثر من أي وقت مضى (Beer, 2009).

ولم يكن لاش وحيدا في التوصل إلى هذا الاستنتاج. وعلى رغم أن المصطلحات قد تختلف، فإن هذا هو الموقف الذي عبَّر عنه ثريفت Thrift وفرينش French (2002: 309)، في دراستهما البارزة، التي زعما فيها أن «الركيزة الفنية... للمجتمعات... قد تغيرت بشكل حاسم، حيث أصبحت البرمجيات تتخلل جميع جوانب الحياة اليومية»، مما يخلق «شكلا جديدا ومعقدا من المكانية المؤتمتة... وهذا له عواقب مهمة بالنسبة إلى ما نعتبر أنه الجانب المحسوس من العالم». ويعبِّر دودج وكيتشن (2004: 209) عن هذه القضية باستخدام لغة أكثر التصاقا بالتاريخ: «الشفرة هي شريان الحياة في مجتمع الشبكة، تماما كما كان البخار في بداية العصر الصناعي. فالشفرة، مثل البخار، لديها القوة لتشكيل العالم المادي؛ إنها قادرة على إنتاج الفضاء». الآن إذا كانت الشفرة تشكل بالفعل ما يحثنا ثريفت (2004a: 177) على التفكير فيه باعتباره «اللاوعي التكنولوجي» – أو ما يسميه في مكان آخر «السطح الذي تطفو عليه الحياة» (Thrift, 2004: 584) – فإننا نحتاج إلى السؤال عن شكل التحليل الذي يمكن بموجبه سبر أغوار «اللاوعي»، وتداعياته وتأثيراته الاجتماعية، على النحو الأمثل. وتُعتبر دراسة المعلوماتية الحضرية، حتى

الآن، أفضل تخصص أكاديمي استكشف الآثار السوسيولوجية المترتبة على النظر جديا في الأنطولوجيا الجديدة لـ «الوسائط الجديدة». وفيما يلي نلخص بعضا من هذه الأعمال من أجل تقديم مصطلحات مفاهيمية أساسية يمكن أن تطبق سوسيولوجيًا على نطاق أوسع.

نحو مصطلحات جديدة

بالطبع لم تكن المدن مجرد حاويات محددة للحياة الاجتماعية؛ بل ارتبطت دائما بطرق متعددة الأوجه مع الفعل الاجتماعي على مستويات مكانية مختلفة – المنزل والشارع والمقاطعة والحي والمنطقة والأمة، وبنحوٍ متزايد العالم. ولسنا في حاجة إلى النظر إلى أبعد من الكتابات الحضرية الكلاسيكية عند والتر بنجامين Walter Benjamin أو جورج سيميل George Simmel للوصول إلى مثل هذه الاستنتاجات. ولكن في السنوات الأخيرة أصبحت المتجهات السوسيومكانية socio-spatial vectors المعقدة، التي تشكل الحياة الحضرية اليومية وتنتجها، تعمل بقدرٍ متزايد من خلال تشغيل الشفرة الرقمية. لهذا ينبغي ألا نُفاجَأ بأن دراسة المعلوماتية الحضرية تأتي في طليعة تطوير مفاهيم قادرة على التعامل بنحوٍ أفضل مع الحقائق الجديدة «للظاهراتية» phenomenality التي نواجهها الآن. ولكن لا تجعلونا نطمح أكثر من اللازم. فقد كان من بين نقاط الضعف الكبيرة في علم الاجتماع، بوصفه تخصصا في السنوات الأخيرة، ميله إلى الاندفاع المتهور نحو التحليلات التي غالبا ما تستبق أي شيء يقترب من الوصف المناسب للمسألة التي تحتاج إلى شرح (لمعرفة مزيد عن هذا الموضوع راجع إسهام نيل سيلوين في هذا المجلد، أو بير وباروز (2007). وقد كانت الدراسة السوسيولوجية للقضايا الرقمية عرضة بصفة خاصة لأشكال من المبالغة الحوسبية المفاهيمية ومسايرة للموضة غير المنتجة (Woolgar, 2002) التي لم تساعدنا على قطع شوط كبير في التعامل مع الخصائص المميزة لما يسمى «العصر الرقمي». وغالبا ما تصبح إغراءات التكنولوجيات وإمكاناتها المرتبطة بها جهات فاعلة قوية جدا في بلورة الفهم لعمليات استيعابها ضمن الروتين اليومي. وفيما يتعلق بأي

تحليل سوسيولوجي لعمليات الرقمنة، فمن الجيد أن نتذكر تصحيح غوفمان Goffman (1983: 17) المتكرر لبعض طموحاتنا الكبرى:

> من منظور العلوم الفيزيائية والبيولوجية فإن الحياة الاجتماعية للبشر ليست سوى تجربة صغيرة غير منتظمة على وجه الطبيعة، وغير قابلة تحديدا للتحليل المنهجي العميق... والواقع أنني سمعتُ أنه يجب أن نكون سعداء إذا تمكنا من مقايضة ما أنتجناه حتى الآن مقابل بعض الامتيازات المفاهيمية الجيدة وكأس من الجعة الباردة.

إن المعلوماتية الحضرية هي مجال البحث الذي كان ومازال بارعا في إنتاج «بعض الامتيازات المفاهيمية الجيدة حقا» التي قد يستفيد منها جمهور سوسيولوجي أوسع. وقد قدمنا حتى الآن محاولات عامة لوصف نوع اجتماعي جديد من علم الأنطولوجيا - حيث تؤدي الشفرة الرقمية دورا مثمرا وتأسيسيا بقدرٍ متزايد. لكن هذا الوصف مجرد للغاية بحيث لا تكون له فائدة سوسيولوجية عملية. وما حدث أخيرا في مجال المعلوماتية الحضرية هو استكشاف أكثر تفصيلا ودقة لهذه الأنطولوجيا الجديدة؛ وهو مجموعة مصطلحات تصف النسيج المتغير للعالم الاجتماعي الذي نحن على أعتابه.

ننتقل الآن إلى النظر بمزيد من التفصيل في بعض المفاهيم البارزة الرئيسة التي تشكل الأُطر التحليلية للمعلوماتية الحضرية، إلى جانب بعض الأمثلة المفيدة التي توضح كيفية ارتباط هذه المفاهيم والأفكار بظواهر ملموسة. المشكلة هنا، وبما أنه لم يُتَطرَّق إليها في هذا الفصل حتى الآن، تكمن في وجود أصوات متباينة تناقش قضايا مماثلة في المعلوماتية الحضرية بطرق مختلفة وباستخدام مفردات مختلفة. ونحاول هنا توضيح كيف تتوافق مجموعة الأدوات المفاهيمية بعضها مع بعض من أجل توفير دليل إرشادي قد يعتمد عليه المهتمون بتطوير علم اجتماع المعلوماتية الحضرية. ولتنظيم مثل هذا المورد يمكننا التفكير في مستويين قد يعمل عليهما تحليل المعلوماتية الحضرية. نبدأ أدناه بمناقشة الأشياء objects قبل النظر إلى التجميعات assemblages التي قد تتشكل منها. ولإبراز هذه المناقشات، لخَّصنا إطار العمل المفاهيمي للمعلوماتية الحضرية أدناه في شكل جدول (الجدول 1-4):

الجدول (1-4): ملخص مبسط للإطار المفاهيمي للمعلوماتية الحضرية (باستخدام بعض المصطلحات المفاهيمية الرئيسة فقط)		
الأشياء Objects	التجميعات Assemblages	السمات الرئيسة Key features
أشياء مشفرة أحادية **Unitary Coded Objects**	الفضاء المعزز **Augmented space**	- البنى التحتية الرقمية الأساسية. - مغلق وغير متصل. - وجود واضح للغاية مع آثار ونتائج واضحة. - قدرة بشرية وآلية مميزة.
المسجلات الرقمية الذاتية النافذة وغير النافذة **logjects**	الفضاء المعدَّل **Enacted space**	- البنى التحتية الرقمية المتقدمة. - إمكان التتبع وإمكان اقتفاء الأثر. - متصلة ولكن لا مركزية. - مشاعر وحالات حضور غير واضحة ومعقدة ومُخفاة. - زيادة القدرة التكنولوجية والقدرة الخوارزمية.
الزمكان **Spimes**	الفضاء المحوَّل **transducted space**	- بنى تحتية رقمية عالية التطور (ومستقبلية في كثير من الأحيان). - الاتصال السلس والمفتوح. - تكنولوجيات التفكير المحيطة والمتقدمة للغاية التي تتجاوز القدرة البشرية. - سببيات لا يمكن التنبؤ بها ومعقدة ومتشابكة، مع عدم وجود إمكانية لتتبع الظهور. - قوة خوارزمية متقدمة تبلور مجالات الحياة ومساراتها.

المسجلات الرقمية الذاتية والأشياء المشفرة الأحادية

تُستَدعى هذه الأشكال المختلفة من التموضع الرقمي عبر عدد متزايد من الأجهزة «العادية» التي تملأ عوالمنا الاجتماعية. وتقدم دراسة دودج وكيتشن

(2008)، بوصفها جزءا من سلسلة من الصياغات المفاهيمية عبر سلسلة من المقالات المهمة (انظر Dodge and Kitchin, 2004, 2005, 2008)، تصنيفا مفيدا. إذ يفرقان بين ما يسميانه من ناحية أشياء مشفرة أحادية، وما يطلقان عليه من ناحية أخرى المسجلات الرقمية الذاتية. ووفقا لكل من دودج وكيتشن:

> يمكن تقسيم الأشياء المشفرة إلى فئتين عريضتين بناء على قدراتهما العلائقية. أولا: توجد أشياء أحادية يتوقف عملها على الشفرة، ولكنها لا تسجل أعمالها في العالم. ثانيا: توجد أشياء لها «وعي» بأنفسها وبعلاقاتها بالعالم وتسجل تلقائيا جوانب تلك العلاقات في سجلات تُخزَّن ويُعَاد استخدامها في المستقبل (Dodge and kitchin, 2008: 6).

والفئة الثانية من الأشياء، التي تحددها القدرة على تسجيل جوانب استخدامها وعلاقاتها، هي التي يشار إليها باسم «المسجلات الرقمية الذاتية». يقول دودج وكيتشن:

> إن المسجلات الرقمية الذاتية لا تشعر بالعالم فقط، بل تسجل أيضا حالتها واستخدامها، والأهم من ذلك أنها قد تحتفظ بهذه السجلات حتى عند إلغاء تنشيطها واستخدامها عند إعادة تنشيطها. وبطرق أساسية قد يكون لهذه السجلات تأثير في التشغيل المستمر للكائن وعلاقاته مع الأشخاص أو العمليات الأوسع نطاقا... ونحن نعرّف المسجل الرقمي الذاتي بوجهٍ عام باعتباره كائنا يراقب ويسجل بطريقة ما الاستخدام الخاص به (Dodge and Kitchin, 2008: 7).

ونرى هنا تمايزا ناشئا مفيدا في تصنيف وفهم الأشياء المعاصرة. وتُعَد الأشياء المشفرة الأحادية أشياء مادية تعتمد على التشفير لتعمل، ولكنها لا تحتفظ بأي سجل لإجراءاتها. وفي المقابل تعتبر المسجلات الرقمية الذاتية أشياء مادية تعتمد أيضا على التشفير لتعمل ولكنها، بالإضافة إلى ذلك، تمتلك القدرة على إنشاء سجل - أو دفتر - لإجراءاتها. وهناك نوعان للأشياء المشفرة الأحادية: تلك التي تعمل بنحوٍ مستقل عن بيئتها، وتلك التي تجمع البيانات من بيئتها وتستخدمها من أجل العمل. وقد تتضمن الأمثلة عن النوع الأول أشياء باتت مألوفة مثل الساعات الرقمية أو مشغلات DVD أو شرائح الذاكرة الخاصة بالناقل التسلسلي العام (universal serial bus (USB. وقد تتضمن المجموعة الثانية أشياء (أكثر حداثة) مثل أنظمة رقمية للتحكم في التسخين أو غسالات مشبعة بالبرمجيات المتقدمة أو كاميرات رقمية مزودة بإعدادات تلقائية.

ومن بين هاتين الفئتين تُعَد المسجلات الرقمية الذاتية هي الأجهزة الأكثر إثارة للاهتمام، ومن المرجح أن تزداد أهميتها في الحياة أكثر خلال العصر الرقمي. هذه الفكرة مستوحاة من التصور الأكثر تقييدا الذي وضعه بليكر Bleecker للمدونات الذاتية blogjects خلال العام 2006، ولكن بالنسبة إلى دودج وكيتشن (6 :2008) تُعَد المدونة الذاتية مجرد نوع واحد من الفئة الأشمل المتمثلة بالمسجِّلات الرقمية الذاتية. وبصفة أكثر رسمية يصنف دودج وكيتشن (7-6 :2008) تلك الكيانات بأنها لا تملك «وعيا» فقط ببيئتها، ولكن أيضا بأنها قادرة على الاستجابة للتغيرات «الهادفة» في تلك البيئة. إنها تنتج «آثارا» و«مسارات» لعملها الخاص عبر الزمن والمكان أو عبر أحدهما. كما تسجل هذا التاريخ ويمكنها توصيله عبر شبكة رقمية لتحليله واستخدامه من قبل القوى الفاعلة الأخرى (كالأشياء المشفرة الأخرى أو العناصر البشرية أو كلتيهما). ويمكنها أيضا استخدام البيانات التي تُنتَج من أجل اتخاذ القرارات والإجراءات المؤتمتة والتلقائية والمستقلة في العالم من دون إشراف بشري، ومن ثم فإنها تستطيع إحداث التغيير. وأخيرا هي قابلة للبرمجة، وبالتالي هي قابلة للتغيير من خلال ضبط الإعدادات وتحديثات البرامج.

المسجلات الرقمية الذاتية النافذة وغير النافذة

هذه المسجلات الرقمية الذاتية من نوعين مختلفين: غير نافذة، ونافذة. ويعرِّف دودج وكيتشن المسجلات الرقمية الذاتية غير النافذة بأنها:

> وحدات مستقلة نسبيا... تضطلع هذه الأجهزة بتتبع وتعقب استخدامها بنحوٍ افتراضي وتسجيل هذه البيانات بوصفها سجلا مضمنا... يُحْتَفَظ بجميع القدرات الأساسية محليا ولا تتطلب الوظيفة الأساسية اتصال شبكة للعمل. ويمكن توصيل هذه الأجهزة بشبكات أوسع، ويمكن تحميل المعلومات وتبادلها على الرغم من أن هذه الأجهزة ليست أتوماتيكية (Dodge and Kitchin, 2008: 8).

وتنشئ المسجلات الرقمية الذاتية غير النافذة سجلا للاستخدام، ولكنه لا يشكل اتصالا ثابتا مع الشبكات، ولا يمكن الحصول على المعلومات التي يحتفظ بها إلا عندما يكون متصلا بهذه الشبكات. ومن ثم فإنه يحتفظ بهذه المعلومات ما لم يبذل المستخدم

جهدا لتوصيل الجهاز بشبكة أوسع قد تستخرج ما يحتفظ به من معلومات. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه من بين أمثلة أخرى يقترح المؤلفون مشغل MP3 مثالا على مسجل رقمي ذاتي غير نافذ. وكمؤشر للسجلات التي التقطتها هذه الأجهزة يمكننا أن نفكر في عدد مرات الاستماع التي تلقتها كل أغنية على هذا الجهاز المحدد الذي يظهر عندما يُوَصَّل جهاز آيبود iPod ببرنامج آيتيونز iTunes. وعند توصيله بجهاز حاسب آلي متصل بشبكة، قد يوصِّل جهاز الموسيقى المحمول هذه المعلومات وغيرها من المعلومات حول استخدامه إلى أجسام خارجية.

النوع الثاني من المسجلات الرقمية الذاتية الذي حدده دودج وكيتشن هو المسجلات الرقمية الذاتية النافذة. وهي مثل المسجلات الرقمية الذاتية غير النافذة من حيث احتفاظها بمعلومات عن استخدام وتاريخ الأشياء، ولكن هذه الأشياء تختلف في أنها ليست وحدات قائمة بذاتها قد تتصل بنحوٍ متقطع بشبكة، بل هي متصلة بشبكة ومن ثم فهي قادرة على توصيل هذه المعلومات المسجلة عند الحاجة. ويصف دودج وكيتشن هذا النوع بالعبارات التالية:

> لا تعمل المسجلات الرقمية الذاتية النافذة من دون الوصول المستمر إلى التكنولوجيات والشبكات الأخرى. ونظرا إلى أنها، بصفة خاصة، تحتاج إلى التدفق المستمر لتبادل البيانات في اتجاهين، فإنها تعتمد على الوصول إلى شبكة اتصالات موزعة لأداء وظيفتها الأساسية. وتضطلع هذه المسجلات الرقمية الذاتية النافذة بتتبع وتسجيل استخدامها محليا ولكن يُسجل أيضا تاريخها الكامل خارجيا على شكل صيغة مادية فورية (Dodge and kichin, 2008: 9).

وتشمل الأمثلة التي تُساق عن هذه الأجهزة صناديق التلفزيون المتصلة بالقمر الاصطناعي وأنظمة مراقبة أمن المنازل والهواتف المحمولة. وتنقل هذه الأجهزة المعلومات باستمرار، أو أنها تكون مفتوحة لكي تُجمِّع هذه المعلومات عند الحاجة. ويمكننا وضع الإصدارات الموجودة الآن على الشبكة لأجهزة الموسيقى المحمولة مثل: آيبود تاتش iPod Touch وآيفون iPhone (هذا على سبيل المثال لا الحصر) ضمن هذه الفئة الثانية من المسجلات الرقمية الذاتية. وقد أصبحت هذه الأجهزة مزودة بالخاصية اللاسلكية، ومن ثم يمكنها أن تعمل بوصفها أجهزة شبكية تسجِّل وتوصِّل المعلومات عن استخدامها. ويمكننا

أن نتخيل ذلك على أنه جزء من الاهتمام الأوسع ببيانات المعاملات المتعلقة بنا وقيمتها المتزايدة - والتي رأينا أن وجودها مرتبط بأزمة مقبلة وشيكة في علم الاجتماع (راجع Savage and Burrows, 2007). والنتيجة هي أن قدرة هذه المسجلات على تخزين هذه المعلومات عن استخدامها وتوصيلها تعني أن الأشياء التي نستمع إليها مثل الموسيقى أو الراديو والمواقع التي نتصفحها والصور التي نلتقطها أصبحت الآن قابلة للتتبع والتعقب بنحوٍ متزايد؛ ذلك أن المسجلات الرقمية الذاتية النافذة وغير النافذة تُفَعَّل في الممارسات اليومية. ولعل المثال المثير للاهتمام هنا هو عملية وسم الصور، التي التُقِطت على أجهزة آيفون الجديدة الصادرة عن شركة آبل، بمعلومات تحديد المواقع العالمية بحيث يُسجَّل الموقع «الدقيق» لتلك الصورة، ثم تُسجل هذه المعلومات عن طريق الجهاز وبناء على اختيارات المالك قد تُوَصَّل إلى شركة «آبل».

في ظل وجود أجهزة المسجلات الرقمية الذاتية النافذة مثل آيبود تاتش وآيفون في السوق حاليا، مع ظهور مزيد من هذه الأجهزة واحتمال أن تصبح شائعة قريبا، فإن اتجاه التقارب يشير إلى أنه في المستقبل غير البعيد، سيكون لدى معظم أجهزة الموسيقى المحمولة مستوى من النفاذية المدمجة فيها. ومع تطور مثل هذه المسجلات الرقمية الذاتية النافذة وانتشارها عبر الأنظمة الاجتماعية والحضرية، يمكننا أن نبدأ في إلقاء نظرة إلى إمكان الوصول الأنطولوجي لجسم/كيان جديد من المحتمل أن يكون الشاغل الرئيس للتحليلات العلمية الاجتماعية المستقبلية (القريبة) للمعلوماتية الحضرية – وهو ما يطلق عليه اسم «الزمكان» Spimes.

الزمكان

إن الزمكان (وهي كلمة جديدة منحوتة من الزمان والمكان) هي من بنات أفكار مؤلف روايات الخيال العلمي السابق بروس ستيرلنغ (2005). يهتم ستيرلنغ بما يحتمل أن ينتج عندما تصبح المسجلات الرقمية الذاتية في كل مكان. فهو ينظر إليها على أنها ميزة أساسية للثقافة التكنولوجية الناشئة حديثا. ويحدد ستيرلنغ عددا من الثقافات التكنولوجية السابقة: ثقافة «المصنوعات اليدوية» لما قبل القرن

السادس عشر؛ والثقافة التكنولوجية المتمثلة في «الآلات» لما بعد القرن السادس عشر؛ والثقافة التكنولوجية لـ «المنتجات» لمرحلة ما بعد القرن التاسع عشر، والثقافة التكنولوجية للغيزمو Gizmo(*) التي بدأت في العام 1989 تقريبا ولانزال نعيش فيها. وعلى الرغم من أنه لايزال يُنتج بكميات كبيرة، فإن جهاز الغيزمو عندما يصل إلى أيدي مستخدميه لن يبقى بالضرورة على الحالة نفسها التي خرج فيها من المصنع. وشيئا فشيئا تصبح تلك الأجهزة قابلة للتعديل من قِبل المستخدم، وقابلة للتحديث وغير مستقرة، وتتطلب أنظمة دعم معلوماتية واسعة النطاق كي تعمل (ولهذا تأتي الطلبات من كل حدب وصوب لـ «تثبيت التحديثات»). والرؤية التي وضعها ستيرلنغ بالنسبة إلى الثقافة التكنولوجية المقبلة تتمثل في الزمكان: وهو عبارة عن صورة نظرية للإنتاج والاستهلاك والممارسات الثقافية في المستقبل. ويتنبأ ستيرلنغ بمستقبل يعتمد على أشياء «قابلة للتتبع» trackable. وسيجري تعيين هوية فريدة من نوعها لكل شيء يُنْتَج. وقد يُنظر إلى أجهزة التعرف بالتردد الراديوي radio frequency identification devices (RFID) أو arphids، كما هي معروفة في الكتابات عن هذا المجال، على أنها تنبئ بهذا الأمر (Gane et al., 2007). وكما لاحظ بيل ميتشل:

> ثمة تضامن بين وسوم التعرف بالتردد الراديوي وأجهزة الاستشعار، والذكاء الموزع، وتكنولوجيات الشبكات اللاسلكية من أجل خلق إمكانية لإنشاء مبانٍ تتوصل باستمرار إلى استنتاجات عن سكانها ثم تستجيب وفقا لذلك. ففي مدينة كامبريدج بولاية ماساتشوستس... يعمل المهندس المعماري كينت لارسون Kent Larson حاليا على بناء معمل يُدعَى PlaceLab – وهو عبارة عن شقة تفكر، وذلك بهدف استكشاف تداعيات هذا الأمر بنحوٍ نقدي. ويزخر PlaceLab بالوسوم والمستشعرات، ويجني فيضا هائلا من المعلومات، التي يُنَقَّب فيها فيما بعد بحثا عن استنتاجات عن الوضع الحالي لسكانها واحتياجاتهم (Mitchell, 2005: 63).

(*) الغيزمو Gizmo بمنزلة الأجهزة أو الأدوات التي تُصنع لأداء غرض معين، وفي كثير من الأحيان تكون جديدة ومبتكرة في مظهرها وطريقة عملها. [المترجم].

كما هو الحال بالنسبة إلى المسجلات الرقمية الذاتية، فإن الزمكان، في أثناء تنقله عبر المكان والزمان، يولد سجلا للنشاط – متى وأين حدث هذا النشاط، وإلى أين أُرسل، ومن يملكه، ومتى يُستخدَم، وما إذا كان يعمل على نحو صحيح، أو إذا كان يحتاج إلى إصلاح، وعدد لا يحصى من المعلومات الأخرى. ومن خلال فعل ذلك فإنه يسجل أيضا البيانات عن الأشياء التي يتلامس معها، ومن هنا تأتي قدرة شقة بلايسلاب(*) PlaceLab التي تفكر في إطار الاستجابة للحركة البشرية والممارسة المعتادة. ولكن الزمكان مهيَّأ لكي يتجاوز وسم التعرف بالتردد الراديوي. وهذه الوسوم، بالنسبة إلى ستيرلنغ، هي مجرد أشكال تطورية مبكرة للزمكان. وليست مشكلة ستيرلنغ فيما تستطيع هذه الأجهزة فعله الآن، بل في تحديد إمكاناتها للتنمية المستقبلية. بل إن الغرض من مفهوم الزمكان هو أن نبدأ في فهم إلى أين يمكن أن تأخذنا هذه التطورات، وأن تنبهنا، في حال رغبنا في ذلك، إلى الحاجة إلى اغتنام الفرصة لوضع أجندة تصميم مستدامة تثري هذه التطورات.

وتحقيقا لهذه الغاية، يشير ستيرلنغ إلى أن الزمكانات ستظل عبارة عن أشياء مصنَّعة، ولكن هذه الأشياء تتمتع بدعم معلوماتي ضخم وغني إلى درجة أنه من الأفضل أن يُنظَر إليها بوصفها تجسيدات مادية لنظام غير مادي. والزمكانات تبدأ كبيانات وتنتهي كبيانات. فهي مصممة على الشاشات، ومركبة باستخدام وسائل رقمية ويمكن تتبعها بدقة عبر المكان والزمان طوال «إقامتها الأرضية المؤقتة» (Sterling 2005: 11). وبطبيعة الحال، ستكون هذه الكيانات «قابلة لاستخراج البيانات منها إلى حدٍّ كبير» (Sterling 2005: 11)، إلى درجة أن قيمتها تكمن في كثير من الأحيان في المعلومات القابلة للاستخراج التي تحتوي عليها وليس في الشيء نفسه. يقول ستيرلنغ: «في عصر الزمكان، لم يعد الشيء شيئا، ولكنه عبارة عن تجسيد» (Sterling 2005: 79)، وليس من الصعب أن نرى كيف أن التركيز التحليلي على مثل هذه الأجهزة

(*) شقة بلايسلاب PlaceLab عبارة عن منشأة سكنية فريدة من نوعها مخصصة للأبحاث، افْتُتِحت في العام 2004 في إحدى شقق مدينة كامبريدج بولاية ماساتشوستس الأمريكية. وهي تجمع بين بيئة السكن الفعلية بالنسبة إلى المتطوعين الذين يرغبون في النزول فيها وبين مختبر الأبحاث. وكان هناك هدفان لإنشائها: الأول هو بحث كيف يمكن ابتكار تكنولوجيات جديدة قادرة على تحسين جودة الحياة، والثاني يتمثل في إنشاء نموذج جديد للتعاون بين القطاعين الأكاديمي والصناعي. [المحرر].

يفتح نقاشات سوسيولوجية ضخمة حول ثقافات المستقبل من بينها: المراقبة، والخصوصية، ووضوح الرؤية، والتنبؤ، والخطر، والحراك وحتى، ربما، فئة ما بعد الإنسان post-human (Beer,2007; Gane et al,2007). وما نراه هنا، في أعمال ستيرلنغ والكتابات المرتبطة بها، هو محاولة التعامل مع شيء طارئ في المعلوماتية الحضرية، وهو إمكانية التعقب والتتبع التام للأشياء. والمقصود هنا أننا على مشارف شيء ما في ظل وجود أجهزة مادية مثل وسم التعرف بالتردد الراديوي. ويكمن جزء من مشكلة إعادة النظر في علم الاجتماع في النظر في الحجم المحتمل لمثل هذه التغييرات وكيف يمكنها، في حال تحققت، إعادةُ تكوين الجانب الاجتماعي بوصفه موضوعا لدراستنا. ولكن ما بدأنا برؤيته هنا، خاصة من خلال مثال بيل ميتشل المفيد، على رغم أنه أصبح قديما نوعا ما، عن تلك الشقة التي أصبحت مشهورة في كونها تفكر، هو أن هذه الأجهزة لا تعمل بمفردها، بل هي في الواقع مصممة لتكون مرتبطة بالشبكة، ولهذا السبب يجب التفكير فيها من ناحية التجميعات التي تشكل جزءا منها. وكما تقول هايلز، فإن أنظمة التعرف بالتردد الراديوي توفر «الأرجل» التي تحرِّك «أدمغة» قاعدة البيانات العلائقية (Hayles in Gane et al. 2007: 349).

التجميعات

ربما ليس من المستغرب إذن أن تكون دراسة المعلوماتية الحضرية بالنسبة إلى الجغرافيين كرانغ وغراهام (2007) مهتمة بالطريقة التي تتحول فيها هذه الأجهزة إلى تجميعات معقدة تُستخدَم لتنسيق العمل البشري ومراقبته وتمكينه وتعطيله عبر الزمان والمكان. ومن الواضح أنه ليس من الممكن استكشاف كل هذا التعقيد هنا، ولكن المفيد هو أن كرانغ وغراهام يحددان ثلاث عمليات عامة من التموضع الرقمي، يطلقان عليها: الفضاء المعزز، والفضاء المعدَّل، والفضاء المحوَّل.

الفضاء المعزز

الفضاء المعزز هو الأبرز في بعض النواحي، ولكنه الأقل إثارة للاهتمام من الناحية السوسيولوجية. ويعتمد ذلك على الاعتراف بأن البيئة المبنية قد

تشبَّعت بالمعلومات منذ وقت طويل من خلال اللافتات والإعلانات، ولكن قدرا كبيرا من هذه المعلومات يتحول من الأشكال التناظرية إلى الرقمية. وتعدُّ الفضاءات المعززة كائنات فعلية تتداخل مع كائنات افتراضية. وكما يرى كرانغ وغراهام فإن فكرة التعزيز هذه تعكس ببساطةٍ الملاحظةَ القائلة إن هناك وسائط رقمية جديدة تُضاف إلى تجارب الحياة الحضرية من دون حدوث تغيير نوعي في الخصائص الطارئة للأنظمة الحضرية. وهذه إذن مجرد معلومات رقمية تُفْرَض على الشكل المادي. وقد نستحضر هنا بعض الأمثلة المألوفة تماما لتوضيح فكرة الفضاءات الحضرية التي تعززها الأجهزة الرقمية. وقد نعود إلى الساعة الرقمية التي ذكرناها سابقا للنظر في حركة الزمن بالنسبة إلى المدينة والتي تحددها الساعة الرقمية، على الرغم من أن وجود تلك الساعة لا يؤدي إلى جعل حركة الزمن تلك مختلفة فعليا على أي مستوى مادي عما كانت عليه في ظل وجود الساعة «التناظرية». وقد نفكر في لوحة الإعلانات التلفزيونية التي يتغير محتواها ويتحرك، وربما في التحكم الرقمي في إشارات المرور، علما أن هذا قد يكون له تأثير مادي في تدفقات حركة المرور عبر المدينة، وهذا يختلف تماما عن كل أشكال التحكم في إشارات المرور في المرحلة ما قبل الرقمية. هذه الإمكانية لوجود نوع أكثر استجابة من إشارات المرور تأخذنا نحو الفئة الثانية من التجميع.

الفضاء المعدَّل

الفضاء المعدَّل مختلف إلى حدٍ ما، وهو يشير إلى البيئات التي لا تمتلك فيها الأجهزة المشفرة بمختلف أنواعها تأثيراتٍ مضافةً فقط، بل إنها تسكن «أكثر الأشياء شيوعا» (Crang and Graham, 2007: 793) - وهي الأشياء المشفرة الأحادية والمسجلات الرقمية الذاتية التي نُوقشت بالفعل - وتكون قادرة على إنتاج أكثر من مجرد تحسينات على الفضاءات؛ بل هي ترحِّل قدرة الإنسان. هذه إذن هي رؤية الأنطولوجيا الاجتماعية التي أوضحها بيل ميتشل (2003) في وصفه الشهير للسايبورغ الممتد مكانيا، والذي أطلق عليه اسم «أنا ++» «Me ++» - أي الذات السايبورغية في المدينة التي توجد فيها شبكات واسعة

الانتشار. في هذا السياق يمكننا أن نتخيل الهواتف المحمولة والبنية التحتية للهواتف المحمولة العاملة في فضاءات المدينة، ويمكننا أيضا إضافة أجهزة الموسيقى المحمولة، وأجهزة الحاسب المحمولة، وأجهزة النت بوك netbooks، وربما أجهزة تحديد الموقع مثل ساتناف SatNav وما إلى ذلك. والأفراد هنا يصبحون جزءا من شبكة من الأشخاص داخل هذه الفضاءات، وقد يكونون متصلين بتلك الأجهزة. وفي ظل وجود هذه الأجهزة لم يعد جسد الإنسان كيانا معزولا، ولكنه قد يتصل بأجساد ومصادر معلومات أخرى من خلال شبكات المعلومات المشفرة هذه. ومن خلال هذه التطورات التي طرأت على التجميعات التي توفر فضاء معدلا، أصبحنا نشاهد ظهور قضايا ذات أهمية عميقة بالنسبة إلى علم الاجتماع. ومن خلال الفضاء المعدَّل أصبحنا نشاهد عمليات إعادة تهيئة للاتصالات والتفاعلات الاجتماعية، ونرى عملية استرجاع المعلومات في مختلف البيئات الاجتماعية، ونجد أن فضاءات الاستهلاك قد تغيرت، وأن هناك أشكالا جديدة من المشاركة الحضرية وما إلى ذلك.

ومن خلال هذا الشكل الثاني الأكثر تعقيدا من التجميع، تحدث التطورات التي تغير الحياة الحضرية والتجربة الحضرية وتتدخل في العلاقات بين الناس. وهنا تأتي الحاجة إلى المعلوماتية الحضرية لإعادة النظر في كيفية فهمنا هذه الفضاءات عندما تصبح معدلة بواسطة أجهزة مختلفة. وعلى رغم ذلك لن يكون من الحكمة إيقاف مسارنا التحليلي هنا للعودة إلى كرانغ وغراهام. والسبب في هذا يعود إلى وجود علاقة أكثر تعقيدا بين المعلومات والمدينة الناشئة حاليا، والتي على الأرجح يبدو أنه ستكون لها آثار أكثر أهمية بالنسبة إلى إعادة النظر الجمعية في علم الاجتماع، لاسيما أنه كلما غاصت هذه الأجهزة في البنى التحتية اليومية الخاصة بنا، فإن مراقبتها أو حتى ملاحظتها ستصبح أكثر صعوبة.

الفضاء المحوَّل

الفضاء المحوَّل هو أيضا مختلف ولا يهتم فقط بترحيل الامتداد المكاني لقدرة الإنسان، بل أيضا بإمكانات القدرة التكنولوجية في حد ذاتها (Dodge and Kitchin, 2005)؛ كما يهتم بممارسة القوة من خلال الخوارزمية (Beer, 2009).

وقد أصبحت الأنطولوجيا الاجتماعية الجديدة للعصر الرقمي في أكثر مراحلها تطورا ضمن هذه الفضاءات المحوَّلة. ويتعلق الأمر بالقوة الإنتاجية للتكنولوجيا لجعل الأشياء تحدث من خلال الممارسات المتكررة أو التحويلية أو المتواترة (Parker et al., 2007). ولا يعد هذا شكلا من أشكال الحتمية التكنولوجية؛ والتوصيف الذي تقدمه هايلز، والذي استخدمناه في مستهل هذا الفصل، يوضح ذلك. نحن هنا نواجه الآن مجموعة واسعة من الاتصالات الرقمية الآلية التي تعد جزءا من كيفية عيشنا، ولكن ليس جزءا من وجودنا اليومي الواعي. إننا نواجه «تكنولوجيات نشطة وتفاعلية ذات إمكانات معرفية» (Gane et al., 2007: 351) تعمل من دون الحاجة إلى قدرة بشرية. والواقع أن فكرة هايلز (2006) عن «العالم المعرفي» تشير إلى أن القدرة البشرية جزء من مجموعة أوسع بكثير من القدرات المترابطة.

وتدعي هايلز أنه في «المجتمعات المتقدمة في مجال التطور والاتصال بالشبكات... يتضمن الوعي البشري قمة هرم ضخم من تدفق البيانات، ومعظمها يحدث بين الآلات» (Hayles, 2006: 161)، وهذا هو السياق الذي ستحدث فيه أتمتة أغلب الاتصالات بين الأجهزة الذكية. وسوف يتدخل الإنسان فقط في جزء صغير جدا من تدفق الاتصال، في حين أن معظمه سيستمر من دون أن يشعر به أو حتى يدركه الإنسان (Hayles in Gane et al.,2007: 350). وما تصفه هايلز هنا هو نفسه الذي يشير إليه ثرفت (Thrift, (2004a باسم «اللاوعي التكنولوجي» (انظر: 2009، Beer 2007)، في صورة تشغيل شفرة رقمية قوية وغير معروفة تعمد إلى «إنتاج» الحياة اليومية. والنتيجة المترتبة على ذلك بالنسبة إلى هايلز هي التحول الجذري في الفضاءات الحضرية، حيث إن إمكانَي الانتقال والاتصال من خلال التكنولوجيا «يشكلان تحديات وفرصا غير مسبوقة للبشر للتحرك داخل بيئة ذكية وواعية بالسياق» (Gane et al., 2007: 349)، وداخل ما يمكن اعتباره «مناطق قادرة على التفكير» (Beer, 2007). ونظرا إلى أننا نتعامل مع أشياء مُخفاة بوجهٍ عام عنا، فمن الصعب الإشارة إلى أمثلة توضيحية معينة، ولكن ما يمكننا التفكير فيه هو أن التكنولوجيات التنبئية التي تقدم توصيات لنا أو تتنبأ بأشياء مثل الموسيقى التي قد نحبها، أو الكتب التي قد نهتم بها، وما إلى ذلك، هي جزء من مجموعة معقدة من الخوارزميات وقواعد البيانات والأنظمة

التصنيفية (بما في ذلك أنظمة التصنيف الجغرافي الديموغرافي). وإذا كنا نرغب في إعادة النظر في علم الاجتماع في هذا السياق، فإن السؤال هو كيف يمكننا التعامل مع «اللاوعي التكنولوجي» الخفي؟ وكيف يمكننا البدء في التفكير في العلاقة السببية التي يكون فيها قدر كبير من التفاعل الاجتماعي غير معروف ومعقد بنحوٍ غير مفهوم؟ ربما يتعين على علماء الاجتماع اعتبار اللاوعي التكنولوجي هدفا تحليليا في هذا السياق المتغير، ومن المؤكد أنه سيوفر بعض الاحتمالات للنظر في الطبيعة المتغيرة للجانب الاجتماعي.

أجندة سوسيولوجية...؟

تشرح هذه المناقشات بوضوح كيف تطرح التطورات في مجال المعلوماتية الحضرية تحديات لعلم الاجتماع بوجهٍ عام، فتشير التحولات والتطورات الناشئة التي وصفتها الأبحاث في مجال المعلوماتية الحضرية إلى ضرورة إعادة النظر في المنظورات والرؤى التقليدية لهذا التخصص العلمي حول الفضاء. ليس أقلها أن نرى بعض الاقتراحات في أدبيات الأبحاث التي أجملناها أن القدرة البشرية هي أحد المجالات التي يجب اعتبارها خوارزميات، والبيانات المستخرجة تدخل في تشكيل الأماكن والتنظيمات والفرص. بالإضافة إلى ذلك ما تشير إليه هذه الأدبيات هو أن التغييرات في النسيج الحضري، والبنية التحتية الأساسية للمدينة تحتاج إلى أن يعيد علماء الاجتماع النظر فيها. فلم يعد بإمكاننا ببساطة النظر إلى المدينة على أنها مجموعة خرسانية من المباني المنظمة بطرق معينة ومن مواد معينة، وتوفر أشكالا معينة من التفاعلات الاجتماعية. ولم يعد العمل السوسيولوجي الذي يفسر هذا الأمر غير ضروري، بل على العكس، لايزال مصدرا حيويا للإلهام، لاسيما بوصفه وثيقة لفهم التغير الاجتماعي. لكن ما تقترحه هذه الدراسات هو أن علماء الاجتماع في حاجة إلى إيجاد طرق للتعرف على البنى التحتية المعلوماتية، وكيفية تشابكها مع الهياكل الخرسانية الراسخة والأنماط الاجتماعية الجغرافية.

وضمن هذا السياق من الحياة الاجتماعية «المنتجة بالطريقة الخوارزمية»، تصبح الحاجة إلى فهم بناء الشفرة وآلية عملها من منظور سوسيولوجي أمرا أساسيا، وكذلك فهم التأثيرات الاجتماعية لهذه الشفرة. وإذا أردنا أن نتعامل بجدية مع الادعاء بأننا

دخلنا الحقبة التي بات فيها «الإنتاج الآلي للفضاء» (Thrift and French, 2002) وشيكا - وفي رأينا ينبغي أن يحصل ذلك - فإن الآثار المترتبة على هذا تتطلب اهتماما عاجلا من قبلنا. والطريقة التي تصبح فيها التجميعات الرقمية منتجة لـ «جغرافيات مصنفة بالبرمجيات» (Graham, 2004) تتطلب تعاملا سوسيولوجيا مع العمليات التفصيلية التي ينطوي عليها إنشاء التعليمات البرمجية وتشغيلها. وهذه المهمة يجب ألا تكون محصورة فقط بالمولعين بالمنهجيات أو بأولئك المهتمين بالمعلوماتية الاجتماعية، بل يجب أن تكون محور أجندة جميع الاختصاصيين في تخطيط المدن، وربما حتى علماء الاجتماع بوجهٍ عام - فنحن نجد صعوبة في تخيل شكل إنتاجي لعلم الاجتماع يُغفل البُعد الفضائي. وإذا أردنا النجاة من الأزمة المقبلة لعلم الاجتماع التجريبي (Savage and Burrows, 2007, 2009)، يجب علينا أن ندرك أن الأنطولوجيا الاجتماعية التي نواجهها الآن تتغير، وأن العديد من «أجهزة النقش» السوسيولوجية التقليدية الخاصة بنا (Osborne et al., 2008) لم تعد تمنحنا الميزة التحليلية التي كانت تقدمها لنا قبل ذلك. وفي مواجهة هذه الظروف يحتاج علماء الاجتماع إلى إعادة النظر في ممارساتهم المنهجية بطرق مبتكرة بنحوٍ جذري، ومن دون قيود من بعض الافتراضات المتجذرة في مجال تخصصنا العلمي، والتي كانت أساسية لنجاحنا المنهجي في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، ولكنها لم تعد ذات صلة في السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين. وقد يكون أحد الاحتمالات إنشاء «أجهزة نقش» جديدة تستفيد من هذه التطورات من خلال التقاط بعض المعلومات التي تُخزن وتُنقل بواسطة هذه الأشياء والتجميعات.

ما نناقشه هنا ليس ببساطة أن علماء الاجتماع يحتاجون إلى فتح نطاق اهتماماتهم التحليلية لتشمل التحويل المعلوماتي للفضاء informatisation of space. هذا بالطبع جانب واحد من حجتنا التي نقترح فيها أن تحوُّل الفضاء الحضري يتطلب منا إعادة النظر في الأطر النظرية والتجريبية التأسيسية لعلم اجتماع المدن الراسخ منذ زمن طويل. ولكن بالإضافة إلى هذا فإن ما نصفه أيضا في هذا الفصل هو سياق متغير لممارسة علم الاجتماع. فالمعلوماتية الحضرية إذن ليست مجرد موضوع يمكننا من خلاله ممارسة خيالنا السوسيولوجي الجمعي، بل هي تصف أيضا سياقا يتعين علينا أن نعمل فيه بوصفنا علماء

اجتماع. فإعادة النظر في علم الاجتماع، سواء أكنا مهتمين بالفضاءات الحضرية أم لا، تتطلب منا التفكير في هذه السياقات المتغيرة وفي مواقفنا وممارساتنا داخلها بتفصيل أكبر بكثير مما كان عليه الحال حتى الآن. وتُعَد أنواع الأشياء التي غطَّتها الدراسات حول المعلوماتية الحضرية مهمةً في فهم التغيرات التي تطرأ على ظروفنا، وجامعاتنا، وممارساتنا العملية، ونظمنا القانونية، وانطباعاتنا بخصوص الشأن العام والطلاب، ونظرتنا إلى مجالنا العلمي، ومهارات الطلبة والقواعد المعرفية وما إلى ذلك.

إن المعلوماتية الحضرية في وضع يسمح لها بتوفير الفرص لفهم هذه التغيرات ومن ثم لفهم كيف يمكننا تصور علم اجتماع معاصر مزدهر. هذا هو علم الاجتماع الذي سيتحتم عليه أن يواجه بقوة الحصاد التجاري للبيانات التي ننتجها، والتحليلات التجارية والتنبئية للمنظمات والمتخصصين في أبحاث السوق، وبناء تصورات جديدة لمصادر البيانات التي يتيحها مستخدمو الشبكة العاديون ووجود أنظمة خوارزمية معقدة وغير معروفة تبتعد في تحليل الظهور الاجتماعي عن الجمع بين الفعل الإنساني والبنى التنظيمية. وهذه الأمور تمثل، على الأقل في رأينا، بعض عمليات إعادة التكوين الجذرية لموضوعات دراسة علم الاجتماع، وللسياق الذي يعمل فيه علم الاجتماع. فليست المعلوماتية الحضرية هي المكان الوحيد الذي يجب أن ننظر إليه كي نحاول الانخراط في عمليات إعادة التكوين هذه، ولكنها أيضا مكان جيد للبدء. ونأمل أن نكون قد أوضحنا هنا أن هذا، وقبل كل شيء، قد يمنحنا بعض الأسس للتوصل إلى مصطلحات مفاهيمية تساعدنا على الأقل في تجنب تجاهل تلك الجوانب من مواضيع دراستنا، والتي تتمثل في التصنيف الاجتماعي الأقل وضوحا، والذي يُحتمل أن تعمل نظرياتنا ومناهجنا المعمول بها، لو استُخدِمت بصورة منفردة، على إغفاله أو حتى حجبه. وسوف يمنحنا وضوح الإطار المفاهيمي والعمق التحليلي الأساسَ للتفكير في كيفية إعادة تشكيل علم الاجتماع حتى يكون في وضع مستقر بدرجة كافية لمواجهة أنواع المشكلات التي قد تتحدى التخصص نفسه.

5

إعادةُ النظر في المجتمع المحلي في العصر الرقمي

كارين إيفانز

تعبيراتُ المجتمع المحلي

إنَّ دراسةَ المجتمعِ المحليِّ لها تاريخٌ طويل وقيِّم في جميع التخصصات التي تستكشف العالم الاجتماعي ومعانيه، ولكن التعاريف السائدة لهذا المصطلح قد تغيَّرت مع التحولات الكونية والمحلية، حيث استُخدِم لوصف مجموعة مذهلة من التكوينات الاجتماعية (Poplin, 1972). ويمر المجتمع المحلي بمرحلة انتقالية باستمرار، فهو قوة اجتماعية متكيِّفة للغاية يستمر الناس بواسطتها ومن خلالها في اختبار العالم المحيط بهم وصياغته من بعض النواحي. ومع ذلك مهما كان شكل المجتمع المحلي، فقد تطور دائمًا بوصفه مجموعة من

«الحلولُ للمشكلاتِ التي واجهتها المجتمعات المحليـــة في أواخـــر القرن العشرين قد يُعثر عليــها في الفضـاءات الجديـدة التي تكونت في العوالم الافتراضية الناشئة»

الممارسات التي تدل على الاتصال والتضامن مع الآخرين. وفي المجتمع المحلي تُعطَى التكويناتُ الاجتماعية المحلية والتقليدية والطبيعية الأسبقيةَ على الأشكال العقلانية والقانونية، مما يعكس التوصيف الشهير لعالم الاجتماع الكلاسيكي الألماني تونيز Tönnies (1887) للمجتمع المحلي باعتباره العلاقات المحلية وغير التعاقدية للنسيج الاجتماعي الشخصي Gemeinschaft بخلاف النسيج الاجتماعي اللاشخصي Gesellschaft، الذي يمثل الأطر الاجتماعية الأوسع للأمة والمنطقة والمدينة الموضوعة لتنظيم العالم الاجتماعي بعد صعود مشروع التنوير في الغرب. وفي العديد من النواحي تصور علم الاجتماع الكلاسيكي المجتمع المحلي بوصفه فضاءً بديلا مفصولا عن القوى البيروقراطية والمسيطرة للدولة، ويشير إلى إمكان وجود مجتمع بلا دولة، وهو عالم منظم بنحوٍ مختلف حيث تنظِّم فيه علاقاتُ الثقة والتبادلية وحدها السلوكياتِ الاجتماعية. وفي حين أنه في العالم الصناعي الحديث كانت المجتمعات في كثير من الأحيان مضطربة وأحيانا مسبِّبة للاضطراب، فقد اعتُرف بها أيضا باعتبارها فضاءاتٍ للأمل والنشاط الاجتماعي، حيث يمكن للشبكات المتماسكة توفير الدعم الاجتماعي والمساعدة العملية للمحرومين مثلهم، وحيث يمكن التعرف على الحلول الإبداعية للمشكلات البنيوية الأوسع نطاقا وتشجيعها.

في فترات معينة، كان فقدان المجتمع المحلي الشغلَ الشاغلَ لتفكير العلماء الاجتماعيين، لكن كان يبدو على الدوام أن أفكار المجتمع المحلي تعود إلى الظهور، وقد أُصلحت وأُعيد تشكيلها في الفضاءين التقليدي والجديد على حد سواء. ومع تقويض التصنيع وانهيار المشروع الحداثي تراجع عديد من الأحياء الحضرية بقدرٍ متزايد في الريف وتفتتت لتتحول إلى أماكن ينتشر فيها الخوف والاضطراب وارتفاع معدلات الجريمة. في ظل هذه الظروف البيئية المتدهورة، اتخذ خطاب المجتمع المحلي منعطفا ثقافيا. وقد تشكلت الأشكال الثقافية الفرعية للمجتمع المحلي، التي كان يتخيل فيها الناس وجود فضاءات من الانتماء خارج البنى التقليدية القائمة على المكان، من خلال هويات مختلفة تجاوزت الوقائع الآنية والمباشرة للتجربة المحلية (Delanty, 2003). وبدت هذه المجتمعات المحلية مناسبة بنحوٍ خاص لظروف الحداثة المتأخرة، حيث إنها كانت موجودة في محيط البحث عن أشكال جديدة من الارتباط في عالم اجتماعي يتزايد فيه التمزق. ومن المعروف أن بنديكت

أندرسون Benedict Anderson (1983) أوضح طبيعة البناء الاجتماعي والمتخيل لهذه المجتمعات المحلية، مؤكدا دورها الأساسي في الحفاظ على الحدود والحصرية exclusivity وأيضا في الاستفادة من أفكار القومية والانتماء والاختلاف.

تضاءل الاهتمام بدراسة المجتمع المحلي بنحوٍ مؤقت في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين؛ إذ تصدعت العوالم الاجتماعية تحت ضغوط التراجع الصناعي والتدهور الاقتصادي. ومع ذلك أصبح المجتمع المحلي موضوعا مهما مرة أخرى في التسعينيات من القرن العشرين بوصفه أداة لفهم تطور التكوينات الاجتماعية الجديدة التي انبثقت من هذه الهزة الرهيبة والتي بدت كأنها تقدم عالَما اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا يتسم بالعولمة بقدرٍ متزايد. وكما قيل فقد برزت تعبيرات جديدة عن المجتمع المحلي، مما أتاح للأفراد الشعور بالارتباط في ظروف الخطر وانعدام الأمن التي تختلف اختلافا كبيرا عن الوجود التقليدي القائم على المكان. ومع بداية الثورة الرقمية، جادل كُتاب مثل باري ويلمان (1979)، وكلود فيشر Claude Fischer (1982) وهوارد راينغولد Howard Rheingold (1994)، ومانويل كاستيلز (2001b) في أن الناس لم يعودوا يجدون أن المجتمعات المحلية تلبي طموحاتهم، بل أصبحوا ينظرون إلى أبعد من ذلك نحو الترابط الكوني. فقد ذهب كاستيلز إلى حد الادعاء بأن العلاقات المحلية قد استُبدلت، حيث كتب أن «تحولا كبيرا في الألفة الاجتماعية في المجتمعات المعقدة قد حدث مع حلول الشبكات مكان المجتمعات المكانية كأشكال رئيسة من الألفة الاجتماعية» (2001b: 127). وقد تبنى موقفا يَعتبر فيه أنه على الرغم من أن «الألفة الاجتماعية القائمة على المكان» و«المجتمع المحلي بحدوده الجغرافية الواضحة... لم يختفيا من العالم بأسره... فإنهما يؤديان الآن دورا بسيطا في بناء العلاقات الاجتماعية لأغلبية السكان في المجتمعات المتقدمة» (2001: 126). والإقامة بالنسبة إلى هذا المفهوم للمجتمع لها أهمية ثانوية في بناء الصداقات والجماعات الاجتماعية. ونحن نختار بدلا من ذلك قضاءَ مزيد من الوقت مع الأشخاص الذين تعرفنا عليهم نظرا إلى وجود اهتمامات مشتركة تجمعنا بهم، وليس لمجرد المصادفة المتمثلة في وجود فضاءات مشتركة بيننا. وقد تمت الإشارة إلى أن هذه العملية بدأت مع تحول المجتمعات الغربية من أسلوب يغلب عليه الطابع الريفي إلى أسلوب حياة

حضري، لكنها تعززت من خلال زيادة الشبكات الكونية والهجرات واتساع آفاق التجربة. وكانت هذه هي الحال بنحوٍ خاص في العقود الأخيرة مع إدخال أدوات الاتصالات الكونية الفعالة والإنترنت، مما أتاح الحفاظ على العلاقات الشخصية المهمة من بُعد. وقد شاهد الناس كيف هدمت أجهزة الاتصال حواجز المكان والزمان التي كانت تمنع الاتصال من قبل في جميع أنحاء العالم. حتى إن كاستلز (2001b) زعم أن الإنترنت كانت الوسيلة الأنسب للاتصال في مجتمع الشبكات الناشئة، وأنها كانت ستؤدي دورا متزايد الأهمية ليس فقط في الطريقة التي اختار بها الناس التواصل بعضهم مع بعض، ولكن أيضا في الطريقة التي شكلوا بها علاقات اجتماعية مهمة.

لكن خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، سار النقاش حول المجتمع المحلي في العصر الرقمي بهدوء إلى حدٍ ما. وكان هذا الافتقار إلى التعامل النقدي مع الموضوع في تناقض حاد مع التكهنات التي كانت محمومة في الأغلب، والتي ميزت قدرا كبيرا من النقاش والجدل الذي دار في العقد السابق. وقد شهدت أوائل التسعينيات من القرن العشرين حتى منتصفها على وجه الخصوص اهتماما متزايدا بدراسة المجتمعات الرقمية والشبكات الاجتماعية القائمة على الإنترنت والعديد من الإمكانات التي بدا أن الاتصال عبر الإنترنت يتيحها لتطوير علاقات كونية وعابرة للثقافات، وغير خاضعة للقيود التي يفرضها الزمان والمكان. وتوجد الآن أكثر من أي وقت مضى مواقع يمكن الاتصال من خلالها، إلى جانب التكوينات الاجتماعية المستندة إلى الشبكة والتي أُنشئت حديثا، ويمكن استخدامها في تكوين صداقات جديدة أو للحفاظ على الصداقات القديمة. فقد ضمن التقدم في التكنولوجيا وتطوير منصات تبادل الملفات والاتصال، مثل الجيل الثاني من شبكة الإنترنت وملخص الموقع الغني (RSS)، أن العديد من الطرق المختلفة للتفاعل والمشاركة داخل الفضاء الإلكتروني أصبحت سائدة. ومع ذلك أصبح الحديث عن ظهور أشكال جديدة من المجتمع نتيجة لهذه الابتكارات في تكنولوجيا الاتصالات قديما إلى حدٍ ما.

ويبحث هذا الفصل في ظهور فكرة أن التكنولوجيات الحديثة في العصر الرقمي ستبشر بنشوء تكوينات مجتمعية جديدة. ويتتبع تطور هذه الأفكار المبنية في

الأغلب على الحُلم الطوباوي الذي يشير إلى أن الحلول للمشكلات التي واجهتها المجتمعات المحلية في أواخر القرن العشرين قد يُعثر عليها في الفضاءات الجديدة التي تكونت في العوالم الافتراضية الناشئة. وسوف يُقال إن هذه التكهنات قد نشأت من المثالية التي لم تستطع مواجهة قوة الرأسمالية التي يحركها المستهلك لتشويه التشكيلات الجديدة وقولبتها وفقا لأهدافها الخاصة. ومن خلال النظر في مختلف الفضاءات الاجتماعية عبر الإنترنت سيوضح هذا الفصل أنه بدلا من استضافة أشكال جديدة من المجتمع المحلي، فقد استُنسخت التكوينات الاجتماعية القديمة بمنتهى الدقة في الفضاء الإلكتروني. ويشير هذا إلى أن الادعاءات المتعلقة بالقدرات التحويلية للفضاء الإلكتروني كانت بوجهٍ عام غيرَ مدعَّمة بالأدلة.

بناء العوالم التكنولوجية الفاضلة

بدا تبني تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في التسعينيات من القرن الماضي، على نطاق واسع في العمل ثم في المنزل، كأنه يُنبئ بحدوث تغير اجتماعي واسع النطاق، إن لم يكن ثوريا. إن هذه القدرة على الاستمرار في الاتصال مع الآخرين بغض النظر عن موقعهم الجغرافي، فضلا على مرونة الاتصال غير المتزامن، ومن دون أن يؤدي ذلك إلى حصول زيادة كبيرة في التكلفة سواء بالنسبة إلى المُرسِل أو المستقبِل، هي التي أوحت بتطوير منتديات لم تكن قد خطرت على بال أحد من قبل، ويمكن الوصول إليها على نطاق واسع، وذلك لتبادل الأفكار والخبرات. وقد كانت المناقشات الأكاديمية والسياسية التي أعقبت هذه التطورات التكنولوجية إيجابية بقدرٍ كبير في طبيعتها (Negroponte, 1995; Department of Trade and Industry, 1996; Doheny-Farina, 1996; Fisher et al., 1996; Jones 1997).

وبينما أقر بعض المعلقين بوجود مخاطر كامنة داخل الفضاءات التكنولوجية(Spender, 1995; Carter 1997)، فإن التوجه العام إلى الحديث كان يشير إلى أن العصر الرقمي يمكن أن يكون مكانا للأمل والتجديد. ويبدو أن الألفة الاجتماعية المتأصلة التي وعدت بها تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الآخذة في التطور توفر علاجا جاهزا للفردية المفرطة التي ميزت العلاقات الاجتماعية في العقود السابقة من صعود الليبرالية الجديدة (Wellman, 1999)،

وبدت الاحتمالات القائمة لتطوير الفعل الاتصالي الإيجابي بلا نهاية. كما أتاح الفضاء الإلكتروني فضاء جديدا للمجتمعات المحلية التي تتمتع بتركيبة مختلفة كي تزدهر. فقد تُخُيِّلت كأنها منطقة عذراء يمكن تشكيلها وتطويرها وفقا لمجموعة من القيم التي تختلف عن تلك التي سادت في الفضاءات المادية لعالمنا. وإذا كانت المجتمعات المحلية التقليدية تسعى إلى مشاركة الفضاءات الاجتماعية الممتلئة بأوجه التفاوت، فإن هذه الفضاءات يمكن استبدالها بفضاءات إلكترونية مفتوحة وديموقراطية لا ترتبط بالمكان ولا يوجد فيها أوجه تفاوت على صعيد الثروة والطبقة الاجتماعية والنوع والعرق. ومن خلال هذا المنظور، يمكن أن يتطور الفضاء الإلكتروني ويصبح مستودعا عالميا للافتراضات والأفكار البديلة التي تعرضت للتهميش أو الرفض تماما في العوالم المقيدة ماديا، التي رَسمت فيها الدول والحكومات والتشريعات القانونية حدودَها الخاصة التي تخدم مصالحها.

وكانت هذه المثاليات تستند إلى الرأي القائل إنه في كثير من الدول التي اكتسبت فيها الإنترنت موطئَ قدمٍ قويا، أصبح النمط الاقتصادي المهيمن هو نمط «رأسمالية المعلومات» informational capitalism - فهي مرحلة وشكل معين من رأس المال الذي حل فيه إنتاج المعرفة والأفكار محل إنتاج السلع والتوصيل المباشر للخدمات كأساس لتكوين الثروة (Logan and Molotch, 1987; Giddens, 1990). وكان يُنظر إلى هذا التحول في الأساس الاقتصادي على أنه المحرك الذي يدفع التغيرات الأساسية في البناء الفوقي الاجتماعي، حيث يدمر أساليب الحياة والمجتمعات المحلية الراسخة التي نشأت حول التكوينات الصناعية الموجودة، وينشئ مكانها تشكيلات اجتماعية جديدة. وكانت المخاوف السابقة من أنه لا يمكن تعويض المجتمعات المحلية الزراعية الآخذة في الاختفاء، وما أفرزته من شبكات علاقات وثيقة وهياكل دعم، قد دُحضت في المجتمع الصناعي المتقدم. ولقد عزز هذا الأخير في النهاية أشكالا جديدة من الوعي الجمعي نتجت عنها نظرة تقدمية وعامة يُتوقع أن تتبنى فيها الحكومةُ توجها نحو رعاية ورفاهية مواطنيها القوميين. ومع ذلك كانت رأسمالية المعلومات مرتبطة بسقوط الإنسان العام fall of public man (Sennett, 1977) وظهور الشبكات الشخصية والمعرفة الخاصة بكل فرد. وهذا دشَّن عصر المسؤولية الفردية الذي أصبح الولاء فيه موجها نحو الذات والأسرة

المباشرة. واعتُبر تقليص المواد المتاحة للعامة أو سحبها كاملا أمرا لا مفر منه. وقد أصبح هناك تخيل للفضاء الإلكتروني ومجتمع المعلومات «الجديد» والعوالم الافتراضية على أنها فضاءات عامة جديدة سيثبت فيها أن أسلوب التفكير المدني والعام يمثل وقائع اجتماعية مهيمنة(Miller, 1995).

إن أولئك الذين دافعوا عن بناء المجتمعات المحلية من خلال التكنولوجيات المعتمدة على الحاسب الآلي كانوا غالبا متشائمين بشدة حول احتمالات إنشاء المجتمع المحلي أو إعادة اكتشافه في العالم المادي. وكان هناك افتراض أنه لم يعد في الإمكان الحفاظ على المجتمع المحلي في الفضاءات المادية المتقاربة التي نشأ فيها أولَ مرة واستمر فيها بعد ذلك (Wellman, 1979). فقد كان هناك عدد هائل من الأحياء السكنية التي يسيطر عليها الخوف - الخوف من الجريمة والبطالة، ومن الأمور التي قد يخبئها المستقبل ويُعبر عنها بسخرية بالغة بسبب انعدام الثقة، والخوف أيضا من الجيران والممثلين السياسيين المحليين والحكومات الوطنية - وكثرة تلك الأحياء هي التي كانت تحول دون عودتها إلى التنظيم الجماعي على المدى القصير. وقُدِّم حل بديل تمثَّل في بناء مجتمعات محلية جديدة، شيئا فشيئا، باستخدام وسيط غير شخصي ظاهريا يتمثل في التواصل عبر الحاسب الآلي. وهذا قد يمكِّـن من التفاعل «الشخصي حقا»، الذي يختار كليا بعيدا عن تلك القيود التي تسببها آفاق التفكير الضيِّقة الناشئة عن الارتباط بالموقع الجغرافي أو بالحدود التي يفرضها التجسيد المادي. والمجتمعات المحلية «النقية» والأساسية التي تنشأ بهذه الطريقة ستمكِّن من تطوير العلاقات المهمة حقا، ومن تلاقي الأفكار التي تسود بموجبها القيم المشتركة وتُتابع من خلالها المصالح المشتركة في فضاء مضمون وآمن على حدٍّ سواء. وكان من المفترض أن تكون هذه المجتمعات المحلية «متخيلة» حقا (Anderson, 1983)، وليست لديها ولاءات للدول أو المناطق أو الأماكن الحالية، وأن تقدم آفاقا جديدة وتعمل على تطوير روابط عالمية غير معروفة حتى الآن. وقد أُشير إلى أن مثل هذه الشبكات ستثبت أنها أكثر ديمومة وشعبية من الفضاءات المادية غير المنضبطة والمتناقضة التي نشأ فيها المجتمع المحلي في القرن العشرين. وبالنسبة إلى بناة المجتمع المحلي الجديد في العصر الرقمي، فإن الفضاءات القديمة للمجتمع المحلي هي إما ميتة بالفعل وإما أنها في طور الاحتضار. ورأى هؤلاء

الكُتّاب أن الوعي الاجتماعي بالمستقبل سيقوم على أساس الشبكات الشخصية، التي ستكون بمنزلة الجذور التي ستنشأ منها مجتمعات الانتماء التي تتميز بأنها مختلفة وصاحبة رؤية جديدة ومستعدة لمواجهة التحديات المختلفة. بالإضافة إلى ذلك قد يتمكن أولئك الذين أُقصُوا في السابق، مثل الأقليات بجميع مشاربهم، من العثور على الروابط ونقاط الاندماج الخاصة بهم ضِمن العوالم الافتراضية.

الارتباط وإعادة الارتباط في الفضاءات الرقمية

إن تنوع وسائط الاتصال التي ميزت «العصر الرقمي» أتاح إمكانية أن يتكيَّف المجتمع المحلي مرة أخرى مع الظروف الجديدة في المرحلة «ما بعد التقليدية» (Delanty, 2003: 189). فهو قد ينفصل عن الروابط المادية التي كانت تربطه حتى الآن بالوقت والمكان القريبين، ويعاود الارتباط بالعوالم غير الملموسة وغير المحدودة للفضاء الإلكتروني. ولم يكن هذا التصور الخاص بالمجتمع المحلي التكيفي والمعاد تشكيله مدعوما فقط بالاختراعات التكنولوجية التي جعلت الاتصالات المتدفقة وغير الخاضعة لأي ارتباطات أمرا ممكنا، ولكن أيضا من خلال واقع التنقلات الفعلية للأشخاص في جميع أنحاء العالم: وهذه نتيجة للحروب المتزايدة وانعدام الأمن الاقتصادي والسياسي، وفتح بعض الحدود الوطنية للعمال المهاجرين. فهناك أعداد كبيرة من الناس الذين انفصلوا عن أماكنهم الأصلية وإلى حد لم يسبق له مثيل، ثم بنوا روابط جديدة في أماكن مختلفة، ما أدى إلى توسيع وتعميق التجارب والمواجهات بين الثقافات. وتبدو فرص وجود شكل حقيقي جدا للتواصل بين الثقافات وعبْر العالم أفضل مما كانت عليه في أي وقت مضى. وأشارت فكرة كاستلز عن «حلقة التغذية الراجعة التراكمية» cumulative feedback loop، التي تغذي التطورات التكنولوجية والاجتماعية، إلى العملية التي كان يتأثر من خلالها كلٌّ تطور بالآخر ويؤثر فيه، وهذا يجعل ظهورَ أشكال جديدة من التواصل ليس فقط ممكنا بل محتملا أيضا (Castells, 2001a).

ومع تحرر الإنترنت حديثة العهد من قيودها الأولية بوصفها بيئة لتبادل المعلومات والعمل التعاوني (وخاصة داخل المؤسسة العسكرية عبر شبكة وكالة مشاريع البحوث المتقدمة ARPANET، ثم في بعض الأوساط مثل الشبكة

الأكاديمية المشتركة JANET في المملكة المتحدة)، حينذاك تم التعرف على إمكاناتها على نطاق أوسع. ومن خلال هذه البيئات التعاونية الأولية التي لها طابع متخصص ومهني، انطلقت منتديات التواصل الاجتماعي عبر الإنترنت على نحو أوسع نطاقا مثل الرابط الإلكتروني للأرض الكاملة (Whole Earth Lectronic Link (WELL الذي أنشئ في العام 1985 (Rheingold, 1994). وقد سعت هذه الشبكات إلى تحسين الاتصال بين الأقران وتسهيل الجهود البحثية وتعزيز تبادل الأفكار. وكتب روّادها بحماس عن هذه المواقع بوصفها مجتمعات محلية محكومة بالوسائط وبشروا بالإمكانيات التي أتاحتها لتبادل المعرفة بين الأشخاص المتشابهين في التفكير. وأُشير إلى أن العلاقات في الفضاء الإلكتروني يمكن أن تكون متينة ودائمة مثل تلك الموجودة في الفضاء المادي وتستند إلى علاقات مماثلة، إن لم تكن أقوى، تتميز باعتمادها على الثقة والتعاون المتبادلين. على سبيل المثال كان يتعين على الأشخاص الذين يسهمون بمشاركات على منتدى الرابط الإلكتروني للأرض الكاملة أن يعرِّفوا عن أنفسهم بنحوٍ كامل للمشاركين الآخرين من خلال استخدام أسمائهم الخاصة، وكان يُنتظَر منهم اتباع قوانين محددة تتعلق باللياقة والسلوك. كما كان يُنتظر منهم احترام المستخدمين الآخرين والامتناع عن السلوك المعادي للمجتمع مثل «المضايقات» flaming و«إرسال البريد العشوائي» spamming. وقد حدثت محاكاة الطابع التعاوني لهذه المواقع من قِبل الآلاف من مجموعات الأخبار، التي كان منتدى Usenet(*) للنقاش يستضيف العديد منها، مع فارقٍ هو أن موضوع المحادثة هنا كان يُحظَر ما لم يكن متوافقا مع مجال اختصاص المجموعات المعنية، وأحيانا يُنشر في حال حظي بموافقة مدير المجموعة.

وفي حين أن رواد المجتمعات المحلية الرقمية الأوائل شرعوا في إثبات أنه يمكن توسيع المجتمعات المحلية في جميع أنحاء العالم، فإن فكرة أن المجتمع المحلي القائم على المكان قد انتهى بنحوٍ تام لم تلق قبولا شاملا. ولقد استُخدم الفضاء الإلكتروني أيضا في تعزيز المجتمعات المحلية القائمة على المكان. وباستحضار الروحية التي تحلى بها المستخدمون الأوائل للشبكات الاجتماعية، فإن بُناة شبكات المجتمع

(*) اختصار لشبكة المستخدمين User Network. [المترجم].

المحلي، والمعروفة أيضا باسم «الشبكات المدنية» civic-nets، ظهروا في البداية في الولايات المتحدة ثم بنحوٍ متزايد في المملكة المتحدة وفي أماكن أخرى، وأقروا بأن المناطق والمدن والبلدات، وحتى الأحياء قد تستفيد أيضا من بناء الروابط داخل الفضاء الإلكتروني (Evans, 2004). وكانت الشبكات التي تمخضت عن ذلك تهدف إلى تسخير الإمكانات الاتصالية للإنترنت لتعزيز التواصل والممارسات الجمعية بين الأفراد في الأحياء والمدن الموجودة فعليا. وأقر بُناة تلك الشبكات أيضا بوجود روابط قوية بالمكان الذي ظل سمة مميزة للعديد من الهويات الفردية والجماعية. كما سعوا إلى اتخاذ هذا الأمر باعتباره ركيزة من أجل «إعادة» إنشاء بنى مجتمعية في الفضاء الإلكتروني ترتبط ارتباطا وثيقا بالعالم المادي. وركزت شبكات المجتمع المحلي على الطبيعة المدنية والمتحضرة للكثير من التفاعلات الاجتماعية وشكلت بوجودها إقرارا أن كثيرا من الناس مازالوا يشعرون بوجود صلة حقيقية تربطهم بالفضاءات المشتركة على الأرض وبالتجارب المرتبطة بالمكان. ومن خلال إسقاط هذه الارتباطات على المجال الرقمي، كان بُناة الشبكات المدنية يأملون تمكين أولئك الذين انفصلوا جسديا أو اجتماعيا عن فضاءاتهم المادية المهمة، بسبب الإعاقة الجسدية أو الفقر أو ضعف وسائل النقل أو الافتقار إلى الثقة الاجتماعية، من إعادة الاتصال عبر بوابات مرتبطة بالمكان في فضاء إلكتروني يمكن اعتباره مألوفا بالقدر نفسه، ولكنه أكثر أمانا ويمكن الوصول إليه بلا حدود.

وفي هذا الفضاء الذي يبدو أنه يتسم بالمساواة والديموقراطية الحقيقية، والذي وعد به الفضاء الإلكتروني، كان من المتوقع ظهور أشكال جديدة من المشاركة السياسية وازدهار جماعات المصالح السياسية political interest groups. وفي العام 1998 أدت جماعة «موف أون دوت أورغ» MoveOn.org، وهي منظمة مرتبطة بالحزب الديموقراطي الأمريكي، دورا رئيسا في تطوير العريضة الإلكترونية e-petition عن طريق استطلاع الرأي العام من خلال شبكة الإنترنت، وتشجيع مراسلة بعض السياسيين عبر البريد الإلكتروني بخصوص قضايا سياسية مهمة. وفي وقت لاحق أتاحت شبكات عالمية، مثل «أفاز دوت أورغ» Avaaz.org، إمكانية العمل الجماعي للمجتمعات المحلية عبر العالم وتنمية الوعي السياسي الذي تجاوز الحدود الوطنية. وفي أغسطس 2008، زعمت شبكة «أفاز دوت أورغ»

أن الأشهر الستة عشر الماضية قد شهدت 8 ملايين عملية من خلال موقعها، مما يبشر بـ «... مصدر جديد ورائع للمجتمع والديموقراطية العالميين»(*). كان هذا الأمر مهما للغاية في سياق الولايات المتحدة، حيث لاتزال وسائل الإعلام الرئيسة خاضعة لسيطرة عدد قليل جدا من مقدمي الخدمات، وحيث يكون المحتوى فارغا إلى حد كبير من التحليل والسياق مع تخصيص مساحة صغيرة جدا للأخبار الدولية. في هذه البيئة الإعلامية، يكتسب استخدام الإنترنت، باعتبارها جهة توفر صوتا بديلا ومصدرا إعلاميا مستقلا، أهميةً تُعتبَر غائبة إلى حدٍ كبير من السياق الخاص بالمملكة المتحدة.

وقد عكست مواقع الحملات مثل «أفاز دوت أورغ» تدويل التنظيم السياسي الذي حدث نتيجة لاتجاهات العولمة الحديثة في الاقتصاد والسياسة. ونظمت حركة المنتديات الاجتماعية، على سبيل المثال، التي تطورت منذ العام 2001 استجابة للمنتدى الاقتصادي العالمي، لقاءات لعشرات الآلاف من الناشطين في مجال مكافحة الفقر وللمنظمات غير الحكومية في جميع أنحاء العالم. وقد عُقدت تلك اللقاءات في بورتو أليغري Porto Alegre والبرازيل في بداية الأمر، ثم انتقلت إلى مواقع مختلفة في السنوات اللاحقة. وفي السنوات الأولى من هذا القرن سافر عدد متزايد من الناشطين خارج دولهم للاحتجاج إلى جانب أشخاص آخرين طرحوا رؤيتهم بشأن إمكان تكوين مجتمع آخر. وقد أسهموا في إنشاء قنوات إخبارية بديلة قائمة على العمل الذاتي، مثل «إنديميديا» Indymedia، وكانت مستوحاة من التقارير التي كانت تواكب، لحظةً فلحظة، الاحتجاجاتِ المناهضةَ للرأسمالية، كتلك التي اندلعت أمام منظمة التجارة العالمية في سياتل في نوفمبر 1999. وبالطبع انتهزت تلك الفرصَ جماعاتٌ من مختلف الأطياف السياسية. ومقابل كل جماعة ضغط إلكترونية نقدية وتقدمية كانت هناك جماعة أخرى أكثر رجعيةً أو تطرفا تطرح بياناتها وترص الصفوف دعمًا لتلك البيانات. فأعضاء منظمة النازيين الجدد، كومبات 18 (Combat 18)، التي نشأت في المملكة المتحدة واستمدت اسمها من ترتيب الأحرف الأولى لاسم بطلها أدولف هتلر وفق الأبجدية الإنجليزية، يستخدمون شبكة الإنترنت استخداما سيئا للإعلان عن وجوه

(*) أُرسلت هذه الرسالة بالبريد الإلكتروني بتاريخ 28 أغسطس 2008 إلى جميع المشتركين من ريكن باتل avaaz@ avaaz.org. [المؤلف].

النشطاء المناهضين للفاشية وأسمائهم وأحيانا عناوينهم للعالم ولأتباعهم (العنيفين في الأغلب)، ويستغلون الطبيعة غير المنضبطة للفضاء الإلكتروني للتهرب من القوانين الوطنية المناهضة لنشر الكراهية والعنف ضد الآخرين. مرة أخرى يمكن النظر إلى الوسائط الرقمية باعتبارها تشكل انعكاسا لحالتي الوجود والتفكير القائمتين بدلا من الاضطلاع بتغييرهما.

ومنذ التوسع السريع في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في التسعينيات من القرن العشرين، فقد شوهدت الصيغ الجديدة للمجتمع المحلي في عديد من الأشكال التكنولوجية المختلفة. ويُشار إلى أن المجتمعات المحلية التي توحدها الاهتمامات والمشاعر والانتماءات المشتركة قد ظهرت في الفضاء الإلكتروني وعملت على تغيير التجربة الاجتماعية والجمعية. واستُخدمت التكنولوجيات الرقمية لتوفير قنوات اتصال بديلة ومنح من لا صوت لهم فضاء رقميا للحشد وممارسة الضغط على السياسيين، ولإثبات أنه تُوجد أفكار بديلة متداولة. ومن خلال التكنولوجيات الرقمية، شكَّل أولئك الذين لم يتلاقوا قط تحالفاتٍ، وعملوا معا لفرض التغيير أو لتبادل الأفكار والخبرات. كما استُخدمت هذه التكنولوجيات لتعزيز الروابط الاجتماعية والمادية القائمة من خلال تأمل الأماكن المحلية والأحداث التاريخية والثقافات.

المجتمعات المحلية للفضاء الإلكتروني في عصر التجارة الرقمية

أدى ظهور تطبيقات الجيل الثاني من شبكة الإنترنت (DiNucci, 1999) وازدياد سهولة مشاركة الملفات إلى تحريك الإنترنت نحو مبادئ المحتوى الذي ينتجه المستخدم user-generated content على أساس ثقافات الإنترنت التشاركية، كما أتاح مزيدا من إمكانات النمو «لفضاء التدفقات» (Castells, 2001). ولكن بدلا من أن تؤدي هذه التكنولوجيات إلى تمكين الأفراد المستخدمين، فقد استُغلت من قبل القوى الاجتماعية والاقتصادية الأكثر هيمنة. وشكل الفضاء الإلكتروني في أيامه الأولى، بما يتمتع به من مجالات حرة، فرصةً لتطوير المحتوى في مكان لم تلوثه بعد متطلباتُ التجارة والسعي إلى تحقيق الربح. من السهل أن ننسى هذه الطبيعة النقية للفضاء الإلكتروني في بداياته المبكرة، عندما كان خاليا من المؤثرات الصوتية والمرئية الباهرة، ولم يكن يحقق

الجاذبية إلا من خلال جودة محتواه والكلمة المكتوبة، التي كان يمكن رؤيتها بنحوٍ أفضل لعدم وجود فوضى محيطة بها. وكانت الاقتحامات المبكرة للفضاء الإلكتروني تتمحور حول تبادل الأفكار وتطوير جماعات المصالح الخاصة (Rheingold, 1994). وكان هذا الفضاء مختلفا عن العالم الخارجي، فهو من نواح كثيرة لم يكن يثير اهتمام الوسائط المهتمة بالصور التي برزت في أواخر القرن العشرين إلا بعد أن سمحت التطورات التكنولوجية باستخدام مشغلات «الفلاش» والصور المتحركة وملفات الصوت لإثارة المستخدم وجذبه. وأصبح الفضاء الإلكتروني جاهزا الآن للتسويق، وبحلول السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين خضعت مساحة كبيرة من الفضاء الإلكتروني للضرورة الاقتصادية. وتمكنت المؤسسات التجارية من تحييد المُثل الفاضلة التي دفعت الرواد الأوائل إلى تحقيق أهدافهم الأقل إيثارا. وعلى الرغم من ذلك حدث الادعاء بوجود جانب اجتماعي داخل بعض المواقع ذات الطابع التجاري الواضح مثل «إي باي» Ebay و«أمازون» Amazon (Lai and Turban, 2008: 392–393) والتي استخدمت الممارسات التشاركية بقدرٍ متزايد مع تعزيز تجربة الاستهلاك في الوقت نفسه. ولكن مسألة تقديم هذه المواقع على أنها تنطوي على جانب اجتماعي هي أمر مثير للجدل. وعلى الرغم من أن المؤسسات نفسها التي تستضيف هذه المواقع هي التي تحاول إظهار جانبها الاجتماعي، فإن هذه المواقع بالكاد تخاطب جوهرنا الإنساني والترابط الموجود بيننا. ومن المؤكد أنه لا يمكن الترحيب بها على أنها تنطوي على مكونات اجتماعية إلا إذا تبنى المرء فكرة أن البشرية تحركها إلى حد كبير الاعتباراتُ التجارية والحاجة إلى الاستهلاك بكفاءة داخل السوق الرأسمالية.

ومكّـن الجيل الحالي لمواقع الشبكات الاجتماعية عبر الإنترنت من زيادة تبادل الآراء والخبرات والتواصل بما يتجاوز الحواجز الجغرافية (DiNucci, 1999). وتختلف هذه المواقع بقدرٍ ملحوظ عن مواقع الشبكات التي أُسست في البداية، مثل الرابط الإلكتروني للأرض الكاملة، فهي أقرب ما تكون إلى مصدر ترفيهي، لكونها عبارة عن دفتر مذكرات يومية سريعة الإيقاع وملونة ومتغيرة باستمرار للحياة الشخصية للأصدقاء والمشاهير، ويمكن للمرء تصفحها كلما شاء. هذه المواقع مغرية بالفعل ويبدو أنها تمتلك كثيرا مما يشبه بناء مجتمع عالمي حقيقي توحده المشاعر المشتركة من خلال توفير فضاءات جديدة من الانتماء. بيد أن التحقيق في

استخدام هذه المواقع يكشف أن كثيرا من الاتصالات التي تحدث فيها تشكل جزءا لا يتجزأ من مجالات التفاعل الموجودة بالفعل، وأن هذه المواقع، على الرغم من أنها تمكِّن الاتصالات الموجودة مسبقا من الاستمرار في ظل الحواجز المادية الكبيرة، فإنها ليست سوى وسيط آخر يعترف الجميع بأنه يتمتع بدرجة عالية من المرونة، ويمكن من خلاله الحفاظ على الصداقات القائمة بالفعل. وهي غالبا ما تكون أقرب إلى حفلة ممتعة وممتلئة بالمرح تتبادل فيها مجموعات الأقران التجارب وتحكي القصص وتتشارك الموسيقى والأحاديث منها إلى كونها وسيلة للحفاظ على المشاعر المشتركة والتواصل الفعّال مع جماعة اجتماعية. فقط الوقت ومزيد من البحوث سوف يكشفان عن أهميتها الدائمة.

وتشير الدراسات إلى أن أكثر الناس استخداما للتكنولوجيات الرقمية يوجد لديهم شبكات اجتماعية كبيرة خارج الإنترنت أيضا (Boase, 2008, Macpherson et al. in Stern, 2008). وهذا يشير إلى أن استخدام التكنولوجيا الجديدة لا يؤدي إلى استبدال أنماط الاتصال السابقة، بل يعزز تلك الموجودة بالفعل. وقد لاحظ بوستيل Postill أنه «مع استمرار النمو في أعداد مستخدمي الإنترنت في جميع أنحاء العالم، أصبحت الإنترنت أكثر محلية» (2008: 413)، حيث أورد أدلة على أن أغلبية الأفراد الذين ينشرون المدونات الإلكترونية، على سبيل المثال، يفعلون ذلك لإبقاء مجموعة صغيرة من العائلة والأصدقاء على اتصال مع تحركاتهم، إذ إنهم يوجهون كتاباتهم نحو مَن أسماهم «جمهورا مصغرا» nanoaudience، وهي تسمية موفَّقة. ويرى بوستيل أنه منذ ظهور الإنترنت وحتى منتصف التسعينيات من القرن العشرين كان مستخدمو الإنترنت قليلين جدا إلى درجة أنهم كانوا مضطرين إلى التواصل مع الآخرين عبر مسافات بعيدة. ولكن الآن وبعد أن أصبح هناك كثير من الأشخاص الذين يمكنهم الوصول إلى الفضاء الإلكتروني، فإننا عدنا بوجهٍ عام إلى ذلك النوع من الاتصالات التي تتسم بقدر أكبر من المحلية والألفة. وفي الوقت نفسه أشارت الأبحاث في المملكة المتحدة والولايات المتحدة إلى أن دوائر الصداقات الحميمة الخاصة بنا تزداد صغرا. وقد أشار بوتنام Putnam (2000) في واحد من أشهر تلك الأبحاث إلى أننا بتنا «نلعب البولينغ بمفردنا» بقدرٍ متزايد، وتدعم الأبحاث التي أجراها

ماكفيرسون McPherson وآخرون هذا الرأي (Cited in Stern, 2008: 608). وعلى مدار العَقدين الماضيين على وجه الخصوص، أصبح الأفراد يعتمدون بقدرٍ متزايد على شركاء حياتهم وأفراد أسرهم المقربين بوصفهم مصادر للدعم والراحة. وفي المملكة المتحدة، وجدت دراسة أجراها مركز أبحاث اتجاهات الشباب Youth Trends (The Guardian 6th June 2007) أن واحدا من بين كل خمسة شباب يقولون إنه ليس لديهم صديق مفضَّل يعتمدون عليه، على الرغم من مشاركتهم المتحمسة بصفة عامة في مواقع التواصل الاجتماعي عبر الإنترنت.

وفي حين أنه رُوج كثيرا لما تتمتع به مواقع الشبكات الاجتماعية من إمكانات لبناء المجتمع المحلي، فإن واقعها يثبت أنها مختلفة إلى حدٍ ما. فبعض المواقع تحاكي بنحوٍ واضح المجتمعَ القائم على الاهتمامات المشتركة، وتهدف إلى الجمع بين الأشخاص الذين يمارسون هوايات أو مهنا متشابهة - على سبيل المثال، في مجالات الموسيقى أو التصوير الفوتوغرافي أو الفيديو، هناك مواقع مثل مايسبيس Myspace وفليكر Flickr ويوتيوب YouTube - ولكن ربما لم يسبق لهم أن تلاقوا على الإطلاق. وربما تكون هذه المواقع أقرب إلى مجموعات «يوزنت» Usenet القديمة التي لاتزال موجودة، ولكن استخدامها وشعبيتها يتناقصان. وضمن هذه المواقع، كما هو الحال بالنسبة إلى مجموعات الأخبار، يحافظ الأعضاء الأفراد على التحكم في المحتوى، ما لم تكن هناك شكاوى من مستخدمين آخرين، أو في حال كانت القيود القانونية تسمح بذلك. ولكن هذه المواقع الآن متعددة الوسائط حقا، مما يسمح بمزيد من أشكال التعبير الإبداعي التي تتجاوز نطاق آراء الماضي القائمة على النصوص. ويختار المستخدمون «العلامات» tags الخاصة بهم و«الكلمات المفتاحية» (وهذا شكل من أشكال «الفهرسة الجماعية»)، لتصنيف المحتوى الخاص بهم والإعلان عنه للآخرين. وبهذه الطريقة فإن الأعضاء «... يشكلون مجتمعات محلية عبر الإنترنت تتألف من أشخاص يشاركونهم اهتمامات مماثلة» (Lai and Turban, 2008: 390). ولكن في الأغلب تبدو هذه المواقع أقرب إلى شكل من أشكال وسائل الإعلام منها إلى مجتمع قائم على الاهتمامات المشتركة؛ حيث يبث المستخدمون موادهم الخاصة على نطاق أوسع. إنها عبارة عن وسائل إعلام مع فارق وحيد يتمثل في أن العديد من المستخدمين يشاركون في تطويرها وتوجيهها. ومع ذلك فإن مواقعهم وصفحاتهم

تؤدي وظيفة الإعلان الذاتي، بدلا من بناء المجتمع المحلي. إنها تتمحور حول الأنا وليس الجماعة من حيث الشكل، كما يمكن للطامحين إلى اقتحام عالم الغناء والفن والسينما أن يختبروا مواهبهم أمام أكبر جمهور ممكن باستخدام مواقع التواصل الاجتماعي هذه. بالإضافة إلى ذلك من المرجح أن تُستخدَم شبكات الإنترنت هذه، بالطريقة نفسها التي تُستخدم فيها الشبكات المعروفة، وذلك من قبل الشركات متعددة الجنسيات والشركات الصغيرة ومنظمات القطاع الثالث third-sector organisations(*) بهدف إعلان منتجاتها. ويوحي التأثير الذي تمارسه التكنولوجيا المستخدمة في الجيل الثاني من مواقع الشبكات الاجتماعية بمزيد من التحكم الفردي للمستخدم في المحتوى، ويشير إلى المجتمع الاختياري بالكامل الذي يشيد به ويلمان. ولكن هذه المواقع طُورت في المقام الأول من أجل تحقيق الربح، وهي تعج بالإعلانات وبالحضور التجاري. ويمكن أن يكون الفضاء الإعلاني المربح الذي يباع على هذه المواقع - أي «اللوحات الإعلانية الافتراضية» للفضاء الإلكتروني - مماثلا في تطفله للوحات الإعلانية والإعلانات التي تُقحم ضمن فضاءات تفاعلنا المادية، بل ربما أكثر تطفلا منها.

ويوجد دليل أيضا على أن الترابط في الفضاء الإلكتروني لم يكن قادرا إلى حدٍّ كبير على إنشاء المحتوى المبتكر الذي كان يرجوه رواده الأوائل. وأثبت ظهور عوالم افتراضية جديدة مثل سكند لايف Second Life - التي تتباهى حاليًا بامتلاكها ملايين المشاركين - أنها عبارة عن صور مماثلة على نحوٍ غريب للعالم الواقعي. وتحاكي هذه العوالم الإلكترونية العلاقات التي تجمع بيننا في المجتمعات الموجودة على أرض الواقع، ولكن بدلا من أن تترك وراءها حياة الصخب الناتجة عن العلاقات الاقتصادية للرأسمالية المتأخرة، فإن عوالمنا القديمة يجري تتبعها وتجديدها إلى حدٍ كبير في هذه العوالم «الجديدة». فلا توجد علاقات جديدة ذات رؤية تعتمد على مفهوم مختلف لما يمكن أن يكون عليه العالم، ولا محاولة لتخيل عوالم فاضلة أو خلق مثل هذه العوالم بوحي من التفكير النقدي والطرق

(*) يشير مصطلح «منظمات القطاع الثالث» إلى المؤسسات التي لا تندرج ضمن القطاعين العام أو الخاص، مثل المنظمات المجتمعية والتطوعية والجمعيات الخيرية. [المحرر].

البديلة للوجود. بدلا من ذلك، ونظرا إلى انعدام الأمن المالي في هذا العالم، فإن عالم سكند لايف ينشئ أسواق المال الخاصة به ويمتلك عملته الخاصة، المتمثلة بدولارات ليندن Linden dollars، والتي يمكن استبدالها بـ «عملة حقيقية». فالأرض تصبح تابعة لملكية خاصة، والسلع يجري إنتاجها وتبادلها، أما الصور الرمزية فتتخذ أشكالا بشرية مثالية، في حين تعكس الموضات والإكسسوارات المتاحة أسواق المصممين الموجودة فعليا على الأرض. وبصفتي مفكرا ناقدا ألهمته أفكار الاشتراكية والمساواة الإنسانية، أجد أن هذه العوالم الجديدة محبِطة إلى حد كبير، بل هي أقل من أن تكون باهرة.

أفكار أخيرة حول المجتمع المحلي في العصر الرقمي

كشفت عقود من البحث حول المجتمع المحلي عن أنه عبارة عن مفهوم مرن ومنفتح وديناميكي يُعاد ابتكاره بنحوٍ دوري. ويمكن أن يُنظَر إلى استمرار اللجوء إلى المجتمع المحلي على أنه يمثل رفضا للظروف البيروقراطية وغير الشخصية وغير المألوفة للرأسمالية المتأخرة، وإعادة صياغة لأهمية شبكات التضامن والثقة. ويعكس هذا اللجوء أيضا البحث المستمر لإيجاد صلات بشرية أساسية، وغالبا ما يكون ذلك في ظل ظروف عالمية ومحلية بالغة الصعوبة تعمل بقدرٍ متزايد على تدمير التضامن الأساسي بين الناس. ومع اختفاء الفضاءات التقليدية التي نشأت داخلها المجتمعات المحلية كان من المفترض أن تتوافق المجتمعات المحلية المجزأة مع قوى عالمية ناشئة حديثا بمساعدة من «الثورة الرقمية». وفي عالم يزداد تقلبا وتغيرا، كان من المفترض أن توجد أشكال جديدة من المجتمع المحلي في البحث عن الانتماء، وذلك بنحوٍ منفصل عن المناطق الجغرافية والروابط المادية المشتركة. كما اقتُرح أن يكون بناء المجتمع المحلي بعد ظهور التكنولوجيا الرقمية في فضاءات افتراضية مفتوحة وديموقراطية يبحث فيها الأفراد عن أشخاص آخرين ويستميلونهم إلى تغيير الظروف نحو الأفضل.

ومع ذلك فقد استمرت طبيعة المجتمع المحلي القائم على المكان. وتوسعت المحاولات المستمرة التي اضطلعت بها الحكومات الوطنية والإقليمية على حد سواء لـ «هندسة» المجتمعات المحلية الناجحة بوصفها حصنا ضد إزالة التصنيع وأُطيلت

آثار السياسات الليبرالية الجديدة وقُويت بفضل تأثير الفلسفات المجتمعية التي أثبتت أنها جانب رئيس من «سياسات الطريق الثالث» third-way politics(*) في بريطانيا والولايات المتحدة منذ منتصف التسعينيات في القرن العشرين. وبالاستناد إلى بعض الكتّاب من أمثال أميتاي إيتسيوني (1997) Amitai Etzioni فقد طُرح المجتمع المحلي باعتباره حلا لظاهرة «الفردية المفرطة» المميزة للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية في الغرب في السنوات الأخيرة. ويشير هذا إلى «طريقة كاملة لتنظيم المجتمع المحلي» (Brent, 2009: 230) وفرض معايير وقيم مشتركة بدلا من السماح بنمو عضوي للفعل الجمعي من أسفل. وبالنسبة إلى النظام المجتمعي ولجوئه إلى العلاقات المألوفة للمنزل والحياة الأسرية والحي فإنه بعيد كل البعد عن ذلك العالم الكوني الذي لا حدود له، والذي يتمثل في الفضاء الإلكتروني. وقد عزز هذا التصور عن المجتمع المحلي العوالم الاجتماعية الانقسامية والمنغلقة والإقصائية، التي يحرص الأُصلاء فيها كل الحرص على الحفاظ على أوضاعهم، أما الدخلاء عليها فإنه يُنظر إليهم بعين القلق والريبة. وهذا أسهم في تزايد انعدام الثقة بكل ما هو مجهول وأجنبي، وبالاختلاف الذي أسهم في النمو العالمي للدعم الموجه نحو المنظمات السياسية اليمينية المتطرفة وأحادية العرق، والانكفاء نحو الحدود القديمة والمعروفة والتي يُوثق بها.

ويمكن أن تكون الروابط المحكومة بالوسائط الرقمية، كما أشار الرواد الأوائل، قد أدت دور الأدوات الرئيسة لإنشاء طرق معارضة وجديدة للعيش والعمل معا. بيد أن هناك عوامل اقتصادية قوية قد بسطت سيطرتها، ويبدو أننا غير قادرين بوجهٍ عام على الخروج من الحدود الضيقة لوجودنا المجزأ والمستَغَل تجاريا بشكل متزايد في ظل الرأسمالية المتأخرة، بغض النظر عن الوسيط المتاح لنا. وتبدو معظم «المجتمعات المحلية» الرقمية والقائمة على الإنترنت في القرن الحادي والعشرين ضحلة وممتدة بشكل سطحي فوق الفضاءات التي تقطنها بدلا من تعزيز الروابط العميقة للتجربة والنشاط المشترك. ويحذِّر فراي (1998) Freie من قبول جميع

(*) يشير مصطلح «سياسات الطريق الثالث» إلى النهج الوسطي الذي يسعى إلى التوفيق بين وجهات النظر السياسية لليمين واليسار. [المحرر].

أشكال «المجتمع المحلي المزيف»، الذي يقدم فيه البحث الإنساني عن الاتصال والانتماء – اللذين يُصنعان ويُعبآن باعتبارهما سلعتين أساسيتين – على أنه هو الشيء الحقيقي. وعلى وجه التحديد، كما يرى ويتل Wittel، بما أن القيمة الرأسمالية التي يمكن استخلاصها من المنتجات المادية للصناعة هي أقل بكثير في اقتصاد المعرفة، فإنه تُسلَّع علاقاتنا الإنسانية. وفي الفضاء الإلكتروني - الذي يُعتبر من نواحٍ كثيرة الوسيطَ الأمثل للتواصل الشبكي - تُستخرَج القيمة النقدية حتى من الأماكن التي تحدث فيها علاقاتنا الشخصية. ويميز ويتل بين أشكال مختلفة من الترابط، حيث يبتكر عبارة «النشاط الاجتماعي على الشبكة» network sociality للتمييز بين العلاقات الاجتماعية «المعلوماتية»، المبنية على «... تبادل البيانات والمواكبة» والعلاقات الاجتماعية «السردية» التي تشكل الأساس للمجتمع المحلي. فالعلاقات الاجتماعية السردية، كما يقول، تضطلع ببناء روابط أكثر صلابة وأكثر ديمومة، و«... تكون قائمة على التجربة المتبادلة أو التاريخ المشترك» (51 :2001) إن مواقع شبكات التواصل الاجتماعي مثل فيسبوك وماي سبيس هي مؤسسات تجارية تتنافس بعضها مع بعض على الفوائد المالية التي يمكنها الحصول عليها من خلال حاجتنا إلى الاتصال. أما «اكتشاف» أن أشكالا جديدة من المجتمع المحلي مازالت فاعلة ضمن مواقع الشبكات الاجتماعية الرئيسة مثل إيباي وسكند لايف، فإنه يدل على قبولنا بالعلاقات المعيارية للرأسمالية الاستهلاكية أكثر مما يدل على إمكانات بناء أشكال مختلفة من المجتمع المحلي من خلال الوسائط الجديدة.

إذن الفكرة المتمثلة في أن العصر الرقمي قد وسّع المجتمع المحلي وحوّله وحسّنه، وجعله يتخطى المفاهيم التقليدية (وبالتالي البعيدة جدا عن الحداثة) قد تعمل ضد بناء المصالح المشتركة. ففي حال بيعنا سلعا مقلدة، فمن المحتمل أنها لن تخدم أغراضنا مثلما ستفعل «السلع الحقيقية». وبوصفنا دارسين للمجتمع، نحن في حاجة إلى دراسة من كثب للادعاءات بأن الأشكال الجديدة من التواصل الاجتماعي قد دفعت المجتمع المحلي إلى مستوى آخر أكثر أهمية. ويجب أيضا أن نكون مستعدين، حيثما تتوافر لدينا الأدلة، لمواجهة فكرة أنه قد حدث تجاوز للأشكال الثابتة للمجتمع وأنها لم تعد تحتفظ بأهميتها السابقة. وقد أوحى الحديث عن «الثورة الرقمية» للكثيرين أن الظروف المادية التي نعمل فيها قد انقلبت، في حين

أننا في الواقع مازلنا في حالة صراع مع الشكوك القديمة التي تضاعفت مع بروز الشكوك الجديدة. وفي حين أنه قد يوجد تحت تصرفنا مزيد من الأدوات التي تمكّننا من الاتصال والتنظيم والترابط، فإننا لم ننتقل بعد إلى ذلك العالم الآخر من الوجود الذي جعل الأدوات القديمة تصبح بالية تماما. وحيث إن المجتمع المحلي أكثر من مجرد تسلية، فإنه أكثر من مجرد تجارة، وأكثر من مجرد فعل جمعي يمكن أن يكون أيضا مثيرا للخلاف وعابرا وعرضيا. إنه غني ومعقد ومتناقض، ولكنه مملوء بالمعنى والأهمية الدائمة. فالمجتمع المحلي يُعتبر بغيضا بل وربما خطرا بالنسبة إلى النظام الذي يعتمد استمرار بقائه على تقسيم المجتمع وتفتيته. ويمكن النظر إلى بناء علاقات اجتماعية قوية ودائمة قائمة على الثقة، ويُحافظ عليها خارج علاقات القوة المهيمنة، على أنه موقف معارض وانتقادي في جوهره. ولعل هذا يفسر التشويه وسوء الاستخدام اللذين تعرض لهما مصطلح المجتمع المحلي، وهو ما يميز الكثير من أشكال الخطاب المعاصر حول هذا الموضوع. والسبب في هذا أن بناء شبكات حقيقية من التضامن والثقة التي تتخطى الحدود التقليدية، وتقع خارج الإطار المعياري للمنطق الاقتصادي الخاص للرأسمالية، قد يكون قويا بما يكفي لزعزعة أركان هذه الرأسمالية.

6

كلمةٌ ختامية: الفضاءاتُ الرقمية وعلمُ الاجتماع والمراقبة

ديفيد ليون

إنَّ فكرةَ الفضاءِ الإلكترونيِّ تتجهُ نحوَ الإهمال، ولا توجد لديَّ تعليمات لإعادة إحياء أمجادها، ولكن تجدر الإشارة إلى أن الفضاء الإلكتروني يحتوي على بعض الأبعاد السوسيولوجية المفيدة عند النظر في فكرة الفضاء في الاتصالات الرقمية. وهو يعبِّر خاصة عن بعض الغموض «اللذيذ» الذي يعد تذكيرا بالمعاني المتعددة المهمة التي يُعبَّر عنها في بعض المفاهيم الأكثر فائدة. كما أنه يُبرز بعض الطرق التي تعكس الجوانب التقنية الاجتماعية في العلاقات الاجتماعية الناشئة عبر نسيج الحياة الاجتماعية، إلى جانب ذلك يظهر جليا أنه ليس مفهوما بريئا.

«تفتحُ البرمجياتُ فضاءات جديدةً بقدرِ ما تُغلقُ الفضاءاتَ الحالية. وهذا لا يحدث بطرق شَمولية أو شاملة، ولكن بطريقة تنطوي على تموُّجات ونبضات متواصلة، تُفضي تارة إلى تناغم حركات المد والتيارات الخاصة بتدفق البيانات، وتارة أخرى إلى اضطرابها»

وقد انتُحِل مصطلح الفضاء الإلكتروني من روايات ويليام غيبسون المستقبلية التي غالبا ما تكون لها نظرة مظلمة، ومن المفارقات أن الكثير استخدمه لتمجيد المجالات التي يتخللها الحاسب الآلي، والتي يُفتَرض أنها قد تحررت من قيود المكان والزمان. ويشير المصطلح بقوة إلى أن الاتصالات التي تحدث بوساطة الحاسب الآلي (CMC) هي محورية، ومن ثم تعيدنا إلى التلازم التكنولوجي الحاسم بين الحوسبة والاتصالات، والذي نسمعه من خلال عبارة «تكنولوجيا المعلومات IT، أو تكنولوجيا المعلومات والاتصالاتICT». لكنه يجسد أيضا فكرة أن العلاقات الاجتماعية تُشكل عنصرا جوهريا في هذا الخليط؛ ذلك أن الفضاء الإلكتروني هو فضاء الاتصالات التي تحدث بوساطة الحاسب الآلي، ومن ثم هو أيضا فضاء يعج بالإمكانيات لإدخال التعديلات أو حتى التحولات على الجانب الاجتماعي أيضا.

ولكن ما الطرق التي يمكن أن تتأثر من خلالها الحياة الاجتماعية بالاتصالات التي تحدث بوساطة الحاسب الآلي، أو إذا ما عكسنا صياغة السؤال، كيف يمكن أن يعبر الفضاء الإلكتروني عن العلاقات الاجتماعية الناشئة؟ يرى العديد من المتحمسين في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات من القرن العشرين أن الفضاء الإلكتروني كان عبارة عن مجال للتحرر، وأيضا فرصة للتخلص من المادية الفوضوية للحياة (من جملة الكُتّاب الذين يمكنك مراجعتهم في هذا الصدد Turkle, 1995 ;Wertheim, 1999; Robins 1995)(*). وإلى حد ما أصبح الجانب الاشتقاقي (الجانب الذي يتعلق بمعلومات عن أصول الكلمات وتاريخها) لمصطلح «الفضاء الإلكتروني» في طي النسيان (انظر على سبيل المثال Mosco, 2004). فقد جاءت كلمة cyber من كلمة κυβερν΄ητης (Kybernetes)، وهي الكلمة اليونانية المقابلة لكلمة steersman الإنجليزية، والتي تعني بالعربية «مدير الدفة». وفي فكر نوربرت وينر Norbert Weiner، الذي وضع المصطلح، فإن السيبرانية cybernetics هي علم التحكم عبر حلقات التغذية الاسترجاعية feedback loops. وفي مجالات الحوسبة اعْتُبِر أن السيبرانية (في منتصف القرن العشرين) تمثل طفرة في التحكم في العمليات والأنظمة، وعلى

(*) تجدُر الإشارة إلى أن دراسة توركل قد ابتعدت بشدة عن عملها السابق بتاريخ (2011). [المؤلف].

الرغم من أن الحقائق الاجتماعية-التقنية اليوم أكثر تعقيدا، فإن التحكم، بدءا من السياق العسكري وصولا إلى السياق التجاري، لاتزال له أهمية محورية.

وفي الفصل الذي ألَّفه كلٌّ من روجر باروز وديفيد بير في هذا الكتاب عن المفاهيم الجديدة، وأيضا في الفصل الذي ألَّفته كارين إيفانز عن المجتمع المحلي (أي الفصلين الرابع والخامس)، يجري تناول ما يمكن تسميته «الفضاء الإلكتروني». بالنسبة إلى الأول، ينصبُّ التركيز على الحاجة الملحة إلى مفردات علمية اجتماعية جديدة لمجاراة التغييرات في المجال الاجتماعي-التقني. فالكاتبان يشددان على الترابط بين دراسات العلم والتكنولوجيا، ويدعوان إلى تخصيص مساحة من الاهتمام للأشياء و«المسجلات الرقمية الذاتية» و«الزمكان» و«اللاوعي التكنولوجي». وبالنسبة إلى الأخير فإن السؤال يتعلق بما يجب فعله بالمفاهيم القديمة التي لاتزال موجودة في المعجم السوسيولوجي. إن المجتمع المحلي هو المفهوم الذي اختارته إيفانز، حيث تستكشف استخدامه بوصفه أداة نقدية ووصفية على حد سواء لدراسة الاتصالات التي تحدث بوساطة الحاسب الآلي. وتتوافر دراسات وأبحاث ضخمة عن هذا الموضوع، والمسار الذي ترسمه إيفانز عبر هذا المجال يستخدم المجتمع بشكليه المعياري والوصفي لطرح أسئلة نقدية عن استخدام الوسائط الرقمية.

لا يتناول أيٌّ من الفصلين وسائل التواصل الاجتماعي بعمق، لكنَّ هذه الظاهرةَ سريعةَ النمو توضح بدقة بعض القضايا السوسيولوجية التي يتعلق بها كل فصل. وسأستخدمها هنا كوسيلة لإبراز مزايا الحجج ذات الصلة والتي يمكن تقديمها فيما يتعلق بكلتا المقاربتين لعلم الاجتماع الرقمي. عادة ما يُنظَر إلى وسائل التواصل الاجتماعي بوصفها خدمات تستند إلى الشبكة، وتمكن المستخدمين من مشاركة المحتوى بعضهم مع بعض، سواء كان ذلك عبارة عن أخبار أو رسائل أو صور أو مقاطع فيديو. ومن أشهر هذه الوسائل في العالم الناطق باللغة الإنجليزية «يوتيوب» YouTube و«ديغ» Digg و«فليكر» Flickr و«تويتر» Twitter و«فيسبوك» Facebook، وأخيرا «غوغل بلَس» Google+ الذي ظهر لحظة كتابة هذه الكلمات. ويلفت اسم وسائل التواصل الاجتماعي الانتباه إلى التفاعل الأساسي بين الجانبين الاجتماعي والتقني، بحيث لا يمكن اختزاله إلى مجرد كيان تقني أو كيان اجتماعي.

لقد رسخت وسائل التواصل الاجتماعي نفسَها بسرعةٍ بوصفها وسيلة للاتصال والتفاعل بين أعداد كبيرة من السكان، وليس بين مجرد أشخاص بارعين في استخدام التكنولوجيا ممن هم في العشرينيات والثلاثينيات من العمر. إنها تثير استفسارات مهمة حول الفضاء لعدة أسباب من أهمها أن استخدامها يرتبط في كثير من الأحيان بالمكان، سواء للاجتماعات العادية التي تيسرها الأجهزة المحمولة أو للتظاهرات السياسية الكبرى، كتلك التي حدثت في عدد من البلدان العربية في العام 2011. وتُستخدَم وسائل التواصل الاجتماعي بالتزامن مع وسائل الإعلام الأخرى المعروفة، مثل الإذاعة والتلفزيون والصحف، وفي البيئات التنظيمية والمؤسسية أيضا. فهي تمتلك قيمة تجارية عالية، كما أنها ناجحة للغاية في الاستفادة من ثقافات الترفيه والتسويق. ويبدو أن الفيسبوك يحتل موقع الريادة في هذا المجال، حيث يتباهى الآن بامتلاكه أكثر من نصف مليار مستخدم، وهو ما يجعل مؤسسه الشاب، مارك زوكربيرغ Mark Zuckerberg، أصغر ملياردير في العالم.

لكن هذا الوصف لايزال سطحيا جدا. فهذه هي أنواع الأشياء التي يعرفها معظم المواطنين المطلعين، سواء شاركوا مباشرة في عالم وسائل التواصل الاجتماعي أو لا (إذ يمكن للمرء، على سبيل المثال، أن يتعلم كثيرا عن هذا الأمر من خلال فيلم مثل «الشبكة الاجتماعية» The Social Network، الذي ظهر في العام 2010). والعناصر المفقودة تنتمي في الحقيقة إلى نوع العناصر نفسها التي لم تحظَ بمناقشة وافية فيما يتعلق بالفضاء الإلكتروني في التسعينيات من القرن العشرين. أولا: كان تحليل تلك المرحلة من نشاط الإنترنت يميل إلى إغفال أهمية الشفرة، وهو الشيء الذي عالجه جزئيا لورنس ليسيغ Lawrence Lessig في كتاب «الشفرة وقوانين الفضاء الإلكتروني الأخرى» Code and other laws of Cyberspace (1999)، بمعنى أنه قُلِّل من دور البرمجيات، حيث إنه يصوغ النتائج المحتملة من خلال خطوط الشفرة الخاصة بإعطاء التعليمات وبالخوارزميات (Kitchin and Dodge, 2011). ثانيا: ركزت المناقشات المبكرة للفضاء الإلكتروني بالكامل تقريبا على التفاعل الاجتماعي الذي يحدث من خلال الطرفيات الحاسوبية computer terminals، ومن ثم صرفت الانتباه عن وسائل التواصل الجديدة الأخرى. وفشلت هذه المناقشات في ملاحظة ظهور

وسيلة اتصالات جديدة أخرى تتمثل في الهواتف المحمولة. قد تُقدَّم مختلف أنواع التبريرات حول هذا الإغفال، كالقول إن الهواتف النقالة بدت في البداية مجرد وسيلة لتوسيع نطاق الاتصالات الهاتفية الموجودة بالفعل، وإنها غالبا ما كانت تزدهر خارج أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية، اللتين كان معظم المحللين يعملون فيهما.

وتلاحظ كارين إيفانز أن الجدل الدائر حول المجتمع المحلي قد أُحيي مؤقتا في التسعينيات من القرن العشرين، وذلك مع بدء الإنترنت في تقديم أنماط اتصال جديدة للأشخاص الذين كانوا بعيدين جغرافيا. وكان هناك شك في وجود تواطؤ على صعيد التقارب الجغرافي والعلاقات الاجتماعية الوثيقة بعد أن ازداد وجود المجتمعات ذات الاهتمامات المشتركة على الإنترنت. وعلى الرغم من أنه بالنسبة إلى مانويل كاستيلز كانت «الألفة الاجتماعية المرتبطة بالمكان» تتنحى تاركة المجال لـ «مجتمع الشبكة»، الذي بدأت الإنترنت تمارس فيه دورا مركزيا، فإن باري ويلمان حذَّر من أن الأدلة التجريبية تشير إلى ظهور «الفردية الشبكية» وليس إلى مفهوم معين عن المجتمع المحلي (Castells, 2001; Wellman et al., 2003). وعلى الرغم من ذلك تقول إيفانز إن الأمل كان لايزال معلقا على الوسائط الجديدة للتعويض عن الخسارة الملموسة للمجتمع المحلي القائم على أساس جغرافي في عصر الليبرالية الجديدة. لكن الواقع أن الوسائط الجديدة - تضيف إيفانز - تميلُ عادة إلى إبراز صورة العلاقات الاجتماعية القائمة بدلا من تغييرها. وفي نهاية المطاف هي تشكك في أن تتمكن الخدمات ذات التوجه التجاري من مخاطبة «جوهرنا الإنساني وترابطنا».

وربما يتطلب هذا مزيدا من التحليل، وذلك بنحوٍ يتخطى كثيرا نطاق مقال قصير. فمن ناحيةٍ ترى إيفانز أن المجتمع المحلي يصلُح مفهوما لوصف علاقات الثقة والمكان والخبرات المشتركة. ومن ناحية أخرى تقول إن المنعطف الحالي للرأسمالية العابرة للحدود بسطحيتها وتوجهها نحو المستهلك – والذي يُعبَّر عنه في العديد من الوسائل التي من بينها مواقع التواصل الاجتماعي – هو منافٍ لازدهار المجتمع من وجهة نظرها. والرواية التي تعرضها لنا هي رواية تحذيريةٌ تشهد فيها قصة تحليل المجتمع المملوءة بالعجائب أوقاتا عصيبة داخل الرأسمالية المعاصرة، وخاصة عندما تعتمد على الوسائط الجديدة. وهذا لا يعني أن الثقة قد أُفسدت بالكامل، أو أن تجارب

الناس المتبادلة في الأماكن المحلية لا يمكن أن تُسجل جزئيا على شبكة الإنترنت، بل يعني أن رأسمالية المعلومات، بوصفها اتجاها عاما، هي غير صديقة للمجتمع المحلي كما تعرفه إيفانز (وفي هذا الصدد يمثل أصدقاء فيسبوك حالة متناقضة).

وعلى رغم ذلك قد يرغب علماء الاجتماع في مواصلة دراسة القضايا المثارة من خلال موضوع الوسائط الاجتماعية والمجتمع المحلي. مثالا لذلك، تشير الإثنوغرافيات ethnographies الفعلية للفيسبوك إلى أن الظاهرة المعروفة على نحو جماعي باسم الوسائط الاجتماعية هي أكثر من «وسيط»، فهي تساعد في الواقع على تكوين علاقات بطرق ما (بما في ذلك تلك المتعلقة بـ «المجتمع المحلي» (Miller, 2011)؛ وكمثال آخر فإنه من المفيد، في هذا السياق، استكشاف الإسهام الذي يمكن أن يقدمه الفصل الرابع، الذي ألَّفه باروز وبير، بالنسبة إلى تحليل إيفانز. إن تركيزهما على المفاهيم التي تساعد في شرح العلاقات الاجتماعية الفنية المعاصرة قد يلقي الضوء على المعضلة التي طرحتها إيفانز. ويركز باروز وبير على فكرة ثريفت عن «اللاوعي التكنولوجي»، أي عالم الشفرات الذي، من خلال التعليمات والخوارزميات، لا يتوسط التفاعلات والروابط الاجتماعية فقط، بل يشكلهما أيضا. ويعتمد العديد من الأشياء المستخدمة في الحياة اليومية - مثل مشغلات أقراص DVD - على الشفرة، في حين تسجل أشياء أخرى، مثل «المسجلات الرقمية الذاتية» (وهو المصطلح الذي وضعه دودج وكيتشين)، أيضا حالتها واستخدامها.

ويعتمد ما يسمَّى الوسائط الاجتماعية على تكنولوجيات الحوسبة والاتصالات، وهي مجالات أصبحت متكاملة بقدرٍ متزايد خلال القرن العشرين. بيد أن اتحادها تحقَّق في المقام الأول في مواقع ثابتة. وأدى التركيز على الفضاء الإلكتروني في بداية القرن الحادي والعشرين إلى صرف الانتباه عن الهواتف المحمولة، ولم يتمكن العديد من المنظرين من رؤية نمو الهواتف المحمولة بوصفها وسيلةً موازية للاتصال (خاصة في البلدان النامية). وهكذا حدث إدراك تقاربها المتزايد إلى حد ما بعد فوات الأوان. ومن المهم الإشارة إلى أن أكثر من 200 مليون من مستخدمي فيسبوك (الذين يتجاوز مجموعهم حاليا الـ 500 مليون مستخدم) يدخلون إلى حساباتهم عبر الأجهزة المحمولة، وأن أكثر من 70 في المائة منهم هم خارج الولايات المتحدة. بطبيعة الحال فإن العديد من مستخدمي تلك الهواتف الخلوية هم أمريكيون، لكن

كثيرا منهم ليسوا كذلك. وهكذا، مع مرور الوقت أصبحت الهواتف الخلوية، بنحوٍ جزئي على الأقل، الوسائل الحقيقية للفضاء الإلكتروني، وتمثل الوسائط الاجتماعية التجسيد الحقيقي لهذا الارتباط.

ومن وجهة نظر كيتشين ودودج، تُعد هذه الهواتف الخلوية، وخصوصا أجهزة آيفون وبلاكبيري، عبارة عن مسجلات رقمية ذاتية. فهي تسجل حالتها واستخدامها ومن ثم تُقْحَم في كثير من الأمور، ومن بينها تتبع المواقع، التي يُسَهَّل الاضطلاع بها من خلال بعض من تطبيقاتها. لذلك من وجهة نظر المراقبة تمتلك هذه الأجهزة المحددة قدراتٍ أوسع نطاقا تتجاوز بكثير استخراج البيانات الديموغرافية الجغرافية geo-demographic data-mining للتسويق. فهي تستطيع الإبلاغ عن الموقع الفعلي في الوقت الحقيقي للمستخدم، وهذا يصبح جزءا من مسار حياة ذلك المستخدم. ويساعد الجهاز على تكوين أنشطة المستخدمين في التنقل، وكذلك في المواقف الثابتة. وهذه القدرات لها جوانب إيجابية وسلبية؛ فهي تسمح بالحفاظ على الاتصالات مع الزملاء وأفراد الأسرة على الرغم من أن التنقل لا يمكن التنبؤ به، ومن ثم هناك درجة من المعرفة المتبادلة التي قد تعكس في بعض النواحي تلك المعارفَ الموجودة في المجتمعات المتقاربة على المدى البعيد، لكنها تزيد أيضا من إمكانية تأثر المستخدمين بالتسويق وأيضا، على نحو أعمق، بالفرز الاجتماعي، الذي يعتمد الآن على المكان، بالإضافة إلى البيانات الأخرى.

ووفقـا لكرانغ وغراهام (2007)، اللذين نوقشا أيضا من قبل باروز وبير في الفصل الرابع، هناك تجميعات جديدة تتشكل في هذه البيئات التقنية الاجتماعية، حيث تتمتع الفضاءات الرقمية بعدد من الخصائص، وأهمها «التحول». ولا تستلزم هذه الفئة الأخيرة فقط الانتقال من النمط التناظري إلى النمط الرقمي (وهو ما يُعرف بالتعزيز augmentation)، وإدخال الأجهزة المشفرة في المجالات اليومية (الذي يُعرف بالتعديل enactment)، ولكن أيضا في الطرق التي تسهم فيها التكنولوجيا – أي البرامج والتعليمات والخوارزميات – في حدوث الأشياء من خلال ممارسات مختلفة. وفي مجالات الوسائط الاجتماعية، فإن التجميعات المعقدة للخوارزميات وقواعد البيانات والأنظمة التصنيفية تعمل على توصيل المستخدمين بالعديد من الكيانات الأخرى غير «أصدقائهم» ليس فقط للمساعدة في تشكيل استهلاكهم، ولكن

أيضا للتوصل إلى نتائج في مجال الصحة والرفاهية والتعليم وما شابه ذلك. ويعد الفرز الاجتماعي اليوم مزيجا شديد التعقيد، ومرئيا بشكل متناقص، يتكون من الهيئات الخاصة والعامة التي تستخدم البيانات الشخصية التي تُجْمَع في هذه الحالة من أجهزة الشبكات الاجتماعية التي غالبا ما تكون محمولة، وذلك بطرق تساعد على استنساخ الانقسامات والاختلافات الاجتماعية وأحيانا تؤدي إلى مفاقمتها. وعلى حد تعبير أوسكار غاندي Oscar Gandy، فإن «التمييز العقلاني» الغامض والتقني الذي يحدث بنحوٍ روتيني داخل مثل هذه التجميعات ينتج عنه «عيب تراكمي» cumulative disadvantage بالنسبة إلى بعض الجماعات المهمشة بالفعل في مجتمع معين (Gandy, 2010).

وتتجه الأشكال الأحدث للمراقبة، كتلك التي تتيحها الوسائط الاجتماعية نحو اتجاهين في وقت واحد. فالأشكال الجديدة من الديموقراطية قد تستفيد من خفة الوسائط المحمولة ولحظيتها، لكن تدفقات البيانات نفسها قد تعمل أيضا بطرق غير ديموقراطية تماما، فتعزز قوة المحظوظين، كما أنها تعرقل الوصول إلى الضروريات الأساسية. ولكن هذا الأمر نفسه كان ينطبق على أول أشكال المراقبة الحديثة أيضا. ففي أدوات المشاركة الديموقراطية مثل السجلات الانتخابية، على سبيل المثال، يمكن أن يطمئن المواطنون إلى أن التصويت الذي أدلوا به هو فريد من نوعه، ولكن البيانات نفسها هي التي مكَّنت الجهات الحاكمة من رؤيتهم بشكل أكثر وضوحا، وجعلتهم مكشوفين بدرجة أكبر أمام الدولة القومية (انظر: Scott 1999, Abercrombie et al., 1983).

وهكذا، كما يقول كيتشين ودودج (2011:19)، تعمل الشفرات/الفضاءات وأنظمتها الاستطرادية على تعزيز منطقها وتعميقه، وذلك في الوقت نفسه الذي يسعى فيه الآخرون إلى تقويض وضعها المهيمن ومقاومتها وتحويلها. وتفتح البرمجيات فضاءات جديدة بقدر ما تغلق الفضاءات الحالية. وهذا لا يحدث بطرق شمولية أو شاملة، ولكن بطريقة تنطوي على تموُّجات ونبضات متواصلة، تفضي تارة إلى تناغم حركات المد والتيارات الخاصة بتدفق البيانات، وتارة أخرى إلى اضطرابها. وفي مجالات الوسائط الاجتماعية لا تُحدد النتائج مسبقا، ولكنها تعتمد على أنشطة المستخدمين جنبا إلى جنب مع نوع الفعل التقني tech-agency (من خلال البرمجيات) والذي يتحدث عنه

باروز وبير. ومن المهم الإشارة إلى أنها ليست بريئة على الإطلاق، ومن ثم لا يجوز فهم شعار «المحتوى الذي يُنشئه المستخدم» على أنه مجرد ابتكار حر أُوجِد من العدم بل على أنه يُصاغ، بل ويُشكَّل إلى حد ما، بواسطة شفرات التجارة والترفيه والسلطة.

دعوني أَعُدْ إلى الأسئلة الأصلية: إذا كان يجب أن يكون هناك علم اجتماع رقمي جدير بالاهتمام فإن هذين الفصلين يطرحان سؤالين: أولا، ما الذي نفعله بالمفاهيم القديمة، مثل المجتمع المحلي، التي تزعم أن لها أبعادا تجريبية ومعيارية؟ وردِّي المقترح هنا لا يتمثل بالقول: تخلوا عن هذه المفاهيم. فقد تصبح لها أهمية في العوالم التقنية الاجتماعية الناشئة. وعندما تكشف إيفانز عن موقفها من خلال عبارة «يمكن النظر إلى بناء العلاقات المجتمعية الصلبة والدائمة والموثوق بها، والتي يُحافَظ عليها خارج علاقات القوة المهيمنة، باعتبارها موقفا معارضا ونقديا في جوهرها»، فإنها تشير إلى نوع المعيارية التي تضعها في الاعتبار عند انتقاد الأحلام الطوباوية لـ «المجتمع المحلي» الذي أُنشِئ من خلال الاتصالات التي تحدث بوساطة الحاسب الآلي.

وعلى الرغم من أن المجال لا يتسع للاستفاضة في هذه النقطة هنا، فإني أعتبر أن استكشاف طبيعة الوسائط الاجتماعية (على سبيل المثال) باستخدام أخلاقيات الإفصاح disclosive ethics سيكون بداية جيدة. وإذا كانت سياسات التواصل بوساطة الحاسب الآلي والوسائط الاجتماعية لها علاقة «بالإغلاق» - على سبيل المثال القرارات الخاصة بنموذج وصول واحد يتبعه التنفيذ الفعلي - فإن الأخلاق تهتم بتحديد الشيء أو الشخص الذي يُسْتَبعَد بوصفه جزءا من عملية الممارسة المادية والروتينية للقوة. وبما أن القوة غالبا ما تكون مُخفاةً في العالم الرقمي (كما حدث بالطبع فيما يتعلق بالخطة الأصلية للمراقبة الجماعية panopticon)، فإن جزءا من المهمة الأخلاقية يتمثل في الكشف عن آلية عمل تلك القوة (Introna, 2005). وهذا النوع من المقاربة قد يرتبط، بدوره، بالأخلاق في إطارها الأشمل. على سبيل المثال، قد يُنظَر إلى مقاربة الإفصاح بحد ذاتها على أنها ضرورة أخلاقية، ويمكن ربطها مثلا بمتطلبات الشفافية التنظيمية في المواقف الديموقراطية. وأنواع الشفافية بالنسبة إلى المراقبة التي تتعرض لها الشعوب المعاصرة هي في تناقض صارخ مع الغموض المتزايد للمنظمات (Lyon, 2010).

لكن مهما قال المرء عن الأخلاق، فإن المطلب الموازي هو التحقق من المفاهيم الاجتماعية نفسها - القديمة والجديدة - في مقابل ما يحدث بالفعل في الوقت الحاضر. وهذا هو السؤال الثاني الذي يجب تناوله. إذ يُعَدُّ عملُ باروز وبير والمؤلفين الذين يستشهدان بهم أحد أهم الطرق المثيرة وربما الحاسمة لدفع عجلة علم الاجتماع الرقمي إلى الأمام. وتعَد المفاهيم، مثل المسجلات الرقمية الذاتية، مفيدة بنحوٍ خاص للنظر في الطرق التي، إذا ما اتبعنا الأمثلة المستخدمة هنا، تصبح بروتوكولات الوسائط الاجتماعية بموجبها أكثر ميلا إلى المراقبة، وخاصة عندما تكون الأجهزة المحمولة (مثل المسجلات الرقمية الذاتية التي سبق أن أُشير إليها هنا) قيد الاستخدام. والواقع أن مثل هذه المفاهيم لا تؤدي إلى فهم العلاقة مع عملية المراقبة فقط، بل تساعد أيضا في الإشارة إلى الآلية التي تعمل بها المراقبة، وذلك مع البدء بترك الآثار التي سيجري تعقبها وتسهيل عملية التتبع والفرز الاجتماعي. ثم يبدأ هذا الأمر بمقاربة أخلاقيات الإفصاح وتفهمها.

وعلى رغم ذلك، هناك تحذير. ففي أغلب الأحيان كان البحث عن مفاهيم جديدة في العلوم الاجتماعية لايزال عند مستوى تقديم الوصف الأفضل والتفسير الأفضل. هذه أهداف قيمة ولكن في رأيي لا يمكن فصلها في النهاية عن مهمة النقد. وفي بعض الأحيان كان علم اجتماع العلوم والتكنولوجيا بنحوٍ خاص يقتصر على مهمة وصفية وتوضيحية، وكأنه يمكن فصل هذا الأمر عن الاهتمامات السياسية والأخلاقية. ولكن ذلك غير ممكن. بيد أن هذا لا يعني، ولو لحظة، أن المفاهيم الأخرى - ربما مثل مفهوم «المجتمع المحلي» الذي من المعلوم أنه استُخدِم بطرقٍ تفرِّغه من المحتوى التجريبي المفيد - يجب استخدامها بطرق متعجرفة. فالمطلوب هنا توفير شارع ذي اتجاهين يصل بين البحث عن مفاهيم أكثر ملاءمة للحاضر الاجتماعي التقني، وبالأخص الحاضر الرقمي وبين المفاهيم التي تتمتع بأهمية أخلاقية وسياسية واضحة.

الباب الثالث

الابن

7

اللامساواةُ في مجتمع الشبكات

جان إيه. جي. إم. فان دايك

> «استخدامُ الوسائطِ الرقمية إما يؤدي إلى ظهور أنماط جديدة من اللامساواة المطلقة والنسبية إلى جانب الأنماط القديمة، وإما يعمل على تعزيزها»

مقدمة

يَبدو للوهلةِ الأُولى أن الادعاءَ بأن شبكات المعلومات والاتصالات، مثل الإنترنت، تسهم في زيادة اللامساواة في المعلومات والاتصالات هو ادعاء غريب إلى حدٍ ما. أليست الشبكات مناسبة تماما لنشر وتبادل المعلومات بين جميع المتصلين؟ أليست الإنترنت وسيلة يمكنك من خلالها استرجاع معظم المعلومات مجانا وتبادل رسائل البريد الإلكتروني والدردشات والتغريدات والرسائل النصية القصيرة وغيرها من دون تكلفة تقريبا؟ ألم تصبح الإنترنت أكثر سهولة في الاستخدام منذ نشأة الشبكة العنكبوتية العالمية؟ على الرغم من ذلك فإن ثمة ادعاءً في هذا الفصل بأن الاستخدام الفعلي

لشبكات المعلومات، والاتصالات، مثل الإنترنت في المجتمع المعاصر من المرجَّح أن يؤدي إلى زيادة اللامساواة وليس تقليلها عندما لا توضع سياسات فعالة لمنع حدوث ذلك.

ولإثبات هذا الادعاء يجب عليَّ أن أعرف كيف يمكن وصف المجتمع المعاصر وأنواع المساواة (واللامساواة) التي هي على المحك.

لا يُعتبَر مفهوم مجتمع الشبكة بديلا عن مفهوم مجتمع المعلومات، لكنه يمثل إضافة إليه. إن المفهومين كليهما مرتبطان بنحوٍ وثيق (Van Dijk, 1999, 2006)، كما أن الخصائص الأخرى، مثل المجتمع الرأسمالي، والديموقراطية والمجتمع الحديث الراقي، ومجتمع ما قبل وما بعد الحداثة، والمجتمع المستدام (وغير المستدام) بيئيا، لاتزال صالحة بالدرجة نفسها. وفي مفهوم مجتمع المعلومات يؤكَّد على الجوهر المتغير للأنشطة والعمليات في المجتمعات المتقدمة المعاصرة. أما في مفهوم مجتمع الشبكة فينتقل الاهتمام إلى الأشكال التنظيمية والبنى (التحتية) المتغيرة لهذه المجتمعات.

ويُعَرِّف كاستيلز (1996، 1998، 2001) مجتمع الشبكة بأنه مجتمع معلوماتي به شبكات تعمل بوصفها البنية الأساسية للتنظيم المنتشر في جميع مجالات هذا المجتمع، وهو يرى الشبكات شكلا تنظيميا متميزا لأنها تجمع بين الأداء الدقيق للمهام مع قابلية كبيرة للتنفيذ واتخاذ القرارات المنسقة مع التنفيذ اللامركزي والاتصال الكوني مع التعبير الفردي (Castells, 2001: 2). ويُعرِّف مؤلف هذا الفصل (Van Dijk, 1991, 1999) مجتمع الشبكة بأنه مجتمع معلومات تتشكل أنماطه التنظيمية الرئيسة والبنى الأكثر أهمية فيه من خلال جهاز عصبي من الشبكات الاجتماعية والإعلامية. ويمكنني اعتبار الشبكات الاجتماعية والإعلامية بمنزلة النظير الاجتماعي للفردية، حيث أصبح الفرد هو الوحدةَ الأساسية للمجتمعات الحديثة المعاصرة. ومن منظور التكنولوجيا تعد شبكات الإعلام بنية أساسية لهذه المجتمعات. ومن منظور المجتمع فإن ذلك ينطبق على كل من الشبكات الاجتماعية والإعلامية.

في هذا الفصل سنبيِّن أن عددا من الخصائص البنيوية لهذه الشبكات الاجتماعية والإعلامية تسهم في اللامساواة إلى حد ما. ووفقا لنظرية الهيكلة structuration theory، فإن هذه الخصائص تنتج دائما من خلال الفعل الاتصالي للبشر.

فما أنواع المساواة (واللامساواة) التي تكشف عن نفسها في مجتمع الشبكة؟ وفقا لأمارتيا سِن Amartya Sen، يتعين على كل محقق في أي مشكلة تتعلق بالمساواة الإجابة عن السؤال الأساسي: «المساواة في ماذا؟» (Sen,1992: ix). إن إلقاء نظرة أولى عبر التراث العلمي والاجتماعي والاقتصادي يؤدي بالفعل إلى عشر إجابات محتملة يمكن إدراجها على أنها أنماط تكنولوجية، ولامادية، ومادية، واجتماعية، وتعليمية للمساواة (واللامساواة).

سأوضح هنا أنه يمكن ملاحظة كل هذه الأنماط من اللامساواة في مجتمع الشبكات المعاصر. وتعد الفرص التكنولوجية أكثر شعبية لأن الوصول الفعلي إلى أجهزة الحاسبات الآلية والشبكات وغيرها من التكنولوجيات حقق الاهتمام الأكبر. وبالنظر إلى الديموغرافيا فإن الأشكال الثلاثة لرأس المال والموارد قد استُخدمت بكثرة. وفي السنوات القليلة الماضية تحول محور الاهتمام إلى القدرات والمهارات، خاصة عند اقتراح حلول تعليمية لمشكلات اللامساواة في الوصول والمشاركة، وسوف أركز في هذا الفصل على أنماط اللامساواة المادية والاجتماعية والتعليمية.

ويدل وجود كل هذه الأنماط من اللامساواة في مجتمع الشبكات على أن مفاهيم اللامساواة الاجتماعية الكلاسيكية قد تكون خلفية صالحة للدراسة. ويمكن القول: إن مفاهيم اللامساواة فيما يتعلق بالممتلكات (ماركس Marx)، والمكانة والمهنة السوسيولوجية (فيبر Weber)، أو العلاقة والقوة (سيميل وداهرندورف Simmel and Daherndorf) لاتزال ذات صلة، ومع ذلك قد نتساءل أيضا حول ما إذا كانت هذه المفاهيم السوسيولوجية الكلاسيكية لاتزال كافية لشرح اللامساواة في مجتمع المعلومات ومجتمع الشبكة؟ وقد يؤدي هذا السؤال العام إلى السؤالين الأساسيين التاليين.

إن الفكرة الكامنة في العديد من الدراسات حول اللامساواة في مجتمع المعلومات والشبكات، على سبيل المثال فيما يُسمى ببحث الفجوة الرقمية، هي أن هذه الظاهرة جديدة تماما مثل التكنولوجيا المرتبطة بها. وعلى الرغم من ذلك فإن الفجوات التي لوحظت في الواقع ترتبط بالتركيبة السكانية للدخل والتعليم والعمر والجنس والعرق، ولا توجد أي مقارنة بالأشياء الأخرى التي تنقسم بنحوٍ غير متساوٍ في المجتمعات المعاصرة؛ مثل معظم الخصائص المدرجة

في الجدول (1-7). وفي الغالب فإن أي منظور تاريخي يُعتبَر غير كافٍ. ومع ذلك لا يوجد هروب من السؤال الأساسي التالي: ما الجديد تماما حول اللامساواة في الوصول إلى الشبكات الاجتماعية والإعلامية والمشاركة فيها مقارنة بالموارد المادية واللامادية النادرة في المجتمع؟

الجدول (1-7): أنماط المساواة (واللامساواة) والخصائص المقسمة بنحوٍ متساوٍ (وغير متساوٍ)	
نمط المساواة (اللامساواة)	**الخصائص المقسمة**
التكنولوجية	الفرص التكنولوجية
اللامادية	فرص الحياة الحرية
المادية	رأس المال (الاقتصادي، الاجتماعي، الثقافي) الموارد
الاجتماعية	المواقع القوة
التعليمية	المشاركة القدرات المهارات

عندما يُجاب عن هذا السؤال بالإيجاب (وهناك جوانب جديدة يجب الانتباه لها)، فإن هذا قد يؤدي إلى طرح سؤال ثانٍ وهو: هل تزداد الأنماط الجديدة من اللامساواة أو توجَد في مجتمع المعلومات والشبكات؟ وإذا كان الأمر كذلك، ما هذه الأنماط؟

سأحاول الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال البدء بوصف عدد كبير من الخصائص البنيوية للشبكات، سواء الشبكات الاجتماعية أو الإعلامية، حيث إن بعضها يتمتع

بالقابلية لزيادة المساواة، في حين يميل بعضها الآخر إلى دعم اللامساواة. وكشف الموازنة هو الذي سيحدد ما إذا كان مجتمع الشبكة سيتمتع بقدر أكبر أو أقل من المساواة مقارنة بالأنواع الأقدم من المجتمع. وبناء على ذلك سوف ألخص إجاباتي عن الأسئلة المحددة أعلاه. وأخيرا سأركز على توجيهات السياسة المحتملة التي قد تتصدى لعدم المساواة عندما يصبح ذلك من الأهداف.

الوصول والاتصال

إن الشبكة عبارة عن مجموعة من الروابط بين ثلاثة عناصر أو عُقدٍ على الأقل، إذ يعد الرابط بين عنصرين علاقة، وبمجرد أن يتجاوز العدد ثلاثة تبرز الأسئلة المتعلقة بالاتصال (وهو خاصية جماعية) والوصول (وهو خاصية فردية). فهل يُسمح للعنصر الرابع والتالي بالاتصال؟ يُعد الاتصال بالشبكات والوصول إليها، ومن ثم ضِمنَها (أي إلى جميع الأشخاص الآخرين الموجودين في الشبكة)، من الخصائص البنيوية الأساسية التي تحدد المساواة في الشبكة، إنها تشكل مسألة الاندماج أو الاستبعاد التي نوقشت بنحوٍ متكرر.

تظهر هذه المشكلة في الشبكات الإعلامية والاجتماعية على حد سواء، وتشمل الشبكات الاجتماعية جميع الأعمار، لكن في المرحلة الانتقالية بين ما يسمى المجتمع الجماهيري أو المجتمع الحديث ومجتمع الشبكة أو مجتمع ما بعد الحداثة أو مجتمع الحداثة المتأخرة (Van Dijk, 1999/2006) فإن هذه الشبكات تصل إلى مرحلة من التطور التي تصبح فيها الحصرية سمة مميزة. وفي المجتمعات التقليدية الحديثة أصبح العديد من الناس جزءا من جماعات متضامنة بسبب قربهم المكاني في القرى والأحياء، وأماكن العمل، وأماكن الاجتماعات العامة. وفي مجتمع الشبكات في فترة ما بعد الحداثة أو الحداثة المتأخرة يتعين على الأفراد تنظيم شبكة اجتماعية خاصة بهم، ويتميز هذا بدرجة عالية من الانتقائية التي تميز فردية الشبكة (Wellman, 2001; Van Dijk, 2004). فعدد ما يسمى بالعلاقات القوية الممتدة عبر المسافات القصيرة بالنسبة إلى الفرد يميل إلى الانخفاض في حين أن عدد العلاقات الضعيفة عالية الانتقائية والممتدة عبر المسافات الطويلة يشهد تزايدا (Granovetter, 1973). وفي مجتمع الشبكة يتعين على الفرد الوقوف بثبات، وأن يحارب للحصول على مكان في شبكات اجتماعية معينة تتيح الوصول إلى جميع أنواع الموارد.

تبدأ جميع الشبكات الإعلامية التي بُنيت في مجتمع الشبكة بمشكلات الاتصال والوصول. في البداية لا تُحَل هذه المشكلات إلا من قِبل المبدعين والمستخدمين الأوائل لتلك الشبكات، وهم من النخب المعلوماتية والثقافية والاجتماعية. وبمجرد أن تتجاوز هذه الشبكات مرحلة الكتلة الحرجة critical mass – حيث يصبح الوصول إلى الشبكة مفيدا لأن معدل الاتصال عالٍ بما فيه الكفاية، ما يعني أن عددا كافيا من الناس الآخرين متصلون بالشبكة - يصبح لدى الأغلبية المبكرة early majority من السكان إمكانية الوصول إلى الشبكة. والمرحلة الحالية من انتشار الهواتف في العالم ككل تشهد الآن انتقالا من مرحلة الأغلبية المبكرة إلى الأغلبية المتأخرة late majority: إذ إن ما يقرب من نصف سكان العالم مازالوا لم يلمسوا أي هاتف وفق إحصائيات الاتحاد الدولي للاتصالات الهاتفية (ITU)! ويحدث الانتشار الآن بوتيرة أسرع بسبب توافر الهواتف المحمولة في دول العالم الثالث. وفيما يتعلق بالإنترنت علينا أن نقر بأن هذه الشبكة العالمية المهمة تقترب من معدل انتشار يبلغ 20 في المائة فقط على المستوى العالمي في العام 2009. هناك نسب تفاوت هائلة في معدلات الوصول. وحتى داخل قارة أوروبا الصغيرة، فإن معدلات الوصول إلى الإنترنت تتجاوز 80 في المائة في شمال وغرب أوروبا، أما في جنوب وشرق أوروبا فإن هذه المعدلات تتراجع إلى 40 في المائة وأقل (Van Dijk, 2009).

ويندمج الوصول إلى الشبكات الاجتماعية والإعلامية والاتصال بها بنحوٍ متزايد في مجتمع الشبكة، أما أولئك الذين لديهم اتصال أقل في الشبكات الاجتماعية فعادة ما يكون لديهم أيضا وصول أقل إلى الشبكات الإعلامية والاتصال بها. وقد يكون الجمع بين الاندماج والاستبعاد لكل من الشبكات الاجتماعية والإعلامية مسببا قويا لعدم المساواة البنيوية في مجتمع الشبكة. وقد يؤدي إلى نشوء البنية الثلاثية التالية لمجتمع الشبكة.

ويتألف جوهر هذه الصورة المركزة لمجتمع الشبكات من نخبة معلومات تصل إلى نحو 15 في المائة من السكان في المجتمعات المتقدمة التي تتمتع بنسبة وصول عالية إلى وسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية والإنترنت، ولديها شبكات اجتماعية وإعلامية كثيفة ومتداخلة للغاية. إنهم أشخاص يمتلكون مستويات عالية من الدخل والتعليم، ولديهم أفضل الوظائف والمواقع المجتمعية، ويتمتعون بأكثر من 95 في المائة من معدل الوصول إلى الإنترنت. وتعيش هذه النخبة في شبكات اجتماعية كثيفة، ويوجد لها امتداد من خلال عدد كبير من العلاقات عبر المسافات البعيدة حيث تُستخدَم هذه العلاقات في أسلوب الحياة المتنقلة.

وأغلبية السكان (50-60 في المائة) في هذه المجتمعات لديهم عدد أقل من العلاقات عبر الشبكات الاجتماعية والإعلامية، فضلا عن أن نسبة دخولهم إلى الإنترنت واستخدامهم إياها والمهارات التي يتمتعون بها في هذا المجال هي أقل أيضا. أما تطبيقات الإنترنت المستخدمة فهي من النوع الأقل جدية والأقرب إلى الترفيه (انظر أدناه).

أخيرا لدينا الجزء غير المتصل والمستبعد من المجتمع والمعزول نسبيا على صعيد الاتصال بالشبكات الاجتماعية والإعلامية. هؤلاء يشكلون على الأقل ربع السكان (حتى) في المجتمعات المتقدمة، وهم يتألفون من أدنى الطبقات الاجتماعية، والعاطلين عن العمل، وجزء من كبار السن، والأقليات العرقية، ومجموعة كبيرة من المهاجرين. إنهم يشاركون أقل من غيرهم بكثير في العديد من مجالات المجتمع.

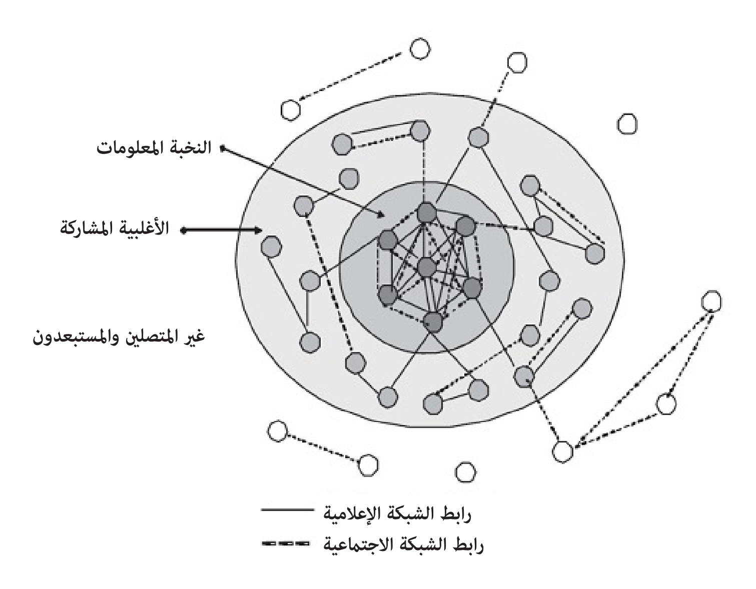
ويجب ألا تظهر هذه الصورة المظلمة لعدم المساواة البنيوية، على الرغم من أن عديدا من الاتجاهات الحالية تسير في هذا الاتجاه، كما سأناقش في بقية هذا الفصل. ففي نهاية المطاف يساعد الوصول والاتصال أيضا على انتشار المعلومات، والاتصالات، والسلع والخدمات، والموارد، وذلك على نحو أوسع مما كان يحدث من خلال وسائل الإعلام في السابق. وتوفر شبكة الإنترنت مكتبة ضخمة من المصادر المطبوعة والصور ومقاطع الفيديو والموسيقى، وغالبا ما تكون متاحة مجانا لجميع أولئك الذين يمكنهم الوصول بنحوٍ مباشر أو غير مباشر عبر الآخرين، ويوفر البريد الإلكتروني إمكان الوصول الفوري إلى جميع المتصلين بالإنترنت. ويمكن استخدامه من قبل المواطنين والمستهلكين للوصول إلى المؤسسات والمسؤولين والمتاجر. ويستطيع المستهلكون إجراء مقارنات بين الأسعار والاتحاد مع الآخرين لفرض أسعار أقل. كما توفر الإنترنت للمرء تسهيلات رخيصة للغاية لبدء أعماله التجارية الخاصة على الإنترنت. ويمكن ذكر الكثير من الفرص الأخرى لتمكين المستخدم، والمواطن، والمستهلك. وتقتصر الأسئلة المهمة على: من الذي سوف يستخدم فعليا هذه الفرص، ولأي غرض؟

لذلك، فإن الوصول والاتصال هما خواص بنيوية للشبكات التي يمكن أن تزيد وتقلل من اللامساواة، ويمكن أن يؤديا إلى الاندماج والاستبعاد. وهذا يعتمد على الظروف. على أي حال، الوصول والاتصال شرطان ضروريان، ولكنهما غير كافيين، للمشاركة المتكافئة في المجتمع. ويُعتبر الوصول المادي ضروريا، ولكن مستوى المهارات الاجتماعية والرقمية

والاستخدام الفعلي للموارد الاجتماعية ومصادر الإنترنت هي التي تقرر المشاركة المتكافئة إلى حد ما (Van Dijk, 2005).

المركزية

إن الفكرة الأكثر شعبية حول بناء الشبكات هي أنه من المفترض أن تكون مسطحة. وبالمقارنة بالأنماط التقليدية للمنظمات مثل التسلسلات الهرمية والبيروقراطيات، التي تتمتع ببنية عمودية تتجه من القمة إلى القاعدة، فإن الشبكات يعتقد أنها ذات بناء أفقي. وأفضل تشبيه مجازي معروف يتمثل في صورة الهرم التي تُستبدَل بصورة أرخبيل. وحيث إن الشبكات، على سبيل المثال، يُفترض فيها أن توفر بنية لامركزية ضمن ما يُعرف بالتواصل الشبكي بين النظراء peer-to-peer networking، فإنها ترتبط بسهولة بالمساواة والديموقراطية. وأرى أن هذه صورة أحادية الجانب للشبكات الاجتماعية والإعلامية الفعلية. وتكشف الشبكات الحقيقية عن وجود بنية تمايز لديها وهي تمتلك بانتظام عددا وافرا من المراكز أو النوى. وهذا ينطبق على جميع المستويات، أي مستوى المجتمع والمنظمات أو المؤسسات والأفراد.

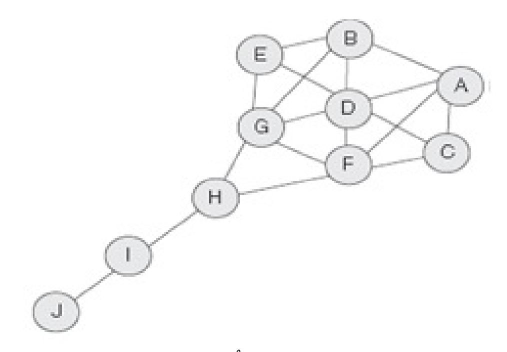


الشكل (7-1): البنية الثلاثية المحتملة لمجتمع الشبكة

رأينا في القسم السابق أن ظهور الشبكات يتوافق مع بنية المجتمع الذي يتميز بنواة ومحيط. هذه هي البنية التي تظهر في الشكل (7-1) الذي يشير إلى مجتمع واحد. وفي النظام العالمي للمجتمعات المرتبطة بشبكات التجارة والنقل والاتصالات، يُحتمل أن تظهر بنية النواة والمحيط هذه نفسها. أما مراكز التجارة والنقل (كالموانئ والمراكز الأخرى) فهي مقسمة على نحو يفتقر إلى قدر كبير من التكافؤ في جميع أنحاء العالم. والأمر نفسه ينطبق على حركة المرور عبر الإنترنت، وهي شبكة (إعلامية) بحد ذاتها. وتشهد دول شمال أمريكا وشمال أوروبا وشرق آسيا وأوقيانوسيا الغالبية العظمى من حركة الإنترنت العالمية.

وعلى مستوى المنظمات تبدو التركيزات داخل الشبكات كبيرة بالقدر نفسه بالنسبة إلى أولئك الموجودين في السوق. ومن المفترض أن تكشف الأسواق أيضا عن أنماط أفقية للتحكم والتنسيق مع توفير فرص متساوية للجهات الفاعلة في السوق. الواقع أننا نعلم أن الاقتصادات الرأسمالية المعاصرة غالبا ما تؤدي إلى التكامل العمودي vertical integration والاحتكار monopolisation واحتكار القلة oligopolisation، وتُظهر منظمات الشبكات المرتبطة بسلاسل الإدارات أو الشركات (شبه) المستقلة أو الفروع الحكومية أنماطا منتظمة لعلاقات المحيط والنواة. وينطبق الشيء نفسه على المنظمات التي توفر شبكات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات نفسها مثل غوغل ومايكروسوفت وياهو ومايسبيس وإيباي. ووفقا لهايندمان Hindman (2008) فإن المنظمات الإخبارية والإعلامية تتركز على الإنترنت أكثر مما تتركز في الصحافة والإذاعة التقليدية.

وعلى مستوى الأفراد يمكننا استخدام مقاييس المركزية في تحليل الشبكة لإظهار أن مواقع الأفراد في الشبكات يمكن تقسيمها بنحوٍ غير متكافئ للغاية. وفي الشكل (7-2) نشاهد ما يُعرف بشبكة الطائرة الورقية وتظهر فيها مقاييس مختلفة للمركزية. أعلى درجة هي الوحدة/العقدة (D)، بمعنى أنها تمثل أعلى رقم للروابط المباشرة مع الجهات الفاعلة الأخرى. ويمكن تقسيمها في الشبكة الاتجاهية إلى «درجة الدخول» indegree، أو عدد الروابط الواردة والتي يمكن أن تشير إلى الشعبية، و«درجة الخروج» outdegree، وهي عدد الروابط الصادرة التي تدل على التوسع.



الشكل (2-7): شبكة طائرة ورقية تُظهر مواقع مختلفة للمركزية:
(D) أعلى درجة، (F) أعلى تقارب، (H) أعلى بينية.
المصدر: مقتبس من (Krackhardt, 1990) و(Bruggeman, 2008).

ومع ذلك، ففي الشكل (2-7) نجد أن الوحدة أو العقدة F لها أعلى درجة تقارب، ما يعني مدى قرب الجهة الفاعلة، أو إمكان الوصول بسهولة إلى جميع الجهات الفاعلة الأخرى في الشبكة. وبهذه الطريقة تكون هذه الوحدة أسرع في الوصول إلى المعلومات المهمة أو الاستراتيجية بنحوٍ مباشر، أو غير مباشر، و«بصورة غير رسمية». (Monge and Contractor, 2003).

وأخيرا، تشير H إلى أعلى درجات البينية، أي إلى مدى توسُّط الفاعل أو وقوعه بين أي فاعلين آخرين. ويمكن أن يكون هذا الفاعل وسيطا أو سمسارا أو حارس بوابة، ويستفيد من المعلومات التي لا يملكها الآخرون في الشبكة لأنهم ليس لديهم روابط مباشرة مع مصدر المعلومات (في هذه الصورة I و J).

إن معنى المواقع المركزية الثلاثة بالنسبة إلى عدم المساواة هو أنها تمكّن من الحصول على موارد اجتماعية أو مادية (نادرة) أو فوائد أكثر مما تتيحه المواقع الأخرى. وقد ابتكر تشارلز تيلي Charles Tilly (1998) اسما مناسبا لهذه القدرة وهو: اكتناز الفرص opportunity hoarding.

التباين والتمايز

إذن تكشف شبكات العالم الحقيقي عن صورة للتمايز. وتتمثل خاصية التمايز للشبكة الخلفية البنيوية في التباين. وفي الفقرة التالية سيُربط هذا الأمر بخاصية

الاختيار Selection. وهذا يؤدي وظيفة التناظر بالنسبة إلى بيولوجيا التطور لأنه يمكن استخدام هذا المزيج لشرح الجودة العالية المفترضة للشبكات في علم التنظيم والتي يطلق عليها اسم المرونة (Anderson, 1999; Van Dijk, 2001). وغالبا ما يُستخدم هذا التناظر في نظرية الأنساق التكيفية المعقدة theory of complex adaptive systems, (Kauffman, 1995; Holland, 1995; Monge and Contractor, 2003). يحدث التكيف من خلال التباين المستمر. وفي مفهوم التشبيك اليومي يُعرف هذا الأمر بالدعوة إلى ضرورة تنويع جهات الاتصال والعلاقات ومصادر المعلومات الخاصة بك من أجل الحصول على فرص أفضل (للاختيار والبقاء). وكل متصل بالشبكة يعلم أنه يتعين على المرء الخروج من دائرة الأشخاص الصغيرة الخاصة به. ومن المهم إضافة عدد كبير من العلاقات الضعيفة، بحيث يكون معظمها على مسافة مما يمتلكه المرء من علاقات قوية تتصف بكونها أقل تمايزا، ومحلية في أغلب الأحيان (Granovetter, 1973). والأشخاص الذين يتمتعون بمستوى عالٍ على صعيد الدرجة والتقارب والبينية في العلاقات على الشبكة يكونون في وضع أفضل لأداء ذلك (تعد هذه المقاييس للمركزية سببا ونتيجة للتباين على حد سواء). أما الآخرون فيبقون ضمن الفئة التي تُعرَف باسم المعزولين isolates أو المتحزبين members of cliques. وتشير هذه المواقع إلى زيادة التمايز والتكتلات في الشبكة عندما تنمو. وهذا يشكل أيضا أساسا بنيويا لانعدام المساواة في الشبكات.

ومع ذلك فإن الأساس البنيوي الأكثر أهمية لانعدام المساواة في كل من الشبكات الاجتماعية والإعلامية هو قانون القوة الذي يظهر مع التباين في روابط الشبكة (Barabási, 2002; Buchanan, 2002). ومع نمو الشبكة يحدث ما يسمى بـ «ظاهرة الأثرياء يزدادون ثراء» أو «تأثير ماثيو» Matthew effect (Merton, 1968). يشير قانون القوة إلى التوزيع الذي يوجد به عدد صغير من الجهات الفاعلة مع الكثير من الروابط وعدد كبير من الجهات الفاعلة التي لها روابط قليلة فقط (ويُمثَّل ذلك بذيل طويل في صورة التوزيع). وهذا التوزيع غير المتكافئ يزداد عادة في الشبكات، ما يزيد الأثرياء ثراء (تأثير ماثيو). هذه خاصية بنيوية لتطوير العلاقات عبر الشبكة. وتتمثل الآليات التي تربط بين البناء والفعل والوعي الإنساني في الربط التفضيلي

والعدوى. ونلحظ في الشبكات الاجتماعية أن أكثر الأشخاص شعبية يجذبون اهتماما متزايدا، بينما لا أحد يريد أن يكون مع الشخص الوحيد الذي «يقف في الزاوية». وفي الشبكات الإعلامية تزيد البوابات الكبيرة والمواقع الأخرى من شعبيتها عبر تجميع مزيد من الروابط. فهي تتلقى الدعم من قبل محركات البحث مثل غوغل وياهو التي تضع المواقع الأكثر شعبية في المقدمة، ما يجعلها أكثر شعبية. وفي الشبكات الإعلامية، مثل الإنترنت، يجب ببساطة استخدام الأدوات المساعدة لمحركات البحث والعناصر الذكية الأخرى لتقليل فائض المعلومات التي تزخر بها المصادر. بالإضافة إلى ذلك يمكننا مراقبة العمليات الاجتماعية والاتصالية للربط التفضيلي (الشعبية) والعدوى (الشائعات والنميمة والسلوك الجماعي على الإنترنت).

بهذه الطريقة تظهر مفارقة التباين paradox of variation: ففي حين أنه على مستوى النظرية والممارسة على المدى القصير يزيد التباين من احتمالات تكافؤ الفرص مع بروز مزيد من الفرص، فإن هذه الفرص في الممارسة العملية، وعلى المدى الطويل، تتناقص لأنها تصبح متشابهة في روابط الشبكة وتتركز في توزيعات القوة. ولمنع حدوث ذلك فليس هناك إلا طريقة واحدة تتمثل في الانفصال عن العمليات الاجتماعية للربط التفضيلي والعدوى في الشبكات وممارسات التصنيف لمحركات البحث والعناصر الذكية الأخرى. وتعَد أهمية هذه الظاهرة كبيرة لأن الرأي الشائع هو أن الإنترنت يوفر وصولا متساويا وواسعا لجميع الأصوات وأصحاب المصالح في المجتمع في وقت واحد. الواقع أنه قد يصبح هذا الوسيط أكثر تركيزا من الوسائط التقليدية. وقد أظهر ماثيو هايندمان (2008) هذا الأمر في حالة الاتصال السياسي.

الاختيار والمنافسة

تحدث عملية إنشاء الشبكات عن طريق اختيار العلاقات بين التباينات التي نوقشت من فورها من قبل الوحدات. وقد تكون هذه الوحدات أفرادا أو جماعات أو منظمات أو حتى مجتمعات. وتنحرف هذه الاختيارات عن البيئات الاجتماعية المباشرة المتعلقة بالحياة اليومية والأصل الاجتماعي أو العائلي. فهي تخرج عن مسارها إلى مسافة أكبر وتكون مصممة لتحسين موقع المرء. والهدف هو إيجاد مصادر جديدة للمعلومات وجميع أنواع الموارد والاتصالات والعلاقات والتواريخ

والوظائف وما شابه ذلك. وفي حين أن البيئات المباشرة تنتقي الأشخاص وفق الولادة أو النسبة ascription(*) أو القيمة العملية، فإن الشبكات تُختار وفقا لمعايير الإنجاز والأداء. والنتيجة تكون إما الدمج أو الاستبعاد. وهي ليست نتيجة دائمة كما هو الحال بالنسبة إلى الولادة والنسبة، ولكنها حالة مؤقتة. والمشاركون الذين يُدمجون في شبكةٍ ما يتعين عليهم دائما أن يكافحوا للحصول على موقعهم. فالشبكات عبارة عن تجمع اجتماعي يتميز بالتعاون المستمر والمنافسة؛ لذلك يميل مجتمع الشبكة إلى أن يكون نوعا من المجتمع القاسي الفردي مقارنة بالمجتمعات المتحدة نسبيا والتقليدية والجماهيرية (van Dijk, 2005, 2006).

إن الاختيار هو خاصية ونشاط تتمتع بهما الشبكات على جميع المستويات، بدءا من الأفراد وصولا إلى المجتمع ككل، وتعد الانتقائية واحدة من قدرات الاتصال الرئيسة لوسائل الإعلام الجديدة (Van Dijk, 1999, 2006). وبالنسبة إلى الأفراد فهذا يعني أنهم قادرون على الاختيار بتفاصيل أكبر بكثير مما يمكنهم في وسائل الإعلام القديمة. وينطبق ذلك على جهات الاتصال المفضلة التي تستخدم البريد الإلكتروني أو الاتصالات الهاتفية المحمولة وعلى مصادر المعلومات والاتصالات، والمعاملات في القوائم الموسعة وأحكام الموقع على الإنترنت. وتعَد الانتقائية العالية السمة الرئيسة لمواقع الشبكات الاجتماعية الشائعة للغاية مثل فيسبوك أو هايفز Hyves أو فريندستر Friendster أو لينكد إن LinkedIn. وعندما يختار الناس الأنداد فقط فإن هذه الشبكات الاجتماعية قد تدعم المساواة، ومع ذلك فإن انتقائية مستخدمي هذه المواقع ربما تؤدي أيضا إلى ازدياد اللامساواة لأنه يُختار الأشخاص المتساوون في المكانة، أو الذين لديهم مكانة أعلى، وليس أولئك الذين لديهم منزلة أدنى، إلا إذا كان المرء ببساطة ينافس على عدد «الأصدقاء». على أي حال فإن مستخدمي مواقع الشبكات الاجتماعية يحاربون من أجل رأس المال الاجتماعي في هذه البيئة.

(*) النسبة أو الاكتساب بالميراث ascription عبارة عن مصطلح في علم الاجتماع يشير إلى أن مكانة أو موقع الفرد في المجتمع تحدِّده مواصفات وخصائص خارجة عن سيطرته (مثل: الجنس والعمر والنوع الاجتماعي والعرق والدين واللون والطائفة). مثل هذه الخصائص المنسوبة (أو المكتسبة بالميراث) لا يمكن أن تتغير بالمجهود الفردي، على الرغم من أن الحركات الاجتماعية والدول تحاول بين الفينة والأخرى أن تتصدى لصور الاضطهاد والصور النمطية التي تنشأ عن محاباة الأقارب، والتعصب ضد كبار السن، والانحياز الجنسي للرجل، والعنصرية. [المحرر].

وعلى المستوى التنظيمي يمكن ملاحظة ارتفاع التجزئة وإضفاء الطابع الشخصي في علاقات العملاء والتسويق المباشر. وتُنشأ قواعد بيانات ضخمة لانتقاء مجموعات معينة من المستهلكين ومقاربتهم بطرق مختلفة. وهذا بالتأكيد يزيد من اللامساواة بين المستهلكين؛ حيث تتلقى بعض الجماعات قروضا وعروضا خاصة، والبعض الآخر لا يحصل عليها.

وعلى المستوى المجتمعي والحكومي، تؤدي ممارسة الفرز الاجتماعي إلى اللامساواة بين المستهلكين والمواطنين. وفي فئات الفرز الاجتماعي يُكوّن العملاء والمواطنون باستخدام تقنيات أكثر إبداعا لاستخراج البيانات. وهذه التقنيات تجلب وصمة عار للناس. ووفقا لديفيد ليون (David Lyon (2007: 103 يمنح الفرز الاجتماعي أفضلية لبعض المستهلكين والعملاء والمواطنين مقارنة بسواهم، وذلك من خلال آليات التسعير التفاضلي، أو من خلال إطالة أو تقصير فترات الانتظار. والنتيجة الطبيعية، بطبيعة الحال، هي أن هذه العمليات الآلية نفسها تؤدي إلى إهمال المجموعات الأخرى وخذلانها. ونتيجة لذلك يعَد الفرز الاجتماعي مشكلة ليس فقط بالنسبة إلى الخصوصية ولكن أيضا بالنسبة إلى المساواة.

الحركة والسرعة التفاضليتان

باستثناء هذه الخصائص البنيوية للشبكات التي تدعم اللامساواة أو تخفف منها فإنه يوجد لدينا عدد من معايير العمل المرتبطة بقدرات البشر للعمل في الشبكات الاجتماعية والإعلامية. أولى هذه القدرات هي القدرة على الحركة. فالشبكات تتجاوز المكان والزمان أكثر من التجميعات المادية للأشخاص. لكن ليس كل الناس على قدم المساواة من حيث الحركة. ويكون نطاق العمل بين الطبقات الاجتماعية العليا عادة أكبر من الطبقات الاجتماعية الدنيا. ويعزز استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات هذا الاختلاف لأنه يدعم الحركة، وتستخدم الطبقات العليا هذه التكنولوجيا بمعدل أكبر نسبيا. وبالنسبة إلى إمانويل كاستيلز (1996، 1998)، فإن هذا السبب يُعتبر الأهم لظهور اللامساواة في مجتمع الشبكة. ووفقا له فإن الشبكات تخلق «فضاء التدفقات» الذي يطغى على «فضاء الأماكن» القديمة ويتغلغل فيه. وتربط الشبكات أولا بين الوظائف والأفراد والأماكن الأكثر

قيمة حول العالم، في حين أنها تتجاهل المجموعات السكانية والمناطق المحرومة من القيمة والاهتمام بالنسبة إلى الاقتصاد الرأسمالي العالمي (Castells 1998: 337).

وهذا يعني أن بعض الأشخاص مستبعدون جغرافيا وماديا من الشبكات، أو أنهم لا يحصلون إلا على موقع هامشي داخل تلك الشبكات. وبشكل متزايد ينخرط المستبعدون والمهمشون بالأعمال المحلية والعضلية بشكل رئيس، ويكونون ملتصقين بأماكن معينة. وفي الوقت نفسه فإن أولئك المتصلين بالشبكة والذين يشغلون مراكز محورية فيها من خلال القدرة العالية على الحركة، يستغلون هذه الميزة للعثور على معلومات مهمة استراتيجيا، وعلى علاقات وأعمال ووظائف جديدة ومهمة يتولون إدارتها عن بعد. فهم يشاركون في «حياة الترف» jet life المتمثلة في النوادي الحصرية واللقاءات الدولية التي حتى لم يسمع بها أولئك المستبعدون من الشبكات أو المهمشون داخلها.

اللامساواة في المهارات

إن القدرة البشرية الثانية التي تحدد الاستخدام الفعلي لخصائص الشبكة هي المهارات الاجتماعية والرقمية التفاضلية. ومن الواضح أنه في الشبكات الاجتماعية يتطلب الأمر مستوى عاليا من المهارات الاجتماعية، وفي شبكات الإعلام (الجديدة) يتطلب مستوى مناسبا من المهارات الرقمية. نبدأ بتناول النوع الأخير من المهارات، وهنا يجب الاعتراف بأن المهارات الرقمية حاليا هي المفتاح للوصول إلى مجتمع المعلومات. وفي بحثي حول الفجوة الرقمية (Van Dijk and Hacker, 2003, Van Dijk, 2005, 2006)، ميزتُ بين أربعة أنواع من الوصول على التوالي: الدافعية، والوصول المادي، والمهارات، والاستخدام. ومع الانتشار الواسع لوسائل الإعلام الجديدة في المجتمع، فإن الافتقار إلى الدافعية في اعتماد التكنولوجيا الرقمية (على سبيل المثال، بسبب الخوف من أجهزة الحاسب وكراهيتها) آخذ في الانحسار. كما أن نقص الوصول الفعلي إلى أجهزة الحاسبات الآلية والإنترنت بدأ يتراجع، بل هناك اقتراب من مرحلة الوصول الشامل في أكثر البلدان تقدما تقنيا. ومع ذلك تميل الاختلافات النسبية للمهارة الرقمية واستخدام الحاسب الآلي والإنترنت إلى النمو مع انتشار هذه التكنولوجيا في المجتمع

(Howard et al., 2001; Hargittai, 2002; Van Dijk, 2005). وتظهر جميع أنواع الاختلاف واللامساواة الاجتماعية القائمة في المقدمة عند إدارة المهارات الرقمية، وفي التمييز بين طول وتنوع ونمط استخدام الإنترنت (Van Dijk, 2005).

وقد وضع فان ديورسين Van Deursen وفان دايك (2008، 2009) تعريفا إجرائيا للمهارات الرقمية وطبَّقا ذلك على مهارات الإنترنت. كما ميَّزا بين أربعة أنواع من المهارات. النوع الأول هو «المهارات التشغيلية» operational skills، وهي تلك المهارات اللازمة لإتقان الأجهزة والبرامج. ويُعرف ذلك باسم «معرفة الأزرار» button knowledge في اللغة اليومية. والنوع الثاني هو «المهارات الرسمية» formal skills وتعني أن كل وسيط له خصائص رسمية معينة يجب التعرف عليها وإتقانها. فالإنترنت تتكون من مواقع وروابط تشعبية تشعيبية وغير تشعيبية وتتطلب توافر مهارات التصفح والتنقل بين الصفحات. ويتمثل النوع الثالث من المهارات في «مهارات المعلومات» information skills التي تعني القدرة على تحديد المعلومات ومعالجتها وتقييمها في أجهزة الحاسب الآلي ومصادر الشبكة وفقا لسؤال محدد. والنوع الرابع والأخير هو «المهارات الاستراتيجية» strategic skills التي يقصد بها القدرة على استخدام الإنترنت بوصفها وسيلة للوصول إلى هدف شخصي أو مهني محدد.

وقد اختار فان ديورسين وفان دايك شريحة تمثيلية من السكان الهولنديين وأخضعاها لعدة اختبارات قياس أداء تتمثل في إكمال مهام عبر الإنترنت، وذلك من خلال تجارب مخبرية أجريت في العامين 2007 و2008، وهو نهج مختلف تماما عن النهج المعتاد لقياس المسح. في المتوسط نجح مستخدمو الإنترنت الهولنديون في إكمال 80 في المائة من مهام المهارات التشغيلية، و72 في المائة من مهام المهارات الرسمية. أما المستويات التي حُقِّقت في مجال مهارات المعلومات ومهارات الإنترنت الإستراتيجية فكانت أقل من ذلك بكثير. فقد تمكن 62 في المائة من إكمال مهام مهارات المعلومات، أما الذين نجحوا في إكمال مهام المهارات الاستراتيجية فلم تتجاوز نسبتهم 25 في المائة من مجموع أولئك الذين أُخضِعوا لاختبارات الأداء هذه.

وكانت جميع أنواع الأداء، سواء من حيث عدد المهام المنجزة أو مقدار الوقت المستغرق في إنجازها، مختلفة اختلافا كبيرا بالنسبة إلى الأشخاص ذوي التعليم العالي والمتوسط والمنخفض. واحتل العمر المرتبة الثانية من حيث أهميته باعتباره

عاملا للمقارنة. غير أن هذا الأمر لم يُلاحظ إلا بالنسبة إلى المهارات التشغيلية والرسمية. وكان أحد الاستنتاجات المثيرة للاهتمام هو أن ما يطلق عليه «الجيل الرقمي» digital generation (18-29) لم يكن أداؤه في مجال مهارات المعلومات والمهارات الاستراتيجية أفضل كثيرا من الفئات العمرية الأكبر سنـا، على الرغم من حقيقة أن كبار السن يسجلون درجات أقل في المهارات التشغيلية والرسمية. ولم يُعثر على أي اختلافات بين الجنسين.

وقد لوحظت نتائج مماثلة على الخصائص السكانية المتمثلة في العمر والتعليم في اختبارات أداء المهارات الرقمية في الولايات المتحدة (Hargittai, 2004).

وثمة علاقة دالة بين إتقان المهارات التشغيلية، على وجه الخصوص، ومقدار استخدام الإنترنت (Van Dijk وVan Deursen). كما إن مقدار الاستخدام ونمط الاستخدام والتطبيقات المفضلة على الإنترنت ترتبط بالخصائص السكانية المتمثلة في الطبقة الاجتماعية والتعليم والعمر والجنس والعرق (انظر: Howard et al., 2001; Horrigan and Rainie, 2002a; UCLA Center for Communication Policy, 2003 for the US). وتعَدُّ الاهتمامات الاجتماعية والثقافية والشخصية والمهارات التفاضلية أهم المتغيرات التفسيرية. وقد لاحظت أنا شخصيا، إلى جانب آخرين غيري (Bonfadelli, 2002, Park, 2002, Cho et al., 2003)، أولى علامات وجود فجوة في الاستخدام بين الأشخاص الذين يتمتعون بمكانة اجتماعية عالية ودخل عالٍ وتعليم عال ويستخدمون تطبيقات متقدمة للحاسب الآلي والإنترنت من أجل المعلومات أو الاتصالات أو العمل أو التجارة أو التعليم، وبين الأشخاص الذين يتمتعون بمكانة اجتماعية متدنية ودخل متدنٍّ وتعليم متدنٍّ ويستخدمون تطبيقات أكثر بساطة من أجل المعلومات والاتصالات والتسوق والترفيه (van Dijk, 2005: 130).

علمُ الاجتماع ونظريةُ اللامساواة في العصر الرقمي

لقد رأينا في الفقرات السابقة أن استخدام الشبكات الاجتماعية والإعلامية في مجتمع الشبكات هو في مصلحة اللامساواة وليس المساواة، على الرغم من حقيقة أن الشبكات قادرة على نشر المعلومات وتمكين الاتصال بين عدد أكبر من الناس

بالمقارنة مع المؤسسات ووسائل الإعلام القديمة. ومن خلال التركيز على الشبكات الإعلامية ينبغي تحليل تكنولوجيا المعلومات والاتصالات باعتبارها مضخِّم اتجاهات trend amplifier يعمل على تعزيز الاتجاهات الاجتماعية التي يشهدها المجتمع (van Dijk.1999/2006). لذا عندما تزداد اللامساواة الاجتماعية في المجتمع بالفعل - كما يبدو في معظم بلدان العالم المعاصر وفقا للعديد من المراقبين الذين لا يمكن استعراضهم هنا (IMF, 2007) - فإن استخدام الوسائط الرقمية سيعزز هذا الاتجاه بنحوٍ أساسي. ولكن كيف يمكن أن نفسر هذا الارتفاع في اللامساواة الاجتماعية و«الرقمية» باستخدام المفاهيم والنظريات الكلاسيكية لعلم الاجتماع؟ وكيف يمكن لهذه المفاهيم والنظريات المساعدة في الإجابة عن الأسئلة الثلاثة المطروحة في المقدمة؟

السؤال الأول هو ما إذا كانت المفاهيم الاجتماعية الكلاسيكية لعلم الاجتماع في مجال اللامساواة الاجتماعية لاتزال ذات صلة باللامساواة في المعلومات والاتصالات في مجتمع الشبكات. إن إجابتي هي أن التحولات التالية ستقدم خطوات إلى الأمام في معالجة هذه القضية.

ويبتعد علم الاجتماع الكلاسيكي عن الرؤى الفردية للامساواة وعن الفردية المنهجية في البحث التجريبي. وترتبط اللامساواة في الوصول إلى الوسائط الرقمية واستخدامها بالأفراد والميزات التي يتمتعون بها مثل مستوى الدخل والتعليم والعمر والجنس والعرق. وهذه الخصائص السكانية تتمتع بخلفية في الفئات السوسيولوجية الكلاسيكية الأكثر تجريدية، مثل الممتلكات (ماركس) والمكانة والمهنة (فيبر) أو السلطة (داهرندورف)، والفئات السوسيولوجية الحديثة مثل رأس المال الاجتماعي والاقتصادي والثقافي (كولمان Coleman وبورديو Bourdieu وآخرون). وأنا اعتقد أن هذه الفئات القديمة لاتزال صالحة اليوم. وقد تكون الخصائص الديموغرافية والفئات المشتقة مفيدة في المسوح والتجارب، ومع ذلك يبقى السؤال ما إذا كانت توفر تفسيرات كافية للامساواة في مجتمع المعلومات ومجتمع الشبكة الذي يتميز بالشبكات والوسائط الرقمية؟

وللحصول على تفسيرٍ كافٍ قد يكون إيجاد مفهوم بديل للامساواة أكثر ملاءمة: رؤية علائقية باستخدام مقاربة شبكية. ولا تمثل اللامساواة هنا في المقام الأول

مسألة سمات فردية، وإنما تتعلق باختلافات قاطعة بين جماعات من الأشخاص تربطهم علاقة معينة. ومن نافلة القول أن العلاقات فئة تحليلية أساسية لفهم الشبكات. وفي علم الاجتماع الكلاسيكي يستند هذا الأمر إلى العلاقات والأشكال الاجتماعية عند سيميل ومقاييس العلاقات الاجتماعية socio-metrics عند مورينو Moreno. فتحليل الشبكة هو إستراتيجية أبحاث تجريبية مناسبة.

وثمة عالم اجتماع معاصر يتبنى هذه الرؤية، إنه الأمريكي تشارلز تيلي. ففي كتابه «اللامساواة الدائمة» Durable Inequality (1998) هو لا يحيد عن خصائص الأفراد أو الأنظمة الاجتماعية لشرح المساواة (واللامساواة) في المجتمع المعاصر، ولكنه يحيد عن الروابط والعلاقات والتفاعلات والمعاملات. «إن أوجه اللامساواة الكبيرة والمهمة في المزايا بين البشر تتوافق بصفة أساسية مع الاختلافات الصريحة مثل الأسود/الأبيض، أو الذكر/الأنثى، أو المواطن/الأجنبي، أو المسلم/اليهودي، وليس مع الفروق الفردية في الصفات أو الميول أو الأداء» (7 :1998).

وعلى رغم أن تيلي لا يتحدث عن أي شبكات إعلامية مثل الإنترنت فقد حاولت بنفسي تطبيق مقاربته لعدم المساواة في استخدام الوسائط الرقمية في مجتمع الشبكة (Van Dijk, 2005).

فالمطلوب هو حدوث تحوُّل ثانٍ في التفكير السوسيولوجي لشرح اللامساواة في مجتمع المعلومات. هذا من شأنه أن يساعد في الإجابة عن السؤالين الثاني والثالث في المقدمة: ما الجديد بالضبط حول اللامساواة في العصر الرقمي؟ وهل تظهر أنماط جديدة من اللامساواة؟ وقد أكدت المفاهيم السوسيولوجية الكلاسيكية للامساواة على الأنماط المادية من اللامساواة باستثناء المفاهيم التي تركز على اختلافات القوة والمكانة. وكانت الملكية والدخل والوصول إلى جميع أنواع الموارد النادرة محور الاهتمام الرئيس. وفي علم الاجتماع المعاصر، لايزال هذا التركيز منصبا على الأنماط المادية للمساواة (واللامساواة) كما هو الحال، على سبيل المثال، في المفاهيم الأكثر شعبية لرأس المال الاجتماعي والثقافي والاقتصادي. وفي مجتمع المعلومات يجب أن ينتقل الاهتمام إلى أنماط اللامساواة غير المادية التي تحيد عن السمات الخاصة للمعلومات بما تتمتع به من وفرة وقلة على حد سواء. وقد لفت عدد من الاقتصاديين وعلماء الاجتماع والفلاسفة الانتباه إلى هذه السمات الخاصة.

أولا تُعتبر المعلومات سلعة أولية (انظر Rawls, 1971; Sen, 1985)، والسلع الأولية تكون مادية وغير مادية، وهي بالنسبة إلى الأفراد ضرورية جدا كوسيلة للبقاء واحترام الذات إلى درجة أنه لا يمكن استبدالها بسلع أخرى. ومن بين الأمثلة على هذه السلع الأولية لدينا: مستوى الدخل الأساسي (للبقاء)، وفرص الحياة، والحريات، والحقوق الأساسية. وقد أصبحت المعلومات سلعة أولية في المجتمع المعاصر نظرا إلى أنه من الضروري الحصول على حدٍّ أدنى مطلق منها - وهذا الحد آخذ في الارتفاع بالمناسبة - لتتمكن من المشاركة فيها. ولا يتمتع كل الأشخاص بهذا الحد الأدنى؛ على سبيل المثال الأميون (الوظيفيون)(*). وفي الوقت الذي تحل فيه الوسائط الرقمية تدريجيا محل الوسائط التناظرية المطبوعة وتتفوق عليها، فإنها تضيف فئة أخرى إلى جانب فئة الأميين التقليديين، وهي فئة «الأميين الرقميين» digital illiterates.

ولعل الأكثر أهمية من هذا النمط المطلق من اللامساواة في معالجة المعلومات هو الدور المتزايد للاختلافات النسبية في امتلاك المعلومات والسيطرة عليها في مجتمع المعلومات. ووفقا لكاستلز (1996)، أصبحت المعلومات مصدرا مستقلا للإنتاجية والقوة. ويضيف فان دايك (2005) أن الاختلافات النسبية بين الفئات الاجتماعية، التي كانت غير متكافئة بالفعل من حيث الأنماط «القديمة» من الموارد ورأس المال، تتفاقم عن طريق استخدام الوسائط الرقمية. ويحدث هذا بسبب وجود انقسام غير متكافئ على نحو متزايد بين السيطرة على المواقع في مجتمع يزداد تعقيدا، وامتلاك المعلومات والمهارات الاستراتيجية لاكتساب هذه المواقع والمحافظة عليها. وبهذه الطريقة فإن استخدام الوسائط الرقمية إما يؤدي إلى ظهور أنماط جديدة من اللامساواة المطلقة والنسبية إلى جانب الأنماط القديمة، وإما يعمل على تعزيزها.

هذا الأمر مدعوم بخاصية أخرى للمعلومات. وقد تكون أيضا سلعة موقعية positional good (Hirsch, 1976). فهذا النوع من السلع يتسم بكونه نادرا بحكم التعريف - ولنا في أفضل الأماكن في قاعات الحفلات الموسيقية وعلى

(*) الأميون الوظيفيون functional illiterates هم الأشخاص الذين لا يستطيعون استخدام القراءة والكتابة بكفاءة في حياتهم اليومية. والأمية الوظيفية تختلف عن الأمية التقليدية في أن الأخيرة تشير إلى انعدام قدرة الفرد على القراءة والكتابة في أي لغة. [المحرر].

الشواطئ خير مثال على هذا النوع من السلع. وعلى الرغم من ظاهرة الحِمل الزائد للمعلومات في المجتمع، فإن المعلومات قد تكون شحيحة في ظروف معينة. وبعض المواقع في المجتمع تتيح فرصا أفضل من غيرها في جمع ومعالجة واستخدام المعلومات القيمة. ولقد أكدتُ على أن أهمية هذا الشرط تزداد في مجتمع الشبكة الناشئ (Van Dijk, 1999, 2005). وفي هذا التصنيف للمجتمع فإن المواقع والعلاقات التي يتمتع بها الناس في الشبكات الاجتماعية والإعلامية هي التي تحدد قوتهم المحتملة. ومع ازدياد أهمية الشبكات الإعلامية التي أنشأتها أجهزة الحاسبات الآلية وشبكاتها في المجتمع المعاصر، فإن عدم امتلاك مكانة في هذه الشبكات، أو الحصول على مكانة هامشية فقط، يترتب عليه الاستبعاد الاجتماعي (انظر الشكل 1-7). في المقابل فإن أولئك المندمجين بقوة لأنهم يتمتعون بمكانة مركزية، أو لكونهم يشكلون ما يُعرَف بنخبة المعلومات، تزداد قوتهم ورؤوس أموالهم ومواردهم. لذلك فهذا هو التأثير الثاني لحيازة المعلومات في مجتمع المعلومات والشبكات، والذي يزيد من أوجه اللامساواة القديمة.

ويوجد تأثير تضخيمي ثالث يأتي من المعلومات بوصفها مصدرا للمهارات. فعلى نحو متزايد ليس الوصول المادي أو الملموس إلى الوسائط الرقمية أمرا حاسما، ولكن الحاسم هو القدرة على استخدامها وتحويل هذا الاستخدام إلى مصلحة الفرد. وكما نوقش من قبل فإن الباحثين المعاصرين في الفجوة الرقمية قدموا أكثر من دليل على تزايد اللامساواة النسبية في مهارات الإنترنت واستخداماتها. وفي هذه المرحلة المبكرة من تطوير تكنولوجيا المعلومات والاتصالات تكون لذلك آثار فعلية في فرص العمل وحتى الأجور. وقد أظهر اثنان من الاقتصاديين الهولنديين من الوكالة المركزية للتخطيط (CPB) أن التخصيص الناجح لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات يخلق ما يسمى «علاوة المهارات» skills premium (Nahuis, de Groot, 2003). وبالاستناد إلى البيانات الطولية الكمية واسعة النطاق لعدد كبير من البلدان يجادل كل منهما بأن علاوة المهارات المتمثلة في امتلاك مهارات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات هي واحدة من الأسباب الرئيسة التي أدت إلى زيادة اللامساواة في الدخل في هذه البلدان في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي. وفي الآونة الأخيرة أظهرت دراسة غولدن Goldin وكاتز Katz (2008) أنه منذ نحو العام

1980، لم يكن التعليم في مجال محو الأمية الرقمية ومهارات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات قادرا على مواكبة التطور التكنولوجي، وأن هذا قد أدى إلى زيادة اللامساواة في الأجور في الولايات المتحدة.

وفي الختام: تنتقل اللامساواة في مجتمع الشبكة إلى المواقع والعلاقات والقوة في الشبكات، أما في مجتمع المعلومات فإنها تتحول إلى الكفاءات أو المهارات اللازمة لمعالجة المعلومات والاستفادة منها. هذه الخطوات تنتج أنماطا جديدة من اللامساواة إلى جانب الأنماط القديمة. وتُعزز الكفاءات والمهارات غير المتكافئة من خلال المواقع غير المتساوية في الشبكات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية وتؤدي بدورها إلى تقسيم غير متساوٍ للموارد المادية.

اتجاهات السياسة

لا أريد أن أترك الموضوع في هذه الصورة المظلمة جدا للامساواة في مجتمع الشبكة. فالاتجاهات التي لوحظت ليست مسألة ضرورة طبيعية، إنما صُممت السياسات لمواجهة هذه الاتجاهات من خلال توسيع نطاق الوصول إلى الشبكات وإلى داخلها وبناء المهارات المطلوبة لمعالجة المعلومات. ويمكن تقسيم هذه السياسات إلى فئتين كبيرتين؛ تأخذ الأولى اتجاه تكافؤ الفرص أو الحظوظ، وتحاول الثانية تحقيق مخرجات متكافئة إلى درجة معينة.

وهدف السياسة الأقل طموحا هو الفرص المتكافئة. ويمكن تقسيم ذلك إلى محاولات لضمان توافر فرص رسمية متكافئة وإلى تدابير لتحقيق فرص مادية متكافئة من خلال توزيع الموارد اللازمة لتحقيقها أو الحفاظ عليها. وفي سياسة الحكومة وسياسة الاتصالات السلكية واللاسلكية يظهر مفهوم الفرص الرسمية المتكافئة بوصفه مبدأً مدعوما على نطاق واسع للوصول الشامل أو العام. وفي هذا السياق يعني أنه يجب أن يكون لكل مواطن أو ساكن اتصال خاص بجهاز الحاسب الآلي والإنترنت، ويفضل أن يكون ذلك في المنزل بالإضافة إلى الطلاب في المدارس والموظفين في أماكن العمل (الوصول الشامل universal access). والخيار الآخر هو تأمين الاتصال في مكان عام، مثل المكتبة ومركز الوصول في المجتمع المحلي (الوصول العام public access). وقد كان تحقيق هذا الهدف أهم مبدأ في

جميع السياسات المعنية خلال العقدين الأخيرين. ووراء هذا المبدأ المتمثل في توفير الفرص التكنولوجية - انظر الجدول (7-1) - هناك توجه واضح نحو الأجهزة: يجب أن يتمتع الجميع بوصول مادي إلى أجهزة الحاسبات الآلية والشبكات. وكان الرأي الشائع، والذي لسوء الحظ لايزال ساريا حتى الآن، يشير إلى أن مشكلة «اللامساواة الرقمية» ستُحَل بمجرد أن يكون لدى كل شخص اتصال بالحاسب الآلي والإنترنت. ولعل الدافع الرئيس لهذه السياسة هو توزيع الأجهزة ذات الصلة، بما في ذلك وصلات الإنترنت ذات الحزمة العريضة، وتوفير الإنترنت في المدارس والمستشفيات والمكتبات ومراكز المجتمع المحلي.

وهناك خطوة إضافية نحو هدف الفرص المتكافئة يتخذها أولئك الذين يجدون أن الفرص أو الحظوظ الرسمية في الوصول ليست كافية في مجتمع غير متكافئ في العديد من النواحي، وأنه لا بد من توزيع (أو إعادة توزيع) معين للموارد، ليس لخلق فرص رسمية فقط، بل أيضا لخلق فرص مادية متكافئة. وتدعم السياسات القائمة على هذا الافتراض عادة مبدأ الخدمة الشاملة. وهذا يعني أكثر من مجرد إتاحة الاتصال (الوصول الشامل)؛ بل يعني توفير الخدمات المستحقة لكل مواطن، مثل المعلومات العامة والخدمات الصحية والتعليم الإلزامي. ويكون تحقيق هذه الخدمات ودعمها في سياق توفير الإنترنت من قبل الحكومة والهيئات العامة. ويمكن توجيه اهتمام خاص للجماعات والمجتمعات المحلية المحرومة. أما المدارس ومراكز الوصول في المجتمع المحلي، فإنها لا تُزوَّد بالاتصالات والمعدات فقط، بل أيضا بالموظفين والبرمجيات والأدوات التعليمية.

ومع توفير الفرص المادية يُنتقَل إلى الهدف السياسي المتمثل في تحقيق مخرجات متكافئة. وهذا لا يعني توفير شروط الوصول فقط، بل أيضا تنفيذ محاولات لتحقيق حد أدنى معين من المخرجات المتكافئة للجميع. ولا يُعَد ذلك بالضرورة نوعا من المبدأ الاشتراكي. فهذا الحد الأدنى معروف أيضا ومقبول على نطاق واسع من خلال عدد السنوات والنتائج المطلوب تحقيقها في التعليم الإلزامي. وفي هذا السياق فإن هذا يعني في المقام الأول دعم المهارات الرقمية في التعليم، وتوفير مواقع إلكترونية عامة أو حكومية تكون بسيطة ويمكن الوصول إليها وقابلة للاستخدام بما يكفي لتكون مناسبة لكل مواطن يستطيع القراءة والكتابة. وباتباع التحليل الوارد في

هذا الفصل فمن الشروط الأساسية للمشاركة في مجتمع الشبكة المعاصر الحصول على الحد الأدنى من مهارات الحاسب الآلي والإنترنت من الأنواع الأربعة المحددة أعلاه. وهذا لا يعني المهارات التشغيلية والرسمية فقط، بل أيضا الكفاءات «العليا» للإنترنت في مجال المعلومات والمهارات الإستراتيجي. ويجب ألا تكون جزءا من التعليم الابتدائي والثانوي والجامعي فقط، بل يجب أن تكون جزءا من تعليم الكبار بجميع أنواعه. ويمكن توجيه اهتمام خاص للمسنين، والأشخاص ذوي الإعاقة، والأميين الوظيفيين والمهاجرين الذين يتحدثون بلغات أجنبية فقط.

وفي الآونة الأخيرة، منذ نحو العام 2005 واكتشاف ما يطلق عليه «فجوة المستوى الثاني»، بدأت السياسات الرسمية للحكومات في التحول من توجه نحو الوصول المادي للأجهزة إلى توجه نحو التعليم والمشاركة الاجتماعية والثقافية على الإنترنت (van Dijk, 2009). ومن الأمثلة الواضحة على ذلك المفوضية الأوروبية التي تنص صراحة في خطة عملها للعام 2010 وإعلان ريجا Riga Declaration (2006) على أنه ينبغي تقديم أغلبية الدعم للمشاركة الكاملة وتزويد الناس بالكفاءة الرقمية الأساسية. وبالإضافة إلى الحكومات، فإن الشركات، والمنظمات العامة، والأفراد أيضا ملزمون بالعمل على زيادة الاستثمار في الحد الأدنى من المخرجات المتكافئة في مهارات الوسائط الرقمية واستخدامها والمشاركة في مجتمع الشبكة.

8

تريليونـاتٌ من الآحاد والأصفار: علم اجتماع المال في مواجهة العصر الرقمي

خوان بابلو باردو غيرا

«علمُ اجتـــماعِ المالِ مرآةٌ لكثيرٍ من أشكال الحاضرِ السوسيولوجي، وهو يعكس افتتانَنا بالتكنولوجيا وخيبة أملنا منها، كما يعكس ماضينا المتخيل ومستقبلنا الموعود بجميع تجلياتهما»

مقدمة

يجسـدُ المـالُ الكـونيُّ اليـومَ أنموذجًـا مثاليًّـا للحيـاةِ الرقميـة، ونظامـا للمعرفـة والمؤسسـات والممارسـات التـي يعتمـد وجودهـا الفعـلي عـلى التدفقـات السلسـة للبيانـات الثنائيـة التـي تتشـابك بـين المسـتثمرين والمحللـين، وأماكـن التـداول في جميـع أنحـاء العـالم. ويعـرف المـال المعـاصر بوضـوح مـن خـلال التكنولوجيـات الرقميـة وأشـكال العمـل التـي تحـدث مـن خلالهـا بـدءا مـن توهُّـج شاشـات التـداول في كل مـكان إلى الخـوادم وأنظمـة الحاسـبات الآليـة المتطـورة التـي تملأ البورصـات، ومـن الأجهـزة

المحمولـة التـي يسـتخدمها المتداولـون لإدخـال أوامـر البيـع والـشراء في السـوق إلى الكابـلات العابـرة للمحيـط الأطلـسي التـي تـوزع الإشـارات عـبر البحـر والـبر.

ويبــدو أن هــذه الخاصيــة التكنولوجيــة لا توفــر مجــالا كبــيرا للمجتمــع، وبالتــالي لإعــداد دراســات سوســيولوجية عــن طبيعــة النظــام المــالي الكــوني وتشـغيله. وفي الواقـع ليـس مـن غـير المألـوف تمامـا العثـور عـلى تمثيـلات للـمال بوصفـه مجـالا آليـا بدرجـة عاليـة، ومدفوعـا بالدرجـة الأولى عـبر آليـات خوارزميـة تحـدِّد، عـلى أسـاس المعلومـات المتاحـة، كلا مـن الأنشـطة وتصميـم المحافــظ الاســتثمارية والاســتراتيجيات طويلــة الأجــل للمؤسســات الكبــيرة وصغـار المسـتثمرين عـلى حـد سـواء. وبالتـالي كثـيرا مـا تُخضـع الأسـواق الماليـة للتكنولوجيـا، وبالتبعيـة تُجـرَّد مـن محتواهـا الاجتماعـي. وبعيـدا عـن تلـك الحفنـة مـن تحليـلات منطـق الجشـع، يبـدو أن علـم اجتـماع المـال الرقمـي يرقـى إلى مسـتوى علـم اجتـماع الخوارزميـات والآليـات التـي يعمـل عليهـا، لإعـادة البنـاء السوسـيولوجي لمـا هـو في الواقـع أحـداث رقميـة روتينيـة وآليـة.

وفي هـذا الفصـل أزعـم أن اسـتحداث علـم اجتـماع للـمال لا يظـل أمـرا ممكنـا فقـط، بـل هـو أيضـا أمـر محفِّـز مـن الناحيـة النظريـة، ومهـم عـلى المسـتوى السـياسي - لاسـيما في ضـوء الأحـداث المضطربـة نوعـا مـا التـي شـهدها القطـاع المـالي العالمـي أخـيرا. ونظـرا إلى الـدور المحـوري الـذي يؤديـه المـال، فإنـه يشـكِّل أرضـا خصبـة للاستفسـارات السوسـيولوجية للمجتمعـات المعـاصرة. وبهـذا المعنـى لا يجـوز فهـم صعـود العـصر الرقمـي داخـل النظـام المـالي وخارجـه عـلى أنـه يشـير إلى إعتـاق إضـافي للأسـواق مـن البنـى الاجتماعيـة للحداثـة، بـل باعتبـاره يشـكِّل مثـالا عـلى النسـيج التكنولوجـي المتطـور باسـتمرار للنشـاط الاقتصـادي.

ويناقـش هـذا الفصـل أهميـة علـم اجتـماع المـال الرقمـي في خطوتـين: الأولى خطـوة وصفيـة صريحـة. وبصفـة خاصـة يعـرِّف القسـمُ التـالي القـارئَ بالطـرق المختلفـة التـي استكشـف علـماء الاجتـماع مـن خلالهـا المـال الرقمـي والتماثـلي في القـرن العشريـن. والغـرض مـن هـذه الدراسـة هـو تأكيـد أن النظـرة السوسـيولوجية قـد تغـيرت جنبـا إلى جنـب مـع طبيعـة الأسـواق الماليـة. وبالتـالي تـُفهم النظـرة السوسـيولوجية، مثلهـا مثـل الأشـياء التـي تسـتهدفها في البحـث، باعتبارهـا أسـيرة

الزمـان والمـكان والثقافـة والإمـكان contingency. فعلـم اجتـماع المـال مـرآةٌ لكثـير مـن أشـكال الحـاضر السوسـيولوجي، وهـو يعكـس افتتاننـا بالتكنولوجيـا وخيبـة أملنا منهـا، كـما يعكـس ماضينـا المتخيـل ومسـتقبلنا الموعـود بـكل تجلياتهـما. والأمـر المثـير للأهميـة هـو أن التحـولات التـي حـددت الـتراث السوسـيولوجي حـول المـال ليسـت مجـرد نتـاج «للاكتشـافات» السوسـيولوجية الجديـدة، بـل هـي في الأسـاس مقيـاس لإعـادة التقييـم المسـتمر لشرطنـا الإنسـاني.

والخطـوة الثانيـة هـي توجيهيـة حازمـة. ويستكشـف القسـم الثـاني مـن هـذا الفصـل عـلى وجـه التحديـد بعـض القضايـا السوسـيولوجية ذات الصلـة عنـد مواجهـة مـا يسـمى بالتشـكيلات الرقميـة في المـال. واسـتمرارا لمنطـق القسـم السـابق، يبحـث هـذا القسـم في بعـض المجـالات المحتملـة التـي قـد يوفـر فيها الخيـال السوسـيولوجي فهـما أكـثر ثـراء للنظـام المـالي العالمـي. فالموضوعـات التـي تُطُـرِّق إليهـا ثلاثـة، وهـي: دور التكنولوجيـات الرقميـة في تكويـن معلومـات السـوق، ودورهـا في المرونـة المعرفيـة للسـوق، وفي المـواد التـي تعمـل بوصفهـا منصـات للـمال العالمـي.

ويختتـم هـذا الفصـل بالاعـتراض عـلى الثنائيـات التـي تُسـتخدَم غالبـا عنـد وضـع تصـور لتبنـي التكنولوجيـات الرقميـة في مختلـف مجـالات الحيـاة الاجتماعيـة. وبـدلا مـن تقديـم المـال المعـاصر (أي الرقمـي) عـلى أنـه منقطـع بطبيعتـه عـن سـوابقه الحديثـة (أي التناظريـة)، فـإن هـذا الفصـل يفضِّـل فهـم التكوينـات الرقميـة للـمال في سـياق سـجل تاريخـي مـادي أوسـع للسـوق. وضمـن هـذا السـجل التاريخـي لا يوجـد شـك في أن المـال الرقمـي مختلـف، حيـث إنـه ينطـوي عـلى أدوات ومؤسسـات وممارسـات مختلفـة. بيـد أن أساسـيات النظـام تبقـى اجتماعيـة عـلى نحـوٍ بـارز، وراسـخة في التفاعـلات الاجتماعيـة، وأشـكال الثقـة المنظمـة، واللوائـح والأعـراف المجتمعيـة، والممارسـات المنسـقة عـلى نحـو جمعـي.

دراسة المال

تتمثـل معرفـة المـال في فهـم المجـال الأسـاسي للنشـاط الرأسـمالي، وبالتـالي العنـصر الأسـاسي في المجتمعـات المعـاصرة. أمـا اليـوم، وربمـا أكـثر مـن أي

وقت مضى، فإن عملية المال وطبيعتها لديها تداعيات على معظم أشكال التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي السائدة. وهذا الحجم الهائل للأسواق المالية دليل على وضعها الحرج. ففي أواخر العام 2007، على سبيل المثال، بلغت الأصول المالية في العالم - بما في ذلك الأسهم والديون الخاصة والحكومية والودائع - 197 تريليون دولار، مقارنة بالناتج المحلي الإجمالي العالمي البالغ 54 تريليون دولار (Farrell et al., 2008). وفي هذا العام نفسه، بلغت القيمة السوقية الإجمالية لأسهم الشركات المحلية المتداولة في بورصة لندن 137 في المائة من الناتج المحلي الإجمالي للمملكة المتحدة (الاتحاد الدولي للبورصات، 2007)، ونحو 15 في المائة من رأس مال الدولة (Wilson et al., 2007). وبحلول العام 2009، فإن تداعيات المشكلة التي يمكن التعامل معها على ما يبدو في الأوراق المالية المدعمة برهن عقاري - ما يعادل مجرد 0.7 تريليون دولار أو 2.5 في المائة من السوق العالمية للسندات الخاصة وقروض الشركات (MacKenzie, 2008) – قد تسللت إلى كامل مفاصل الاقتصاد، وكشفت النقاب عن الترابط بين الاقتصادات «الافتراضية» و«الحقيقية»، ومهدت الطريق لأزمةٍ رأى كثير من المعلقين أنها تعادل الكساد الكبير Great Depression الذي حدث في العام 1929. يجب أن نفهم الموارد المالية باعتبارها عنصرا محوريا في المجتمعات الحديثة؛ فهي بطريقة ما ذات أهمية قصوى للإحاطة بالعلاقات الدقيقة والمتشابكة التي تقوم عليها الأشكال الحالية للحياة الاقتصادية المحكومة بالوسائط التكنولوجية.

ومع ذلك فقد اتخذ المال أشكالا عديدة عبر الزمن. على سبيل المثال، استندت الأسواق المالية في أوائل القرن التاسع عشر إلى مجموعات الحالة status groups(*) وشبكات الثقة بين الأشخاص، وإلى الصيانة المستمرة للمنظمات المغلقة التي تتكون من مستثمرين معروفين، إلى جانب

(*) وفقا لنظرية المقومات الثلاثة للتدرج الطبقي three-component theory of stratification، التي وضعها عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر، تُعرف مجموعة الحالة باعتبارها مجموعة الأشخاص الذين يمكن تمييزهم ضمن المجتمع بناء على صفات غير اقتصادية، مثل الشرف والهيبة والعرق واللون والدين. [المحرر].

وسطائهم والمتداولين الخاصين بهم. وكان السوق، على وجه الخصوص، فضاء مجسدا للغاية: فعلى الرغم من توافر الجيل الأول من تكنولوجيات الاتصالات الكهربائية، فقد كان أغلبية المتداولين يلتقون في الأسواق المالية في قاعات مغلقة لتبادل السندات والأسهم، حيث ابتكروا تشكيلة من الصيحات المتنافرة، والإشارات اليدوية، والإيماءات الوجهية.

وتعكس التقاليد الكلاسيكية في علم الاجتماع هذا النمط البدائي للأسواق المالية بمنتهى الروعة. وقد تُنووِلت البورصات، والسلع الأولية، والبنوك الخاصة والممولون الأثرياء كثيرا في كتابات المؤلفين مثل جورج سيميل وفلفريدو باريتو Vilfredo Pareto وماكس فيبر Max Weber. وقد اعتبر سيميل، على سبيل المثال، المال مثالا على «التسارع الشديد في وتيرة الحياة» و«الضغط والاضطراب المحموم» في المجتمعات الحديثة (Simmel, 2004). كما رأى أن البورصات كانت تمثل تجليات واضحة للحداثة المتسارعة، ومحافل «اختزلت فيها القيم والمصالح الاقتصادية بالكامل إلى الصيغة النقدية» التي تسمح للقيم «بالانتقال عبر أكبر عدد من الأيدي في أقصر وقت ممكن» (Simmel, 2004: 506). وقد تناول باريتو Pareto الموضوع من منظور مختلف، حيث اعتبر أن موجات ارتفاع الثقة وانخفاضها التي ميزت أسواق الأسهم - والتي تتجلى على سبيل المثال في تقلب الأسعار - تجسد «إيقاعات المشاعر» التي نلاحظها في مجالات أخرى كالأخلاق والدين والسياسة، والتي كانت أساسية في تكوين النخب (Pareto, 1991). كما قدم المال أيضا أنموذجا لآليات الضبط السياسي والتعاون والتنظيم المؤسسي الذي يتوافق مع الفعلين الاجتماعي والاقتصادي. وفي البورصات كشف فيبر عن سيطرة مالكي رأس المال على الثروة من خلال إنشاء الحدود التي تفصل بين الأصلاء والدخلاء، وبين المشاركين الشرعيين وغير الشرعيين. وفي مقاربة فيبر كانت البورصات عبارة عن بنى اجتماعية يحكمها المشاركون فيها لضمان الوصول إلى فضاء مربح من النشاط الاقتصادي. فهي كانت، من جميع النواحي، عبارة عن بنى اجتماعية ذات توجه اقتصادي.

وبالنسبة إلى هؤلاء الكتاب الأوائل، تكمن أهمية المال في تجسيده لنماذج الحساب الاقتصادي والضبط السياسي والنظام الاجتماعي. لكن الأهم من ذلك هو أن المال كان توضيحا للآليات الاجتماعية التي أعطت الحداثة شكلا. ولم يكن المال مجالا للنشاط التكنولوجي الحر أو للفضاء المنفصل عن منطق الحياة اليومية. بل على العكس من ذلك، فقد كان إلى حدٍّ ما من نفس نوع المحادثات والثقة والحالة وأشكال السيطرة التي كانت تحدد شكل المجتمع ككل.

لكن المال لم يكن ثابتا، وطوال القرن العشرين شهد السوق عددا من التغيرات. ومن المهم أن صالات البورصات وقاعات التداول في جميع أنحاء العالم كانت مأهولة بمجموعة متنوعة من التكنولوجيات الرقمية - بدءا من أجهزة الحاسبات الآلية التي كانت تتولى أشكال المحاسبة الشاقة وصولا إلى الأنظمة التي كانت تنشر الأسعار عبر مسافات كبيرة وفي الوقت الحقيقي. ولم تعد الأسواق مقيدة بنطاق الصوت البشري أو زمن المحادثات الهاتفية. بل على العكس، فقد أصبح في إمكان إشارات السوق الرقمية الانتقالُ عبر المناطق الزمنية، بمعزل عن قيود المكان.

وبالنسبة إلى المحللين في هذا العالم الجديد الجريء، قدمت الموارد المالية لمحة عن التكوينات الممكنة للمستقبل السوسيوتقني: تماما كما ترمز نهاية الحرب الباردة إلى نهاية التاريخ (Fukuyama, 1992)، فإن تآكل الحواجز أمام تجارة الأوراق المالية ونشر تكنولوجيات المعلومات، وتحديدا في مجال الخدمات المالية، كان يدل على نهاية الجغرافيا (O’ Brien, The end of geography 1992). وهكذا، بالنسبة إلى عدد من علماء الاجتماع، لم يعد في الإمكان اعتبار المال على وجه الخصوص والاقتصاد عموما مقيدا بالدوائر المحلية لجهات اتصال متماسكة تتحكم في الإنتاج المادي والانخراط في معاملات غير واضحة وتحديد قيم السوق بناء على العلاقات والثقة الشخصية. وفي أسواق العصر الحالي اعتُبر أن تكنولوجيات المعلومات تجعل الجغرافيا غير مهمة، وأن الهويات الفردية «المادية» تُستبدل بالذوات «الأخلاقية» و«غير الشخصية» للشركات، وأن أنماط التبادل الخاصة بالأسواق «القديمة» استُعيض

عنها بالمعاملات الرقمية التي لا تخلِّف وراءها سوى «أشباح إلكترونات» ghosts of electrons (Grundfest, 1988). وفي هذا الإطار، يصبح من غير الممكن التمييز بين جوهر المجتمع وأسواقه والتكوينات المغناطيسية للتخزين السحابي في محركات الأقراص الصلبة المنتشرة في جميع أنحاء العالم؛ ويُنظر إلى وجودنا باعتباره يتحقق داخل البرامج وحولها؛ وتُعَد شخصياتنا المالية نتاجَ البلاستيك والمعدن ووحدات الذاكرة؛ أما أفكارنا وعواطفنا والفترات التي نتذكرها من ماضينا والصور المتخيَّلة التي نرسمها عن مستقبلنا فتُصاغ على شكل تدفقات من الإشارات التي تُجمع من قبل شبكة دائمة من محولات الطاقة transducers وأجهزة التوجيه routers والمعالجات processors. وفي هذا الواقع التكنولوجي أصبح المجتمع نموذجا مقلدا عن ذاته (Baudrillard, 1994)، بوصفه مجرد تدفقات مترابطة للمكان والزمن والمعلومات.

الواقع أن هذا الخلط المبكر لتكنولوجيات المعلومات والمال أدى إلى نشوء نظام سوسيولوجي متخيَّل sociological imaginary وفق مواصفات محددة للغاية، وقد عُبِّر عن ذلك بوضوح من خلال كتابات مانويل كاستيلز. وبالنسبة إلى كاستيلز، كان المال المعاصر هو الطبقة المهيمنة في «الاقتصاد الجديد»، فهو المجال:

> الذي يحدث فيه تداول جميع الأرباح من جميع الأنشطة والبلدان. وتعمل هذه السوق المالية الكونية جزئيا وفقا لقواعد السوق. فهي تتشكل وتتحرك بواسطة الاضطرابات المعلوماتية من أصول مختلفة، وتحدث عملية المعالجة والنقل على الفور تقريبا بواسطة أنظمة معلومات متصلة من بُعد في غياب التنظيم المؤسسي لتدفقات رأس المال الكونية (Castells, 2000b). [...] وربما تتمثل نتيجة [...] العولمة المالية في أننا أدخلنا الآلة إلى صميم اقتصاداتنا فأصبحت تتحكم في حياتنا بنحوٍ حاسم. ويبدو كابوس البشرية المتمثل في رؤية أجهزتنا تتحكم في عالمنا على وشك أن يصبح حقيقة واقعة - ليس على شكل روبوتات تحرمنا من الوظائف أو على هيئة أجهزة كمبيوتر حكومية تتحكم في حياتنا، ولكن بوصفها نظاما إلكترونيا للمعاملات المالية (Castells, 2000a: 34).

مثل هذا الرأي كان له صدى مع الروايات الأخرى التي ادَّعت أن تكنولوجيات المعلومات تشهد على ما يبدو تمدُّدا شرسا في المجالين العام والخاص. ومن الناحية العملية، بالنسبة إلى هذا النظام السوسيولوجي المتخيَّل، لم يعد المال يتشكل أو يُتحكم فيه من قِبل النخب التي كانت تحتكر الاتصال بشبكة الإنترنت في الماضي. فقد أصبح الآن آلية تكنولوجية تمتد عبر الجغرافيات الثقافية والمكانية وتعمل كأنها نواة التجانس في هذا العالم الاقتصادي متزايد العولمة. وكان «المجتمع الشبكي»، كما أطلق عليه مانويل كاستيلز، في طور التكوين. وبفضل وجوده، نشأ نظام (أو، بالأحرى، خلل) اقتصادي جديد(Castells, 2000a, 2000b) .

التطبيع الاجتماعي للمال

إن مركزية تكنولوجيات المعلومات في تشغيل المال الحديث لا تمنع بأي حال من الأحوال إمكانية أن تكون هناك رؤية سوسيولوجية للأسواق المعاصرة. بل على العكس من ذلك، فإن اعتماد تكنولوجيات المعلومات واستخدامها وما يترتب على ذلك من ظهور للعصر الرقمي في مجال المال العالمي يستلزم انتشار الأشكال الاجتماعية والتنظيمية والسياسية، بدلا من إسقاط نموذج مسطح أو متجانس للعالم على ركيزة رقمية موحدة.

تُقدم إحدى الرؤى التحليلية من خلال ما يُطلق عليه «علم الاجتماع الاقتصادي الجديد» (Preda, 2007)، الذي يتضمن أعمال مؤلفين، مثل مارك غرانوفيتر (1985) Mark Granovetter وهاريسون وايت (1981) Harrison White، الذين يُعترف عموما بدورهم الحيوي في إحياء الاهتمام بالدراسة السوسيولوجية للحياة الاقتصادية (انظر: Baker, 1984; Podolny, 1993; Smith, 1989; White, 2002; Zukin and DiMaggio, 1990). وتقدم أعمال هؤلاء المؤلفين، وغيرهم من المؤلفين ذوي الصلة، على وجه الخصوص نقدا سوسيولوجيا مقنعا ومستنيرا للتفسيرات السائدة للتفاعل الاقتصادي، والتي تختزل عملية التبادل في السوق إلى سلسلة من العمليات الحسابية العقلانية التي تعظِّم المنفعة. وفي علم الاجتماع الاقتصادي تحدث عملية إرجاع نماذج الفعل الإنساني التي تطرحها

بعض التخصصات مثل علم الاقتصاد إلى نطاق التحليلات السوسيولوجية. وفي المنظور المعاد تشكيله لعلم الاجتماع الاقتصادي، لا تفسر الأسواق باعتبارها آليات لتبادل وإعادة تخصيص السلع والخدمات؛ فهي بالإضافة إلى ذلك، أنظمة إشارة مدمجة في مجموعة أوسع من العلاقات الاجتماعية التي تساعد الأفراد والمؤسسات على تقييم المخاطر والتعامل مع عدم اليقين واستقرار الشبكات الاقتصادية عبر المكان والزمان. وبالعودة إلى بعض الأفكار التي توصلت إليها الأجيال السابقة من علماء الاجتماع - وخصوصا ماكس فيبر وجورج سيميل - يرى علم الاجتماع الاقتصادي أن حياة السوق قابلة للنقد السوسيولوجي، حيث يعَد المال موضوعا بحثيا غنيا من الناحية التجريبية.

ومع ذلك فإن علم اجتماع الموارد المالية يتجاوز علم الاجتماع الاقتصادي. وعلى وجه التحديد توجد ثلاثة مجالات بحثية تقدِّم فيها المقاربة السوسيولوجية إعادة تقييم نقدية للمال في مواجهة ظهور العصر الرقمي. وتُوصف أدناه هذه المجالات الثلاثة، وإنْ بطريقة توجيهية.

المعلومات ونشاط السوق

في المستوى الأول يقدم علم اجتماع المال الجديد نقدا لفكرة واسعة الانتشار مفادها أن عالم الأسهم والسندات والمشتقات المعقدة يتسم بالتدفق والانعتاق والانضغاط المكاني والزمني [و] بالعلاقات في الوقت الحقيقي (وجميعها متحررة من قيود الجسد والمادة والمكان) (Lash, 2002). وتحلل الأدبيات الجديدة بطريقة ما الانقسام بين المجال الرقمي والمجال التناظري من خلال تفسير المعلومات باعتبارها مرنة، وممكنة ومحكومة بوسائط معرفية. بعبارة أخرى فهي لا تنظر إلى المعلومات بوصفها تسبق النشاط الاجتماعي، بل باعتبارها تنتج عنه.

على سبيل المثال، بالنسبة إلى بعض علماء الاجتماع تشكل المعلومات مفاجأة في التوقعات ضمن بيئة محددة تفضي إلى إثارة ردود فعل بين المشاركين في السوق (Preda, 2010). والمعلومات بهذا المعنى لا يمكن قياسها إلا من حيث التوقعات المجتمعية، وبالتالي فهي شيء يسمح بوصف سوسيولوجي. وبالنسبة إلى الآخرين تأتي المعلومات في شكل

حقائق اجتماعية تتمتع بقدرة كبيرة على التنقل، مثل سعر الفائدة السائد بين البنوك في لندن (LIBOR) (MacKenzie, 2007)، أو التصنيفات المقدمة من الأقران والمؤسسات الرسمية (Pollock and Williams, 2009). بهذا الرأي تكون المعلومات نتاج التدخلات التنظيمية المعقدة، وبناء الثقة والحفاظ عليها، وتوحيد الأدوات وأشكال النشاط والاتصال. ولكن بالنسبة إلى الآخرين فإن المعلومات هي فئة متطورة (وسياسية للغاية) من المشاركين في السوق. من هذا المنظور تتوقف طبيعة المعلومات على تكوين الترتيبات الاجتماعية التقنية الكبيرة، وإن كانت محلية في النهاية. تحدث عملية الرقمنة والتحولات المعلوماتية الأخرى باعتبارها تغيرات في العلاقات بين أنظمة التصنيف التي يبنى عليها تعريف العناصر بوصفها إما معلومات وإما لا، والممارسات التي تشكل مجالا معينا. على سبيل المثال، في بورصة لندن للأوراق المالية في أوائل سبعينيات القرن الماضي لم ينظر مجتمع الوسطاء وصانعي السوق في قاعة التداول إلى أنظمة نشر الأسعار باعتبارها «مفيدة». بالنسبة إليهم كانت المعلومات المزعومة الواردة في الأسعار متاحة فقط في قاعة التداول، و فقط من خلال معرفة متجسدة للغاية في السوق والمشاركين فيها، لذلك تطلبت معلومات المال اللاحقة في لندن تغيرا في ممارسات البورصة، مما أدى إلى إعادة تنظيم إجراءات المشاركين في السوق لتصميم تكنولوجيات ولوائح معينة. عندها فقط أصبحت الأسعار التي تعرضها تكنولوجيات المعلومات «مفيدة»، أي فقط عندما اكتسبت معنى عمليا لمن هم في السوق (Pardo-Guerra, 2010). ولم تنبثق التغيرات في تنظيم صناعة الأوراق المالية من شكل محدد من الثراء المعلوماتي، ولا من قوة تدفق المعلومات التي لا تنضب على التنظيم الاجتماعي، ولا من اليد الخفية للسوق التي رأت في التحول الرقمي تطورا طبيعيا طرأ على التفاعل وجها لوجه.

ومادامت المعلومات تُقدَّم باعتبارها نتيجة للتدخلات الاجتماعية، أي باعتبارها نتاج سلسلة من التفاعلات التي تسبق معاملة السوق، فإنه يجب اعتبارها هدفا سوسيولوجيا صالحا في حد ذاته. والكيانات الرقمية في المال

ليست استثناء. وفي النهاية ليست الأنظمة الرقمية سوى وسائل محددة لتقديم البيانات وتوصيلها والعمل بها. وهنا تبرز فرصة للاستكشاف السوسيولوجي، عندما تقاس في نهاية المطاف قيمة هذه البيانات ومعناها من خلال أنشطة اجتماعية محددة (على سبيل المثال، من خلال أشكال النشاط الاجتماعي المرتبطة بالتدريب عندما يكون المرء محللا مبتدئا). لذلك فإن لدى علم اجتماع المال الرقمي كثيرا ليقوله حول كيفية إنشاء المعلومات، كما أن هناك كثيرا من الأمور التي لم تُقَل حتى الآن حول هذا موضوع اللحظة هذا.

المعرفة والعناصر المكانية والزمانية للمال

وعلى غرار المعلومات، كان المكان وعلاقته بالمعرفة أيضا موضوعا لإعادة التقييم في إطار علم اجتماع المال الحديث. وعند تحليل ممارسات السوق، فإن التضاريس المستوية والمشاد بها باعتبارها تمثل مستقبل الاقتصاد الجديد في أواخر الثمانينيات، وأوائل التسعينيات من القرن الماضي، أصبحت في غاية الوعورة. فعلى سبيل المثال صُممت معرفة الاقتصاد الجديد الجاهزة ظاهريا والقابلة للنقل بشكلٍ تكشف فيه عن أصولها الطارئة. وكما قالت كارين كنور سيتينا Karin Knorr-Cetina وأليكس بريدا Alex Preda:

> ما نواجهه اليوم في مجالات الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية هو «التضمين المعرفي» epistemic embeddedness لهذه الأنشطة [...] وفهمنا لمجتمعات المعرفة من حيث الديناميكية الاقتصادية القائمة على التكنولوجيا يجب أن يُستكمل بفهمٍ قائم على أساس تجريبي لكيفية اختراق المعاملات الاقتصادية وتحويلها بواسطة الممارسات المعرفية. ويشير مصطلح «التحول المعرفي للمعاملات الاقتصادية» epistemization of economic transactions إلى موقف تعتمد فيه هذه المعاملات على - ويرتبط بعضها ببعض من خلال - عمليات وأنظمة تحليل متعددة باستخدام طرق مختلفة (Knorr-Cetina and Preda, 2001: 30–31).

إن مكاتب بنوك الاستثمار، ووكالات التصنيف، وشركات الوساطة ليست مجرد قنوات للتدفقات غير الملموسة للمعلومات، بل هي عبارة عن أنظمة للمعالجة وإعادة المعالجة، ومواقع تحدث فيها عملية إنشاء المعرفة وإعادة إنشائها والتفاوض عليها عبر المجتمعات المحلية المعرفية؛ وهي إلى حدٍ ما المصانع (المحلية) للمعرفة (الكونية). وفي السوق المالية، «يشارك المتداولون في العمل المعرفي، بالإضافة إلى إجراء معاملات اقتصادية» (Knorr-Cetina and Bruegger, 2002). ونتيجة لذلك تتحول الأسواق المالية الكونية إلى:

أنظمة اجتماعية تتوافق مع شكل من أشكال الذاتية المتداخلة intersubjectivity، وهي عبارة عن تنسيق مصغر للوعي يعادل ما هو ممكن في الموقف المباشر (وجها لوجه) ويتجاوزه. ويبدو أن هذه الأسواق نمطية من حيث البنى (مثل، بنى المحادثة) والآليات (على سبيل المثال، الآليات التفاعلية للحوكمة الاجتماعية) التي تتوسع في هذا التنسيق المصغر. [...] ويترتب على تدفق الملاحظات التي تجمع هذه الأسواق معا حدوث تدفقات للمعرفة؛ أما تنسيق الوعي [...] فإنه يتقاطع مع تبادل المعرفة (Knorr-Cetina and Bruegger, 2002: 941).

بيد أن المعرفة محددة تاريخيا وجغرافيا على حدٍّ سواء (Thrift, 1996)، ما يجعل الفضاء ذا صلة بالنسبة إلى تحليل المال الرقمي مثلما كانت الحال بالنسبة إلى المال التناظري. وتنبثق التكوينات المكانية للنظام المالي من الإمكانيات التي تتيحها المنصات التكنولوجية للسوق مثلما تنبثق من الجغرافيات الثقافية لمعرفة الرأسمالية (Thrift, 2005). ومجال التداول عالي التردد، الذي تُتخذ فيه قرارات الاستثمار من خلال خوارزميات الحاسب الآلي المعقدة التي تستحوذ على البيانات وتعالجها يوما بعد يوم، يُعد مثالا لافتا إلى حد كبير على قابلية تشكيل الفضاء المالي وجموده في العصر الرقمي. وفي حين أن النظم المصممة لاستخدام بنك استثماري في منطقة وسط مانهاتن تُوضع من قبل فريق عالمي - وهو عبارة عن متخصصين من سريلانكا يعملون جنبا إلى جنب مع مكتب لندن التابع

لشركـة تكنولوجيـا معلومـات هنديـة - فـإن المشـكلة الأساسـية التـي يواجهـا الفنيـون هـي دائمـا مشـكلة محليـة، وتتلخـص في ضـمان أن تكـون أجهـزة الحاسـبات الآليـة التـي تديـر الخوارزميـات قريبـة فعليـا مـن خـوادم البورصـة مـن أجـل تقليـل الوقـت المسـتغرق في انتقـال أوامـر البيـع والـشراء الإلكترونيـة بـين النقطتـين.

المواد والممارسات المالية

تـدل أهميـة الكفـاءات التكنولوجيـة في تشـغيل المـال الحديـث عـلى سـمة أعمـق للمجتمـع الـذي غالبـا مـا يحيط بـه خطـاب الحداثـة والترابـط المعلوماتي في العـصر الرقمـي، وهـذه السـمة تتمثـل في اعتـماد الأنظمـة والمنظـمات عـلى البنيـة التحتيـة الماديـة العميقـة وغـير المرئيـة. الواقـع أن علـم اجتـماع المـال وجـد موضوعـا مهـما في دراسـة هـذه البنـى التحتيـة والمـواد الأوسـع نطاقـا التـي تشـكل الركيـزة التشـغيلية لتبـادل السـوق. وكمثـالٍ فقـد تبـين أن فهـم التفاعـلات بـين الترتيـب المـادي لغـرف التـداول، التـي يعمـل فيهـا الفضـاء والأدوات المصنَّعـة عـلى خلـق المعرفـة وتنفيذهـا، وبـين العمليـات المعرفيـة للمشـاركين في السـوق، هـو عامـل أسـاسي لفهـم ديناميكيـات حسـاب السـوق. فالأسـواق ليسـت مجـرد عمليـات بيـع وشراء، ولكـن تتطلـب المهـام داخـل السـوق مسـتويات كبـيرة مـن التخصـص والتنسـيق مـن أجـل إنتـاج أنشـطة ذات مغـزى مؤسـسي. وكـما يتضـح مـن قاعـات التـداول الحديثـة، حيـث تحـدث عمليـة ترتيـب أنـواع مختلفـة مـن المتداولـين بطريقـة اسـتراتيجية مـن أجـل تمكـين الأشـكال الممكنـة للاتصـال، فـإن الترتيبـات الماديـة تُعَـدُّ ضروريـة لتشـغيل السـوق (Beunza and Stark, 2004). بـل إن أهميـة المـواد تُظهـر أن العمليـة الحسـابية ليسـت «ذهنيـة» بنحـوٍ كلي، كـما لا يمكـن أن نعهـد بهـا كليـا إلى الأدوات المصنَّعـة. إنهـا بالأحـرى عمليـة موزعـة عـلى مجموعـة غـير متجانسـة مـن الأشـخاص والمؤسسـات والأشـياء (Callon, 1998).

لكـن التكنولوجيـات ليسـت لمجـرد الدعـم، بـل هـي تُسـتخدم أيضـا في العمـل. فقـد تبـين أن السـندات البسـيطة، التـي لا تعـدو كونهـا أوراقـا مطبوعـة،

تستطيع تغيير السوق بطرق غير متوقعة. على سبيل المثال في وقت كانت فيه أجهزة الحاسبات الآلية المحمولة باهظة الثمن ومكلفة ماديا استخدم المتداولون في بورصة شيكاغو أوراقا تحتوي على الأسعار النظرية للخيارات كما تنبأ بها نموذج تسعير بلاك شولز ميرتون Black-Scholes-Merton سواء لشراء أو بيع سند معين. وباستخدام هذه الأوراق، كما يزعم دونالد ماكنزي Donald MacKenzie ويوفال ميلو Yuval Millo، فإن التجار طبقوا النظرية الاقتصادية المستخدمة لتحويل الأسعار النظرية إلى واقع ملموس: فمع تبني التجار هذه الأوراق ونموذجها الأساسي من الخيارات، أصبحت السوق تشبه تنبؤات النظرية؛ فقد سمحت هذه الأوراق للنظرية بأن تصبح واقعا (MacKenzie and Millo, 2003). وهنا أصبح من الواضح وجود علاقة بالتقاليد السوسيولوجية الأوسع: بناء على منطق روبرت كيه ميرتون (Merton, 1948)، فإنه من خلال هذه الأوراق، تحققت نبوءات أحد المبادئ الأساسية في علم الاقتصاد المالي. وأصبح نموذج تسعير بلاك شولز ميرتون، من خلال استخدامه، نبوءة ذاتية التحقق أدت إلى تغيير عالم المال إلى الأبد.

الاستنتاجات

يوضح تطور المال في شيكاغو أن التكنولوجيات البسيطة مثل الورق والحبر تؤدي دورا رئيسا في تشغيل السوق واستنساخه. وقبل وصول النظم الآلية والشبكات الإلكترونية الكونية التي ربطت بين أطراف الكرة الأرضية antipodes في الوقت الحقيقي، فإن الترتيبات المادية للتمويل - بدءا من البيئة الحضرية التي ربطت التداول بموقع وشكل وظائف التعامل في صالات أسواق الأسهم، وصولا إلى تركيب الهواتف، ومؤشرات الأسهم، وشاشات عرض الأسعار، والأثاث اليومي - كانت ضرورية في تشكيل تطور الأسواق. فهي لم تعكس الطابع المتجسد للمعاملات المباشرة أو تتفاعل معه فقط، بل وفرت أيضا، وبالقدر نفسه من الأهمية، الأسس المادية لاتجاهات وتوقعات صناعة الأوراق المالية، وبذلك حددت شكل التطور التكنولوجي للتمويل. وكونت

حلبات التداول في شيكاغو (Zaloom, 2006)، والنيابة العامة في باريس (Muniesa, 2005)، والملاعب في لندن (PardoGuerra, 2010) والوظائف المتخصصة في نيويورك، كل جهة على طريقتها، الخيارات التكنولوجية التي اتخذتها البورصات في كل موقع. فالمواد ليس لها وزن مادي في الوقت الحاضر فقط، بل هي تتمتع أيضا بثقل تاريخي؛ حيث تربط بين الممارسات السابقة والتوقعات المستقبلية للسوق وبين مكانتها في المجتمع. يبدو أن تروس الآلة التي تحدث عنها كاستلز معقدة للغاية.

تُعَد الأشكال الجديدة للمال الرقمي في هذا المعنى مصدرا للحالات المهمة لاستكشاف ثلاثة جوانب ذات صلة سوسيولوجية بحياة السوق في المجال الرقمي: أولا: الطريقة التي تحدث بها عملية التفاوض على أنماط التفاعل وتبلورها وتطبيقها على مستويات مختلفة من السوق ومن خلال أنظمة مختلفة رقمية وتناظرية. ثانيا: دور وطريقة إنتاج المعرفة وصياغتها وتعبئتها من خلال الأفراد والبروتوكولات والتكنولوجيات في جميع أنحاء العالم. وكيف، على وجه الخصوص، يمكن للمجال الرقمي أن يحمل مدلولا آخر يشير إلى التوسع في المجال المالي؟ وثالثا: مدى الأهمية والتطور المشترك لكل من التكنولوجيا والممارسة والتنظيم في العمليات الاقتصادية. إن التكنولوجيات، بما في ذلك تلك التي تشكل الركيزة الرقمية للحداثة، هي آليات للتنظيم. ولم يستكشف حتى الآن الموقع الذي تشغله هذه اللوائح في السوق سواء عن قصد أو من دون قصد.

ومع زيادة وجود التكنولوجيا الرقمية في المجال المالي، لا بد من ظهور أشكال جديدة من الأعمال العملية والمعرفية. ولكن لن تُحدد من قبل تكنولوجيات المعلومات والاتصالات المتوافرة اليوم أو التي ستتوافر في المستقبل. وكما توحي الدراسات الحديثة فإن المطالبة بأي مركزية للتكنولوجيات الرقمية تعني فقدان الأهمية. والإشارة ضمنا إلى أن هناك مجالا متسقا ذاتيا للجانب «الرقمي» يتداخل مع مجال منفصل للجانب «الاجتماعي» (Latham and Sassen 2005) تعني التغاضي عن الطابع المشروط والمتمركز للتكنولوجيا والمعرفة والممارسة. والواقع أنه لن

يكون في مصلحة المعرفة المستقبلية المتعلقة بالمال أن يُبقَى على الثنائيات التي تجمع بين الرقمي والتناظري، وبين التكنولوجي والاجتماعي، وبين المستقبل والماضي، وبين الثورة والتقليد، وذلك لفشل هذه الثنائيات في تسليط الضوء على التفاصيل الدقيقة للتفاعلات السوسيوتقنية التي تحيط بمؤسسات السوق وتنظمها.

بهذا المعنى فإن التحديات التي تطرحها المقاربة السوسيولوجية للمال عديدة. ويجب على المؤلفين، الذين يستمدون معارفهم من ماضيهم الأكاديمي، أن يكونوا حذرين من خطاب الحداثة والقطيعة مع الماضي الذي يحيط بالابتكار التكنولوجي. كما يجب عليهم مراعاة العمليات (التي غالبا ما تكون مُخفاة ومتجاهَلة) والتي تؤدي إلى التغيير في المجال المالي. ولا تعتبر المقاييس مستقرة في الأسواق المالية، وما يبدو أنه ذو أهمية محلية فقط يمكن أن تكون له تأثيرات كونية واسعة النطاق (MacKenzie, 2009): قلة منهم كانوا يتخيلون أن أنظمة الحاسبات الآلية البسيطة نسبيا والتي صُممت لتسهيل الصفقات الضخمة داخل الشركات الكبيرة في أوائل السبعينيات من القرن الماضي، على سبيل المثال، ستصبح أنموذجا للعديد من منصات التجارة الكونية الحالية. لقد أصبح تصميم مخصص لموقع صغير، من أجل مجموعة من الوكلاء المعروفين، أنموذجا لنظام عالمي يحفل بمجتمع من المتداولين المجهولين الذين يتمتعون بالمرونة والحركية. لكن ربط البنية التفاعلية المصغرة للمال بمجالات رأس المال العالمي والتكنولوجيا والخبرات والسياسة ليس مهمة بسيطة. كما أن ابتكار دور للتكنولوجيات الرقمية لا يهيمن على السرديات المستقبلية ولا يعيش في هوامشها هو أمر لا يقل صعوبة. ولكنه في غاية الأهمية: فالمال لايزال (وسيظل) عنصرا تأسيسيا ومتغلغلا في كل مفاصل الحياة الرأسمالية.

9

المجالاتُ الرقمية والشبكات ورأس المال: علم الاجتماع فيما وراء البنى الثابتة والمتغيرة

مايك سافيج

«لا يجدُر بنا أنْ ندَّعي بسهولة أن المعلومات بحد ذاتها عبارةٌ عن رأسٍ مال، بل نحن في حاجة إلى مقاربة أكثر سياقية للطريقة التي يمكن أن تعمل بها أشكال التواصل الرقمي»

تتناولُ هاتانِ الورقتانِ البحثيتانِ المجالَ الرقميَّ باعتباره الموضوع الاجتماعي المُلحَّ للمستقبل المنظور. ظاهريا يبدو المجال الرقمي متاحا ومفتوحا للغاية، حيث يُروَّج له على أنه يسمح بتوزيع المعلومات على نطاق واسع. ويمكن للمستهلكين استشارة عدد لا يُحصى من البيانات الرقمية لاتخاذ خيارات مستنيرة. إن خبرات وأحكام المهنيين والسياسيين والشركات تشهد انفتاحا غير مسبوق من خلال تجميع مصادر البيانات الرقمية وفحصها. لنتأمَّل ويكيليكس Wikileaks أو فضيحة النفقات البرلمانية البريطانية في العام 2009، عندما أثارت

سـجلات إنفـاق أعضـاء البرلمـان الرقميـة غضبـا جماعيـا كبـيرا (انظـر: Ruppert and Savage, 2012). تتضمـن الأنـواع الجديـدة مـن أسـاليب التعهيـد الجماعـي crowdsourcing(*) التعبئـة الشـعبية في ترتيـب البيانـات (انظـر: Beer and Burrows, 2007). وهكـذا فـإن الحكومـات في جميـع أنحـاء العـالم تتغنـى بالإمكانـات الديموقراطيـة لرقمنـة مصـادر المعلومـات.

كل هـذا صحيـح بمـا فيـه الكفايـة، ومـع ذلـك لا يُعَـد المجـال الرقمي ببسـاطة فاتحـة لعهـد الانفتـاح أو سـهولة الوصـول، كـما تـظهر هاتـان الورقتـان. كـما أنـه ضالـع في إعـادة تشـكيل البنـى الاجتماعيـة، مثـل تلـك التـي تولـد عـدم المسـاواة الاجتماعيـة. وليـس مـن قبيـل المصادفـة أن شـهد العَقـدان الأخـيران عمليـةَ إضفـاءِ طابـع رقمـي عميقـةً عـلى العلاقـات الاجتماعيـة، وفي الوقـت نفسـه انتقـالا كبـيرا للـثروة والمـوارد إلى الجماعـات الاجتماعيـة الأكـثر امتيـازا. إن المثـال الرئيـس هنـا هـو في الواقـع مـن عـالم المـال. فهـذا القطـاع هـو الـذي أحـدث انقسـامات اقتصاديـة غـير معتـادة، وكـما يوضـح بـاردو غـيرا، فقـد تعـرض أيضـا للتدخـل الرقمـي الكبـير.

وتنظـر هاتـان الورقتـان البحثيتـان في كيـف أن تحليـل العلاقـة بـين التـدرج الرقمـي والاجتماعـي يتطلـب أدوات ومفاهيـم سوسـيولوجية جديـدة. وهـذا ليـس بالأمـر السـهل. وكـما ناقشـتُ في دراسـة أخـرى (Savage, 2009, 2010)، وكـما يُظهـر بـاردو غـيرا في مقالتـه الدقيقـة، فـإن هـذا لا يعنـي تقديـم روايـة أخـرى «تاريخيـة» عـن «التغـير» (كـما في الحجـج الشـهيرة لمانويـل كاسـتيلز عـن مجتمـع الشـبكة التـي يتناولهـا كلا المؤلِّفَـين بنحـوٍ نقـدي)، يُعتـبر فيهـا أن المجـال الرقمـي يغطـي عـلى كل مـا سـبقه. وهنـاك كثـير مـن اللازمـات المألوفـة والمعـبرة عـن روح العـصر، مثـل ظهـور مـا بعـد الحداثـة، ومجتمـع المخاطـر، ومـا إلى ذلـك، ولكنهـا في الحقيقـة تعيـد إنتـاج المفاهيـم الحداثويـة التقليديـة للزمـن

(*) التعهيد الجماعي هو نموذج لتأمين الموارد يحصل فيه الأفراد والمنظمات على السلع والخدمات، بما في ذلك الأفكار والتمويل، من خلال مجموعة كبيرة ومتنامية من مستخدمي الإنترنت. وقد وُضع هذا المصطلح في العام 2005 من قبل جيف هاو Jeff Howe ومارك روبنسون Mark Robinson؛ لوصف كيفية استخدام الشركات للإنترنت بهدف إسناد الأعمال إلى مجموعات كبيرة وغير محددة من الناس. [المحرر].

الخطـي linear time («آنـذاك» و«الآن»)، ولا تُعتـبرَ منصفـة للعمـق الـذي يتسـم بـه الإقبـال عـلى التكنولوجيـا الرقميـة.

توفـر هاتـان الورقتـان أدوات لتلبيـة الحاجـة إلى منظـور اجتماعـي تفصيـلي يتجنـب الروايـات التبسـيطية مثـل «الآثـار الاجتماعيـة للثـورة الرقميـة». وهـذا ينطـوي عـلى اسـتجابة نقديـة لفكـرة الفجـوة الرقميـة التـي، عـلى الرغـم مـن كونهـا اختزاليـة، يُـروَّج لهـا عـلى نطـاق واسـع، كـما أنهـا تحـدد التقسـيم الثنـائي بـين مـن لديهـم إمكانيـة الوصـول إلى شـبكة الإنترنـت وأولئـك المحرومـين منهـا. هنـاك كثـير مـن الانتقـادات لهـذا المنظـور الآن (انظـر عـلى سـبيل المثـال: Halford and Savage, 2010)، وهاتـان الورقتـان تُضفيـان أبعـادا مهمـة عـلى تلـك الانتقـادات. يميِّـز فـان دايـك هنـا عـلى نحـو أدق بـين «نخبـة المعلومـات» و«الأغلبيـة المشـاركة» و«المسـتبعدين»، وعـلى رغـم ذلـك لايـزال علـماء الاجتـماع في حاجـة إلى التفكـير بشـكل أكـثر إبداعـا في كيفيـة تطويـر أسـلحة مفاهيميـة كافيـة. والمفاهيـم الثلاثـة التـي تثيرهـا هاتـان الورقتـان تسـتحق مزيـدا مـن البحـث هنـا، وهـي: (1) رأس مـال المعلومـات، (2) الرأسـمالية الآليـة، (3) الشـبكات الاجتماعيـة الرقميـة.

رأس مال المعلومات

بالإشـارة إلى تحليـل بورديـو المؤثـر لـرأس المـال، تتمثـل إحـدى الطـرق الممكنـة لفهـم قـوة المجـال الرقمـي في رؤيـة المعلومـات نفسـها كنـوع جديـد مـن المـوارد. وعـلى الرغـم مـن أن بورديـو نفسـه يركـز عـلى دور رأس المـال الاقتصـادي والاجتماعـي والثقـافي باعتبـاره المحـور الرئيـس لعـدم المسـاواة، فهـو يشـير أيضـا إلى دور «رأس المـال التقنـي» technical capital (Bennett et al., 2009; Halford and Savage, 2010)، الـذي يبـدو وثيـق الصلـة بالموضـوع. قـد تكـون هنـاك حجـة مُفادهـا أن نقـل المعلومـات بسرعـة أكـبر يزيـد مـن المزايـا بالنسـبة إلى أولئـك الذيـن لديهـم بعـض المزايـا، مهـما كانـت تافهـة، فيـما يخـص القـدرة عـلى الوصـول إلى أحـدث المعلومـات، كتلـك التـي يمكـن الوصـول إليهـا رقميـا. وفي عـالم المـال فـإن القادريـن عـلى الاسـتفادة في أقـصر وقـت ممكـن مـن المزايـا في حسـاب التـداولات قـادرون عـلى جنـي المكافـآت.

ثمة قيمة لهذا المفهوم، خاصة عندما يرتبط بمفهوم بورديو للمجال، الأمر الذي يلفت الانتباه إلى الطريقة التي ينخرط فيها الوكلاء في التنافس المتواصل على المزايا. وهذا يسمح بطريقة أكثر مرونة بالتفكير في البنية الاجتماعية من دون أن يؤدي ذلك إلى اختزالها ضمن أساس ثابت ومستقر، مثل أساس «بنية الطبقة» class structure. ويرتبط هذا المنظور بالسمات الرئيسة لعدم المساواة الاجتماعية: كما هو الحال بالنسبة إلى الطريقة التي ترتبط من خلالها المؤهلات التعليمية بالميزة الاقتصادية والاجتماعية (على الرغم من أن هناك نقاشا طويلا ولانهائيا حول ما إذا كانت المؤهلات التعليمية قد أصبحت أكثر أهمية في التأثير في النجاح المهني). وهو يتماشى مع الطريقة التي أصبحت فيها العديد من أسواق العمل تتخللها أشكال رقمية من التواصل، مثل استخدام «لينكد إن» للتوظيف في العديد من بيئات العمل. كما أنه متوافق بسهولة مع التداول الروتيني لـ «المعلومات الإدارية» في بيئات الأعمال والبيئات التنظيمية. ومن ثم يمكن اعتبار رأس المال المعلوماتي موردا للوكلاء الذين يتابعون الاستراتيجيات للتقدم في المجالات غير المستقرة.

هذه الحجة لافتة للنظر، لكننا في حاجة إلى تحديد أربعة محاذير. أولا: وعلى المستوى الأساسي، يمكننا النظر في فكرة طرحها سكوت لاش (2002) ومُفادها أن المعلومات في حد ذاتها ليست وسيلة للتقييم النقدي. يقدم لاش حجته ضد المثقفين النقديين الذين يبحثون عن أدوات فكرية للتأمل النقدي ضد التيارات المهيمنة والمسيطرة. لكن هذه النقطة يمكن تعميمها. إذ يجب على أي وكلاء يرغبون في التموضع الاستراتيجي إيجاد وسائل إضافية لأداء ذلك، وذلك إلى جانب المعلومات المتاحة لهذا الغرض.

هذا يؤدي إلى تحذير ثانٍ، والذي يمكن بالفعل أن نستمده من التحذير الأول. إذ من اللافت للنظر أنه فيما يتعلق بمنح المزايا، فإن التعليم في مجال علوم الحاسب الآلي (أو الأعمال) لايزال يوفر موارد أقل من تلك التي يحصل عليها أولئك الذين يدرسون العلوم الطبيعية أو

الاجتماعية، أو حتى الإنسانيات، التي يُعتبَر تعرضها للاتصال الرقمي ثانويا إلى حد كبير، وفي الأغلب مشكوكا فيه. إن بناء المنصات الرقمية لا يؤدي ببساطة إلى التقليل من أهمية الخبرة بحيث يصبح في مقدور أي شخص اكتساب المهارات المناسبة. بل يبدو أنه يحيي التمييز المألوف بين المجالين «النظري» و«التطبيقي» (أو بين الرجل المهني والتاجر، وفق السياق البريطاني، حيث يمكنك في هذا الصدد مراجعة Savage, 2010)، واللذين لاتزال الخبرة تُعرَّف فيهما بمعزل عن المجال الرقمي نفسه.

ثالثا: من المعترَف به على نطاق واسع أن هناك اختلافات كبيرة بين الأجيال في استخدام التكنولوجيا الرقمية، خاصة فيما يتعلق بتطبيقات شبكات التواصل الاجتماعي مثل الفيسبوك. وإذا كانت المعلومات الرقمية شكلا من أشكال رأس المال، فينبغي أن يعني ذلك أن الأشخاص الأصغر سنا، وليس كبار السن، هم الذين سيجنون الفوائد. لكن على الرغم من أن بعض أعضاء الجماعات الأصغر سنا أصبحوا قادرين الآن على تأمين كثير من الوظائف وبشكلٍ سريع نسبيا، فإنه من غير الواضح على الإطلاق أن الفوارق في العمر قد طرأ عليها قدر كبير من التآكل، وذلك بطريقة كان سيتوقعها المرء لو أن المجال الرقمي الآن كان هو المورد الرئيس.

أخيرا: لا يبدو أن اتساع نطاق الاتصال الرقمي قد أدى إلى تآكل قيمة التفاعل الإنساني المباشر وجها لوجه (انظر بوجهٍ خاص: Woolgar, 2002). في مجال التعليم، على سبيل المثال، استكشف كلٌ من ستيفن بال Stepen Ball ودايان ري Diane Reay وآخرين (2011) الطريقة التي يحصل بها الآباء والأمهات المتعلمون في الطبقة الوسطى على قدر كبير من المعلومات عن المدارس التي قد يرسلون إليها أطفالهم. ويتيح توفير نسخة رقمية من تقارير التفتيش المدرسي والمعلومات الخاصة بجدول مباريات الدوري وسائل جديدة للمتبصرين كي يحققوا مكاسب إضافية. وعلى رغم ذلك يجادل ستيفن بال (2003) بأن أولياء أمور الطبقة الوسطى لا يسعون فقط إلى الحصول على المعلومات غير المهمة (التي تأتي من المواقع الإلكترونية)، بل أيضا على المعلومات المهمة التي تأتي من جهات اتصال شخصية. وبالمثل تشكو

المنظمات بنحوٍ روتيني من الحمل الزائد للمعلومات، وتُولَى أهميةٌ لأولئك الذين يستطيعون استخلاص أشكال المعرفة المهمة من ضمن هذا الكم الكبير من قواعد البيانات. ولاتزال هناك أدلة على أن أولئك الذين استفادوا من الأشكال التقليدية للامتياز - كالحصول على تعليم نخبوي، والتمتع بخلفيات ثرية - هم الذين مازالوا يتمتعون بمزايا غير متكافئة. ويصف نوكس Knox وآخرون (2007) من الناحية الإثنوغرافية الطريقة التي يجب بها «ترويض» أنظمة المعلومات الحاسوبية الرقمية بحيث يتمكن الوكلاء من تفسيرها بنحوٍ مجدٍ. من المفيد جدا أن يحلل بابلو غيرا الطرق المختلفة التي من شأنها أن تجعل المعلومات أكثر فاعلية على الصعيد الاجتماعي، مشيرا إلى أن «طبيعة المعلومات تتوقف على تكوين الترتيبات السوسيوتقنية الكبرى، وإن كانت محلية في النهاية»، وهذا يعادل القول إن المعلومات ليست في حد ذاتها شكلا من أشكال رأس المال.

يجب أن أكون حذرا في تقديم حجتي هنا. وأعتقد أنه من المفيد الاحتفاظ بعناصر المنهج التحليلي الميداني لدى بورديو والاعتراف بدور رؤوس الأموال والأصول والموارد المختلفة (Savage et al., 2005). وما يقلقني هنا هو أنه لا يجدر بنا أن ندعي بسهولة أن المعلومات بحد ذاتها عبارة عن رأس مال، بل نحن في حاجة إلى مقاربة أكثر سياقية للطريقة التي يمكن أن تعمل بها أشكال التواصل الرقمي.

الرأسمالية الآلية أو رأسمالية المعرفة؟

وقد تكون هناك مقاربة ثانية تتمثل في النظر إلى المجال الرقمي على أنه متواطئ مع شكل من أشكال الرأسمالية الآلية والمؤتمتة، المنخرطة في أنظمة سريعة الحركة وقادرة على التراكم بكثافة ملحوظة. يمكن ربط هذا المنظور بنحوٍ مفيد بمفهوم نايجل ثريفت (2005) عن «رأسمالية المعرفة» knowing capitalism، حيث ينظر إلى التوظيف الروتيني لنظم المعلومات بوصفه جزءا لا يتجزأ من التنظيم المعاصر للرأسمالية. ومن الأمثلة المعروفة على ذلك قدرة بعض المؤسسات مثل

غوغل على التعلم من خلال تجربة أنظمتها الخاصة. وكما يناقش بابلو غيرا فإن التداول المالي الآن يتسم بانتشار المعاملات الخوارزمية التي ليس لديها وكيلٌ واعٍ، والتي تعتمد على العمليات الرقمية الآلية. من الواضح أيضا أن العمليات الحكومية الروتينية تنشر المعلومات الرقمية بطرق عادية ولكن فعالة. وبصفة أعم فإن هناك عددا كبيرا من المقاييس وأجهزة التدقيق والأساليب الميكانيكية للمساءلة التي تشترك كلها في هذه العملية.

قد نستنتج من هذه الملاحظة أن انتشار المعلومات الرقمية لم يخلق في الواقع مجالا عاما جديدا يمكن فيه ممارسة أشكال المساءلة الديموقراطية. فهي سمحت في الحقيقة بتسليع المعلومات وخصخصتها بطريقة لا نظير لها. ولنتأمَّل الحالة التي باتت شهيرة الآن والمتعلقة بمخطط بطاقة الولاء لشركة تيسكو Tesco البريطانية. أولئك الذين يستخدمون بطاقات الولاء يدخلون بحرية التفاصيل الكاملة لجميع مشترياتهم في قاعدة بيانات الشركة التي تديرها شركة أبحاث السوق الفرعية، دان هانبي Dunn Hunby. كل عميل لديه «ملف تعريف» فريد خاص به للحمض النووي DNA، يشير إلى أنماط إنفاقه المحددة، ومن خلال ذلك يُتَوصَّل إلى افتراضات حول وضعه الاجتماعي والديموغرافي (على سبيل المثال، ما إذا كان لديه أطفال أو لا). يقال إن قاعدة البيانات هذه تسمح لشركة Tesco بمراقبة أنماط الإنفاق المتغيرة بسرعة ملحوظة، وهي أحد الأسباب التي جعلتها فعالة للغاية في السنوات الأخيرة، وساعدتها لتكون الشركة البريطانية المهيمنة في مجال تجارة التجزئة. لكن هذه البيانات غير متوافرة بنحوٍ علني، ومعالجتها مسألة تخص الشركات إلى حد كبير.

ولذلك ينبغي ألا ننظر إلى القطاع الخاص فقط بوصفه متواطئا مع قواعد البيانات هذه. وقد تقدم سياسة التعليم العالي الإنجليزية أحد الأمثلة الحالية عن هذه العمليات. هنا ترتبط السياسة الحكومية الحديثة التي تسمح للجامعات بتحصيل مبلغ يصل إلى 9 آلاف جنيه إسترليني مباشرة بالتدقيق الرقمي، حيث يتعين نشر نتائج الدراسة الاستقصائية الوطنية

للطـلاب، والبيانــات عــن قابليــة التوظيــف، عــلى المواقــع العامــة بوصفهــا «مجموعــة معلومــات أساســية». إن دراســة آمــور Amoore (2009) لسياســة الحـدود الإلكترونيـة لحكومـة المملكـة المتحـدة، والتـي يجـري خلالهـا تعقـب كل رحلـة عـبر حـدود المملكـة المتحـدة رقميـا، وإخضاعهـا لفحـص المخاطـر، تسـمح بإجـراء المراقبـة مـن دون أي تدخـل بـشري واعٍ. ويُظهـر روبـيرت Ruppert (في كتـابٍ سـيصدر قريبـا) كيـف تسـمح العمليـاتُ الرقميـة في خدمـات الرفاهيـة بتشـغيل أنمـاط جديـدة مـن آليـة تنظيـم سـلوك النـاس، وهـي غـير مهيـأة لمراقبـة الـوكلاء الواعـين مـن البـشر، بـل هـي تركـز عـلى المعامـلات التـي تجـري بـين الـوكلاء. وتصبـح المراقبـة العادية لـ «دوائـر المفاتيـح» switch-circuits ذات أهميـة مركزيـة للحوكمـة المعـاصرة.

قـد تكـون إحـدى طـرق التأمـل في هـذه التطـورات مـن خـلال البحـث في الحجـة الاجتماعيـة المألوفـة التـي تقـول إن المجتمعـات تحتـاج إلى التكامـل الاجتماعــي والنظــام عــلى حــد ســواء (Lockwood, 1964). أشــار لوكــوود Lockwood إلى وجـود توتـر أسـاسي بـين الحاجـة إلى أنظمـة فعالـة (عـلى سـبيل المثـال: مـن خـلال سـوق عمـل غـير محـررة)، والاعـتراف الاجتماعـي والمواطنــة الفعالــة (مــما قــد يســتلزم حمايــة التوظيــف). يمكــن القــول هنـا إن العمليـات الرقميـة، مـن خـلال اسـتخلاص المعامـلات مـن السـياق الاجتماعــي والإنســاني، تفصــل أيضــا العلاقــات الاقتصاديــة عــن العلاقــات الاجتماعيـة، ومـن ثـم تسـمح بعـزل أشـكال تراكـم رأس المـال عـن الشرعنـة والاعـتراف الاجتماعيـين. ويمكـن أن يُنظـر إلى هـذا الأمـر عـلى أن لـه آثـارا عميقـة، وإن كانـت متناقضـة أيضـا. ويمكـن أن يُسـتخدَم الاتصـال الرقمـي مــن قبــل الجماعــات القويــة والخاضعــة بهــدف التعبئــة - كــما يوضــح موضـوع اسـتخدام الرسـائل القصـيرة SMS، الـذي نوقـش كثـيرا، خـلال فـترة الاضطرابـات التـي شـهدتها المـدن البريطانيـة في العـام 2011.

إن هــذا الاهتــمام بتضمــين المجــال الرقمــي في الحكومــة الآليــة يــؤدي إلى فتـح قضايـا بحثيـة رائعـة. وعـلى رغـم ذلـك يجـب الحـرص مـرة أخـرى عـلى عــدم الاعتــماد عــلى الدراســات المعــاصرة المفرطــة في التبســيط. ففــي نهايــة

المطاف فإن الفكرة التي مُفادها أن العلاقات الاقتصادية قد انتزعت من العلاقات الاجتماعية هي فكرة مألوفة للغاية، ويمكن إرجاعها إلى مزاعم بولانيي Polanyi حول «التحول الكبير» Great Transformation، أو بالفعل إلى الكتابات السوسيولوجية الرائدة لماركس وفيبر ودوركايم Durkheim عن تطور الحداثة الرأسمالية بحد ذاتها. يوضح بابلو غيرا أنه من التبسيط للغاية التركيز على الإيقاعات الخوارزمية المؤتمتة للمعاملات المالية الرقمية كأن هذه الأخيرة تتمتع بمنطق خاص بها. وبدلا من ذلك يشير إلى أنها متضمنة في أشكال العلاقات الاجتماعية. وقد أوضحت آمور (في كتابٍ سيصدر قريبا) النقطة نفسها في دراستها عن كيفية تورط الاعتبارات الجمالية في توظيف المعلومات الرقمية بطرق تعتمد على حكم المراقبين الفطنين. لذلك فإننا نصر على أن المعلومات الرقمية يُعاد ربطها مرة أخرى بالعلاقات الاجتماعية والثقافية بطرق تشكك في الرأي القائل إن المجال الرقمي يعمل ميكانيكيا ويجرد المعاملات الاقتصادية والسياسية من سياقها.

الشبكات الرقمية

يُشكِّل هذا الإطار الثالث الأساسَ الذي تستند إليه كتابات فان دايك، الذي يسعى إلى تطوير شبكة اجتماعية تحليلية لفهم أهمية المجال الرقمي. وكما يشير بنحوٍ صائب، فإن هذا المجال من علم الاجتماع مثير جدا، ويتمتع بالقدرة على إعادة تنشيط فهمنا للعمليات التي تولد عدم المساواة الاجتماعية. في الأغلب يفهم علماء الاجتماع عدم المساواة الاجتماعية على أنها ناتجة عن بنية اجتماعية تضع للأشخاص أدوارا محددة وفقا لسماتهم - مثل الطبقة الاجتماعية، والنوع، والعمر، وما إلى ذلك. وهذا الأمر أقرب إلى وضع تصور ذرائعي لعدم المساواة، يكون فيه أولئك الذين يتمتعون بإمكانية الوصول إلى الموارد قادرين على كسب المزايا أكثر من أولئك الذين لا يتمتعون بمثل هذه الإمكانية.

في المقابل تتبنى المقاربات للشبكة نهجا أكثر علائقية تجاه المزايا، التي لا يُنظر إليها على أنها نابعة من حيازة أحد الأصول، بقدر كونها موقفا سياقيا يمكن

للمرء استخدامه في المناورة الاستراتيجية. ويتتبع فان دايك هذه المقاربة من خلال الاعتماد على أفكار تيلي حول «عدم المساواة الدائمة». هنا يمكن لقدرة الجماعات على «اكتناز الفرص» من خلال تخزين المعلومات أن تسمح لهم بالحصول على مزايا. وهذا قد يفسر بالتحديد كيف تمكنت شركة تيسكو، على سبيل المثال، من الاستفادة من مخزن المعلومات المتعلق بعملائها.

هنا يمكن النظر إلى المجال الرقمي على أنه يسمح بتكوين شبكات اجتماعية متحركة وديناميكية تسمح بأشكال معقدة من الإغلاق والوساطة والانقسام. ويركز فان دايك بنحوٍ مثير للاهتمام على «قانون القوة» power law، الذي يسمح لمن يتمتعون باتصال دائم بالشبكة باكتساب مزايا واضحة مقارنة بالآخرين. ومن ثم يوضح كيف تمكِّن خوارزميات غوغل من عرض المواقع، التي يُدْخَل إليها على نطاق واسع، على المشاهدين، مما يضمن استمرار شعبيتها. توجد هنا إشارة تنم عن تأييد الحجج المتعلقة بـ «الرأسمالية الآلية» التي ناقشناها أعلاه.

تُعتبَر هذه المقاربة للشبكة أداة قوية وهي تستند إلى التوظيف المتطور بقدرٍ متزايد لتحليل شبكات التواصل الاجتماعي، والذي يمكنه كشف الأنماط القوية التي تؤدي إلى عدم المساواة. لكن يجب أن نكون حريصين على إدراك أن الشبكات تعمل بطرق معقدة. والحجج التي تناولها رونالد بيرت (2005) Ronald Burt حول قوة رأس المال الاجتماعي في بيئات العمل تعد نقطة انطلاق جيدة. وبدلا من أن يكون المديرون الأكثر نجاحا هم الذين يتمتعون بأضخم الشبكات، اتضح أن أولئك الذين يتوسطون «الثغرات الهيكلية» structural holes(*) يحققون أفضل النتائج. هؤلاء هم المديرون الذين يتمتعون بعلاقات فريدة مع مختلف المجموعات أو الجماعات، التي لا يوجد بينها تواصل. وهذا يسمح بالتركيز على الوسطاء ودورهم كحلقة وصل بين الشبكات الاجتماعية.

(*) يشير مفهوم الثغرات الهيكلية، الذي وضعه رونالد ستيوارت بيرت، إلى الفجوات أو حالات عدم التواصل بين الأطراف الموجودين في شبكة أحد الأشخاص، حيث يحصل كل طرف على معلوماته من مصدر مستقل. وهذا يمثل فرصة بالنسبة إلى طرف ثالث كي يسد تلك الفجوات ويضطلع بدور الوسيط أو الجسر بين تلك الأطراف. [المحرر].

يُعَد هذا المنظور حول الشبكات مُهما لتطوير منظور علائقي تكون فيه التوترات داخل الشبكات، وليس العدد الكلي لتلك العلاقات أو مجموعها، هي التي تُعلَّق عليها الأهمية من الناحية السوسيولوجية. يمكن هنا ربط الأمور مع الاستعارة المجازية التي وضعها بورديو حول المجال، والتي توضح كيف يكافح المقاتلون للحصول على الموقع والأفضلية. يتمتع هذا المفهوم للمجال بميزة التركيز على كيف أن الأشخاص لا يعتمدون الاستراتيجيات الذرائعية والمجرَّبة بالكامل بهدف تحقيق المنفعة الذاتية، بقدر ما يعتمدون إجراءات تكتيكية وارتجالية تبعا للموقف الذي يجدون أنفسهم فيه. هنا تؤدي اتصالات الشبكة دورا مهما في إمكانية السماح بتكوين تحالفات مع الأصدقاء وفي إيصال المعلومات للآخرين.

لماذا تُعتبَر هذه المقاربة المأخوذة من المجال تجاه الشبكات مفيدة؟ إنها تركز على أن الشبكات الرقمية لا تعمل من خلال منطق خاص بها بالكامل، بحيث يمكن النظر إليها بوصفها جزءا من تحول مصيري بعيدا عن التفاعل وجها لوجه. بل هي تندرج ضمن العديد من العلاقات الخاصة بالمجال والتي كانت موجودة قبل ظهور المجال الرقمي. وبهذا الشكل فإننا نحصل على طريقة لفهم كيفية تفاعل المجال الرقمي مع الأشكال الدائمة من عدم المساواة الاجتماعية، حيث إننا بذلك نوفر انعطافات واتجاهات جديدة للخلافات والديناميكيات الخاصة بالمجال. وثمة مثال جيد مصدره الدراسات حول كيفية ارتباط أشكال الاتصال الرقمي بـ «رأس المال الثقافي» cultural capital. إن الدراسة التي أجرتها هانكينيه Hanquinet وآخرون (2011)، إلى جانب الاستطلاع الطبقي في بريطانيا العظمى الذي أجرته محطة بي بي سي، يُظهران أن الاستخدام واسع النطاق لمواقع شبكات التواصل الاجتماعي وتصفح الإنترنت يتداخلان، بطرق فعالة، مع الأشكال السابقة من ثقافات الطبقة الوسطى المتميزة، كما يتضح من خلال الميل إلى الممارسات «الثقافية العالية» مثل الموسيقى الكلاسيكية، أو حضور المعارض الفنية والمتاحف.

استنتاجات

تشـهد هاتـان الورقتـان عـلى قـوة التحـدي الرقمـي لعلـم الاجتـماع. وفي هــذه الكلمــة الختاميــة زعمــتُ أننــا نحتــاج إلى تجنــب أي نزعــات حقبيــة فجــة، يحــدث مــن خلالهــا اعتبــارُ أن المجــال الرقمــي ينبــئ بنــوع مــن عــصر جديــد، وأن نركــز بــدلا مــن ذلــك عــلى أهميــة هــذا المجــال في الســياق التاريخــي. وفي معــرض مناقشــتي لثــلاث طــرق لتوضيــح هــذه الحجــة، مــن خــلال مفاهيــم رأس مــال المعلومــات والرأســمالية الآليــة والشــبكات، أشرتُ إلى الحاجــة إلى تجــاوز المفهــوم الثابــت للبنيــة الاجتماعيــة نحــو مفهــوم أكــثر مرونــة للمجــالات والشــبكات. مــن شــأن هــذا أن يمهــد الطريــق للتوصــل إلى تحليــل غنــي للتقاطــع بــين الأشــكال المتراكمــة مــن اللامســاواة وانتشــار الاتصــال الرقمــي.

الباب الرابع

استخدامُ الوسائط

10

تقاريرُ الحروب في العصر الرقمي

ستيوارت ألن ودونالد ماتيسون

تُعَدُ تغطيةُ الأخبارِ الرقميةِ في الحربِ من الروتينِ اليوميِّ لوسائلِ الإعلامِ الإخباريةِ لدينا. وبدءًا من الصور التي التقطها أحد المواطنين على هاتفه المحمول للقوات السورية وهي تطلق النار على المتظاهرين، مرورا بالاتهامات الشخصية الموجهة للجندي الأمريكي من خلال إحدى المدونات في بغداد، وصولا إلى تسجيل صوتي لأحد المواقع الإخبارية ينقل أصوات الطلقات النارية في دارفور، وإلى لقطات مأخوذة بالأقمار الاصطناعية بثتها نشرات الأخبار التلفزيونية عن آخر التطورات في الحرب الأهلية الليبية، فإن مثل هذه التقارير لها تأثيرٌ عميق في تصوراتنا للأوضاع البشرية.

«الحربُ الفاضلةُ تستغلُّ التكنولوجياتِ الرقميةَ لإظهار أخلاقيات القتل، في صورة متناقضة بنحوٍ حاد مع أشكال الحرب السابقة»

قالت الكاتبة الراحلة سوزان سونتاغ (2003) Susan Sontag: «كونك متفرجا على المصائب التي تحدث في بلد آخر هو تجربة عصرية مثالية»، وأضافت: «إنه العرض التراكمي لأكثر من قرن ونصف القرن من قبل أولئك السائحين المحترفين المتخصصين الذين يُعرَفون أيضا باسم الصحافيين». هذا التدفق للروايات الإخبارية والصور من أماكن بعيدة يرتقي إلى مستوى السيل الجارف، الذي تبرز فيه إراقة الدماء بمعدل متزايد ظاهريا، والذي تتمثل ردود الأفعال عليه في التعاطف أو السخط أو الشعور بالإثارة أو الاستحسان، وذلك كلما ظهرت مأساة جديدة (2003:16). هذا الانتشار للتكنولوجيات الرقمية يعيد كتابة الأشكال والممارسات المألوفة لمراسلات الحرب في الأغلب بطرق مفاجئة. كانت الأحداث المأساوية التي وقعت في مومباي في نوفمبر 2008 مثالا على ذلك، عندما أصبحت الإمكانات الصحافية للتواصل الاجتماعي واضحة بنحوٍ مفاجئ.

خلال أزمة الرهائن أدى الدور الذي مارسه المواطنون العاديون، باستخدام خدمة التدوين المصغَّر المتمثلة في «تويتر» لنقل الرؤى الحيوية، إلى جذب تعليقات مستفيضة في الصحافة. مرارا وتكرارا كان هناك تمييز لهذه التكنولوجيا، التي كانت حديثة العهد في ذلك الوقت، للثناء عليها باعتبارها أفضل مصدر لأخبار المواطن في الوقت الحقيقي. وحتى قبل ظهور تقارير الهجمات في وسائل الإعلام الإلكترونية، فقد كانت توفر أقوال شهود العيان من المستخدمين الذين يصفون ما يحدث بكل الأدوات المتاحة لهم في ظل تلك الظروف. من أمثلة الرسائل أو «التغريدات» (وهي عبارة عن منشورات تقتصر على 140 حرفا)، والتي ذُكر بعضها في العديد من الأخبار، ما يلي:

«وقفز أحد الإرهابيين من مبنى منزل ناريمان إلى منزل تشاباد - وصلت مجموعة من قوات كوماندوز الشرطة إلى مكان الحادث» (مجهول، #قناة مومباي).

«جماعة خاصة لمكافحة الاختطاف تسمى رينجرز Rangers، تدخل منزل ناريمان، على الأقل 80 كوماندوز» (Scorpfromhell).

«تحديث المستشفى: الطلقات لاتزال تُطلَق. أيضا في سينما مترو المجاورة» (Mumbaiattack).

«هناك حاجة إلى الدم في مستشفى Aeropolowoman» JJ.

«رائع: قناة CNN تملأ البث المباشر... # قناة مومباي مملوءة بالحكايات التي نشرها الشهود» (Yelvington).

«ما لا يقل عن 80 قتيلا و250 جريحا... الأمريكيون والبريطانيون مستهدَفون» (ArtVega).

وتحدث سعد خان (2008) Saad Khan، في مدونة «غرين أند وايت» Green & White، عن وجود «جنون في التغريدات»، حيث تُعرَض «تحديثات دقيقةً فدقيقةً للأحداث حول موقع الانفجارات/المناوشات، ومواقع قوات الأمن، وموقع الصحافيين والممرات الآمنة للركاب الذين تقطعت بهم السبل»، إلى جانب العديد من المواضيع الأخرى. في الساعات التالية كانت أغلب التغريدات تَنقل الملاحظات الثانوية المأخوذة من تقارير الأخبار السائدة، أو تصحح الرسائل السابقة، أو تقدم روابط لمصادر عبر الإنترنت لمنظورات جديدة. ومن الأمثلة على ذلك روابطُ لمواقع مثل «خريطة غوغل» Google Map، التي وثَّقت موقع الهجمات، وكذلك ويكيبيديا Wikipedia، وماهالو Mahalo التي تُحدِّث باستمرار الحقائق المعروفة. كانت العشرات من مقاطع الفيديو تُحمَّل على موقع يوتيوب، في حين كان موقع فليكر Flickr يعرض صور المستخدمين (أما موقع «فينو» Vinu فكان ينشر صورا مروعة على وجه الخصوص). وكانت مواقع مثل ميتبلوغز مُمباي Metblogs Mumbai، وغراوند ريبورت GroundReport، وغلوبال فويسز Global Voices، وناو بابليك NowPublic، وبوينتر دوت أورغ Poynter. Org، وآي ريبورت دوت كوم iReport.com، من بين مواقع أخرى لا حصر لها، مشغولة بتجميع تقارير المواطنين. وفي الوقت نفسه كانت المؤسسات الإخبارية الكبرى مثل «بي بي سي نيوز» BBC News، تتحرك بسرعة لجمع الآراء. لقد طلبت «نيويورك تايمز» NYTimes. com من قرائها في المدينة إرسال صور فوتوغرافية بالبريد الإلكتروني، أو إدراج وصف مكتوب للأحداث في «حقل التعليقات» على صفحة الشبكة الخاصة بها. وفي الساعات والأيام اللاحقة كان موقع تويتر هو الذي نال استحسانا لتغطية بشاعة المأساة على صعيد التقارير الإخبارية. وفي هذا الصدد قالت كلاودين بومونت Claudine Beaumont من صحيفة ديلي تلجراف Daily Telegraph: «الليلة الماضية، لقد نضجت الشبكة الاجتماعية» (ديلي تلغراف The Daily Telegraph,

27 نوفمبر 2008)، واتفقت معها ستيفاني بوساري (2008) Stephanie Busari من شبكة «سي إن إن» قائلة: «لقد كان ذلك اليوم الذي بدا فيه أن الإعلام الاجتماعي قد بدأ ينضج حيث أظهر نفسه قوةً لا يستهان بها لجمع الأخبار». لم يكن الهدف من ذلك إنكار العيوب التي يعانيها بوصفه مصدرَ أخبار موثوقا به - فقد ظهرت انتقادات جادة حول عدم الدقة والشائعات التي تُتَدَاول - بل للاعتراف بقدرة الشبكات الاجتماعية على توفير أخبار الأزمات من مصدرها مباشرة، ومن ثم إضافة بُعد مهم لإعداد التقارير الرقمية عن الحرب.

لقد تطورت الأدوات الرقمية لشبكات التواصل الاجتماعي بسرعة هائلة، مما يثبت أنها تشكل موارد لا غنى عنها تقريبا للمراسلين في مناطق الصراع، وكذلك لأولئك المنخرطين في الجهود المبذولة لتشكيل ما يحدث على أرض الواقع. لكن في بعض الأحيان كُرِّس قدر كبير من الاهتمام لدورها المتصور في «احتجاجات فيسبوك» Facebook Protests و«ثورات تويتر» Twitter Revolutions إلى درجة أنه بات هناك احتمال أن يؤدي هذا «التقديس للتكنولوجيا» fetishism of technology - وهنا استخدم عبارة إيفغيني موروزوف (2011) Evgeny Morozov - إلى حجب الفهم الدقيق للأحداث السياسية على أرض الواقع. في ظل هذه الخلفية للمشهد الإعلامي سريع التغير، يهدف هذا الفصل إلى الإسهام في المناقشات الاجتماعية الحالية. والاهتمام بشأن التحقيق في مدى التوافق الملموس لتقارير الحرب مع المصلحة الوطنية في أوقات الأزمات هو أمر يتماشى مع مجموعة واسعة من الاستفسارات، وذلك إلى درجة أنه يمكن التعميم في هذا المجال؛ والمقصود هنا تلك الضغوط التي تمارَس على الصحافة للتأكد من أنها تساعد في إنشاء سرديات «الدعم الوطني» للمجهود الحربي - والمحافظة عليها، بل وتطبيعها. وتذهب بعض التحليلات إلى أبعد من ذلك، حيث تتساءل عن مدى تورط الصحافة في الترويج للتعاريف المعتمدة رسميا لطبيعة الحرب نفسها، بحيث تُهمَّش فعليا أصوات المعارضة أو يُقلَّل من أهميتها، إن لم يجرِ إسكاتها كليًا، عبر مجالات النقاش والتداول الإعلامية. وتزعم مثل هذه الانتقادات أن الصحافة وجدت نفسها في كثير من الأحيان تتحول بفعالية إلى عنصر حيوي في آلة الحرب.

عند النظر إلى الطرق التي تميل بها هذه الدراسات إلى وصف هذه العلاقة بين الصحافة والحرب، فمن الواضح أن التكنولوجيا - على رغم الاعتراف بها في

كثير من الأحيان - نادرا ما تحظى باهتمام مستمر. ويسعى هذا الفصل، من خلال محاولته التعرف على الأساس اللازم لإجراء تقييم نقدي للإمكانيات التكنولوجية النسبية والقيود الناشئة عن إعداد التقارير عن الحرب الرقمية، إلى معالجة هذا البعد. وعلى الرغم من الجهود التي بذلت لتقديم شرح تفصيلي، على سبيل المثال، عن تضافر العمليات الإعلامية التي تسمح للصحافيين على الخطوط الأمامية بنقل لقطات الفيديو إلى محرريهم الموجودين في غرفة الأخبار، أو تمكين المواطنين المجهزين بهاتف خلوي أو هاتف جوال من تبني دور الصحافي إذا وجدوا أنفسهم في المكان الخطأ وفي الوقت الخطأ، فإن الأسئلة المتعلقة باستخدام الوسائط الرقمية في الحرب قد أفلتت من التقييم إلى حد كبير. لقد أصبح النقد الاجتماعي في كثير من الأحيان غارقا في النزاعات الفلسفية الواسعة حول التصوير التكنولوجي للصراع على حساب النظر في الآثار المترتبة على أشكال الصحافة وممارساتها ونظرياتها المعرفية. ولعل المثال الأكثر شهرة في هذا الصدد يدور حول جان بودريار Jean Baudrillard (1995) في كتابه «حرب الخليج لم تقع» The Gulf War Did Not Take Place، وما يحتويه من انتقاد للصفات الخارقة لتغطية الحرب والتي تنشغل بمحاكاة افتراضية للعنف (انظر أيضا: Hammond, 2007; Curtis, 2006; Jones and Clarke, 2006; Merrin, 2005; Norris, 1992). وعلى الرغم من أن مثل هذه النزاعات مثيرة للاهتمام بحد ذاتها، فإنها توفر الدافع لنا لتجاوز التصريحات العشوائية - الاحتفائية والاستنكارية على حدٍ سواء - فيما يتعلق بالرقمنة والتقارب من أجل الحصول على وسيلة لانتقاد القضايا التي تواجه الجوهر المادي لتقارير الحرب. ووفقا لذلك فسوف نتبنى هنا منظورا بديلا، مع التركيز على الجوانب الاجتماعية الطارئة للعملية الإخبارية حتى ندرس كيف تؤثر الضرورات التكنولوجية في محتوى التقارير وكيفية صياغتها والأسباب التي تدفع لكتابتها.

الحرب في العصر الرقمي

ما أفضل طريقة للتمييز بين الديناميكيات المتطورة لتقارير الحرب فيما يُسمى في الأغلب «العصر الرقمي» الذي يتكشف اليوم؟ عند صياغة أساس للرد على مثل هذا السؤال ومن ثم معالجة أهميته في البحث الاجتماعي، سنقيِّم - باختصار

- العديد من الأطر المفاهيمية. إن المساهمات التي اقترحها جيمس دير ديريان James Der Derian (2001, 2004)، وهو منظِّر العلاقات الدولية، إنما توفر نقطة انطلاق مفيدة.

«لقد أدى وضع التكنولوجيا في خدمة الفضيلة إلى ظهور شكل عالمي من أشكال العنف الافتراضي virtual violence»، وفقا لزعم دير ديريان (2001: xi)، وتمثَّل ذلك تحديدا في «الحرب الفاضلة» virtuous war. وفي صياغته لهذا المصطلح، والذي يبدو وفق اعترافه كأنه «إرداف خلفي موفق» felicitous oxymoron، أراد دير ديريان التوكيد على جوانب التوتر بين «الأشخاص الذين يعتقدون أنه يمكنك استخدام الحرب لتحقيق أهداف أخلاقية - وهنا يكمن الجانب الفضيل منها - وبين الجانب الافتراضي، أي كيفية خوض الحروب الآن من مسافة بعيدة، والتعرض لحد أدنى من الإصابات من جانبك» (Der Derian, 2004). هذا يستتبع أن الخطر الذي يشكل محور هذا التناقض يتمثل في الاعتقاد الضمني بأن العنف العسكري هو أكثر الوسائل فاعلية لحل المشكلات السياسية التي تبدو صعبة الحل. ويضيف قائلا: «إذا كان لديك التفوق التكنولوجي، وكنت تؤمن بتفوقك الأخلاقي، فإن هذه العوامل مجتمعة تؤدي إلى نتيجة سيئة للغاية»، وعلى الأرجح ذلك يتمثل في «تأجيل العمل الديبلوماسي المدني ومنح الجيش الفرصة للدخول في هذا الفراغ وتقديم الحلول» (Der Derian, 2004).

ومن خلال تقديمه لهذه الأطروحة، يؤكد دير ديريان أن الحرب الفاضلة تطورت من الأساس المنطقي الذي استندت إليه الولايات المتحدة في نشر تكنولوجيات ميدان المعركة خلال حرب الخليج الأولى والحملات الجوية التي شنتها في البوسنة وكوسوفو. لقد تمت عملية مواءمة القدرة الفنية مع الضرورة الأخلاقية المعلنة لتفعيل العنف من مسافة بعيدة مع الحد الأدنى من الإصابات في صفوف القوات الأمريكية. وكتب دير ديريان: «باستخدام المعلومات الشبكية والتكنولوجيات الافتراضية لجلب ما هو «هناك» إلى هنا في وقت شبه حقيقي، وبشكل قريب من الحقيقة، فإن الحرب الفاضلة تشكل تفوقا نسبيا واستراتيجيا بالنسبة إلى العالم المتطور رقميا» (2001: xv). إن شن حرب فاضلة يعني بذل قصارى الجهد لإخفاء ضحايا العنف الذي يُرْتَكب من بعد:

ظاهريا، الحرب الفاضلة تنقي الخطاب السياسي وساحة المعركة. وبما أنها تجري بالطريقة نفسها التي تُصوَّر فيها، وذلك من خلال المراقبة في الوقت الحقيقي و«البث المباشر» عبر التلفزيون، فإن الرؤية التي يُروَّج لها في هذه الحروب الفاضلة هي أنها غير دموية، وإنسانية ونظيفة. ويمكننا الاضطلاع باستعراض سريع لمعدلات الإصابات في تلك النماذج الأولية للصراعات الفاضلة، مثل حرب الخليج (270 أمريكيا فقدوا أرواحهم - أكثر من نصفهم في حوادث)، وغارة مقديشو (ثمانية عشر أمريكيا قُتلوا)، والحملة الجوية في كوسوفو (باستثناء الحوادث، كانت حصيلة الإصابات صفرا بين قوات الناتو). وعلى رغم ذلك فإن معظمنا لا يعرف أرقام الخسائر في الجانب الآخر من العراقيين والصوماليين والصرب. بعد فيتنام حققت الولايات المتحدة العديد من التطورات الرقمية؛ بيد أن الإعلان عن عدد القتلى في صفوف العدو ليس واحدا منها (Der Derian, 2001: xv).

بعبارة أخرى فإن الحرب الفاضلة تستغل التكنولوجيات الرقمية لإظهار أخلاقيات القتل في صورة متناقضة بنحوٍ حاد مع أشكال الحرب السابقة. فالحقيقة تتداخل مع الخيال، مع دمج الجانب الافتراضي الجانبَ الواقعيَّ في عمليات المحاكاة بالحاسوب، فتحجب بذلك هوية المسؤول - وبالتالي هوية من يجب أن يُحاسَب - عن قتل الآخرين (الذين يرون أن الحرب الفاضلة ليست أقل تدميرا في أهوالها من أي نوع آخر من الحروب). يكتب دير ديريان: «يمكن للفرد مواجهة «الموت» ولكن ليس العواقب المأساوية له»، ثم يضيف «في الحرب الفاضلة، نحن الآن لا نواجه فقط التداخل بين الحرب والألعاب على الشاشة نفسها، ولكن أيضا طريقة التحكم في عرضهما» (2001: xvi).

إن الإشارة إلى أن ظهور التكنولوجيات الرقمية قد أعاد صياغة الفروق المألوفة بين الحروب «القديمة» والحروب «الجديدة» تؤدي إلى إثارة الجدل حول عدد من القضايا المثيرة للاهتمام. وقد نظَّر لهذا التمييز ماري كالدور Mary Kaldor (2003, 2006)، التي تقدم تقييما ثاقبا لآثاره المفاهيمية المترتبة على التفكير مجددا في الحرب في سياق ما بعد الحرب الباردة. باختصار، في تركيزها على الجوانب الجديدة في هذه الحروب «الجديدة»، تُبادر ماري إلى الادعاء بأن ظهور هذه الحروب مرهون بشبكات مختلفة - تتسم في أغلب الأحيان بكونها غير رسمية

وبدائية - تدافع عن القضايا الإقصائية (وفي هذا الصدد، على سبيل المثال، غالبا ما تبرز جماعات الشتات Diaspora groups إلى الواجهة). بالإضافة إلى ذلك، عادة ما تجلب الحروب الجديدة مجموعة من الجهات الفاعلة العالمية، في حين أنها «تتركز عادة في المناطق التي تتفكك فيها الدولة الحديثة، وحيث لا يعود للفروق بين الداخلي والخارجي، والعام والخاص المعنى نفسه» كما كان الحال في الحروب «القديمة» (120 :2003). هذا يعني أن الظروف مهيأة لحدوث حروب جديدة في الأماكن التي فقدت فيها الدول الفاشلة أو الآيلة إلى الفشل أسس شرعيتها، وذلك عادة بسبب تدهور الاقتصادات (ومن ثم انهيار الاستثمار والإنتاج والضرائب) وزيادة الفساد. وعلى الفور تتوطد أوجه اللامساواة البنيوية، بما في ذلك ما يتعلق بالبطالة والهجرة من الريف إلى المدن، وذلك بطريقة قد تؤدي إلى إضعاف سيادة القانون. وتصبح الحرب نفسها، إذن، شكلا من أشكال التعبئة السياسية، كما تزعم كالدور؛ حيث تقول إن «الغاية من العنف لا تتمثل في استهداف العدو بقدر ما تتمثل في توسيع شبكات التطرف» (121 :2003). وتصبح أساليب الإرهاب أو «التطهير العرقي» أو الإبادة الجماعية بمنزلة استراتيجيات حرب متعمدة في السعي إلى تحقيق أهداف وغايات سياسية محددة. فالمعارك الصريحة تصبح نادرة؛ وبدلا من ذلك، في الحروب الجديدة، يصبح العنف موجها بنحوٍ رئيس ضد المدنيين. وتضيف قائلة: «إن انتهاكات القانون الإنساني وقانون حقوق الإنسان ليست من الآثار الجانبية للحرب، بل هي المنهجية المركزية للحروب الجديدة» (121 :2003). وبهذه الطريقة، إذن، تتحدى الحروب الجديدة تصورات الحرب السائدة نفسها. ويُنظَر إلى المجالات المحلية والوطنية والعالمية التي كانت سابقا متباينة على أنها آخذة في التقارب، في حين أن الانقسامات التقليدية - لاسيما بين الحرب والجريمة - تصبح عمليا متداخلة فيما بينها ضمن سياسات الهوية التي تُبرز الاختلافات وتركز على المصالح الخاصة.

في ضوء هذه الخلفية، تميز كالدور بين ثلاثة أنواع من الحروب، كل واحد منها يتوافق مع نماذج مختلفة من التحولات التي تشهدها الدول والتي تتكشف بوضوح داخل بيئة ما بعد الحرب الباردة. في المحصلة يمكن وصف تلك الأنواع الثلاثة على النحو التالي:

حرب الشبكات Network Warfare: تستخدم كالدور هذا المصطلح لوصف الشبكات المسلحة للدولة والفاعلين من غير الدول non-state actors، مثل وحدات القوات النظامية (أو غيرها من أجهزة الأمن)، وكذلك الجماعات شبه العسكرية، وأمراء الحرب من ذوي الكاريزما، والخلايا الإرهابية، والأصوليون الدينيون، والجماعات الإجرامية المنظمة والمرتزقة، والشركات العسكرية الخاصة، وما إلى ذلك. وتتألف هذه الشبكات من تحالفات أفقية غير متماسكة، وتخوض شكلا من أشكال الحرب التي تعبر بوجهٍ عام عن «الحروب الجديدة» التي نوقشت أعلاه. وهذا يعني أنه بعد أن نشأت هذه الحروب من حروب العصابات ومكافحة العصيان التي جرت في الماضي، أصبحت اليوم مرئية بشكل متزايد جزئيا، بالإضافة إلى الزيادة الملحوظة في معاناة المدنيين الناجمة عن أعمالهم. تلجأ هذه الشبكات إلى سردية مشتركة - تعتمد في الأغلب على أيديولوجية سياسية متطرفة - كآلية تنظيم. و«تتمثل الاستراتيجية»، كما تراها كالدور، «في كسب القوة السياسية من خلال زرع الخوف، والكراهية، وفي خلق مناخ من الرعب، والتخلص من الأصوات المعتدلة، والقضاء على التسامح» (122 :2003).

حرب الفرجة Spectacle Warfare: تشير كالدور إلى أن هذا النوع من الحروب قد اضطلعت به الولايات المتحدة في المقام الأول، على الرغم من أن بريطانيا كانت مرتبطة – في وقت النزاع على جزر فوكلاند/مالفيناس Falklands/Malvinas – بتكوين عناصره. إن السمة المميزة لهذا النوع هي إدارة الحرب على «مسافة طويلة»، إما من خلال استخدام تكنولوجيا الطائرات والصواريخ، وإما عن طريق وكلاء (مثل التحالف الشمالي في أفغانستان) لمنع وقوع خسائر بشرية. تقول كالدور «إن حرب الفرجة هي الطريقة التي تحتفظ بها البنى الموروثة من فترة الحرب الباردة بقوتها، وذلك في سياقٍ لم يعد المواطنون الأمريكيون يقبلون فيه شروط صفقة وطنية سابقة، وهي الاستعداد للموت في الحرب» (123 :2003). تُعتبر حرب الخليج (1991-1990) نموذجا لهذا النوع من الحروب على نطاق واسع؛ حيث مارست إدارة الإعلام بالمثل دورا في ضمان التقليل من تأثير المذابح «العَرَضية» (ما يسمى «الأضرار الجانبية») فيما يتعلق بالرأي العام الغربي. بالنسبة إلى كالدور يؤكد مفهوم حرب الفرجة وظيفة الحرب بوصفها شكلا من أشكال الشرعية السياسية

وكأيديولوجية في سياق لم يعد فيه المواطنون على استعداد للتضحية بحياتهم، ولم تعد الحكومات مستعدة لضمان مجموعة كاملة من الحقوق (126; 2003).

حرب الحداثة الجديدة Neo-modern Warfare: تسلط كالدور الضوء في تقديم هذا المصطلح على «تطور القوات العسكرية الكلاسيكية في الدول التي تمر بمرحلة انتقالية كبيرة»، والتي تشير من خلالها إلى بلدان – مثل روسيا والهند والصين، وبدرجة أقل إسرائيل – حيث تحدث عملية تحويل الاقتصاد المركزي إلى نظام دولي أكثر توجها نحو السوق. وعلى النقيض من الولايات المتحدة، فإن مثل هذه الدول على استعداد للمخاطرة بالإصابات عندما تهدد بخوض حرب مع دول أخرى أو تنخرط في مكافحة التمرد ضد الشبكات المتطرفة. وتشير كالدور إلى أن الأمر المهم هنا هو الوهم الذي يديمه هذا النوع من الحروب، وهو أن الدولة من الممكن أن تنتصر عسكريا. فتقول: «والنتيجة هي إما فرض قيود ذاتية كما في حالة الحرب بين الدول، وإما تفاقم «الحروب الجديدة» كما في حالة كشمير أو الشيشان أو فلسطين؛ حيث إن ما تفضي إليه مكافحة التمرد هو مجرد عملية استقطاب سياسي من الخوف والكراهية» (127 :2003). هذا الوهم يصبح أكثر خطورة، بالطبع، عندما تمتلك الدولة المعنية أسلحة نووية.

وفي الوقت الذي تكشف فيه هذه الأنواع الثلاثة من الحروب عن جوانب متمايزة نسبيا، فإنها تتداخل بالضرورة بعضها مع بعض بدرجات متفاوتة في ظروف مختلفة. وكما تشير كالدور، من المهم أن أيًّا منها غير قادر على حل النزاعات، بينما تسبب جميعها معاناةً عشوائية للمدنيين، حيث ترى أن ما تفعله هذه الحروب هو «تقوية المتطرفين من جميع الجهات، وإضعاف المجتمع المدني وخلق اقتصاد قائم على الجريمة criminalized economy» (128 :2003) وهذا يستتبع، إذن، أنه لا يوجد انتصار يلوح في الأفق بالنسبة إلى الحروب الجديدة. بل إن مرتكبيها يواصلون بثبات استغلال الخوف، وانعدام الأمن من أجل حشد الدعم السياسي لأهدافهم.

عند النظر في كيفية اندلاع العنف فعليا على المستوى العالمي، فإن أولريتش بيك (2007) يوسع نطاق هذا المسار الاستقصائي بنحوٍ مفيد من خلال تنبيهنا إلى ما يوصف بأنه «حروب المخاطر» risk wars. وهو يشرح هنا الملاحظة التي

أبداها مارتن شو (Martin Shaw (2005 عندما قال «إن منظِّري المخاطر في مجال علم الاجتماع لم يهتموا كثيرا بالمخاطر في مجال الحرب» (97 :2005) عبر الشروع في معالجة «تحوُّل وتعددية الحرب» التي تحدث في «مجتمع المخاطر العالمي». وللتوضيح يذكِّرنا بيك (2007) بأن المخاطر تفترض مسبقا وجود القرار – ومن ثم صانع القرار – الذي يدور بالضرورة حول تضارب المصالح. إن المخاطرة، على حد تعبيره، «تنتج عدم تناسق جذريا بين أولئك الذين يقومون بالمخاطر ويحددونها ويستفيدون منها، وبين أولئك الذين يشكلون هدفا لهم، أي أولئك الذين يجب أن يختبروا مباشرة «الآثار الجانبية غير المرئية» لقرارات الآخرين، والذين قد يضطرون إلى دفع حياتهم الخاصة ثمنا لها، من دون أن يتمكنوا من المشاركة في عملية صنع القرار» (141-140 :2007). والتنظير للمخاطر المتعلقة بأشكال العنف المنظم يعني إفشال عملية صنع القرار، والجهات الفاعلة المعنية وأهدافها ووسائلها – وذلك لتحديد الضرورات المتنافسة ضمن «صدام ثقافات المخاطر». من الناحية التحليلية، يقود هذا الهدفُ بيك إلى التمييز بين الحرب «القديمة» و«الجديدة» و«الافتراضية» مع «خطر الإرهاب المعولم».

يتبع بيك المبادئ العامة لمنهج كالدور (2003, 2006) في الحروب «القديمة» و«الجديدة» التي نوقشت أعلاه، قبل أن يتحول إلى فكرة مايكل إغناتييف Michael (Ignatieff (2001 عن «الحرب الافتراضية» التي تطورت فيما يتعلق بقصف الناتو لكوسوفو في العام 1999. وقد أصبحت وسائل الإعلام الإخبارية بمنزلة «المنصة الحاسمة أو سيناريو الإنتاج الذي تأخذ منه استراتيجيات العمليات العسكرية توجيهاتها»، وذلك إلى درجة أن الحروب البعيدة تُقدَّم بوصفها «رياضة مشاهدة» بالنسبة إلى المجتمعات الغربية، وفق رؤية بيك (148 :2007). وهذا يستتبع أن أهمية التغطية الإخبارية تستحق اهتماما وثيقا عند تتبع كيف كان يُنظَر إلى الحروب القديمة والجديدة والافتراضية، إلى جانب توقع هجمات إرهابية عالمية، على أنها «تختلط وتتماهى وتتمازج» في الصراعات العسكرية الأخيرة (يستشهد بالحرب في العراق وكذلك في لبنان). إذن الهدف من مفهوم «حرب المخاطر» هو معالجة ذلك «المزيج المتشابك» لهذه الأبعاد المختلفة. ويشير بشكل أكثر تحديدا إلى أن هذا المفهوم له معنى مزدوج:

> من ناحيةٍ تشير [حرب المخاطر] - كما تفهمها الحكومات التي تستخدم الوسائل العسكرية في كل الأحوال - إلى التدخلات العسكرية في الدول الأجنبية (وليس المعادية)، والتي تعاني عدم الاستقرار بنحوٍ أو بآخر (سواء كانت آيلة إلى الانهيار أو مستقرة)، وذلك بهدف الحد من «خطر عالمي» ما والسيطرة عليه (كالإرهاب عبر الحدود، أو انتشار أسلحة الدمار الشامل الذرية والكيميائية والبيولوجية، وما إلى ذلك). ما ينطوي عليه الأمر هو نوع من إدارة المخاطر العالمية بالوسائل العسكرية، على رغم أن هذا يفترض مقدما طرح المبادرات الديبلوماسية والشرطية والقضائية والاقتصادية وغيرها، أو أنه يحل محلها (Beck, 2007: 149).

ويضيف بيك في الوقت نفسه أن هذا المفهوم يشير إلى البعد الثاني، الذي وصفه شو (2005) بأنه «حرب نقل المخاطر risk transfer war». فيقول:

> والمقصود بهذا هو حروب إعادة توزيع المخاطر الجديدة، التي تخطط فيها الدول للحرب وتديرها بطريقة تحد من تعرض قواتها للتهديد وتزيد من التهديد المحدق بالأطراف الأخرى، وذلك من أجل السيطرة على المخاطر وتقليل الخسائر. يؤدي ذلك إلى وضع استراتيجيات للحرب (مثل القصف بدلا من استخدام القوات البرية) تُنقَل بموجبها مخاطر حدوث قتلى وإصابات إلى الأطراف الذين يُهاجَمون (Beck, 2007: 150).

وإذ يسلِّم بيك بأن هذين الجانبين من حرب المخاطر مترابطان - وذلك على نحو يوحي بالتناقض في بعض الأحيان - فإنه يؤكد أهمية تشريعهما بنحوٍ نسبي في مواجهة وسائل الإعلام. وفي النتيجة فإن «فك الارتباط المكاني والاجتماعي بين الحرب والضحايا» هو على المحك (إذ إن المسموح به على الأكثر هو «القتلى غير المرئيين»)، وهذا يترتب عليه «نقل المخاطر» أو «تصدير المخاطر»، وهي عملية يجب إخفاؤها حتى لا تنهار عملية التشريع.

هذا التأكيد على عملية التشريع في تحويل الحروب إلى حروب مخاطر يتطلب تكريس قدر أكبر من الاهتمام للطرق التي يفرض بها الطرف القوي قرارات المخاطر على الآخرين. إن الجهود المبذولة لإضفاء الشرعية على هذا الفرض أمام الجمهور العالمي محفوفة بالصعاب، كما رأينا فيما يتعلق بحرب العراق، حيث تحول الرأي العام الغربي

بقدرٍ كبير. ومع ذلك يصر بيك على أن «وحدة القدرة على الإنتاج والتحديد هي مصدر تفوق القوى العالمية المتجبرة على الجهات المستضعفة»، وهي عملية تضع تغطية الأخبار - وما ينشأ عنها من قصص وصور - باعتبارها «مسرحا مركزيا للحرب» بحد ذاتها بسبب هذه «القوة في إضفاء الشرعية وسحبها». ومثلما ستسعى الاستراتيجيات الغربية لإدارة وسائل الإعلام إلى «إبقاء حالة اليأس الناجمة عن وقوع القتلى والدمار غير مرئية إلى حد كبير»، والعكس صحيح بالنسبة إلى المهاجمين الإرهابيين - حيث يُبذل كل جهد ممكن لعولمة صور المعاناة والرعب (159 :2007). ولكي تحافظ النخب السياسية على «الرواية الرسمية لسبب الحرب»، يصبح التقرير الصحافي مقرا للنضال المنطقي.

الحرب من أجل الرأي العام

تظهر قيمة هذه الأُطُر التخطيطية للتفكير من جديد حول الحرب بسهولة على عدد من المستويات المختلفة، حيث تميل المعالجات العلمية لتقارير الحرب إلى التغلب على طبيعة الحرب نفسها مفضِّلة الاعتماد على بعض الافتراضات الغائية في كيفية تطور استراتيجيات خوض الحروب على مر السنين. في تلك الحالات التي تُتَحدَّى فيها المعتقدات المألوفة للحروب «القديمة» في القرن العشرين، فإنها في الأغلب تعد استثناءات لبعض المعتقدات القديمة (الكلاوزفيتزية Clausewitzean(*)، باللغة العسكرية) في الحرب الحديثة كأداة عقلانية في خدمة النهوض بمصالح الدولة. وعلى رغم ذلك يبدو أن العدد المتزايد لهذه الاستثناءات – وهو ما يسميه مانويل كاستيلز (2000) «حروبا خاطفة» instant wars – يدعو إلى إعادة النظر جذريا في الافتراضات المألوفة المرتبطة بخطابات الحرب السائدة.

تساعد رؤى دير ديريان، وكالدور، وبيك، على التوالي في توضيح إلى أي مدى تنبئ التصورات المتنافسة للحرب، وبدرجات متفاوتة، بتعبئة الدعم العام. إن أهمية كسب «قلوب وعقول» الرأي العام – وهي حملة يشير إليها أحيانا المخططون العسكريون باسم «ساحة المعركة الثانية» second battlefield – اعتُرِف بها منذ فترة طويلة بوصفها مصلحة حيوية في حد ذاتها. وعلى مدار

(*) نسبةً إلى الجنرال والمؤرخ الحربي البروسي، كارل فون كلاوزفيتز (1780–1831). [المحرر].

العَقد الماضي تطورت أساليب «إدارة الإدراك» perception management بنحوٍ متزايد. وفي الوقت الذي جرى فيه التدخل في كوسوفو بقيادة الولايات المتحدة، على سبيل المثال، كان المسؤولون العسكريون يسعون جاهدين إلى إعادة صياغة العلاقة العسكرية والإعلامية في ضوء الدروس المستفادة من النزاعات السابقة في ذلك العَقد، بدءا بحرب الخليج في العام 1991. وقد ساعد ظهور خدمات الأخبار التلفزيونية العالمية «في الوقت الحقيقي» على مدار 24 ساعة، بقيادة «سي إن إن»، في تحويل الصراع إلى مشهد إعلامي يشبه لعبة فيديو. وقد أدى «تأثير نينتندو» Nintendo effect هذا، كما أشار النقاد، إلى طمس نتائج الحرب، أي الخسارة المروعة في الأرواح البشرية. وعلى حد تعبير مراسل الحرب المخضرم كريس هيدجز (2002) Chris Hedges:

> إن حرب الخليج جعلت الحرب مسألة عصرية مرة أخرى. لقد كانت بمنزلة قضية احتضنتها الأمة برغبتها. فهي أعطتنا أبطالا من صناعة وسائل الإعلام، وجعلتنا نفتخر بعنجهيةٍ بتفوقنا العسكري وتكنولوجياتنا. لقد حوَّلت الحرب إلى متعة (Hedges, 2002: 142-143).

ويقول إن اللوم في هذا النوع من التقارير يقع على عاتق الصحافة لكونها تعاونت بنحوٍ وثيق مع الجيش:

> نشر مراسلو التلفزيون بكل سرور صور الحرب التي زُوِّدوا بها والتي خدمت مجهود الدعاية للجيش والدولة. لم تقدم هذه الصور شيئا يُذكر لتوضيح حقيقة الحرب. وقد كتب مراسلو التغطية المشتركة pool reporters، الذين يوجههم الجيش ضمن مجموعات، عن «أولادنا» الذين يتناولون الطعام المعبأ المخصص للجيش، ويتدربون تحسبا لحدوث هجمات بالأسلحة الكيميائية، ويغتسلون من الدلو في الصحراء. لقد قُدِّمت لنا الحرب بوصفها مشهدا نتفرج عليه، أو وسيلة نُرفِّه بها عن أنفسنا. وصُمِّمت الصور والقصص بطريقة تجعلنا نشعر بالرضا عن أمتنا وعن أنفسنا. أما العائلات والجنود العراقيون الذين تحولوا إلى أشلاء جراء القذائف الحديدية المتشظية الضخمة التي كانت تعبر الحدود إلى داخل العراق فقد كانوا مجرد أشباح بلا ملامح ولا أسماء (Hedges, 2002: 143).

ليس هناك شك في أن التغطية الإخبارية «المنقحة» التي أعقبت ذلك نجحت في تشكيل كيفية تصور جمهور وسائل الإعلام لطبيعة «الحرب النظيفة clean war» التي تُشَن «بدقة متناهية pinpoint accuracy» وبطرق عميقة. ويوافق فيليب نايتلي (1991) Philip Knightly على أن إدارة الأخبار في حرب الخليج كانت في جوهرها محاولةً متعمدة أجرتها السلطات لتغيير النظرة العامة لطبيعة الحرب نفسها، لاسيما أن المدنيين يموتون في الحرب (1991: 5؛ انظر أيضا: Cumings, 1992; Keeble, 1997; Kellner, 2004; Reese, 2004; Taylor, 1992).

وأشار النقاد إلى أن التغطية الإخبارية «المنقحة» من المؤكد أنها ستنتج جماهير متبلدة الأحاسيس، تراقب بجمود كل تطور في «حرب ألعاب الفيديو» تلك من دون اعتبار يذكر لتأثيراتها (والمقارنة مع حرب فيتنام، «حرب غرفة المعيشة» living room war، أمرٌ له دلالات كثيرة). إن الجهود الصحافية لتعزيز فهم الجمهور ولمواجهة هذا الهوس مباشرة بتقارير صارمة متعمقة تقدِّم التفسير والسياق، أصبحت محبطة بنحوٍ متزايد. على مدار التسعينيات من القرن الماضي جرى ترشيد المؤسسات الإخبارية الغربية باسم الوفورات في التكاليف وخُفِّضت ميزانياتها لجمع الأخبار الدولية بقدرٍ كبير مع اشتداد الضغوط الاقتصادية. وكان التلاشي التدريجي للحرب الباردة عاملا آخر، حيث كان على ما يبدو يوفر مبررات لما أصبح لاحقا بمنزلة إعادة توزيع دراماتيكية للموارد، بعيدا عن التقارير العسكرية المتخصصة (فأصبحت ممارسة الأعمال الحرة هي المعيار بعد أن خُفِّضت ميزانيات السفر وإغلاق المكاتب الأجنبية) لمصلحة مزيد من الروايات الإخبارية «الأكثر شعبية» (و«الكفوءة» - أي غير المكلفة). وأصر بعض المسؤولين في مجال الصحافة على أن هذا ببساطة يعطي الجمهور ما يريد، مشيرين إلى تراجع أرقام المشاهدة (وتداول الصحف) بوصفه دليلا على أن الأخبار الدولية لم يعد يمكنها جذب الإيرادات اللازمة من خلال الإعلانات لتحقيق الأرباح. وكان الأمر الأقل إثارة للجدل هو حقيقةَ أن المالكين كانوا ينظرون بقدرٍ متزايد إلى الأخبار بوصفها سلعة، وأن بعض أشكالها مربحة أكثر من بعضها الآخر بصرف النظر عن المطالبات المصاحبة حول الخدمة العامة.

كان بيتر أرنيت Peter Arnett، الذي اشتهر بتقاريره لشبكة «سي إن إن» خلال حرب الخليج (إذ كان المراسل الغربي الوحيد في بغداد خلال معظم فترة النزاع)، أحدَ الصحافيين البارزين الذين عبَّروا عن استيائهم علنا في ذلك الوقت. وقال إن التغطية الإخبارية الدولية في الصحافة الأمريكية الرئيسة «وصلت تقريبا إلى نقطة التلاشي» منذ بداية الصراع في الخليج في أوائل هذا العَقد:

> في يومنا الحالي كل خبر أجنبي لا يشتمل على قنابل، أو كوارث طبيعية، أو مأساة مالية يُستبعد أن يصل إلى الوعي الأمريكي. يحدث هذا في وقت أصبحت فيه الولايات المتحدة هي القوةَ العظمى الوحيدة في العالم وتعددت منابر «الأخبار» - مثل الصحف والمجلات والتلفزيون بقنواته المشفرة والعادية والراديو والرسائل الإخبارية والإنترنت - بنحوٍ أصبح يبدو معه من غير الممكن التهربُ من سماع مثل هذه الأخبار. إذن كيف أصبح الأمريكيون الآن أقل معرفة من أي وقت سابق بما يجري في بقية العالم؟ لأننا نحن، بوصفنا وسائل إعلام، قد توقفنا عن إخبارهم (Arnett, 1998).

فقد اتبع كثير من المحررين ببساطةٍ «الإشاعات الكاذبة بأن القراء لا يريدون أخبارا أجنبية»، على حد قوله، على الرغم من توافر أدلة معاكسة، لاسيما استطلاعات الرأي العام. وفي الوقت نفسه أشارت تقييمات أكثر تفاؤلا إلى أن «سي إن إن»، في ريادتها لمفهوم «الأخبار عند الطلب» news on demand أظهرت أن هناك حماسا عاما لمثل هذه الأخبار مادام تقديمها يحدث بطرق تُبرز عنصري الحيوية والآنية. والسر، كما يعتقد أنصار التكنولوجيات الرقمية الناشئة، يتمثل في الاستفادة إلى أقصى حد من «الجيل الجديد» من استراتيجيات جمع الأخبار التي تعد بإحداث ثورة في إعداد التقارير عن الحرب.

في ضوء حرب العام 2003 في العراق، يمكن أن يُغفَر للمرء عندما يعتقد أن تكنولوجيات الأخبار المستخدمة خلال حرب الخليج الأولى بدت قديمة بنحوٍ غريب. وقال ديك تاوبر Dick Tauber، نائب رئيس قسم الأقمار الاصطناعية وأنظمة البث لشبكة «سي إن إن»: «الاختلافُ الكبير هو أن كل شيء كان في العام 1991 تناظريا والآن أصبح كل شيء رقميا». ثم أضاف «في ذلك الوقت كان يستطيع جهاز الاستقبال عبر القمر الاصطناعي إرسال قناة واحدة مرئية ومسموعة إلى القمر

الاصطناعي، والعودة إلى المقر الرئيس. الآن يمكننا إرسال العشرات من القنوات في المساحة نفسها». بالإضافة إلى ذلك أصبحت المعدات أصغر وأخف وزنا وأكثر قوة. فالصحافيون، الذين يرغبون في تقديم تقرير وهم يقفون أمام الكاميرا، لكنهم غير قادرين على استخدام الاتصال المرئي، أصبح بإمكانهم الضغط على محطات التلفزيون المحمولة الصغيرة، والتي تدعى «التحليق بعيدا» fly-aways، ووضعها قيد الخدمة. يقول تاوبر: «في حرب الخليج الأولى كانت تُحفَظ تلك المحطات في 30 حقيبة، بحجم حقائب الأمتعة، وكان وزنها طنا»، ثم يضيف: «أما الآن فإنها تحتاج إلى ما بين 10 و12 حقيبة، بحجم حقيبة جهاز الحاسب الآلي المحمول، ووزنها أقل بكثير» (انظر: Megna, 2003). في العام 1991 كان الدور البارز الذي مارسته التكنولوجيا في نقل أخبار الحرب - والذي تضمن أيضا البريد الإلكتروني وأجهزة الفاكس وأجهزة الرؤية الليلية وصور الأقمار الاصطناعية ورسومات الحاسب الآلي، وحتى المركبات التي تُشغل من بُعد للتصوير الفوتوغرافي - كان جديدا بما يكفي لضمان التغطية الصحافية بحد ذاتها. في الوقت نفسه بدأ الصحافيون يكتشفون أن هذه التكنولوجيا قد أتاحت لرؤساء تحريرهم قدرة أكبر على مراقبة تحركاتهم، ومطالبتهم بنحوٍ شبه دائم بإعداد تقارير جديدة من أجل تلبية الطلب على التقارير على مدار الساعة. وبالمثل كان الدور المؤثر، الذي مارسته شبكة «سي إن إن» في مجال الدبلوماسية التلفزيونية telediplomacy، لافتا في هذا الصدد، مع استخدام الرئيسين الأمريكي والعراقي هذه الشبكةَ للتواصل أحدهما مع الآخر، وكذلك مع مواطني بلديهما.

يمكن إرجاع الإشارات الحالية إلى «تأثير سي إن إن» في إدارة السياسة الخارجية إلى هذه الجهود المبكرة للتأقلم مع دورة أخبار الإعلام الفوري. ولكن من المرجح أن يُنظَر إلى دور أشكال الوسائط الجديدة في إعادة تشكيل هندسة القوة الاتصالية على أنها مصدر قلق أكثر إلحاحا من تأثير شبكة «سي إن إن» (التي أصبحت الآن واحدة من العديد من الشبكات التي تضطلع بالتغطية المتواصلة على مدار الساعة) (انظر أيضا: Cottle, 2009; Hoskins and O'Loughlin, 2010; Matheson and Allan, 2009; Moeller, 2009; Seib, 2004). إن دراسة هوارد تومبر Howard Tumber وفرانك ويبستر Frank Webster (2006) للممارسات الصحافية لمراسلي

الخطوط الأمامية دفعتهم إلى وضع مفهوم «حروب المعلومات» لمعالجة هذا التحول. وكما يجادلان فإن الجهود المبذولة لفهم استخدام «التكنولوجيا الماهرة» virtuoso technologies لتقديم «صور وأصوات مذهلة من مسرح الحرب» إلى الجماهير في أماكن بعيدة، يجب ألا تتجاهل بيئةُ المعلومات الواسعة التي تستند إليها عمليةَ تفسير الأحداث غير المتوقعة وأهميتها:

> أولا وقبل أي شيء لا يمكن التحكم بسهولة في الصحافيين الموجودين في الخطوط الأمامية أو التلاعب بهم للعمل بوصفهم منابرَ للمقاتلين وقادتهم. فهم لديهم ميل قوي نحو «نقل الخبر كما هو»، ويتشبثون بمفاهيم «الموضوعية»، ولديهم إمكانية الوصول إلى معدات متعددة الاستخدامات تسمح لهم بإبلاغ منظماتهم الإخبارية بنحوٍ سريع ومباشر. بالإضافة إلى ذلك فإن الحدود بين القوات المقاتلة في الأغلب تكون مشوشة، وربما الأهم من ذلك أن الصحافيين يشكلون مجموعة شديدة التنوع، ما أدى إلى إضعاف النداءات الموجهة لدعم «أولادنا»، والتي كانت قوية ذات يوم. فضلا على ذلك صحيحٌ أن الصحافيين المرافقين للوحدات العسكرية مقيدون بشدة بحكم مواقعهم، بيد أن المؤسسات الإخبارية تتلقى الآن كمية هائلة ومتنوعة من المعلومات. وقد تكون المعلومات، التي تُدرَج ضِمن أحد البرامج أو التقارير الإخبارية التي تُنجَز، متعارضة تماما مع أي تقرير لأحد الصحافيين» (Tumber and Webster, 2006: 172).

في حين أن الأسلحة العسكرية قد تعكس عدم تكافؤ هائل بين المتحاربين، فإنه لا يمكن أن يكون هناك افتراض مماثل بأنها ستحقق نجاحا طويل الأجل في شن حرب المعلومات. ففي عصر الكاميرا الرقمية والموقع الإلكتروني، كما يشير تومبر وويبستر، قد يتمكن الطرف الأضعف (الذي يدرك تماما أن وسائل الإعلام هي ظواهر معولمة) من عرقلة الادعاءات المزيفة للطرف القوي وتفنيدها والرد عليها في كثير من الأحيان.

إن الأسئلة التي تثيرها هذه التصورات المختلفة للحرب من أجل الرأي العام تستحق دراسة سوسيولوجية أعمق من تلك التي حظيت بها حتى الآن. لقد بدأت الأُطُر النظرية المناسبة للغرض في الظهور ببطء، وهي ستكون بالتأكيد ذات قيمة كبيرة بالنسبة إلى الجهود التي تسعى إلى تجاوز أساليب المعالجة الاحتفالية نوعا

ما لموضوع التكنولوجيا الرقمية، وذلك بهدف التوصل إلى رؤية نقدية للقضايا ذات الأهمية القصوى في مجال إعداد التقارير الحربية التي تتسم بالمسؤولية الاجتماعية.

شرعنة (عدم شرعنة) القوة

يُعَد تقييم مدى قدرة الإعلام الرقمي الشخصي على التشويش على طرق رؤية الحرب - التي أصبحت مألوفة لدى الجمهور (ومن ثم قدرته على تغيير رأي النخبة والرأي العام) - أمرا أساسيا لفهم دوره السياسي. هذا العمل خارج نطاق هذا الفصل، ولكن يمكن - بالتأكيد - إثباتُ أن الجهات الفاعلة السياسية والعسكرية تتحدث وتتصرف على أساس أن لديها بالفعل هذه القوة.

لقد ألقى توني بلير (2007) Tony Blair، في الأشهر التي سبقت استقالته من منصب رئيس الوزراء البريطاني، سلسلة من الخطابات عن «التركة» التي خلَّفها. وهي خطابات تهدف جزئيا إلى المساعدة في ضمان أن يكون له مكان في كتب التاريخ وفق شروطه المفضلة. وفي أحد الخطابات، الذي أُلقِي على متن السفينة الحربية HMS Albion في 12 يناير 2007، ناقش بلير الطبيعة المتغيرة للتحديات الأمنية التي تواجه البلدان الغربية في فترة ما بعد 11 سبتمبر. ومن المثير للانتباه أنه وجَّه الاهتمام في هذا الصدد إلى المشاكل التي يسببها وجود «عالم جديد تماما من وسائل الاتصال الحديثة والإعلام» بالنسبة إلى القوات المسلحة. يقول بلير:

> لم تعد [الحرب] شيئا يُقرأ في البرقيات العسكرية، بل إنها تدخل مباشرة إلى غرفة المعيشة. على سبيل المثال خذ موقعا على الشبكة مثل لايف ليك Live Leak والذي أصبح شائعا لدى الجنود من الجانبين في كل من أفغانستان والعراق، حيث ينشر المواد الوثائقية الخاصة بمسرح العمليات من حواسيبهم أو هواتفهم المحمولة على الموقع. وتعبر هذه الصور، التي تكون بشعة في بعض الأحيان، عن واقع الحرب كما هو. إنها توفر مصدرا جديدا للأدلة بالنسبة إلى الصحافيين والمعلقين، متجاوزة التقارير والسجلات الرسمية (Blair, 2007).

لقد أدى تخطي الأصوات الرسمية بالنسبة إلى بلير إلى إضعاف حرب الغرب ضد الإرهابيين، لأن الصور، وفقا لتقديره، أسهمت في إحجام الرأي العام عن دعم

الحملات العسكرية الطويلة. ويشكِّلُ موقع لايف ليك (www.liveleak.com)، الذي اشتمل محتواه الأكثر إثارة للجدل على صور رقمية للتعذيب في سجن أبوغريب، والتي تعتبرها المؤسسات الإخبارية مزعجة إلى درجة تجعلها غير صالحة للعرض، وعلى مقطع الإعدام «غير الرسمي» لصدام حسين (والذي، على عكس النسخة «الرسمية»، وثَّق الطبيعة الفوضوية للمشهد)، يشكِّلُ هدفا بارزا لهذا الاهتمام الرسمي.

ولقد تضمَّن هذا الاهتمام أيضا ما يراه البعض تهديدا مقَنَّعا باستخدام هذه الوسائل الإعلامية لأغراض الإقناع السياسي. قال توني سنو (2007) Tony Snow، السكرتير الصحافي السابق للبيت الأبيض، في الإيجاز الذي قدَّمه للمدونين الصحافيين في اليوم السابق لخطاب بلير: إن الجنود الأمريكيين في الأشهر المقبلة سيستخدمون كاميراتهم الخاصة لنشر الصور على هذه المواقع، لكي يُظهروا للعالم ما كانوا يشاهدونه بالفعل ويفعلونه (وشدد سنو على أن هذه اللقطات ستكون أكثر موثوقية من تلك التي يقدمها الصحافيون عادة). وبالنسبة إلى توركل كريشتون (2007) Torcuil Crichton، في صحيفة صنداي هيرالد Sunday Herald، فإن بلير وسنو كانا يشيران إلى تصميم التحالف على فتح «حرب دعاية جديدة» من خلال تشجيع الجنود الموجودين في الخطوط الأمامية على نشر «قصص إخبارية إيجابية مصورة» للرد على التقارير السلبية. ونُقل عن هايدن هيويت Hayden Hewitt، أحد مؤسسي موقع «لايف ليك»، قوله: «لن يفاجئني إذا كانت الحكومات تفعل ذلك بالفعل». ثم يضيف: «لا توجد طريقة أسرع للوصول إلى ملايين وملايين الأشخاص إلا من خلال الإنترنت، وكما يقول توني بلير، فإن الطرق القديمة لم تعُد مجدية على الإطلاق» (وهذا مذكور في Crichton, 2007).

إن ما يدعم التصريحات التي أدلى بها كل من الشخصيات الحكومية والمتحمسين لما سماه بلير «واقع الحرب كما هو» هو الاعتقاد، إذن، بأن هذه الأشكال الناشئة من التقارير تعرقل الطرق المعتادة لرؤية الحرب، وذلك بنحوٍ يخلف آثارا عميقة على تشكيل الرأي العام. هذه القوة الاتصالية تُعتبَر مشروعةً من وجهة نظر المسؤولين فقط في حال كانت تحترم تعاريفهم للواقع. عندما تتجاوز مقاطع الفيديو الخاصة بالجنود أو اللقطات الرقمية القنوات المناسبة،

لينتهي بها الأمر إلى مواقع مثل «لايف ليك» أو «يوتيوب»، وعندما ينشر المدنيون أو حتى المروِّجون لأعداء الحكومات الغربية مقاطع فيديو خاصة بهم على مثل هذه المواقع، حينذاك تُفقَد السيطرة. في الواقع، وبالنسبة إلى بلير، فإنه يجري تسليم السيطرة فعليا إلى أولئك الذين يعدون إرهابيين ليتحكموا في نشر ما يُعتبَر واقعا. وعند شرحهم السبب الذي يحتم عدم السماح بحدوث ذلك، يجد بلير وأمثاله أنفسهم مجبَرين فعليا على الاعتراف بتبني سياسة تدخل تؤدي إلى تعقيد الأشكال الأكثر شيوعا من خطاب خوض الحروب. وعملية التدخل هذه تكون محفوفة بالتوترات الأيديولوجية، التي قد تصل إلى أوج قوتها في المواقف التي تبرز فيها الخطابات الوطنية «العفوية».

في الختامِ من الواضح أن ما يُعَد «تقارير رقمية عن الحروب» يشهد حالة من التدفق، كما تشهد المبادئ المألوفة إعادة صياغة جديدة من خلال ضرورات التقارب المتنافسة في وسائل الإعلام الرئيسة. ومن خلال ضرورات التباعد التي تُجْتَر في الهوامش من قبل «الأشخاص الذين كانوا يُعرَفون سابقا باسم الجمهور» وفقا للوصف الموفق للمدون جاي روزن (2006) Jay Rosen. ركَّز هذا الفصل على بعض الطرق التي تتيح فيها التقارير الرقمية للحروب فضاءات بديلة للاضطلاع بفعل المشاهدة عبر مجموعة من المنصات. لقد ثبت أن هناك أشكالا وممارسات مختلفة تُبرز إلى حد كبير المعايير الأيديولوجية الضيقة التي تعمل ضمنها عادة وسائل الإعلام الرئيسة. إن الروتين الذي يمارسه الصحافيون، وخياراتهم اليومية حول ما يجب تغطيته - وكيفية الاضطلاع بالتغطية على أكمل وجه والأسباب الموجبة لذلك - تدفعهم بالضرورة نحو تبني سياسات استطرادية في استخدام الوسائط. إن هذا التعدد للأصوات الذي يبنون عليه ما يقومون به من إضفاء للطابع السردي على الواقع يجعل أي ادعاء بالصدق أمرا إشكاليا، وبذلك فإنه يكشف أن مشاهدة الحدث أمر محاط بإطار اجتماعي ويستند إلى رؤية، ومن ثم هو مسيَّس. لكن قبل أن يتسنى للتقارير الرقمية عن الحروب أن تصبح حوارية بنحوٍ تفاعلي، بكل ما تنطوي عليه هذه العبارة من معانٍ، سيتعين عليها الرد على أشكال الاستبعاد الاجتماعي التي تشكل جزءا لا يتجزأ مما يسميه دير ديريان (2007) بنحوٍ موفَّق «الحرب الفاضلة».

وما يقع على المحك في رأينا هو الحاجة إلى تفكيك الانقسامات الصحافية ما بين «نحن وهؤلاء» تحديدا عندما تُسْتَخدم ويُعاد توجيهُها في التقارير الإخبارية، حيث تحدث الموازنة بين المصالح البنيوية لـ «الأشخاص أمثالنا» وبين معاناة الغرباء. ولإعادة صياغة الضرورات المتمثلة في كلمتي «هنا» و«هناك»، ومن ثم مقاومة الجاذبية المألوفة لـ «الرواية الرسمية حول سبب للحرب» (Beck, 2007)، فإن الفجوة المقابلة بين المعرفة والعمل هي التي يجب التغلب عليها. ومن هنا فإن الآثار المترتبة على علم الاجتماع ستكون بعيدة المدى. والادعاءات الجريئة التي تُساق حول «الثورات» القائمة على التكنولوجيا في مجال الصحافة تجازف في إخفاء ما وصفناه بالجوهر المادي لإعداد التقارير عن الحروب، خاصة عندما يكون تأثير التغير التكنولوجي مبالغا فيه بوصفه انحرافا مفاجئا ومحيرا عن الأعراف السابقة. من الصعب مقاومة جاذبية هذا الوهم، حيث تتوالى الإنجازات المذهلة في تسلسل منطقي وعقلاني يتكشف تحت راية التقدُّم الخفاقة. لكن يجب أن نقاومها، وذلك للأسباب التي سعينا إلى توضيحها في هذا الفصل. يُعَد تحديد الابتكارات الفنية أمرا مهما، ولكن الطرق غير المستوية التي تحدث بها عملية تناول هذه الابتكارات وتعديلها وإعادة صياغتها لجعلها تفي بالغرض الذي وُضعت لأجله لا تقل عنه أهمية. إن هذا التركيز على الأهمية المادية للتكنولوجيا يحدد الطرق التي تُعاد بها صياغة المؤسسات الإعلامية عن طريق التفاعل الحي بين قدرات هذه التكنولوجيا وإمكانياتها، وكذلك من خلال الضغوط والقيود المفروضة عليها. ومن ثم فإننا نشير إلى أهمية السعي إلى الربط بين بعض التقارير ذات التوجه التكنولوجي البارز والخاصة برقمنة وسائل الإعلام وتقاربها، وذلك للوقوف على الأساس اللازم لإجراء بحث اجتماعي أكثر دقة.

11

تخيُّـلُ الشـبكات: علـمُ اجتماع الاتصال في العصر الرقمي

أليسون كافانا

مقدمة

يقولُ باراباسي Barabasi إن «الشبكاتِ موجودةٌ في كلِّ مكان، كل ما نحتاج إليه هو توجيه نظرة الاهتمام إليها» (Barabasi, 2003: 7). ولكن مثل الجَمال، فإن طبيعة الشبكة ومعرفة ما الذي يشكلها تعتمدان على العين الناظرة إليها. وقد كانت هناك في السنوات الأخيرة زيادة في الاهتمام بفهم خصائص وطبيعة الشبكات. وقد جادل كل من هارت Hardt ونيغري Negri في تحليلهما للحالة الثقافية الحديثة بأن الشبكات عامل رئيس في انتظام طبيعة العصر الحديث. ومثلما يمكننا أن ننظر إلى الأشكال الاجتماعية للقرن التاسع عشر بوصفها مقترنة بصورة السجن ومحكومة بها، على حد تعبير فوكو Foucault،

«الاستبدالُ واســعُ النطاقِ لصورة الشبكة الاجتماعية بصورة الشبكة الإلكترونية يمثلُ اختزالا مفاهيميا ينتــج عنـه إغفالٌ لعدم المساواة وتسطيحٌ للجانب الاجتماعي»

فإن صورة الشبكة باتت الصورة الرئيسة للألفة الاجتماعية الحديثة. ويجادل الباحثون في يومنا هذا بأننا نرى الشبكات في كل مكان ننظر إليه – في المنظمات العسكرية، والحركات الاجتماعية وتشكيلات الأعمال، وأنماط الهجرة وأنظمة الاتصالات، والبناءات الفسيولوجية، والعلاقات اللغوية، وأجهزة الإرسال العصبية، وحتى العلاقات الشخصية. هذا لا يعني أن الشبكات لم تكن موجودة من قبل أو أن بنية الدماغ قد تغيَّرت، بل يعني أن الشبكة أصبحت شكلا شائعا يميل إلى تحديد طرق فهمنا للعالم والعمل فيه (Hardt and Negri, 2004: 142).

في هذا الفصل سأُلقي نظرة على السؤال بشأن السبب الذي جعل الشبكات تصبح وسيلة شائعة لتحديد عالمنا. وأربط هذا الأمر جزئيا بظهور طرق في التفكير والتصرف مستمدة من تجاربنا مع الوسائط الإلكترونية الحالية. وتعد تكنولوجيات الاتصالات استعارة لغوية وتجسيدا ملموسا للعمليات التي أدت بنا إلى مجتمع ننظر إليه بوصفه شبكات. بيد أن فكرة الشبكة التي نستمدها من تكنولوجيات الاتصالات، مثل الإنترنت، هي نمط معين من شكل الشبكة، بل هي من النوع الذي، كما سأبين أدناه، يدفعنا إلى النظر إلى شبكات «الفضاء الحقيقي» بطرق غير مفيدة سوسيولوجيًّا، وتفشل في الاعتماد على التقاليد الأفضل والأكثر ثراء لإلقاء نظرة على تشكيلات الشبكة. وأزعم أن الاستبدال واسع النطاق لصورة الشبكة الاجتماعية بصورة الشبكة الإلكترونية يمثل اختزالا مفاهيميا ينتج عنه إغفالٌ لعدم المساواة وتسطيحٌ للجانب الاجتماعي. بالإضافة إلى ذلك فإن الأشكال المخففة من الألفة الاجتماعية التي يفترضها هذا النموذج غير محتملة سوسيولوجيا، وذلك على الرغم من اعتمادها على فكرة أن جميع العلاقات الاجتماعية هي إلى حدٍ ما مفيدة واختيارية ومضلِّلة، وتتجنب التركيز السوسيولوجي التقليدي على المجتمع والنظام والتضامن الاجتماعي.

الشبكات والمجتمع الثقافي المتخيَّل

إن أحد الأسباب التي أدت إلى توطيد شكل الشبكة بوصفه نموذجا أساسيا للحداثة هو أن الشبكات نفسها أصبحت ساحة معركة ثقافية أساسية. فمن ناحية تُعَد الشبكات في الخطاب التجاري كلمة «احتفالية» إلى حدٍّ كبير وفق تعريف وايت

(Whyte (2003، أي إنها كلمة تهدف إلى الحصول على الاستحسان بغض النظر عن السياق. إن الشبكات الاجتماعية التي أصبحت أكثر وضوحا من خلال تكنولوجيات الإعلام الجديد مثل الجيل الثاني من شبكة الإنترنت، كان المسوقون والعاملون في الصناعات الثقافية ينظرون إليها بعيونٍ حاسدة. لقد كانت المواقع التي يتمثل هدفها الرئيس في الارتباط والتشبيك الاجتماعي (مثل: فيسبوك، ومايسبيس، ولينكد إن) في طليعة محاولات «الرأسمالية الجديدة» لإعادة بناء الحياة الاجتماعية بوصفها فضاءً تجاريا، والتفاعل الاجتماعي بوصفه إعلاما «جديدا» يجب تحويله إلى حامل للدلالات التجارية، كما هي الحال مع جميع وسائل الإعلام السابقة.

أما في الخطاب المدني فقد أصبحت الشبكات بمنزلة تشكيلات اجتماعية مسيَّسة للغاية. وهكذا كما لاحظ دارين بارني (Darin Barney (2004، فإن الشبكات، عندما يُنظر إليها كما هي الحال في نظريات مجتمع الشبكات، بوصفها الشكل السائد للنظام الاجتماعي، لا تصبح مجرد شكل مماثل للأيديولوجيا، بل شكل من أشكال الأيديولوجيا. وبالنسبة إلى بارني فإن صورة الشبكة:

من خلال زعمها ببساطةٍ أنها تصف مجموعة من الديناميكيات الاجتماعية المعاصرة، فإنها تقدم نصا يحدد الأدوار والمعايير، والتوقعات، وشروط الحوار. إن التفكير من خلال نموذج الشبكة - بما تنطوي عليه من عُقد وروابط وتدفقات - يساعدنا بالتأكيد على فهم أمور كثيرة، على سبيل المثال، حول إعادة بناء المشروع والعمل الرأسمالي، وتفكيك سيادة الدولة، وبروز الحركات الاجتماعية الجديدة وآلية عملها، والممارسات الناشئة لتشكيل المجتمع المحلي. لكن عندما يُرتقى بفكرة كهذه من مستوى أداة استكشافية إلى حالة تمثل حقيقة اجتماعية وتاريخية شاملة، فإن وظيفتها تتغير بقدرٍ كبير (Barney, 2004: 179–80).

يعتقد مُنظِّرون آخرون أن استخدام الشبكات يعمل باعتباره وسيلة لإخفاء تشغيل القوة. وهكذا، على سبيل المثال، لاحظ ويثفورد (Witheford (1994 أن انهيار التسلسلات الهرمية التقليدية في أماكن العمل، وظهور أشكال الإنتاج الموزعة، والعمل المرن، وما إلى ذلك يؤدي بدوره إلى تحويل شبكات العلاقات المتبادلة، والتفاعلات والصداقات المتبادلة بين الناس إلى مواقع محفوفةٍ بالمخاطر من الخلاف حول الفضاء الشخصي وطبيعة العمومية والخصوصية والانقسام بين وقت العمل

والوقت الشخصي. نتيجةً لذلك يمكن القول إنه إلى حد كبير تغدو أشكال الاتصال محلا للخلاف، لأنها هي - وليس المعايير الاجتماعية أو الممارسات المؤسسية - التي تمثل القنوات الجديدة والرسمية للقوة والانضباط. لكن، في النتيجة، لا تتمتع أشكال المقاومة بخصمٍ ثابت أو مركز للمعارضة، ولكنها تواجه ما يشبه ثعبان العُدار متعدد الرؤوسً multi-headed hydra(*) الذي يتكون من روابط اجتماعية ومؤسسية خاصة به.

لقد أخذ علم الاجتماع منذ فترة طويلة على محمل الجد فكرة أن المزاعم الخاصة بالظواهر الاجتماعية يمكن أن تسبق تلك الظواهر، وأن يكون لها دور مركزي في تكوينها. بالطبع رُبط هذا الأمر في الأساس بمحاولة للقضاء عليها باعتبارها آفة تحليلية تعرض التحليل الموضوعي المناسب للخطر. وهكذا، بالنسبة إلى دوركايم على سبيل المثال، فإن ما يصفه بالأفكار المسبقة عبارة عن «حجاب أُقحم بين الأشياء وأنفسنا، فيخفيها عنا... أو أنها عبارة عن أفكار خطأ تشوه المظهر الحقيقي للأشياء، على طريقة المخلوقات التي تشبه الأشباح، ولكننا مع ذلك نحسبها الأشياء نفسها» (Durkheim، في Bourdieu, 1991: 94). يرى بورديو أيضا أن الاستعارات تعمل، بوصفها جزءا من الأشياء المصممة مسبقا، كما يسميها، على توجيه أفكارنا إلى أنماط مُسلَّم بها وتوجيهها إلى ردود أفعال مناسبة. على هذا النحو، فهي حامل فريد للأيديًولوجية التي تشكِّل جزءا من «المنطق السليم» common sense للعصر.

بالإضافة إلى ذلك، كما لاحظ جون دورهام بيترز John Durham Peters، فإن الاستعارات المستمدة من التواصل قوية جدا في هذا الصدد. «فالتواصل» هو الساحة المركزية التي تواجه فيها الحداثة طبيعتها الخاصة، حيث يرى أن «التواصل»:

> هو واحد من المفاهيم المميزة للقرن العشرين. لقد أصبح محوريا للتأمل في الديموقراطية والحب وفي زمننا المتغير. وبعض المعضلات الرئيسة في عصرنا، سواء كانت عامة أو خاصة، تتمحور على حصول التواصل أو على فساد هذا التواصل... «التواصل» هو سجل يحفظ رغباتنا الحديثة... فقط أتباع الحداثة هم الذين يمكنهم أن يواجه بعضهم بعضا ويكونوا قلقين بشأن «التواصل»، كأن هناك

(*) العُدار: هو في أساطير اليونان حيةٌ عظيمة قتلها هرقل، وزعموا أنها كانت لها تسعة رؤوس كلما قُطِع منها رأسٌ نبتَ آخر. [المحرر].

آلافَ الأميال تفصل بينهم. «فالتواصل» عبارة عن تشابك غني من الخيوط الفكرية والثقافية التي تجسِّد مواجهة عصرنا مع نفسه (Peters, 1999: 1-2).

هذا صحيح بنحوٍ خاص في حالة الإنترنت؛ لأنها بوصفها وسيطا، لا يُنظر إليها باعتبارها مجرد استعارة للحياة الحديثة فقط، بل أيضا باعتبارها مكونا لها. قد يبدو هذا الادعاء جريئا؛ لكنه مناسب على مستويات عدة. في المقام الأول سيطرت الإنترنت على الخطاب الشعبي سيطرة موثقة جيدا. تُعتبر الدراسات ذات الصلة غنية إلى درجة أنه لا يمكن الدخول في تفاصيلها هنا، ولكن لأغراض دراستنا يكفي أن نلاحظ أن الإنترنت تتمتع بمكانة عالية وفريدة في الخطاب الشعبي، بعد أن أصبحت مرادفا افتراضيا لكل ما هو حديث وعصري. ومن ناحيةٍ هذه المزاعم مستمدة من حقيقة أن الإنترنت هي رمز للبيئة الاقتصادية الواسعة. مثلما كان التلفزيون يلخص ذات مرة، ويكرس قيم المستهلك وممارساته في مجتمع جماهيري، فإن الإنترنت يمكن النظر إليها باعتبارها «الجهاز العصبي المركزي للرأسمالية الحديثة» على حد تعبير غيلدر (2002) Gilder. وكما قالت تيرانوفا:

> الإنترنت... ليست مجرد وسيط محدد، بل نوع من التنفيذ الفعّال لتقنية تصميم قادرة على التعامل مع انفتاح الأنظمة. لقد أنبأ تصميم الإنترنت بنحوٍ مسبق بتكوين فضاء إلكتروني إمبريالي جديد، تتمثل مَزِيَّتُه الرئيسة في الانفتاح الذي يمثل أيضا ميلا مبدئيا إلى التوسع (Terranova, 2004: 3).

وهكذا تتمتع الإنترنت بعلاقة رمزية بالرأسمالية المتأخرة، فهي ترمز إلى منطقها الأصيل المتمثل في الإنتاج المرن، وتداول السلع الرمزية، وتوسيع الاختلاف وإدماجه.

كما أن الإنترنت أساسية بمعنى آخر، فهي تعكس وتشكل أنشطة النخبة الثقافية وميولها، وهي طبقة تتميز ببراعتها في مجال الوسائط وبدهائها التكنولوجي، وتستمد قوتها الاجتماعية من هيمنتها على الصناعات الثقافية وقدرتها على الاستفادة من القوة الرمزية (انظر: Savage, 2000). وهكذا، على سبيل المثال، يؤكد أندرياس ويتل (2001) Andreas Wittel في مجادلته حول ظهور شكل جديد من الألفة الاجتماعية على دور النخبة الثقافية باعتبارها محرضة ومروِّجة لها. تتميز الألفة الاجتماعية للشبكة وفق «ويتل»، بأنها تتألف من تفاعلات سريعة الزوال، ولكنها مكثَّفة وتعتمد على تبادل المعلومات. وتتميز العلاقات بأنها تمزج بين السيناريوهات

المتعلقة بالعمل وغير المتعلقة به على حد سواء؛ وهي علاقات سياقية وفردية منفصلة عن الأشكال الاجتماعية المسموح بها تاريخيا، وتتخللها بشكل مكثف الأشكال التكنولوجية. ويصف ويتل الألفة الاجتماعية للشبكة بوصفها نموذجا للسلوك الاجتماعي والمشاركة الاجتماعية الأكثر شيوعا، وهي سمة من سمات الحياة في الصناعات الثقافية، خصوصا الصناعات الإعلامية الجديدة. وعلى الرغم من أنه يعترف بأن هذه الجماعات ليست تمثيلية، فهو يبين أن الألفة الاجتماعية للشبكة عبارة عن وسيلة تفاعلية ناشئة، حيث يقول إن «الألفة الاجتماعية للشبكة سوف تصبح الشكل الاجتماعي النموذجي للرأسمالية المتأخرة والاقتصاد الثقافي الجديد» (Wittel, 2001: 71).

وبالتالي فإن الوضع المركزي للإنترنت، ليس فقط في الخطاب الشعبي والاستهلاكي، ولكن بوصفها الوسيط الرئيس للاقتصاد الجديد وكبار مهندسيه والمستفيدين منه، يجعلها نموذجا متاحا بنحوٍ فريد من نوعه يمكن الوصول إليه عند التفكير في الشبكات. ولكن بقدر ما تشكل الإنترنت «المنطق السليم» للشبكات، فإنها، كما سأناقش أدناه، هي نفسها التي تتخذ طابعا جزئيا وأيديولوجيا.

الشبكات والأكاديمية

يتطابق المستوى الرفيع الذي تتمتع به صورة الشبكة في الخطاب الشعبوي مع المستوى الذي تتمتع به داخل الأكاديمية. إلى حدٍ ما يمكن أن يكون هذا مرتبطا بالانتشار الحالي للفيزياء الاجتماعية الجديدة، خصوصا العمل المرتبط ببعض المؤلفين، مثل باراباسي (2003) وواتس (Watts (2004، الذين ساعدتهم خلفياتهم باعتبارهم فيزيائيين في إثراء مقارباتهم السوسيولوجية للشبكات (Urry, 2004; Crossley 2005). ومع ذلك فإن هذا يعكس الاهتمام والحماس الأوسع نطاقا لفهم التعقيدات والخصائص الرياضية للحياة الاجتماعية، وهو السائد في هذا الوقت والذي هو في حد ذاته نتيجة لبدائل ناشئة وواسعة الانتشار من المقاربات العقلانية للحياة الاجتماعية مع اعتراف أكبر بأشكالها الفوضوية وغير العقلانية. لكن ما تتمتع به الفيزياء الاجتماعية الجديدة من انتشار حاليا يجب ألا يعمينا عن حقيقة أن للبحث في الشبكات تاريخا واسعا، وموجودا

في سياقات متعددة التخصصات. وبدءا من الرياضيات، ومرورا بعلوم الفيزياء، والإحصاء، والأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، ووصولا إلى الدراسات الثقافية، ثمة إشكاليات مكتملة بشأن النظر إلى الشبكات.

هناك العديد من المسارات في علم الاجتماع التي تؤدي إلى الاهتمام بالشبكات، حيث إنها نتيجة منطقية للعديد من مسارات البحث الحالية في هذا المجال. يربط كروسلي (Crossley 2008a: 88)، على سبيل المثال، بروز تحليل الشبكة بظهور رأس المال الاجتماعي بوصفه مشكلة في علم الاجتماع. أما بالنسبة إلى جون أوري John Urry، فهو يرى أن الاهتمام بالشبكات ينشأ من عدم الرضا عن الفئات الراسخة التي عفَّى عليها الزمن والتي كان علم الاجتماع مطالبا بالعمل معها. وبالإشارة إلى كاستلز، يقول أوري (2003) إن الاهتمام بالشبكات و«التعقيد» هو استجابة لحل الكيانات الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية التي كانت محدودة سابقا مثل الأمة، أو الشركة، أو الدولة. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ، على النحو المفصَّل أدناه، أن الزخْم المبكر وراء تطوير المقاربات الأنثروبولوجية لتحليل الشبكة كان ينطلق تماما من مجموعة المخاوف نفسها، أي الشعور بوجود تنافر عميق بين المجتمعات المحلية والممارسات الموجودة فعليا وبين الكيانات الأوسع نطاقا التي تُستخدَم لتمثيلها في التحليل العلمي الاجتماعي.

لكن، وكما لاحظ كروسلي (Crossley (2005, 2008a، فإن النطاق الواسع من المقاربات المتبعة في الشبكات لم يقدم الوضوح المفاهيمي، في حين استُخدمت «الشبكات» في البحوث الحديثة بطريقة مجزأة وغير متسقة. وقد يعزو بعضُ المعلقين بعضَ الصعوبات في صياغة استخدام متسق لفكرة الشبكة إلى الطابع الفضفاض لهذا المفهوم. لقد جادل واتس، على سبيل المثال، في هذه النقطة على وجه التحديد، مؤكدا «العمومية المطلقة» sheer generality لهذا المصطلح باعتباره سببا للاختلالات المفاهيمية (Watts, 2004: 27). ومع ذلك فمن المنطقي بالقدر نفسه القول إن هذا الالتباس المفاهيمي اللغوي هو مرتبط بحقيقة أنه على الرغم من وجود مجموعة متنوعة من التخصصات والمقاربات داخل التخصصات ولكل منها طريقة متطورة ومتَّسقة لتفعيل المفهوم، فإن هذه التخصصات والمقاربات تميل إلى التعارض فيما بينها. وهكذا، في علم الاجتماع، هناك ما لا يقل عن ثلاث

مقاربات متميزة للشبكات: المقاربة الأنثروبولوجية (وهي في حد ذاتها يمكن أن تنقسم إلى مقاربة بريطانية ومقاربة أمريكية (Wellman, 1988)، وتنظر إلى الشبكات بوصفها تجليات للبنية الاجتماعية ووسيلة لتشكيلها؛ ومقاربة الفيزياء الاجتماعية الجديدة (انظر أعلاه) التي تُفهم فيها الشبكات والجماعات باعتبارها آثارا للخصائص الحسابية في العمل الاجتماعي؛ والمقاربة المرتبطة بنظرية شبكة الفاعلين Actor Netwrok Theory (ACT)، التي تتحلل فيها الشبكات نفسها إلى عمليات، والمجموعات إلى عملية تكوين للمجموعات (انظر Latour, 2005). هذا من دون إضافة وجهات نظر من الدراسات الثقافية (على سبيل المثال: دولوز Deleuze وهارت ونيغري) أو التعقيد الذي تنطوي عليه التفسيرات المختلفة المتعددة لهذه المدارس المتنوعة. وهكذا فإن علم الاجتماع وحده هو الذي تصبح فيه فكرة الشبكات بعيدة كل البعد عن التطبيق البسيط. وتصبح الصورة أكثر تعقيدا عندما يجري النظر في مجموعة متنوعة من المقاربات من التخصصات الأخرى.

ماذا يعني أن ننظر إلى المجتمع كشبكة؟

إن وجود مجموعة متنوعة من المقاربات لتحليل الشبكات يجعل التعميم حول آثارها أمرا صعبا إلى حد ما. ومع ذلك فهناك بعض النقاط المرجعية الواسعة التي يمكن عزلها. سوف أبحث هذه الأمور أدناه على صعيد: أولا: طبيعة الموضوع في تحليل الشبكة؛ ثانيا: مسألة كيفية تطوير المعاني داخل الشبكات؛ وأخيرا طبيعة بنى الشبكة والانتقال من الأنطولوجيا إلى العملية ضمن المقاربات السوسيولوجية الحديثة للشبكات. ومع ذلك فإن السؤال الأول الذي يجب التعامل معه هو الوضع الذي يجب أن نمنحه لتحليل الشبكة، سواء أكان ذلك منهجا أم نظرية؛ لأنه على هذا السؤال تتوقف عديد من المقترحات الفلسفية المركزية لهذه المقاربة.

من المعقول أن نفهم مقاربات الشبكة باعتبارها مجردَ منهج. بالتأكيد كان علماء الأنثروبولوجيا الذين كانوا رواد تحليل الشبكات للجماعات الاجتماعية، مثل سيغفريد نادل Seigfried Nadel وجيه كلايد ميتشل J. Clyde Mitchell، يفهمون الشبكات بوصفها وسيلة للتحقيق أكثر من كونها مجموعة من الافتراضات

النظرية. بمعنى ما، وكما زعم سكوت (1991)، فإن التحليل الشبكي أو العلائقي يحتل موقعا مشابها، وإن كان انتقاصيا بنحوٍ جذري، بالنسبة إلى تحليل المتغيرات، مادام يشكِّل وسيلة متماسكة لمقاربة مهمةٍ تحليل المجتمع. وتعتمد مهمة إنتاج تحليل الشبكة على تأسيس العلاقة بين الخصائص ومؤشرات تلك الخصائص، وذلك بالطريقة نفسها التي يحدُث بها هذا الأمر من خلال تحليل المتغيرات. ويتضح هذا بنحوٍ أفضل من خلال إعطاء مثال. إذا كنا، كما هي الحال في الدراسات الكلاسيكية القائمة على المتغيرات، مهتمين بفهم انتشار العنصرية، على سبيل المثال، واخترنا استخدام عضوية المنظمات السياسية اليمينية المتطرفة باعتبارها مؤشرا إلى أن العضو فيها يمتلك مواقف عنصرية، سيكون تحليلنا صالحا فقط إلى الحد الذي اخترنا فيه مؤشرا عادلا بحيث يصبح معنى الانتماء إلى المنظمة مطابقا بالفعل للمعنى الموجود في ذهننا، وليس أن العضو كانت لديه دوافع أخرى (كأن يكون قد أخطأ في اختيار الحزب الوطني البريطاني (B.N.P) British National Party ظنا منه أنه اختار الصندوق الوطني، أو يكون قد انضم من أجل المشاركة في الأنشطة الاجتماعية للمجتمع بدلا من تبني الأهداف السياسية لهذه المجموعة). يعتمد تحليلنا أيضا على إثبات أن المؤشر الذي استخدمناه هو المؤشر الأكثر منطقية الذي يمكننا استخدامه. من المؤكد أن هناك نقاطا مماثلة فيما يتعلق بتحليل الشبكة. إذا كنا نستخدم، على سبيل المثال، تكرار تبادل التفاعلات باعتبارها مقياسا لوجود الارتباط أو قوته بين طرفين، فنحن في حاجة إلى إثبات أن هذا المقياس صالح. ولا يمكن إثبات هذه الصلاحية إلا من خلال دراسة التقييم الاجتماعي وحالة النموذج الذي يتخذه هذا التبادل. وهكذا، على سبيل المثال، قد يكون النظر في عدد عمليات تبادل الرسائل بين الأفراد مؤشرا صالحا حول تقارب العلاقات في مجتمع النخبة بالقرن الثامن عشر. ولكنه بالتأكيد لن يكون كذلك بالنسبة إلى النصف الثاني من القرن العشرين. وهذا يتوقف على المعنى المتغير المرتبط بالقناة الاتصالية للرسائل، التي تتحول من كونها شكلا من أشكال الاتصال اليومي إلى شكل آخر يُشار إليه بأنه غير شخصي أو مرتبط بالأعمال أو حميمي، من دون أن تكون هناك روابط تُذكَر بين هذه الأشكال، هذا إلى جانب تراجع كتابة الرسائل كممارسة، وهذا التراجع في حد ذاته يعود إلى حدوث تغيرات بنيوية واسعة النطاق.

بالإضافة إلى ذلك، وعلى عكس تحليل المتغيرات، فإن المؤشرات التي تستخدمها التحليلات العلائقية ليست مجرد علامات غير محتملة يمكن من خلالها قراءة التراكيب الكبيرة. بل هي في حد ذاتها مكونة للظواهر التي نبحث عنها لدراستها. لنأخذ العنصرية مثالا، ففي حين أن تحليل المتغيرات قد يستخدم عضوية الحزب الوطني البريطاني B.N.P مؤشرا للعنصرية، فإن التحليل العلائقي ينظر إلى «المواقف العنصرية» racist attitudes بوصفها شيئا ينبثق من العضوية، ومن شغل منصب في إحدى الشبكات التي تولّد هذه المعايير. في هذا الصدد تستند تحليلات الشبكات إلى مبدأ أن المعايير والقيم تنبثق من الموقع (انظر Wellman, 1988: 33). بالإضافة إلى ذلك، المقصود هنا هو شكل محدد من أشكال الموقع. وهذا الموقع لا يتحدد عبْر عوامل من خارج الشبكات، كما هو الحال بالنسبة إلى المكانة في الطبقة الاجتماعية، على سبيل المثال، بل يتحدد من خلال شغل منصب معين ضمن نمط من الارتباطات. وهذا يترتب عليه أمران. في الحالة الأولى تهتم تحليلات الشبكات بقدرٍ أكبر بالطريقة التي يحدث بها نمط التفاعلات والارتباطات، وهي نقطة سأعود إليها فيما بعد. وفي الحالة الثانية تهتم تحليلات الشبكات بتأكيد أن هوية الفاعل أو شكله أو طبيعته، بوصفه عقدة أو أن الرابط، بوصفه اتصالا، ليست كيانات محددة مسبقا، بل هي أشكال مرنة تنشأ من التفاعلات.

إن فهم هوية الفاعل في مقاربات الشبكة على النحو الذي يحدده الشكل والتكوين الكلي للشبكة ككل هو أمر أساسي. وليس الأمر كما هو بالنسبة إلى نماذج شبكات الإنترنت؛ فالشبكات تعمل فقط على ربط العُقد التي شُكلت مسبقا. بل إن الطبيعة الخاصة للعُقد تنبثق من النمط العام. وهذا يبدو جليا تماما من خلال صيغته الأكثر وضوحا، والمتمثلة في نظرية شبكة الفاعلين (ANT). وهذه المقاربة تجعل الموضوع يختفي نهائيا عن الأنظار لمصلحة الشبكة. وهكذا فإن:

> جميع الظواهر هي تأثير أو نتاج الشبكات غير المتجانسة. ولكن في الممارسة العملية نحن لا نتعامل مع تداعيات الشبكة التي لا نهاية لها. الواقع أننا في معظم الوقت لسنا في وضع يسمح لنا باكتشاف تعقيدات الشبكة. إذن ما الذي يحدث؟ الجواب هو أنه إذا كانت الشبكة تعمل باعتبارها كتلة واحدة، فسوف تختفي ليحل محلها الإجراء نفسه، والمؤلف البسيط، كما يبدو، لهذا الإجراء (Law, 1992: 5).

تطمس الشبكات، في نظرية شبكة الفاعلين، عند «ضبطها» أو إنشائها، هوية العُقد أو الأجزاء الفردية، وحصرها في دور محدد في الشبكة. هذه العملية التي يُطلق عليها اسم التدخل Interressment شرحها كالون Callon بنحوٍ جيد كما يلي:

> يمكن لكل كيان أُدرج عبْر هذه الإشكالية (التعريف الأصلي للموقف) أن يخضع لعملية الدمج في الخطة الأولية، أو على العكس من ذلك، أن يرفض تلك المعاملة من خلال تحديد هويته، أو أهدافه، أو مشاريعه، أو توجهاته، أو دوافعه، أو اهتماماته بطريقة أخرى... والتدخل هو مجموعة أفعال يحاول من خلالها كيان ما فرض هوية الفاعلين الآخرين وتثبيتها (Callon, 1986: 207–8).

في نظرية شبكة الفاعلين، يمكننا أن نرى المنطق المركزي للشبكات والذي يقول إن طبيعة العناصر التي تتكون منها تلك الشبكات، تنشأ مع الشبكة نفسها.

ومن هذا المنطلق، إذن، مثلما أن للمقاربات الشبكية رؤية واضحة لطبيعة الفاعل والفعل، فإن لديها أيضا رؤية لطبيعة البنية. على سبيل المثال، يميز مونج Monge وكونتراكتور (2003) Contractor تمييزا واضحا في دراستهما بشأن المنظمات بين التقليد الموقعي للبنية الاجتماعية والتقليد العلائقي. وفي المقاربات البنيوية الموقعية، والتي يرى مونج وكونتراكتور أنها شُخصت من خلال عمل بارسونز Parsons وأيضا فيبر، فإن الموقع داخل المنظمة يستوعب الفاعل إلى الحد الذي لا يعود يوجد فيه تمييز بين الفاعل والدور، لكن التقاليد العلائقية تتطلع إلى التفاعل بين الفاعل وموقعه البنيوي. فالبنى يُنظر إليها باعتبارها شيئا «يُنجز»، من خلال الاتصال والتفاعل، وليس شيئا يمكن من خلاله التعرف على طبيعة الفاعل. وكما يقول كروسلي:

> هذا يمثل تحديا للتعريفات «الجوهرية» للبنية باعتبارها «شيئا ما» عصيا على فهم أعضائه، ويؤثر فيهم ويحدد تصرفاتهم وأفعالهم. فالفاعلون لا «يتحللون» ولا يُختزَلون إلى مجرد «حاملين» للبنية. أما البنية فيُنظر إليها من الناحية العلائقية بوصفها نمطا من الروابط، ومادامت نمطا من أنماط الروابط بين الفاعلين من البشر (قد يكون الأمر كذلك متساويا بين المنظمات ومواقع الشبكة والدول القومية وما إلى ذلك)، فإن الروابط تظل عناصر فاعلة داخله: أي عناصر متفاعلة. بالطبع يتأثر

الفاعلون بعلاقاتهم/تفاعلاتهم، ويُعتبر الشكل العام للشبكة أمرا مهما بالنسبة إليهم، لكن وجود البنية لا يلغي الفعل؛ إذ تنشأ البنية بين الفاعلين وليس فوقهم. وهي تربط بينهم ولا تحل محلهم (355 :2005).

يقدِّم السؤال الذي يُطرح كثيرا عن «الثغرات» البنيوية والوسطاء مثالا جيدا على المشكلات التي تثيرها هذه المقاربة. ففي عديد من الشبكات يمكن أن تظهر «ثغرات» أو «فجوات» في شبكة الاتصالات، وقد لُوحظ أنه حيثما تظهر هذه الثغرات فإنها توفر فرصا للفاعلين «للتوسط» أو للتحكم في الروابط بين الآخرين. وهذا كان يُنظر إليه عادة، كما أوضح بيرت (Monge and Contractor, 2003: 144)، بوصفه مصدرا للقوة والتأثير داخل الشبكة، حيث يسمح لفاعل معين بالتأثير بشدة في أولئك الذين يربطهم وأيضا بالتأثير في تطوير الشبكة ككل.

ويوفر موقع الوسيط كثيرا من الفوائد المحتملة، بما في ذلك الوصول إلى المعلومات، والقدرة على تصفية المعلومات المقدمة للآخرين، والحصول على مزايا تنافسية من خلال معلومات حسنة التوقيت، وتجميع مركزية محسوسة، وهذا في حد ذاته يجلب أشخاصا محولين - أي الأشخاص الذين يبحثون عن ذلك الوسيط من أجل العمل معا لتحقيق أهداف مشتركة. قد يكون هذا موقعا قويا، على الرغم من أن كروسلي (2008b) يشير إلى أن هذا ليس هو الحال دائما، فمن المحتمل أن يكون الوسطاء غير قادرين على التصرف بسبب مطالب متعارضة وبسبب الحاجة إلى استرضاء أطراف متعددة غير متجانسة. ومع ذلك فإن النقطة الأساسية التي تهمنا هي أن «الوسطاء» عبارة عن أماكنَ محددةٍ بنيويا في الشبكة، ويُنشأون من خلال شكلها العام. لكن وجودهم يؤثر بعد ذلك في التطوير الإضافي لتلك الشبكة. إذن يمكن النظر إلى توزيع القوة داخل شبكة ما، وكذلك إلى ما إذا كانت العقدة الفردية قادرة على تحويل تلك الإمكانية إلى قوة فعلية، على أنهما نتيجة للشكل العام للشبكة.

إن رؤية البنية باعتبارها شيئا يؤدَى، في وقت معين، هي قراءة مختلفة تماما للبنية عن تلك الأكثر شيوعا في العلوم الاجتماعية اليوم. ويُنظر إلى البنية هنا، على حد تعبير رادكليف براون Radcliffe-Brown، باعتبارها «مجموعة العلاقات القائمة بالفعل في لحظة معينة من الوقت، والتي تربط بين بعض البشر» (Radcliffe Brown, 1940/1977: 224). وبالنسبة إلى رادكليف براون، فقد كانت مشكلة

تحليل المجتمعات هي فهمَ ما يجب استخدامه كوحدة تحليل. لقد كانت الصعوبة المركزية تتمثل في تحديد ما هو المقصود بالكيانات الكبيرة مثل «المجتمع»، أي ما إذا كان يمكن النظر إلى المجتمع بوصفه متطابقا مع كيان آخر، مثل الدولة القومية، أو ما إذا كان مطلوبا أن تكون وحدة التحليل أصغر حجما. فالوضع المتغير للدولة القومية في منتصف القرن العشرين والتفكك الأولي للفئات الاجتماعية التي كان مسلما بها في السابق شجعا على تطوير مقاربات جديدة. بالنسبة إلى نادل (1957)، كان تحليل الشبكات الاجتماعية وسيلة للتعامل مع هذه الظروف المتغيرة بنحوٍ تجريبي. وبدلا من محاولة استنباط مجموعة من الافتراضات النظرية أو العامة التي تسمح لنا بتعريف المجتمع بمصطلحات معينة والتحقيق حول من يرتبط بمن، فإن الأنماط الشاملة والقائمة للارتباط تسمح بتحديد تجريبي لمدى الجانب الاجتماعي وطبيعته.

إذن يسعى تحليل الشبكة بوصفها منهجا إلى تحديد الأشكال الاجتماعية تجريبيا. ومع ذلك فإن فهم المجال الاجتماعي باعتباره شيئا يؤدَى له ثلاث نتائج منطقية. فهو من ناحية أولى يعني أن طبيعة الشبكة وعُقدها وروابطها تتشكل من الشبكة نفسها وليست سابقة لها. ومن ناحية ثانية، كما جادل المنظرون أخيرا، هو يضع أجندة للنظر في الشبكات ولكن ليس من الجانب الأنثروبولوجي، بوصفها شيئا موجودا، ولكن باعتبارها شيئا ينشأ وإعادة إنشائه من خلال الأجزاء المكونة له. هذا بدوره يسلط الضوء على أهمية العمليات التي تحدث من خلالها عملية إقامة العلاقات والحفاظ عليها، وهو تغيير في التركيز من الأنطولوجيا إلى العملية، ومن البحث في الشيء الموجود إلى فحص النشاط. ومن ناحية ثالثة هو يشير إلى حقيقة أن الشبكات، باعتبارها مركّبا سوسيولوجيا، ليس لها «جانب خارجي». إذ لا توجد طبقة أخرى من المعنى ترافق الشبكة؛ بل كل المعاني تنشأ من داخلها.

الإنترنت باعتبارها شبكة

سابقا، في هذا الفصل، أشرتُ إلى الاعتماد واسع النطاق للاتصالات الإلكترونية بوصفها استعارة سائدة للتفكير في الشبكات بوجه عام. ومع ذلك، وعلى عكس

التركيبات السوسيولوجية للشبكات، تعمل الشبكات الإلكترونية وفقا لمنطق ومبادئ مختلفة تماما. سيُنظر في هذه الأمور أدناه ضمن إطار مسألتين: الأولى تتعلق بصنوف المنطق التي تشكل الشبكة نفسها، والتي، في حالة الإنترنت، يمكن فهمُها باعتبارها مدفوعة بعدم توافق العناصر وأنها مستنبطة خارجيا. والثانية ترتبط بوجود تباعد كبير بين صنوف منطق الاتصال داخل الشبكة، فهي تتميز بكونها طوعية ومتفردة على حد سواء.

في الحالة الأولى، ثمة تباينٌ جوهري بين الشبكات الإلكترونية والفضاء الحقيقي من حيث صنوف المنطق الأساسية التي يشكلها. وكما توضح تيرانوفا (2004)، فإن الأساس المنطقي لتنمية الإنترنت هو التوفيق بين العناصر المتغايرة من خلال إدخال بروتوكولات الترجمة. فشبكة الإنترنت باعتبارها وسيطا تتطور من خلال الحاجة إلى الجمع بين العناصر المتنوعة التي يجب أن تعمل معا، والتي مع ذلك تبقى خصائصها الفردية من دون تغيير من خلال موقعها المشترك في الشبكة. ومن هذا المنطلق توضح تيرانوفا:

> تحدث عادة عملية إدخال بروتوكولات جديدة بين الأنظمة أو إضافتها إليها، باعتبارها طبقة خفية، من دون مطالبة النظام الحالي بتجاهل مكوناته القديمة واستبدالها فورا بأخرى جديدة. وإذا ظهر عدم توافق فإنه ينتج عنه «تحفيز للتغيير» يتطلب مفاوضات فنية واجتماعية جديدة. لكن بوجهٍ عام يُدخل بروتوكول أو مستوى جديد يسمح لها جميعا - من خلال العمل بين مختلف الطبقات أو فوقها - بالتعايش تحت إطار مشترك واحد... وعدم التوافق، الذي يُفهم بوصفه توترا بين اللحظات المتباينة، لا يُتخلى عنه ولكن يُدخل إلى الشبكة من خلال عملية إضافة أفقية و/أو إدراج عمودي (Terranova, 2004: 59).

لذلك، فإن المشكلة في قراءة هذه الشبكة باعتبارها استعارة وتطبيقها على الحياة الاجتماعية هي مشكلة مزدوجة. ففي المقام الأول، لا يمكن فهم شبكات الفضاء الحقيقي باعتبارها بروتوكولات ترجمة. فنحن ليس لدينا مجتمع آخر نستخدمه لربط طبقات مجتمعنا الحالي معا. وفهم الأشكال الاجتماعية باعتبارها علائقية يعني الفهم أنه لا يوجد لها جانب خارجي، وأنه لا يوجد مصدر آخر للمعنى أو التنسيق يمكننا أن نلجأ إليه.

لكن عملية تشكيل الإنترنت تحدث على هذا النحو، أولا من خلال هذه البروتوكولات الخارجية، وثانيا من خلال السياقات الخطابية والثقافية التي يُتناول الإنترنت فيها. وهكذا، على سبيل المثال، تبلور شكل الإنترنت من خلال القيود التجارية. وسرعان ما سقطت «الرؤية» الأصلية للإنترنت، بوصفها شبكة موزعة، فريسة لمخاوف عملاق الاتصالات الحالي «إيه تي آند تي» AT&T من أنه لا ينبغي تطوير وسائط جديدة تشكل تحديا للحالة الاحتكارية التي تتمتع بها «إيه تي آند تي» (Barabasi 2003: 144). وفي حين أن المفهوم الأصلي للإنترنت كان سيُنظر إليها باعتبارها موزَّعة، حيث ترتبط كل العقد فيها بعضها ببعض، وذلك بغض النظر عن طول مسار الروابط أو عددها، فإن واقع الإنترنت اليوم هو أقرب إلى الواقع «المُوجَّه» directed؛ حيث تتوافر فقط بعض مسارات الارتباط، والعديد من هذه المسارات لا تسمح بالوصول إلا في اتجاه واحد. وهكذا، يصف باراباسي العلاقات بين ما يصفه بالنواة المركزية للإنترنت وبين مناطق الدخول والخروج in and out regions، التي يستخدم فيها مفاهيم من نظرية الرسوم البيانية graph theory. فمنطقة الدخول تتمتع بروابط تؤدي بها إلى النواة، ومنطقة الخروج لديها روابط تنطلق من النواة، لكن المنطقتين كلتيهما لا توجد بهما روابط تنتقل في كلا الاتجاهين. لذلك، على سبيل المثال، إذا وضعت على مدونتي رابطا يؤدي إلى موقع نواة، مثل «الجزيرة دوت نت» Aljazeera.net، أو «سي إن إن دوت كوم» cnn.com، فإني سأنشئ رابطا إلى تلك النواة، ولكن من المستبعد، للأسف، أن تشعر محطة سي إن إن بالحاجة إلى القيام بالمثل. وبالتالي هناك توجيه متأصل في تدفق المعلومات، والذي هو نتيجة للطريقة التي توجز بها شبكة الإنترنت علاقات القوة السابقة. وهذه بالطبع عملية تشكيل مستمرة. إن الإضفاء السريع للطابع التجاري على الإنترنت خلال أواخر التسعينيات وأوائل القرن الحادي والعشرين قد خلق مجموعة مجزأة من «الشبكات»، والتي أدى فيها الاهتمام المتخصص، إلى جانب بذل مزيد من الجهود لتوليد الإيرادات وحماية الملكية الفكرية من جانب موردي المعلومات، إلى زيادة العُقد المحمية بكلمة المرور أو المملوكة لجهات معينة. وبالتالي فإن شكل الإنترنت باعتبارها شبكة يتحدد بعمق من خلال القوى التجارية في الغرب. وبطبيعة الحال فإن النزعة التجارية ليست هي القوة الوحيدة الفاعلة.

وإذا ما بحثنا الأمر من منظور دولي، فإن المخاوف السياسية والرقابة غالبا ما تؤدي دورا أكبر في تحديد شكل الإنترنت باعتبارها شبكة، ما يؤدي إلى تكوينات مختلفة تماما. وبالتالي فإن شكل الإنترنت باعتبارها شبكة ليس خاصية ناشئة لروابطها، مثل الشبكات الاجتماعية. بل يتعين علينا أن ننظر إلى عوامل خارج الشبكة لكي نفهم كيف وصلت إلى الشكل التي هي عليه. ومضمون ذلك هو أنه بينما يعد تحليل الشبكة الاجتماعية بإيجاد طريقة للنظر إلى البنية من دون أن يطرح كيانا يكون «عصيا على فهم الناس» ويتمتع بوجود سابق لأفعالهم، فإنه لا يمكن رؤية الإنترنت على هذا النحو. وفي هذا المعنى، فهو نموذج مضلل لفهم الشبكات بوجهٍ عام.

والفرق الرئيس الثاني الذي تشير إليه تيرانوفا هو الافتراض أن العناصر غير المتجانسة ستحتفظ بهويتها الخاصة عندما تنفصل عن تلك الشبكة. تقول تيرانوفا إن التوتر المستمر بين الأجزاء هو «الثقافة» التي تنمو منها الإنترنت والروابط والبروتوكولات التي توفق بين الميزات المتباينة وغير المتوافقة وتترجمها. إذن فعند النظر إلى هذه الطريقة، نجد أن الإنترنت ليست أكثر من تلك البروتوكولات والروابط الخاصة بالترجمة، فهي عبارة عن بنية تحتية تقنية تتجنب إيجاد حل للجوانب غير المتوافقة. لكن شبكات «الفضاء الحقيقي» ليست كذلك. ففي المقام الأول، لا يمكن تأجيل إيجاد حل لعدم التوافق إلى الأبد إذا كنا نتعامل مع شكل اجتماعي مثل المجتمع. فالنظم الاجتماعية تتمتع ببعض الوسائل التي طُورت ورُصدت داخليا للتوصل إلى توافق في الآراء، حتى لو كان هذا التوافق هو مجرد تحديد للمجالات التي يمكن فيها قبول الاختلاف وعدم الانسجام، ولا يمكن أن يعتمد هذا التوافق على الوسطاء فقط. وفي المقام الثاني، وكما ناقشنا أعلاه، فإن شبكات الجهات الفاعلة البشرية ليست سوى وحدة معقولة من التحليل إذا انطلقنا من الفرضية القائلة إن الهوية و/أو السلوكيات هما نتاج لتلك الشبكة. فالتحليل البنيوي الموقعي يفترض سلفا أن المجال الاجتماعي ليس مجرد مجموعة من القنوات ولكنه أيضا يفرض مجموعة من التوقعات والقيود على من يشغل موقعا معينا. والتصميم الشبكي للشبكات الإلكترونية، كما ذكرت في أماكن أخرى (Cavanagh, 2007)، يُفترض أن يتمتع بدرجة كبيرة من التطوعية بحيث لا يمكن مقارنته بالعمليات الاجتماعية التي تشكل الشبكات الاجتماعية وتحافظ عليها.

وبالتالي تختلف شبكات الإنترنت عن الشبكات الاجتماعية مادام لا يُفهم أنها مقيِّدة. إن الصورة الشائعة للشبكات المنبثقة من نموذج الإنترنت هي تعدد الروابط البديلة والطرق المتعددة والعقد المتعددة القابلة للتبديل. يُنظر إلى شبكات الإنترنت من حيث أيديولوجية الإنترنت باعتبارها فضاء مفتوحا يكون فيها أي رابط ممكنا. وفي حين أن هذا لا ينطبق على شبكة الإنترنت في الحياة الواقعية، فإنه بالتأكيد لا ينطبق على شبكات الفضاء الحقيقية، التي يجب أن يكون للرابط أو الاتصال فيها درجة من التأثير في العمل، لكي يُعتبَر كذلك، وذلك سواء من خلال إنتاج القيم والمعايير أو من خلال تسهيل فرصنا و/أو تقييدها للحصول على المعلومات أو الموارد أو من أجل العمل.

وفي النهاية، كما هي الحال في نموذج شبكات الإنترنت، حيث يكون أي رابط ممكنا، فإن كل رابط ممكن أيضا على صعيد النظرية. وتختلف شبكات الإنترنت على صعيد كونها تمثل شبكة ثابتة، أي الشبكة التي تتحقق من خلال حقيقة الاتصال، وليس من خلال أي أنشطة أو سلوكيات ينطوي عليها ذلك الاتصال. يمكننا أن نرى أن منطق ذلك يُنفذ في أكثر أشكاله وضوحا في مواقع التواصل الاجتماعي عبر الإنترنت، مثل مايسبيس أو فيسبوك، التي «تعرض» العلاقات الاجتماعية فيها بدلا من تأديتها. إن المنطق الأساس لمواقع الشبكات الاجتماعية هو منطق الوصي، حيث يتمثل في صيانة وعرض فهرس محدود من الاتصالات والعلاقات. ويُحافظ على هذه العلاقات فقط، هذا إن حُوفِظ عليها أصلا، من خلال التفاعلات «منخفضة التكلفة»، والدخول في حوارات ومجاملات تنطوي على مستوى متدنٍّ من المشاركة. وهي موجودة لأن هذه هي الطريقة التي تسمح بها التكنولوجيا لأداء النشاط الاجتماعي، وليس لأن هناك قيمة معينة مرتبطة بها أو تطلعات منتظرة منها. ويمكن وصف هذه العلاقات في أحسن الأحوال بأنها علاقات ضعيفة، وأنها لا تتعدى مستوى المعارف. لكن كما أشارت هايثورنثوايت Haythornthwaite (2002)، فإن قدرة الإنترنت على دعم كثير من العلاقات الضعيفة ليست مؤشرا على إمكان تفعيل تلك العلاقات الضعيفة أو الكامنة وتحويلها إلى علاقات مستمرة. وبالتالي فإن شبكات الإنترنت، على عكس الشبكات الاجتماعية، ليست مقيدة نظريا، سواء من خلال التنميط الثقافي، كما هي الحال مع شبكات القرابة مثلا، أو

حتى من خلال العملية الحسابية البسيطة التي تحدد عدد العلاقات التي يمكننا الاستمرار بها في الحياة الحقيقية.

لذا، باختصار، فإن النزعة إلى رؤية شبكات الإنترنت بوصفها أنموذجا للشبكات بوجهٍ عام تنطوي على عدد من العواقب. في الدرجة الأولى تؤدي هذه النزعة إلى الحد من الثراء الذي تتميز به الحياة الاجتماعية، التي تشتمل على عديد من الروابط المتناقضة، التي يُعتبر بعضها أكثر تحديدا من بعضها الآخر، بل تجعل هذا الثراء يصل إلى مستوى الحضيض، حيث يُختزل الاتصال والمشاركة بـ «قابلية الوصول» reachability. ويتجاهل هذا الأمر الطرق المتعددة التي تنتقل بها السلطة داخل الشبكة، وأيضا أشكال الشبكة المتعددة - كالزُمَر والجسور والوسطاء والمنعزلين وما إلى ذلك - التي توجه تلك السلطة. وفي الدرجة الثانية، هذه النزعة تفترض على وجه التحديد الجوانب التي يُعتقَد أن تحليل الشبكة يبحث فيها، أي شكل المجال الاجتماعي ونمطه. وبالنسبة إلى المجال الاجتماعي فإن النظر إليه بوصفه شبكةً مثل شبكة الإنترنت يفترض مسبقا توافر درجة عالية من التطوعية فيما يتعلق بالاتصال والتفرد الاجتماعي. وهذا يقلل من أهمية الطبيعة المحدِّدة للبنى الاجتماعية، التي يُنظر إليها ضمن إطار الموقع الاجتماعي.

وبهذا المعنى يُعَد النظر إلى شبكة الإنترنت على نحو اجتماعي شكلا من أشكال «الإدراك المتعدد» multistable perception، حيث يتغير تفسير المرء استنادا إلى الجزء الذي يُحدَّد من الصورة باعتباره خلفية والجزء الذي يُحدد بوصفه الموضوع. وبالتالي، من ناحية، يمكن النظر إلى المجال الاجتماعي في «شبكة الإنترنت» باعتباره يجسد التحرر من الهويات والبنى التنميطية. والشبكة الشخصية المقصودة هنا هي تلك التي وصفها ويتل (2001)، وهي شبكة تكون فيها العلاقات عابرة وعميقة وتُنشَّط من خلال الاحتياجات الخاصة بـ «مشروع» ما أو بهدف اجتماعي معين. وهذه النظرة إلى الشبكة تؤكد الطبيعة التيسيرية للشبكات، بمعنى أن الاتصال يكون بمنزلة حافز للعمل. وتوفر العضوية الموارد، وإن كان ذلك من خلال اختزال الفرد إلى السمات التي يتمتع بها ضمن سيناريو معين. وبهذا المعنى، فإن المجال الاجتماعي يفضي إلى التمكين بدلا من التقييد، ويُنظَر إلى الحياة الاجتماعية باعتبارها توفر الفرص بدلا من الالتزامات المتبادلة التي تشكل جوهر التضامن

الاجتماعي. لكن إذا ما نظرنا إلى الأمر بطريقة أخرى، فإن تتبع شبكة من الاتصالات، وخاصة تلك التي يُنظر إليها باعتبارها سطحية تماما، ينطوي على خطر الحجب التام لغير المتصلين بالشبكة، أو الذين لا يمكن الوصول إليهم من خلالها. والتحليل السوسيولوجي الجيد للشبكة يجب أن يَعتبر أنه من البديهي أن تُنتقَى الروابط، وذلك إما من قِبل الفاعل، وإما من خلال مجموعة من الروابط المحتملة. وبالتالي فإن الروابط التي لا تُنتقَى يمكن أن تؤدي إلى تحديد شكل الشبكة تماما كتلك التي تُنتقَى نظرا إلى أن الاتصالات تشمل دائما التوجه نحو عقدة معينة والتوجه ضدها على حد سواء.

وكما رأينا في المناقشة أعلاه فإن هناك اختلافات جوهرية بين وجهات النظر السوسيولوجية للشبكات وبين الشبكات السوسيوتقنية التي تُدرك بشكل ملموس في تصميم الإنترنت. وما حاولتُ قوله هنا هو أن تبني الاستعارة المتمثلة بعبارة «شبكة الإنترنت» باعتبارها وسيطا قد يؤدي إلى تشويه الطرق التي ننظر بها إلى الجانب الاجتماعي، فنعمل لتعزيز التركيز على البُعد السوسيولوجي وتبريره بالنسبة إلى المتصلين، ونغامر بتجاهل غير المتصلين كافة.

12

كلمة ختامية: إضفاء الطابع الإعلامي على المجال الرقمي

نيك بريور وكيت أورتون جونسون

تجتمعُ هاتانِ المقالتانِ بفعاليةٍ كي تُشكِّلا دعوةً وتصحيحًا للمفاهيم، ولكنهما تطرحان أيضا مجموعة من الأسئلة المثيرة. إنهما تدعوان القارئ إلى التفكير فيما إذا كانت الابتكارات التكنولوجية تتلاقى حول الممارسات المعاصرة المحكومة بالوسائط، وذلك بطرق تعيد صياغة فهمنا للعلاقات الاجتماعية والثقافية. هنا تتطلب تقارير الحرب والشبكات الاجتماعية على حد سواء معالجة سوسيولوجية متميزة، لكنها المعالجة التي تمر بدقة بين مطرقة الحداثة (على سبيل المثال، التلويح من دون تبصُّر براية الجيل الثاني من شبكة الإنترنت) وسندان الركود المطلق، حيث بالكاد تغيَّر شيء. وبهذا المعنى

«إذا كانت التكنولوجيات والشبكات الرقمية «الأحدث» تمتلك طابعا إعلاميا يختلف اختلافا نوعيا عن ذلك الذي تتمتع به وسائل الإعلام «الأقدم»، فإن الهدف هو توضيح كيف ينعكس هذا الأمر على الممارسات اليومية للصحافيين»

فإنهما توضحان أهمية مقاومة التوصيفات غير الدقيقة لاستخدام الوسائط الرقمية التي تحل محل عمليات الفحص الدقيقة للممارسات المادية القائمة مع استخدام الشعارات المترهلة. إن اضطلاعهما بذلك مع الإصرار على أهمية تأطير المفاهيم يعزز ضرورة وجود علم اجتماع رقمي متناغم من الناحية النظرية، ولا تغيب عنه أبدا العلاقات المحلية. والجمع بين الشبكات واستخدام الوسائط والاتصالات يؤدي في النهاية إلى الربط بين ثلاثة مصطلحات معقدة ومتعددة الطبقات لها صفات مجردة، بالإضافة إلى استحضار عوالم حسية وملموسة ومادية.

يشترك الفصلان بهذا المعنى في الرغبة في اكتشاف الخصائص المحددة للمواقع والمجالات قيد البحث. في حالة ألن وماثيسون، حرص المؤلفان على وصف الطرق غير المتكافئة التي تتخلل عبْرها التكنولوجياتُ الرقمية الحربَ من أجل تجنب دمج الممارسات الفوضوية للصحافة ضمن مقدمة نظرية واحدة. والتصحيح هنا لا يستهدف فقط مقولة بودريار إن كل شيء عبارة عن محاكاة وصور زائفة، ولكن يستهدف أيضا تلك التحليلات التي تفترض أن وسائل الإعلام المعاصرة تلتزم بقوة موجهة تتمثل في الكفاءة أو السرعة (Virilio, 1997). وإذا كانت التكنولوجيات والشبكات الرقمية «الأحدث» تمتلك طابعا إعلاميا يختلف اختلافا نوعيا عن ذلك الذي تتمتع به وسائل الإعلام «الأقدم»، فإن الهدف هو توضيح كيف ينعكس هذا الأمر على الممارسات اليومية للصحافيين وعلى أساليب جمع الأخبار والتعامل مع الأجهزة الرقمية مثل أجهزة الحاسب الآلي المحمولة ووصلات الأقمار الصناعية ومحطات التلفزيون المحمولة. وهو أيضا توجه لإظهار - وليس إخبار - كيف أن آلية إعداد التقارير تواجه قيودا عملية تتضمن وجود مواعيد نهائية وقرارات تحريرية، بالإضافة إلى الأعطال التكنولوجية التي تقوِّض الكفاءة المفترضة لهذه الأجهزة. بعبارة أخرى، من وجهة نظر البنى التحتية التقنية فائقة التنقل، تبدو الأمور سلسة بنحوٍ مذهل، ولكن من منظور العمليات الروتينية التي تجري على أرض الواقع - والتي يسميها ألن وماثيسون «المادية الحية» lived materiality - فإن هذه الشبكات تواجه تحديات وعوائق من خلال ما ينطوي عليه العالم الحقيقي من حالات طارئة تتمثل في الحرب وإعداد التقارير.

وتضيف كافانا إلى ذلك تحذيرا في الوقت المناسب بشأن المزاعم القوية للشبكات الإلكترونية، بعد أن أصبحت ترتبط بالشبكات الاجتماعية «للعالم الحقيقي» وتثقلها. إن المشكلة هنا ليست أننا نفتقر إلى الأدوات الأكاديمية للتعامل مع الاتصالات الشبكية بوصفها جزءا لا يتجزأ من الجهاز التقني للحداثة. الواقع، كما تشير كافانا، أن مفهوم الشبكة أصبح من الأفكار المهيمنة على العصر الحديث - فهي كصورة تختزل مجموعة من الظواهر، بدءا من المعاملات الاقتصادية العالمية وصولا إلى الصداقات الشخصية. لكن هذا الانتشار الرمزي للشبكة يمثل إشكالية تكمن في أن الإنترنت، بوصفها نموذجا متميزا للشبكة، قد أصبحت ترمز إلى جميع العلاقات الشبكية، بما في ذلك الشبكات الاجتماعية وشبكات القرابة. وما يقع على المحك، بالنسبة إلى كافانا، ليس أقل من الاعتراف بأنطولوجيات مختلفة من الاتصال والارتباط والحضور عبر المجالات المعلوماتية والاجتماعية، حيث يُدمج بين هذه الأنطولوجيات عادة في خطوتين - أولا، من خلال القوة التأسيسية لصورة الشبكة، ثم من خلال الالتزام بأنطولوجيا مستوية للجانب الاجتماعي مرتبطة بمواقف مثل نظرية شبكة الفاعلين. بالنسبة إلى كافانا، إذا بدأنا بالاعتراف المضاد بالأنسجة المتشعبة والعلائقية للجانب الاجتماعي، فإننا سنجد مجالا لإجراء دراسة أشمل للتسلسلات الهرمية الاجتماعية والقيود البنيوية التي تنشط ضمن ما تسميه كافانا «الثراء المتمايز للحياة الاجتماعية (182).

ولكن هناك بعض القضايا البارزة التي يجب التفكير فيها هنا أيضا. يثير كلا المقالين مسألة ما إذا كانت لعلم الاجتماع مفردات غنية بما يكفي للتعامل مع نقطة التقاء الجوانب الاجتماعية والرقمية عندما يتعلق الأمر بفهم الشبكات المحكومة بالوسائط. لم يكن الجوهر الكلاسيكي لعلم الاجتماع مضطرا أبدا لتطوير تحليل عميق للوسائط والاتصالات، ومن ثم كان على هذا المجال الأكاديمي أن يتسلق على ظهر مجالات أكاديمية أحدث عهدا، مثل الدراسات الثقافية والدراسات الإعلامية، ويستعير المفاهيم منها - والدور الذي مارسه إنشاء مركز الدراسات الثقافية المعاصرة Centre for Contemporary Cultural Studies ودراسة مارشال ماكلوهان Marshall McLuhan كان له تأثير كبير في هذا الخصوص.

قد يتساءل المرء منطقيا، في هذا السياق، عن أنواع المفاهيم في مختلف التخصصات الأكاديمية التي يُنصح بالتوليف بينها لإعطاء التعقيد الذي تمتاز به العوالم الثقافية الرقمية حقه، كما قد يتساءل عن الدور الذي يجب أن يؤديه علم الاجتماع في هذه التوليفة. يتمثل أحد الخيارات، الذي أُلمِح إليه بالفعل، في تنصيب علم الاجتماع باعتباره نوعا من الرقيب التجريبي ضد المواقف الفلسفية المرتبكة. ومن ناحية أخرى قد يتخيل المرء علم الاجتماع وهو يقدم ردا على القراءات الاختزالية والتدرُّجية للاتصالات مثل قراءة كيتلر Kittler، التي بموجبها «تحدد وسائل الإعلام موقفنا» (Kittler, 1999: xxxix). الواقع أنه كان الدافع الجزئي لظهور دراسات الجمهور في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين هو رغبة سوسيولوجية في فهم المستهلكين النهائيين لوسائل الإعلام بوصفهم مشاركين نشطين في معاني وسائل الإعلام، وآثارها، بدلا من افتراض أن هذه المعاني بدأت وانتهت بالنصوص نفسها. لكن هذا يشكل نسخة جزئية للغاية من الإمكانيات التي يتمتع بها علم الاجتماع، مع ما يصاحب ذلك من خطر تحويله إلى مجرد قناة وضعية.

هل نحتاج أصلا إلى علوم اجتماع جديدة لشرح وسائل الإعلام الجديدة؟ ألم نعُد إلى المفاهيم القديمة التي تعتمد على الاهتمامات السوسيولوجية الأساسية حول الشبكات والقوة وبناء المعرفة؟ قد يرى المرء بالفعل في ظهور الإعلام الرقمي فرصة لهذا التخصص الأكاديمي كي يعود إلى المقاربات الراسخة للمعرفة والتمثيل، التي شغلت بعض المجموعات مثل مجموعة غلاسكو الإعلامية Glasgow Media Group، أو على الأقل لإظهار كيف تتقاطع شبكات القوة مع العوالم الرقمية وفقا لأنماط التحكم والتعبير الراسخة للمقاومة.

ثم هناك السؤال الأساسي حول العناصر التي يتكون منها «التوسُّط» في الواقع. لقد حتَّمت العودة إلى فهم مادية الوسائط التعامل مع البيئة المعقدة للأنظمة الإعلامية، بما في ذلك الإنتاج (بالمعنى الأوسع) للنصوص الإعلامية في مؤسسات وبيئات محددة. هنا أصبح مفهوم التوسُّط إحدى الطرق لتفسير كيف يترجم البشر والأشياء بعضهم بعضا. وفقا لدراسة هينيون Hennion (1997)، على سبيل المثال، وعلى عكس مفهوم الوسيط الذي يوجد فيه شخص أو مرحلة بين الشيء والجمهور، فإن فكرة التوسُّط تعترف بأن هذه الأخيرة عبارة عن عملية تُحدث

تغييرا فعالا في الشيء الذي تتوسَّطه، فهي عبارة عن «حدث يحدث إرباكا في ما يدخل وما يخرج» (Hennion and Latour, 1993: 21). وهذا يعطي المفهوم قوة وفعالية تفسيرية أكبر وذلك من خلال تجاهله للفكرة الداخليانية internalist idea(*) لوسائل الإعلام بوصفها مستقلة جذريا، وكذلك فكرة أن أشكال وسائل الإعلام هي انعكاسات جامدة للمجتمع. وإلى جانب مفهوم «القدرة»، وهذه استعارة أخرى لكن هذه المرة من علم النفس الإدراكي perceptual psychology عند غيبسون (1966)، حيث تعمل الأشياء على «تجهيز» الأحداث بدلا من تحديدها، فقد حقق علماء اجتماع الإعلام بعض التقدم في فهم العلاقات الثنائية بين الحياة الاجتماعية والأشكال الاتصالية عبر مختلف أطياف وسائل الإعلام والثقافة الشعبية (DeNore 2000, Born 2005).

لكن مفهوما حديثا كالتوسُّط لايزال في حاجة إلى أن يكون متقنا في مواجهة المجالات والأشياء الجديدة، وهذا هو الحال بنحوٍ خاص فيما نسميه مؤقتا «العصر الرقمي»، حيث ينشأ توتر بين النظرة التقليديةً للإعلام كمواقع محددة لإنتاج المنتجات وتوزيعها واستهلاكها، وتلك التي ترى أن بيئات الإعلام تمثل فرصا للمشاركة والتفاعل والإبداع. وفي هذا الباب يعبر الفصلان عن نسخ مختلفة إلى حد ما من الشبكات والتكنولوجيات الرقمية. فمن ناحيةٍ الإنترنت عند كافانا تتشكل بنحوٍ أساسي من خلال القيود التجارية الخارجية و«أنشطة وتفضيلات النخبة الثقافية، وهي طبقة إعلامية بارعة وذكية من الناحية التكنولوجية تستمد قوتها الاجتماعية من هيمنتها على الصناعات الثقافية» (172). مثل هذا التوصيف هو في جزء منه انتقاد للموجة الأولى من الاحتفالات الإلكترونية الطوباوية بالإنترنت بوصفها مكانا رائدا وغير محدد يُلغى فيه التسلسل الهرمي للعلاقات وتتكاثر الهويات بلا حدود. كما إنه يمثل اعترافا بأوجه عدم المساواة المستمرة في مجال محو الأمية الرقمية عند شعوب العالم غير المتجانسة، وذلك بشكلٍ يستنسخ أشكال تفاوت القوة في البنى الاجتماعية الاقتصادية بوجهٍ عام (van Dijk، هذه المجموعة).

(*) الداخليانية internalism هي رؤية فلسفية تعني أنه لا توجد حقيقة بشأن العالم تستطيع تقديم الأسباب التي تسوِّغ العمل بنحوٍ مستقل عن المعتقدات والرغبات. أما الخارجيانية externalism، وهي نقيضها، فترى أن الأسباب يجب أن ترتبط بالسمات الموضوعية للعالم. [المحرر].

من ناحية أخرى فإن الإنترنت، كما يراها ألن وماثيسون، تشكل جزءا من بيئة الإعلام الجديد، التي «تعيد تشكيل هندسة القوة الاتصالية». هنا يحدد المؤلفان الطرق التي أدى بها انتشار الأجهزة الرقمية مثل الهواتف المزودة بكاميرات، والمواقع مثل يوتيوب ولايفليك، إلى إتاحة الفرص للجنود لتحميل تقاريرهم الإخبارية وصور الحرب الخاصة بهم من دون وسيط. وهذا لا يمثل فقط تهديدا للروايات المرخَّصة والمنقحة للحرب من مراكز القوة، حيث تقوم «سياسات التوسط» بتعقيد الخطابات العسكرية الملتزمة (166)، ولكنه قد يطمس أيضا الحدود الفاصلة بين مزودي المحتوى والجماهير بطرق مثيرة للاهتمام. مرة أخرى، وبينما يعيدنا هذا الأمر إلى الاهتمامات السوسيولوجية القديمة حول القوة وإنتاج المعرفة، فإننا نجد أنفسنا أيضا في مواجهة الإشكالية المتمثلة في فكرة أن تكون هناك وسائل إعلام قائمة على الفروق القديمة بين المنتجين والمستهلكين.

في هذه المرحلة حدث التجاوز لنموذج النشر الجماهيري، الذي تُكلَّف فيه وسائل الإعلام بتقديم رسائل مستمرة إلى الجماهير الكبيرة، وذلك من خلال رؤية أكثر تعقيدا وديناميكية وتشاركية لتكنولوجيات الإعلام الرقمي بوصفها سلسلة من الروابط والعقد المعولمة التي يضطلع الناس من خلالها برعاية العلاقات، والبحث عن المشورة وتقديمها، وصياغة المعلومات والفضاءات الرقمية الخاصة بهم. لقد كان ظهور ما يسمى بالمواقع الإخبارية «البديلة» أو «المستقلة» أو «المعارضة» مثل ناوبابليك NowPublic وديجيتال جورنال DigitalJournal وإنديميديا Indymedia يعتمد إلى حد كبير على أنشطة الهواة والمتطوعين بدلا من المراسلين المحترفين والمحررين والناشرين. وتشكل شبكة المعلومات غير المركزية بنحوٍ متزايد ما يطلق عليه البعض ظهور صحافة «المواطن» أو الصحافة «التشاركية»، حيث يتحد المحتوى الذي ينشئه المستخدمون (بدءا من المدونات الشخصية ومقاطع الفيديو، وصولا إلى التقارير الإخبارية المحلية، ومواقع الأخبار المُساهمة) مع ما يطلق عليه «وسائل إعلام نحن» we media لإنشاء شبكة واسعة الانتشار من الأخبار من دون وجود إشراف رسمي من هيئات التحرير أو أي عمليات تنقيح.

لقد أضاف ظهور مواقع التدوين المصغر مثل تويتر مستوى من الفورية إلى التقارير الإخبارية على أرض الواقع، وعزز دائرة أكثر انتشارا من المشاركة والاشتراك

بين مراكز المعلومات الرئيسة وأطرافها الأكثر تفاعلية، ولكنها ذات تأثير متزايد. وفي حين أن هناك ادعاءات مبالغا فيها بشأن دور مواقع الإعلام الاجتماعي مثل فيسبوك وتويتر في الانتفاضات الأخيرة في الشرق الأوسط (بالإضافة إلى أعمال الشغب التي وقعت في لندن في العام 2011، حيث أُلقي اللوم على شبكة بلاكبيري مسنجر Blackberry Messenger في تحفيز السلوك المشاغب)، فإنه من الواضح أن هذه المنصات كان لها تأثير في تسهيل أعمال مجتمعات «العالم الحقيقي». وفي الوقت نفسه لاتزال حدود التوتر قائمة حول التحكم في المحتوى الحساس، وحرية المعلومات في السياقات الرقمية. إن قضية موقع «ويكيليكس» التي نُشرت على نطاق واسع - وهو الموقع الإلكتروني الذي يسمح للمستخدمين المجهولين بفضح المعلومات السرية في الأغلب عن الأنشطة الحكومية - تعيد من نواحٍ كثيرة النقاش الدائر حول التعددية الإعلامية وملكية مؤسسات الإعلام والسيطرة عليها، لكنها تثير أيضا أسئلة مثيرة للاهتمام حول أخلاقيات صحافة «المصدر المفتوح open-source» والصراعات المستمرة المهيمنة على المعلومات نفسها.

إذا كان الإعلام الجديد واستخدامات تكنولوجيات الاتصال الرقمية تعمل من بعض النواحي على تعريض المعلومات لنموذج إنتاج أقل ارتباطا بالمؤسسة، فإننا لانزال في حاجة إلى تتبع نطاق هذه التطورات وشكلها بدقة بين مجموعة من السكان والمستخدمين. إن المفردات الجديدة التي تدور حول المستخدمين التشاركيين لم تضعهم في صورة منتجين أو مستهلكين، بل بوصفهم «مستهلجين» prosumers (أي المستهلكين ـ المنتجين) – وهم عبارة عن مستهلكين تفاعليين ومبدعين يعتمدون على الثقافة الحالية ويلائمونها للعب بالأشكال الهجينة أو لخلق مثل هذه الأشكال (Ritzer and Jurgenson, 2010). يوصف المستهلجون بأنهم متعاونون نموذجيون يتجمعون في مجتمعات متصلة بالإنترنت وأخرى غير متصلة بها للاضطلاع بمهام نشر الديموقراطية، ومن المرجح أن يشاركوا في بناء المواد الثقافية وتصنيفها ومراجعتها. وبدءا من تحميل روايات شهود العيان وتحرير مواد ويكيبيديا، وصولا إلى المشاركة في برمجيات المصدر المفتوح والمشاركة في برامج تلفزيون الواقع، فإن ممارسات الاستهلاج (أي الاستهلاك والإنتاج) يُزعم أنها تعيد تشكيل البنية الأساسية للمشاهد الإعلامية المعاصرة، وكذلك النظريات الاجتماعية

اللازمة لوصفها. ولكن لايزال من غير الواضح مدى فائدة هذا المصطلح في وصف سلالة جديدة من المستهلكين النشطين الذين يتمتعون بالإمكانيات الرقمية، أو حتى وصف «نموذج جديد» للاقتصاد. لايزال يتعين الاضطلاع بمزيد من العمل للتأكد من هوية هؤلاء المستهلجين بالضبط، وأنماط توجهاتهم، وما الذي يميزهم - إن كان هناك تمييز- عن المشجعين التقليديين ومجتمعات ما قبل الجيل الثاني لشبكة الإنترنت (Orton-Johnson and Prior, 2011).

ثمة سؤال آخر بارز يدور حول مصير الإعلام «القديم» في أنظمة الإنتاج الرقمية – ما إذا كانت هذه الوسائط قد أصبحت قديمة، أو عُيِّن وضعٌ مختلفٌ لها في عمليات الابتكار والتكيف وإعادة الابتكار. إن التركيز على تبني المعلومات الثقافية، أو حتى إعادة توجيهها، يوحي، في نهاية المطاف، بنوع من إعادة إضفاء الطابع الإعلامي remediation على المحتوى. الواقع أن مفهوم إعادة إضفاء الطابع الإعلامي قد أصبح بمنزلة إضافة أخرى حديثة إلى مجموعة الأدوات المفاهيمية للباحثين في مجال الإعلام. وكما أوضح بولتر Bolter وغروسين Grusin، فإن مصطلح «إعادة إضفاء الطابع الإعلامي» يشير إلى الطرق التي يضطلع بها الإعلام الجديد «بإعادة تشكيل الإعلام القديم، والطرق التي يعيد من خلالها الإعلام القديم صياغة نفسه لمواجهة تحدي الإعلام الجديد» (Bolter and Grusin, 1999: 15). بمعنى آخر فإن إعادة إضفاء الطابع الإعلامي هي التفاعل المستمر بين وسائل الإعلام، بحيث تصبح إحدى أنواع وسائل الإعلام ممثلة في نوع آخر – مثل تحميل الصور من المجلات، أو الأرشفة الرقمية للكتب. هنا تحدث استعارة المحتوى الموجود، أو مزاوجته، أو أخذ عينات منه، أو إعادة مزجه لإنشاء علاقات جديدة ومحتوى جديد.

من وجهة نظر تاريخية ليس هناك ما هو جديد تماما حول هذه التعديلات الإبداعية. وفي كثير من النواحي تتبنى معظم الحركات الفنية الطليعية هذا المنهج المتفرد. لكن بولتر وغروسين يَعتبران أن الأدوات الرقمية جعلت إعادة إضفاء الطابع الإعلامي السمة المميزة للعمل الإبداعي المعاصر في الثقافة الإعلامية من خلال الاستفادة من المزايا التكيفية لبرمجيات التصميم التشاركي وإنشاء/إعادة إنشاء المحتوى الرقمي. فقد أصبحت هذه الأنواع من التدخلات

لإعادة إضفاء الطابع الإعلامي أكثر سهولة نظرا إلى أن التكنولوجيات ومنصات الإعلام المتاحة تنشط ويتداخل بعضها مع بعض - مما يؤدي إلى ظهور مصطلح آخر، وهو «ثقافة التقارب» convergence culture (Jenkins,2006). لكن بالنسبة إلى جينكينز Jenkins فإن التقارب ليس مجرد مسألة تكنولوجية تجمع بين العديد من وظائف وسائل الإعلام، كما هو الحال مع هواتف الجيل الثالث، بل هو يحدث في إطار الممارسات التكيفية لمتصفحي وسائل الإعلام الذين تتزايد مهاراتهم في هذا المجال، ولاسيما من خلال تفاعلهم مع الآخرين. والتحول إلى مجموعات إبداعية تتمتع بقدر أكبر من التنظيم الذاتي يشير أيضا إلى نماذج اقتصادية متغيرة لوسائل الإعلام تتفتت فيها البنى المتكاملة للصناعة متحولة إلى صناعات أصغر حجما وأكثر ذكاء ومرونة.

الواقع أنه ربما تكون الحاجة الدائمة إلى الارتباط بالآخرين، والتصفح المتواصل لوسائل الإعلام عبر الإنترنت وخارجها، هي المجال الأبرز الذي يحفز علماء الاجتماع على التنظير بشأن الأشكال المتغيرة للتفاعل والتواصل. إن طبيعة هذه التفاعلات ونطاقها ومداها العالمي هي المجال الذي يحتاج ظهور الوسائط الرقمية فيه إلى مفاهيم قوية وبحوث متعمقة وكذلك إلى إدراك أن العديد من الموضوعات السوسيولوجية الأساسية - مثل المجتمع والهوية والتفاعل والإدراك المباشر - جاهزة بالفعل لتطويرها وتحسينها.

على أقل تقدير توفر هذه التطورات فرصا لطرح الأسئلة التي تشكل جوهر الخيال السوسيولوجي وإعادة النظر فيها، وكذلك معرفة ما ينبغي تعديله أو التخلي عنه خلال هذه العملية. لقد تجاوزنا بمسافة طويلة تلك المرحلةَ الأولى من الوعود الطنانة للتكنولوجيا الرقمية، مع ما صاحب ذلك من تصورات متهافتة للعالم «الافتراضي» كانت بعيدة كل البعد عن «الحقيقية». فكل الأوهام التي تحدثت عن التحرر الكامل من الجسد وعن الانغماس الحسي لم تتحقق، كما لم تتحقق الرؤية حول ابتكار طائرة رقمية سلسة تتمتع بإمكانيات لانهائية. ولكن هذا لا يعني أن الأشكال التعبيرية للثقافة الإعلامية لم تتعرض لتحولات مفاجئة، أو تشهد ظهور أشكال مختلفة من التجمع والسياسة المعارضة والتكوينات الثقافية البديلة. وإذا كان هناك بالفعل أي معنى على الإطلاق في تحديد «نموذج للثورة الرقمية»

(Jenkins, 2006: 6)، فإنه بالتأكيد أكثر وضوحا في التغييرات التي تطرأ على كيفية إعادة تشكيل صناعات وسائل الإعلام وتقنياتها وممارساتها ومستهلكيها.

ومع ذلك من الواضح أنه لايزال هناك الكثير من العمل الذي يجب الاضطلاع به في تمهيد الطريق لتأسيس علم اجتماع شامل ودقيق للعوالم الرقمية والإعلام الرقمي. فنحن لانزال في حاجة إلى استكشاف الطرق الشائعة التي يتفاعل بها المستخدمون مع وسائل الإعلام القديمة والجديدة من دون إغفال الروابط مع السياقات السوسيواقتصادية الأوسع نطاقا، بما في ذلك ظهور ما يطلق عليه ثريفت اسمَ «رأسمالية المعرفة» (Thrift, 2005) التي هي أيضا جاهزة جدا لاستقطاب المحتوى الذي ينشئه المستخدمون واستغلاله لتحقيق غايات ربحية خاصة بها. يجب أيضا أن نفسح مجالا للتحولات في وسائل الإعلام التي لا يمكن التنبؤ بها أو التي تتوقف على التفاعل المستمر، ليس فقط بين التغيرات التكنولوجية، ولكن أيضا بين النتائج غير المقصودة والمجتمعات المتخيلة التي يبتكرها المستخدمون العاديون. هذا هو السياق الذي يشكل فيه هذان الفصلان تدخلا نبيلا في هذا المشروع المستمر، وهو مشروع مازالت له إحداثيات سوسيولوجية ملموسة.

الباب الخامس

الممارَسات

13

إعادةُ النظرِ في التعليم في العصر الرقمي

نيل سيلوين

«التعليمُ يقفُ على حافةِ التغييرِ من خلال تكنولوجيات التعلُّم؛ ولكن وجوده على تلك الحافة مضت عليه الآن عدة عقود»

مقدمة

لقَد ظلَّ الاستخدامُ التعليميُّ للتكنولوجيا على هامش الاهتمامِ السوسيولوجي لعدةِ أسبابٍ مفهومةٍ تماما. يقدِّم التعليم دراسة حالة مخيبةً للآمال إلى حدٍّ ما بشأن المجال التكنولوجي مقارنة بالمجالات الأخرى في المجتمع. ويُنصح علماء الاجتماع الراغبون في الحصول على رؤى ثرية حول الطبيعة الديناميكية لاستخدام التكنولوجيا في الحياة اليومية بالبحث في مكان آخر. في المقابل فإن السرديات الكبرى التي تُهيمن على الدراسات السوسيولوجية للتعليم نادرا ما تتطرق إلى استخدام التكنولوجيا. على مستوى التحليل الجزئي يواصل علماء اجتماع

التربية توجيه انتباههم نحو تحليل القضايا الدائمة المتمثلة في عدم المساواة، والمقاومة، والهوية، والثقافة التي تحدد عمليات «الاضطلاع بالتعليم» وممارساته. من ناحية أخرى لاتزال الدراسات على مستوى التحليل الكلي تتمحور حول قضايا الحراك الاجتماعي والتدرج الطبقي المستحكم للفرص والمخرجات التعليمية (انظر: Delamont, 2000). وفي حين أن «التكنولوجيا» متعلقة بالعديد من هذه القضايا فإنها ببساطة لم تحقق أي أولوية محددة ضِمن هذه الدراسات(*). لكن في الوقت الذي يمكن القول فيه بأثر رجعي إن تكنولوجيات المعلومات «الجديدة» في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي كانت أكثر من مجرد إضافات رمزية للأوساط التعليمية، فإن التكنولوجيا الرقمية تشكِّل الآن وجودا متزايدا ضمن عمليات التعليم المعاصر وممارساته؛ ومن ثم فقد يكون حتميا أن تحتل الجوانب التكنولوجية مكانة أكثر وضوحا في علم اجتماع التربية، مع تقدُّم القرن الحادي والعشرين. على هذا النحو يقدِّم هذا الفصل بعض الأفكار حول مكانة التكنولوجيا الرقمية ضمن الفهم السوسيولوجي الجديد للتعليم المعاصر.

يتناول هذا الفصل أولا الفكرة السائدة المتمثلة في أن التكنولوجيات الرقمية تعيد تركيز العمليات والممارسات التعليمية بطريقة أو بأخرى بعيدا عن مصالح الجهة المنتجة المهيمنة على المؤسسة والدولة والاقتصاد وتوجهها نحو «إضفاء الطابع الفردي» personalisation والديموقراطي للتعليم حول مصلحة المتعلم الفرد. وعلى الرغم من أن هذه التقارير عن «التعليم الرقمي الجديد» تُعتبَر مثيرة للجدل إلى حدٍّ

(*) عند تسليطنا الضوءَ على ضعف الاهتمام بتكنولوجيا التعليم في الأدبيات السوسيولوجية، فنحن ندرك جيدا ذلك التقليد الخاص بالتحليل الاجتماعي النقدي لتكنولوجيا التعليم والذي ازدهر فترةً قصيرة في أواخر الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين. الواقع أن أي شخص يسعى إلى فهم المشهد المعاصر لتكنولوجيا التعليم تجدُر به العودة إلى التحليلات العميقة لـ «الحوسبة التعليمية» و«أجهزة الكمبيوتر المصغرة micros في المدارس» قبل الإنترنت، والتي يقدمها كُتَّاب من أمثال سي إيه باورز CA Bowers، ولاري كيوبان Larry Cuban، وستيفن هوداس Steven Hodas، وستيفن كير Stephen Kerr، وهانك بروملي Hank Bromley، ومايكل آبل Michael Apple، وكيفن روبنز Kevin Robins، وفرانك وبستر Frank Webster. جميع هؤلاء الكُتّاب قدموا مقالات نقدية سوسيولوجية مصوغة بعناية ومتنوعة على نطاق واسع بشأن تكنولوجيات التعليم المستخدمة في أزمنتهم. لكن رأى جميع هؤلاء المؤلفين تقريبا كيف قوبلت طروحاتهم بالتجاهل من قبل مجتمع التعليم الأكاديمي السائد فقرر معظمهم على وجه السرعة التوقف عن تناول تكنولوجيا التعليم باعتبارها مجالا مثمرا للدراسة. وحقيقة أن أمثال آبل، وبروملي، وكير، وكيوبان لا يعلقون على التجاوزات الحالية لتكنولوجيات الجيل الثاني من شبكة الإنترنت في مجال التعليم هي أمر مخيب للآمال - فقد أضحت الدراسات المتعلقة بالتعليم والتكنولوجيا أكثر فقرا في غيابهم. [المؤلف].

كبير، فإنه تُلفت الأنظار إليها حتى في أرقى المناقشات التعليمية التي تجري في معظم البلدان. ولذلك يواصل هذا الفصل تأييد دور علم الاجتماع في توفير ردود مستنيرة على هذه التقارير التي غالبا ما تتسم بالتكهنات، ولا تستند إلى الأدلة حول التعليم في العصر الرقمي. وكما تُذكرنا الفصول السابقة في هذا الكتاب، فمن غير المعقول تناول العصر الرقمي على أنه ليس سوى موقع للصراع الاجتماعي الحاد. ويزعم هذا الفصل أنه يقع على عاتق علم الاجتماع بوصفه مجالا للبحث النقدي أمرُ تعزيز رؤى أكثر استنادا إلى الأساس الاجتماعي حول الوقائع «الفوضوية» لكل من التكنولوجيا والتعليم. وهكذا، بدلا من مجرد تبني المقاربة العقيمة المتمثلة في التساؤل عما إذا كانت التكنولوجيا «مجدية» في التعليم أو لا، فإنه يجدُر بعلماء الاجتماع السعيُ إلى ملء خطابات التعليم الرقمي بأسئلة حول كيفية قيام التكنولوجيات الرقمية بإنتاج/إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية، وبشأن المجالات التي تخدم مصالحها (انظر: Apple, 2004). مع أخذ هذه الأفكار في الحسبان، يختتم هذا الفصل باقتراح بعض الأولويات لعلماء الاجتماع الذين يسعون إلى إنتاج تحليلات صائبة وصارمة للأشكال «الجديدة» ظاهريا للتعليم والتي بشَّر بها العصر الرقمي.

النظر في وعود التكنولوجيا الرقمية للمتعلم الفرد

ثمةَ اعتقادٌ بأن الاستخدام المتزايد للتكنولوجيات الرقمية في الحياة اليومية يقترن بإعادة تشكيل العمل الاجتماعي على امتداد خطوط أكثر اتساعا وتشابكا وفقا لما ناقشه كثير من المُسهمين في هذا الكتاب. الواقع أنه يُنظر إلى استخدام التكنولوجيات الرقمية على أنها شرط مسبق للتعامل بنجاح مع التغيرات والمخاطر المستمرة للمجتمع المعاصر (على سبيل المثال: Lash, 2002, Bauman, 2005, Urry, 2007). وعلى رغم أن هذا الإحساس بالتغيير يشمل معظم مجالات الحياة اليومية، إن لم يكن جميعها، فإنه اكتسب أهمية خاصة في النقاشات حول الطبيعة المتغيرة للتعليم المعاصر. وبالطبع فإن هذا التفضيل للتكنولوجيا ليس بأي حال أمرا حديثا في الخطاب التربوي. لطالما صوَّر بعض التربويين تقنيات مثل الحاسبات الآلية والإنترنت بأنها تسمح للمتعلمين بالتحرر من المعايير المتزامنة للتعلم داخل الصف classroom-based learning، وأنها تسهِّل الوصول غير المحدود إلى المعرفة في

أي وقت وفي أي مكان ووفقا لأي وتيرة (Suppes, 1965, Bennet and Bennet, 2008). لقد شهدت العقود الثلاثة الماضية طرح حجج تنص، على سبيل المثال، على أنه يمكن للأفراد التعلم من خلال «المتعة المصحوبة بالتحدي» hard fun المتمثلة في إنشاء عوالم افتراضية واللعب فيها بدلا من الخضوع لمنهجيات «التدريس المعوقة» في الفصول الدراسية التقليدية (Negroponte, 1995; Shaffer 2008). ولايزال علماء الحاسب الآلي و«متخصصو تكنولوجيات التعلم» يتوقعون أن تتصدى التكنولوجيا لعملية «نسف» المدرسة التقليدية (انظر: Papert, 1984). في هذا الصدد لايزال هناك اعتقاد في التكنولوجيات الرقمية بأنها محفز لإعادة هندسة أنماط التعليم، والتعليم المدرسي في العصر الصناعي بنحوٍ جوهري، وإن كان ذلك ليس بصورة شاملة.

على الرغم من كون هذه الادعاءات الكبرى ذاتَ طابع سجالي متعمد فإنها تعكس اعتقادا واسعا بين متخصصي تكنولوجيا التعليم في ما يمكن تسميته «علاجا رقميا» للتعليم (انظر: Bolter and Grusin, 1999). وبعبارة أخرى إن الادعاءات الغريبة التي يطلقها أمثال بابيرت Papert ونيغروبونتي Negroponte وآخرين ترمز إلى افتراضات أقل حدة داخل مجتمع التعليم تنص على أن التكنولوجيات الرقمية (ولاسيما الإنترنت) تعيد تشكيل عمليات التعليم وممارساته إلى حدٍّ كبير. وهذا لا يعني أن الأشكال الرقمية «الجديدة» يُعتقد أنها تستحوذ على جميع الممارسات والعمليات التي سبقتها، بل إن التعليم الرقمي قادر على الاقتباس من أشكال التعليم السابقة وإعادة صياغتها وفي الأغلب تجاوزها. ربما تتعلق الروايات الأكثر قيمة في هذا العلاج الرقمي بالطبيعة المتغيرة بسرعة للممارسات الفردية للمتعلم. وهنا يُزعم أن المتعلم الفرد يوضع (ويعاد وضعه) في مركز شبكة فرص التعلم التي يمكنه المشاركة فيها كما يشاء ومتى يشاء. وتستند هذه الروايات إلى أجندة قوية من «إضفاء الطابع الفردي»، والتي تؤكد على الأهمية المتزايدة للمتعلم الفرد في تشكيل تجربة التعلم، مع مراعاة أن منطق أنظمة التعليم يصبح بطريقة أو بأخرى «معكوسا بحيث يكون النظام هو الذي يتوافق مع المتعلمين بدلا من جعل المتعلم يتوافق مع النظام» (Green et al., 2006: 3). في هذا المعنى يتحول دور المتعلم الفرد من شخص يتلقى التعليم بطريقة سلبية إلى شخص يعمل بنشاط على بناء

(أو إعادة بناء) مكان حدث التعلم ووتيرته وتوقيته وطبيعته. وكما يستنتج نونيز Nunes (2006: 131) فإن الأشكال المعاصرة للتعليم المعزز بالتكنولوجيا الآن...

> تدمج بين الوصول والضبط؛ أي أن نقل المعلومات يُنظر إليه على أنه حدث أدائي في متناول يد الطالب، وهذا من ثم يؤدي إلى إعادة تحديد موقع الطالب فيما يتعلق بالشبكات المؤسسية. إلى هذا الحد لا يُعتبَر [المتعلم الرقمي] هامشيا على الإطلاق؛ إذ بما أن الطالب هو في الوقت ذاته المشغِّل الذي يؤدي دور الصف والهدف الذي يستقبل محتوى المنهاج، فإنه يتمتع بأهمية مركزية على المستويين المجازي والتجريبي بالنسبة إلى أداء المقرر الدراسي.

إن فكرة أن التكنولوجيا تؤدي إلى إضفاء الطابع الفردي وحق تقرير المصير فيما يتعلق بالتعليم يُعبَّر عنها بعدة طرق. وأحد الخلافات البارزة هو أن المعوقات الإجرائية والمؤسسية والمزاجية التي كانت تمنع الأفراد سابقا من المشاركة في التعلم تتضاءل من خلال تطبيق التكنولوجيا. وكما رأت وزارة التعليم في المملكة المتحدة، فإن:

> التعلم الإلكتروني e-learning يعد أداة جديدة نسبيا تتمتع بإمكانية تحسين معدلات المشاركة والتحصيل في التعليم بشكل جذري. وتشمل الفوائد القدرة على تكييف التعلم وفقا لاحتياجات الفرد، والمرونة للسماح للفرد بالتعلم وفق الوتيرة والوقت المناسبين له، ومن مكان مادي يناسبه بالشكل الأمثل. ومن خلال التعلم الإلكتروني تصبح لدينا الفرصة التي تتيح للجميع الحصول على التدريب والتعليم المناسب والرفيع المستوى (DfES, 2002: 4).

توفر التكنولوجيا الرقمية كما يوضح هذا الاقتباس وسيلة جاهزة لتصوير التعليم المعاصر على أنه شكل من أشكال التعلم الأقل سوءا من السابق. ومن خلال التكنولوجيا الرقمية يُزعم أن المتعلمين يتمتعون بمستويات متزايدة من الوصول إلى مجموعة متنوعة من فرص التعلم، فضلا عن حرية تحديد الخيارات التعليمية التي تناسب احتياجاتهم. وعبر التحالف مع مفاهيم «موت المسافة» death of distance و«انضغاط الزمان والمكان» time-space compression التي يُنظر إليها على أنها تميز الحداثة المتأخرة، تُقدَّم التكنولوجيا الرقمية على أنها هي التي

حررت التعلم من العديد من «الاحتكاكات» المثبطة للفضاء والمكان. لذلك يُعتبر أن التكنولوجيا تسمح بحدوث التعلم في الأوقات والأماكن التي تناسب المتعلم الفرد على أفضل وجه، من دون أن يثقل كاهله أي من التزامات الأسرة أو المنزل أو العمل. وبالمثل، يُنظر إلى التكنولوجيات الرقمية، من حيث تحديد الوتيرة، على أنها تمنح الأفراد حرية القرار في «تسريع» و«إبطاء» تعلمهم وفق ما تقتضيه احتياجاتهم. وإجمالا، فإنه يُعتقَد أن التكنولوجيات الرقمية أدت إلى التخفيف المطلوب بشدة للقيود على عملية التعلم.

إن ما يكمن وراء هذه الحماسة هو تصور أن التكنولوجيات الرقمية تتيح للمتعلم الفرد زيادة معدل الوصول إلى فرص «التعلم غير الرسمي» informal learning. ويوصف مفهوم التعلم غير الرسمي بدقة أكثر على أنه التعلم الذي يحدث خارج إطار نظام التعليم الرسمي، بما في ذلك نطاق التعلم (غير المقصود في كثير من الأحيان) الذي تحفزه المصالح العامة والذي «يُكتسَب ولا يُدرَّس» (Davies, 1998). يُنظر إلى التكنولوجيات الرقمية على أنها تساعد بنحوٍ خاص على التعلم غير الرسمي بالنظر إلى «عالم الترابط المفعم بالإمكانات» والذي يرتبط عادة بالعصر الرقمي (Nunes, 1997: 169). وهنا يُمكن النظر إلى الروابط المعززة بين الأشخاص، والأماكن، والمنتجات، والخدمات على أنها سهلت أشكالا جديدة من التكاتف المجتمعي communitarianis، ومن ثم فرصا جديدة لتبادل الخبرات والمعرفة والحكمة الشعبية بنحوٍ غير رسمي. وفي حين سهلت أجهزة الحاسبات الآلية المتصلة بشبكة الإنترنت منذ فترة طويلة «التعلم العرضي» incidental learning والتعليم الذاتي، فإن الاتجاه نحو إنشاء المعرفة وتبادلها بنحوٍ غير رسمي عبر التكنولوجيات الرقمية يزداد أخيرا من خلال الاستخدام المتزايد لما يطلق عليه «البرمجيات الاجتماعية» social software؛ إذ يتواصل المستخدمون ويتعاونون بعضهم مع بعض عبر تشكيلة من التفاعلات الجماعية. وأحد المبادئ الأساسية لما يُسمى بمرحلة الجيل الثاني من شبكة الإنترنت من تطبيقات الإنترنت يتمثل في إنتاج واستهلاك المحتوى الذي يحمل طابع القراءة والكتابة ويتميز بتعدد الأطراف. في ظل هذه الشروط المعاد تحديدها لم تعد المعرفة مملوكة للأوصياء الرسميين، ولكن يمكن للجميع إنشاؤها والوصول إليها. وكما يرى ليدبيتر Leadbetter:

> إن الانفتاح الشديد للشبكة، وقدرتها على السماح لأي شخص بالاتصال بأي شخص آخر، يولِّدان إمكانيات لا توصف للتعاون... وكلما ازداد ارتباطنا كان علينا أن نكون أكثر ثراء؛ لأننا يجب أن نكون قادرين على التواصل مع أشخاص آخرين من مسافة بعيدة وواسعة النطاق من أجل الجمع بين أفكارهم، ومواهبهم، ومواردهم، بطرق تؤدي إلى توسيع ممتلكات كل شخص (Leadbetter, 2008: 3).

بهذه الطريقة يشعر المرء بأن التكنولوجيات الرقمية تسهم في عدد من التحولات في العمليات الاجتماعية للتعلم. وعلى وجه الخصوص أُنشِئت روابط قوية بين استخدام التكنولوجيات الرقمية والنظريات «السوسيوثقافية» للتعلم والتي انبثقت من عمل علماء نفس من أمثال ليف فيغوتسكي Lev Vygotsky لتشكل النظرة السائدة للتعلم في التعليم المعاصر. وترى النظريات السوسيوثقافية للتعلم أن التعلم «النشط» active و«الأصلي» authentic يحدث على الأرجح داخل تجمعات السكان والأشياء التي يمكن فيها تعزيز ودعم ما يقوم به المتعلمون من بناء للمعرفة. على هذا النحو يُعتبَر أن هناك ديناميكية اجتماعية قيمة في التعلم كامنة ضِمن استخدام تكنولوجيات البرمجيات الاجتماعية غير الرسمية مثل مواقع الويكي wikis وشبكات التواصل الاجتماعي، والمدونات، والفهرسة الجماعية Folksonomies. ويُنظر إلى هذه التكنولوجيات على وجه الخصوص على أنها تقدم تجربة تعليمية تشاركية تستند إلى الإنتاج التعاوني والمشاركة اللاحقة في المعرفة (Crook, 2008). وبهذا المعنى تطورت روح التعاون في الممارسة الرقمية المعاصرة إلى شعور سائد بالتعلم يجري الآن بشكل متزايد داخل شبكات غير رسمية للمتعلمين المشاركين في إنشاء المحتوى واستهلاكه. وكما يستنتج «بير» و«باروز»:

> تتحمل الشبكات مسؤولية مشتركة لبناء تراكمات هائلة من المعرفة المتعلقة بها وببعضها البعض، وبالعالم. وهي عبارة عن مصفوفات ديناميكية للمعلومات التي يراقب الأشخاص من خلالها الآخرين، ويوسعون الشبكة ويكسبون «أصدقاء» جددا ويضطلعون بتحرير المحتوى وتحديثه، وكتابة المدونات، وإعادة الصياغة والنشر والاستجابة ومشاركة الملفات والعرض ووضع الوسوم tags... إلخ. وقد وصف ذلك بأنه «ثقافة تشاركية» participatory culture عبر الإنترنت حيث

يشارك المستخدمون بقدرٍ متزايد في إنشاء محتوى الشبكة وكذلك استهلاكه (Beer and Burrows, 2007: 2.1).

النظر في حقائق التكنولوجيا الرقمية للمتعلم الفرد

ويتضح بجلاء من هذه الأمثلة الموجزة أن المعالجة الرقمية للتعليم تتضمن إعادة صياغة كبيرة للمشهد التعليمي حول الفرد. والواقع أن هذا الأمر دفع المعلقين المتحمسين للاحتفاء بقدرة التكنولوجيات الرقمية «على إحداث تغيير جذري في النظام التعليمي... وعلى تحسين تحفيز الطلاب بوصفهم متعلمين مشاركين بدلا من كونهم مراقبين سلبيين بالدرجة الأولى للعملية التعليمية» (Ziegler, 2007: 69). وبالطبع تتناقض هذه الادعاءات الكبرى إلى حدٍّ ما مع الطبيعة المحافظة للتعليم المعاصر حتى الآن. وفي حين أن السنوات الأخيرة شهدت بالتأكيد زيادات كبيرة في الوجود المادي للتكنولوجيا الرقمية في البيئات التعليمية، فإن «التحول» الموعود بأن تتولى التكنولوجيا قيادة أنظمة التعليم لم يتحقق. ومع أن التكنولوجيات الرقمية وغيرها من التكنولوجيات ذات الطابع الفردي قد تتمتع بإمكانات مؤكدة لدعم التعلم والمتعلمين، فإنه يبدو أن هذه الإمكانية لا تتحقق إلا في بعض الأحيان. وكما استنتجت لوريار (Laurillard, (2008: 1، فإن «التعليم يقف على حافة التغيير من خلال تكنولوجيات التعلم؛ ولكن وجوده على تلك الحافة مضت عليه الآن عدة عقود».

وبهذا المعنى فإن أي مطالبات بالمعالجة الرقمية للتعليم تتطلب تمحيصا دقيقا. عندما نلجأ إلى الأدلة التجريبية - بدلا من التوقع أو الرؤية التقليدية - عندها يبدو أن العديد من الادعاءات المذكورة أعلاه تفتقر إلى الجوهر. على سبيل المثال يوجد القليل من الأدلة على أن التكنولوجيات الرقمية تعطل أنماط المشاركة الحالية في التعلم. وتشير دراسات السكان البالغين، على سبيل المثال، إلى أن أنماط عدم المشاركة في التعلم لا تتغير بقدرٍ كبير عن طريق الوصول إلى التكنولوجيات الرقمية (انظر: Selwyn et al., 2005). وقد تبين أن العوائق والعقبات التي تحول دون التعلم - مثل «الاحتكاكات» المذكورة أعلاه بين الوقت والفضاء، والمكان، وتوفير الموارد المادية - تبقى موجودة على الرغم من الإمكانيات التي تتمتع بها

التكنولوجيا، بل إن استخدام التكنولوجيا يؤدي أحيانا إلى تعزيزها. فضلا عن ذلك، يبدو أن التكنولوجيات الرقمية لا تفعل شيئا يُذكَر لمعالجة افتقار الفرد إلى الاهتمام أو الدافعية للانخراط في التعليم. وهكذا، بينما يمكن استخدام بعض التكنولوجيات الرقمية للتغلب على بعض العوائق الجسدية والمعرفية مثل الإعاقة، أو محو الأمية، فإن التكنولوجيا وحدها في كثير من الأحيان لا تكاد تفعل شيئا يُذكر لتغيير التعقيدات الاجتماعية في حياة الناس. إن العديد من القضايا غير التكنولوجية والتي في أغلب الأحيان تكون معقدة للغاية مثل الفقر، والإسكان، وجودة العمل، واستنساخ أنماط اللامساواة بين الأجيال، تشكل أساس عدم الانخراط في التعليم. ويُعَدُّ الجدال بجدية لإعادة التشكيل الرقمي لمثل هذه القضايا هدفا طموحا.

وبالمثل لا تكاد توجد أي أدلة تُذكَر على أن التكنولوجيات الرقمية تؤدي إلى زيادة تنويع فرص التعلم. وإذا كان هناك أي أدلة من هذا القبيل، فإنه يمكن ربط التقنيات مثل الإنترنت بترسيخ واضح للمصالح الراهنة للجهة الراعية للتعليم. على سبيل المثال، لايزال توفير التعليم والتدريب عبر الإنترنت متمركزا حول مقدمي الخدمات التعليمية الراسخين الذين يقدمون دروسا تعليمية في مجالات مربحة مثل الأعمال والتدريب على تكنولوجيا المعلومات والمهارات اللغوية. والمجالات التي يمكن القول إنها شهدت تنويعا تتعلق بالتكنولوجيات الرقمية التي تدعم زيادة مشاركة الجهات التجارية الفاعلة في توفير وحوكمة سوق التعليم لمنتجات «التعلم الإلكتروني» ومنتجات «الترفيه التعليمي» edutainment داخل المنزل(*) (Buckingham and Scanlon, 2005). ولعل التغيير الأبرز هنا هو التوفير الجماعي التجاري المتنامي للتعليم عبر الإنترنت من خلال من يصفهم هينشي Hinchey (2008) بـ «منتجي وسائل الإعلام العملاقة» media-giant producers مثل بيرسون Pearson وماتل Mattel وديزني Disney، بدلا من التوفير «المتنوع» لأشكال أكثر تخصصية ونخبوية من التعلم (Anderson, 2006).

هذا الاتجاه نحو ترسيخ الممارسة الحالية بدلا من توسيعها يتضح في حقائق استخدام التكنولوجيا الرقمية داخل المؤسسات التعليمية. وما ينافي أن هناك

(*) وسائل الترفيه المخصصة للأغراض التعليمية والتي تتضمن الأفلام والألعاب التعليمية. [المترجم].

إمكانية لبناء المعرفة على نحو تعاوني هو أن استخدامات التكنولوجيات الجديدة في المدارس، والكليات، والجامعات لاتزال تهيمن عليها عملية نقل المواد من الإنترنت بطريقة «القص واللصق» إلى مستندات معالجة النصوص والعروض التقديمية عبر الشرائح، بالإضافة إلى الإدارة المقيدة لأنشطة الدارسين من خلال «بيئات التعلم الافتراضية» virtual learning environments (Crook and Harrison, 2008; Nicholas, et al., 2008). حتى في ظل توفير التعلم باستخدام «التقنية العالية»، كما يُزعم، قد تكون الأهمية العملية للتكنولوجيا الرقمية محدودة. على سبيل المثال، أظهرت الدراسة الإثنوغرافية الذاتية(*) التي أجرتها أورتون جونسون Orton-Johnson (2007) للتعلم من بُعد عبر الشبكة أن الأنشطة الاتصالية والمجتمعية عبر الإنترنت غالبا ما تكون في الواقع «أنشطة ثانوية» تُسهم قليلا في الممارسات «الحقيقية» للدراسة الأكاديمية التي لاتزال قائمة على «الأنشطة التقليدية غير المتصلة بالإنترنت والقراءة وتدوين الملاحظات وإنتاج الأعمال المدروسة» (Orton-Johnson, 2007 :11. 2 الفقرة) بالنسبة إلى جميع الأفراد باستثناء أقلية، يبدو أن استخدام التكنولوجيا في التعليم الرسمي أو غير الرسمي أقل توسعا وتمكينا مما قد يوهمنا به خطاب التعليم الرقمي.

لقد قيل إن التكنولوجيا الرقمية قد استخدمت في المؤسسات التعليمية بصفة رئيسة لدعم الاهتمامات الإجرائية والإدارية للمؤسسات التعليمية (انظر: Bottery, 2004). من هذا المنظور فإن استخدام التكنولوجيات الرقمية مع المؤسسات التعليمية قد يتحدد في الأغلب من خلال المخاوف «الإدارية جديدة» التي تتعلق بالكفاءة والتحديث والترشيد، وخفض تكاليف الإنفاق، وليس من خلال المخاوف المتعلقة بالتعلم والمتعلم الفرد. وهذا يعكس عدم الارتياح المستمر منذ فترة طويلة بين بعض المعلقين فيما يتعلق بإسهام التكنولوجيا المحوسبة في أشكال التعليم غير الشخصية، كما يعكس الرؤية الشاملة لـ «نموذج المصنع» factory model(**) في

(*) من أشكال البحث النوعي يَستخدم فيه المؤلف التفكيرَ الذاتي والكتابة لاستكشاف التجربة القصصية والشخصية وربط تفاصيل سيرته الذاتية بمعانٍ ومفاهيم ثقافية وسياسية واجتماعية أوسع. [المترجم].

(**) نموذج المصنع في التعليم يعكس الفكرة التي كانت سائدة خلال الثورة الصناعية التي شهدتها أوروبا في القرن الثامن عشر، والتي تقول إن المدارس بُنيت أساسا لتدريب عمال المصانع المستقبليين. [المحرر].

توفير التعليم، وهو ما ينطوي على خطر إضعاف فرص التعلم بينما يؤدي إلى تجريد المعلمين والمتعلمين من إنسانيتهم ومهاراتهم (Cooley, 1999; Apple, 1994). وكما استنتج رودي هيرشيام (Rudy Hirschheim (2005: 101 فيما يتعلق بالتعليم الجامعي، قد يكون الأمر هو أن التكنولوجيات الرقمية مثل الإنترنت لا تؤدي إلا إلى منتَج مقولَب ومتواضع ويستهدف السوق الجماهيرية؛ وهذا سيؤدي إلى مزيد من «التقييد» و«التشويه» للتعليم، وسينتج عنه نظام لا يدعم مساعي كبار العلماء والمفكرين.

الواقع أنه على الرغم من قلة الأدلة في كلتا الحالتين فإن رؤى التعلم التعاوني المعزز بالتكنولوجيا والتي وُضِّحت سابقا قد واجهتها العديد من التنبؤات بإلغاء القدرات الفكرية والعلمية لدى «جيل غوغل» Google generation من الطلاب غير القادرين على التفكير النقدي المستقل (على سبيل المثال: Brabazon, 2007; Fearn, 2008). هنا يُزعَم أن توفير التعليم القائم على التكنولوجيا هو في الواقع أكثر ملاءمة للأسلوب المكون من اتجاه واحد والمقيد إلى حدٍ ما في نقل المعلومات. وحتى استخدامات المتعلمين الحالية لتكنولوجيات البرمجيات الاجتماعية يمكن وصفها بدقة أكثر على أنها تنطوي على الاستهلاك السلبي للمعلومات بدلا من التعلم الأصلي المحاط بإطار اجتماعي والذي تم الحديث عنه سابقا. من الأمثلة الجيدة على هذا الاستخدام المقيد أن يعيد المتعلم ببساطةٍ إنتاجَ المعلومات من خلال إحدى المواد المدرجة في موسوعة ويكيبيديا على الإنترنت، بدلا من المشاركة في البناء الجمعي، وتحرير تلك المادة في «ويكيبيديا». هذا التعامل السلبي مع التكنولوجيات الرقمية يؤدي - في أحسن الأحوال - إلى ما يصفه كروك (Crook (2008 بأنه «استبدال للنطاق الترددي المنخفض» low bandwidth exchange للمعلومات والمعرفة بنطاق ترددي منخفض آخر، وأي وهم بوجود تعلم «تعاوني» يوصف على نحو أدق باعتباره تعاونا أو تنسيقا بين الأفراد. من هذا المنظور تستمر المخاوف بين المعلقين الأكثر تشككا في أن الاعتماد المفرط على التكنولوجيا الرقمية في عملية التعلم يمكن أن «تنتج عنه الكفاءة فقط، في حين أن الخبرة والحكمة العملية ستبقى بعيدة المنال تماما» (Dreyfus, 2001: 49).

التعرف على جوانب الاستمرار والانقطاع للتعليم في العصر الرقمي

كل هذه الحجج الأخيرة تصور التعليم في العصر الرقمي على أنه مدعاة للقلق وليس سببا للاحتفال. قد يُعتقَد أن إدخال درجة من السلبية في المناقشات حول التكنولوجيا والتعليم يوفر توازنا نحن في أمسِّ الحاجة إليه في هذا النقاش. الواقع أنه إذا كان يجب مراعاة الطبيعة المتغيرة للتعليم في العصر الرقمي مراعاة تامة، فلا بد من إيلاء مزيد من الاهتمام لطبيعة إشكالية التكنولوجيا الرقمية والتعلم. ومع ذلك، وكما يذكِّرنا لوفينك (Lovink (2004: 4: هناك حاجة ماسة لدى العلماء الاجتماعيين إلى تجاوز المناقشات التي تستقطب الآراء ما بين «معارض ومؤيد لوسائل جديدة» والسماح لأنفسهم بدلا من ذلك بالتفكير بإيجابية وسلبية في التكنولوجيات الرقمية كما يتطلب الوضع. ربما يكون من المهم للغاية أن نأخذ في حسباننا أن كلا من الآراء الفاسدة والفاضلة التي تتناول التعليم المعاصر يكذِّب الطبيعة المستمرة والفوضوية للتعليم «على أرض الواقع». ومن ثم، وقبل كل شيء، تسترعي الطبيعة المستقطبة للمناقشات الحالية حول وعود التعليم الرقمي وحقائقه الانتباه إلى الحذر والحيطة عند تقديم أي شكل من أشكال العمل الاجتماعي «الجديد» أو المختلف إلى حدٍّ كبير في الحداثة المتأخرة. على هذا النحو تشير جميع المناقشات السابقة إلى الحاجة إلى الاعتراف بجوانب الاستمرار والانقطاع بالنسبة إلى التعليم في العصر الرقمي.

إحدى المشاكل بالنسبة إلى الفهم الحالي للتكنولوجيا والتعليم تكمن في القراءات المجردة والخالية من السياق بنحوٍ غريب حول التعلم، والتي يقوم عليها العديد من المزاعم المحيطة بإصلاح التعليم الرقمي. وكما جادل كروك (2008) تستند المناقشات الحالية بشأن التكنولوجيا والتعليم إلى «عمليات التوظيف التلقائية» المفترضة للتكنولوجيا الرقمية من قبل المتعلمين الأفراد، وذلك بمعزل عن الالتزامات الأخرى بالتعلم من خلال توفير التعليم الرسمي. وفي كثير من الأحيان يُتخيل «الوعد» التعليمي للتكنولوجيات الرقمية ضمن إطار الأنشطة المستقلة القائمة على التكنولوجيا والتي تجري في بيئات إلكترونية سليمة وخالية السياق. ومع ذلك، وكما أوضحت مناقشاتنا السابقة، فإن الحقائق التعليمية لاستخدام التكنولوجيا الرقمية (سواء أكانت في المنزل

أم في المدرسة أم أثناء التنقل) تقع في سياقات اجتماعية مقيدة. وعلى هذا النحو يجب أن نعترف بجوانب الاستمرار الواضحة، وكذلك الإمكانات المحتملة للتعليم في العصر الرقمي، وكما يرى غين (Gane (2005: 475، فإن السؤال الأساسي الذي يكمن وراء تحليلات التكنولوجيا الرقمية والاجتماعية هو «ما إذا كان العمل القائم على التكنولوجيا يضيف ببساطة إلى العلاقات الاجتماعية الحالية أو يحولها في الواقع». في حالة التعليم في العصر الرقمي سنجادل بصرامة في أن تلك التكنولوجيا الرقمية تضيف إلى الترتيبات الاجتماعية القائمة بدلا من تحويلها.

وهكذا فإن خطاب التجدد والتحول الذي يحيط بالتكنولوجيا الرقمية في التعليم يجب ألا يخفي حقيقة أن النقاط المرجعية السائدة في التعليم في أوائل القرن الحادي والعشرين لاتزال كما كانت في أواخر القرن التاسع عشر. وفي حين أن العديد من التربويين قد يفضلون تخيلَ خلافِ ذلك، فإن التعليم المعاصر لايزال يهتم بنحوٍ أساسي بالاستهلاك العملي لـ «كميات هائلة من المعلومات الرمزية» (Monke, 2008: 4). وبغض النظر عن النتيجة مازالت أنماط التعلم السائدة في البلدان المتقدمة تتمثل في إيصال المعلومات للأفراد في مؤسسات التعليم الرسمي إما من أجل الحصول على مؤهلات لسوق العمل وإما من أجل تسهيل مزيد من التقدم في التعليم وإما من أجل كليهما. ومن ثم ففي حين أن هناك عملية تقييم موثوقة داخل مجتمع التعليم لحالات التعلم غير الرسمي التي يمكن أن تحدث بطريقة غير منظمة وعرضية وغير مقصودة في بعض الأحيان، فإنها لا تشكل الأنماط السائدة للتعليم في المجتمع المعاصر. وبدلا من ذلك فإن الأشكال المتميزة للمعرفة النخبوية لاتزال تتمثل في الحفاظ على توفير التعليم الرسمي، وعلى الأخص من خلال جهاز المدرسة والامتحان والمنهاج الدراسي. وبقدر الإمكان تظل الأشكال غير المقيدة للتعلم غير الرسمي التي يحتفي بها التربويون إلى حدٍّ كبير ميزةً إضافية للطبقات المتوسطة المتعلمة بالفعل والتي تُعتبَر أكثر فئة تحقق الازدهار من خلال كل أشكال التعلم.

لذلك فمن غير المنطقي أن نفترض أن المدرسة والكلية والجامعة تفقد أهميتها ومكانتها في مواجهة التقدم التكنولوجي. لا يمكن لأي تحليل للتعليم المعاصر أن

يتجاهل الدور المتكامل لمؤسسات التعليم الرسمي في الحفاظ على منطق رأس المال من خلال توحيد معايير الوظائف والأشياء وتقسيمها وإعطائها تسلسلا هرميا (Lefebvre, 1981). وبهذه العبارات تُعَد المدارس والكليات والجامعات على أقل تقدير تكنولوجيات فعالة للغاية. وعلى هذا النحو لا يتوقع المرء أن تختفي مؤسسة التعليم الرسمي، لاسيما في ضوء «المرونة التاريخية للمدارس كمنظمات، والضغوط الاجتماعية القوية التي تسعى إلى الحفاظ على البناء المؤسسي الحالي» (Kerr, 1996: 7). ومن ثم، وعلى الرغم من إمكاناتها لدعم العمل الاجتماعي اللائق، ينبغي للمرء ألا يتوقع من التكنولوجيات الرقمية أن تكون قادرة في حد ذاتها على تغيير هذه العلاقات الاجتماعية. وكما حاولنا أن نوضح في هذا الفصل، توجد أدلة كثيرة على دور التكنولوجيات الرقمية في دعم المدارس والكليات والجامعات في أداء دورها في «المؤسسات الأساسية للرأسمالية» (Garnham, 2000: 142). وكما استنتج تورين موناهان (Torin Monahan (2005: 183.

في دراسته الإثنوغرافية للمدارس الثانوية في الولايات المتحدة غالبا ما يحافَظ على علاقات القوة غير المتكافئة في التعليم والمجتمع من خلال التعلم القائم على التكنولوجيا، حيث تقدم التكنولوجيا الرقمية في هذا الإطار الأوامر الليبرالية الجديدة بالاستناد إلى أسس منطقية مؤثرة ودعم بنيوي على حد سواء.

وبهذا المعنى يجب النظر إلى التعليم في «العصر الرقمي» على أنه يمثل مجموعة من الاستمراريات - وليس مجموعة من الانقطاعات الجذرية - مع التعليم في العصور السابقة. ففي حين أن التكنولوجيات الرقمية ترتبط بنحوٍ واضح ببعض التغييرات العميقة في تنظيم التعليم والتعلم في المجتمع، فإن هناك، مع ذلك، حاجة إلى علماء الاجتماع كي يدحضوا فكرة أن التكنولوجيات الرقمية تعمل على تغيير علاقات القوى بين المتعلمين الأفراد والمؤسسات الرسمية، أو حتى على تغيير القضايا الراسخة منذ زمن طويل مثل الإنتاج وإعادة الإنتاج والهيمنة. لذلك يجب على علماء الاجتماع الشروع في إنتاج قراءات سوسيوتقنية دقيقة للتعليم في العصر الرقمي تسعى إلى تطوير فهم شامل للظروف الاجتماعية والتفاعلية التي توجد فيها التكنولوجيات الرقمية والتي من خلالها تصل إلى معناها (أو معانيها) في البيئات التعليمية. مع أخذ هذا

الهدف في الحسبان، نختتم هذا الفصل من خلال النظر بإيجاز في الأشكال التي قد تتخذها مثل هذه التحليلات للتعليم الرقمي.

أولا: وقبل كل شيء، نؤكد الحاجة إلى مزيد من الكتابة والبحث السوسيولوجى الذي يركز على الوقائع الحالية بدلا من التركيز على الإمكانات المستقبلية للتعليم القائم على التكنولوجيا. وكما رأينا خلال هذا الفصل فإن موضوع استخدام التكنولوجيا في التعليم يدعو إلى منظور استشرافي، إذ يفضل الكثير من الكتاب والباحثين التركيز على «أحدث التطورات». فالكتابة حول موضوع التكنولوجيا التعليمية غالبا ما تركز بإفراط على الأسئلة المتعلقة بما يجب أن يحدث، وما يمكن أن يحدث بمجرد وضع التكنولوجيات الجديدة والإعلام الرقمي في بيئات تعليمية. وفي حين أن هذه الاهتمامات جديرة بالثناء، فإنه يبدو من المناسب أن يوجَّه الاهتمام المستمر نحو الأسئلة التي تتعامل مع ما يمكن وصفه بـ «الحالة الفعلية»، وذلك بعكس تلك التي تتناول «أحدث التطورات» - أي إنها أسئلة تتعلق بما يحدث بالفعل عندما تتقابل التكنولوجيات الرقمية مع التعليم. في مواجهة الإثارة النظرية الكبيرة حول الديناميات الجديدة للمعلومات والمجتمع، من الواضح أن هناك حاجة إلى الإبقاء على ما يضطلع به علم الاجتماع من «التزام كبير بالواقع الحالي واللحظة الراهنة، أي الجانب التجريبي والقابل للإثبات» (Cavanagh, 2007: 7). وبهذا المعنى نكرر دعوة بير وباروز لعلماء الاجتماع في المجال الرقمي إلى التركيز على تطوير التقارير الوصفية العميقة حول الاستخدامات الحالية للتكنولوجيات على أرض الواقع:

> نحن نرى أن هذا المجال سيحقق نجاحا جيدا في المرحلة الحالية من أجل... تبني الاهتمام المتجدد بالوصف السوسيولوجي كما هو مطبق على التحولات الرقمية الثقافية الجديدة... وفي هذه المرحلة، التي تشهد تغيرا سوسيوثقافيا سريعا، يبدو لنا أن التركيز مجددا على الأوصاف السوسيولوجية الجيدة - أي الناقدة والمتميزة والعميقة - للظواهر الرقمية الناشئة قبل أي اندفاع كبير نحو التحليلات، سيكون بمنزلة فكرة معقولة. فنحن في حاجة إلى فهم بعض المعايير الأساسية للمواضيع الرقمية الجديدة للدراسة السوسيولوجية قبل أن نتمكن من تحديد موقعها بنحوٍ مُرضٍ داخل أي أطر عامة للمرجعية النظرية (Beer and Burrows, 2007: 1.1).

ثانيا: لا شك أن هناك مجالا للانتقادات السوسيولوجية للتعليم الرقمي والتي تقدم اقتراحات مقبولة ثقافيا حول كيفية مواجهة أوجه عدم المساواة والهيمنة الحالية، وكيف يمكن إعادة تشكيل استخدام التكنولوجيا في التعليم على أسس أكثر عدلا وإنصافا. يشير هذا إلى سوسيولوجيا التعليم الرقمي القائم على فكرة آن أوكلي (2000) Ann Oakley الخاصة بأبحاث العلوم الاجتماعية التي تتسم بالديموقراطية والتدخلية والتحررية. وبالأخص هناك حاجة أولا إلى تحديد الفرص المتاحة للمعلمين والمتعلمين والأطراف المعنية الأخرى ثم وضعها قيد الاختبار، وذلك للاستفادة من العملية السياسية أصلا لإنتاج التكنولوجيات واستخدامها. بهذا المعنى إذن يمكن لعلماء الاجتماع تحديد الفضاءات التي توجد فيها فرص لمقاومة وتعطيل وتغيير إعادة الإنتاج التكنولوجي لـ «مبدأ تفاوت القوة الذي يتخلل المجتمع الرأسمالي» (Kirkpatrick, 2004: 10). وقد يعود السبب إلى أن الإلهام يمكن أن يُستمَد من «الثقافة المضادة» counterculture للحاسب الآلي و«النضال الإلكتروني» hacktivism اللذين سادا خلال العقود الثلاثة الأخيرة - لاسيما أنشطة عشاق الألعاب وهواة تعديل البرمجيات وظهور إنتاج البرمجيات والأجهزة مفتوحة المصدر. وبهذا المعنى هناك حاجة مستمرة إلى التحليلات السوسيولوجية التي تبرز التوترات والفضاءات الحدِّية liminal spaces، التي يمكن من خلالها تحدي التكنولوجيات الرقمية وإعادة تشكيلها في مجال التعليم. وكما رأى لوفيفر (1981) Lefebvre، فإنه يجب على العلماء الاجتماعيين أن يشغلوا أنفسهم بتناول التوترات الموجودة بين خطاب التكنولوجيات وحقيقتها في المجتمع. وهذا يشمل البحث عن فرص لفرض الاختلافات أينما يكن هناك تجانس، وفرض الوحدة حيث توجد التجزئة والانقسام، وتشجيع المساواة حيث يوجد التسلسل الهرمي.

الخلاصة

من الواضح أن لعلم الاجتماع دورا رئيسا في النظر (وإعادة النظر) في التعليم في العصر الرقمي - لاسيما في التشكيك والتساؤل حول الإفراط في الولع بالتكنولوجيا technophilia الذي لايزال منتشرا في الكتابات حول التعلم والمتعلمين في الزمن المعاصر. وينبغي طرح مجموعة من الأسئلة المُلحَّة بالأخص بشأن كيفية الاستخدام

الحالي للتكنولوجيات الرقمية في البيئات التعليمية، وكذلك بشأن كيف يمكن أن يكون استخدامها. ويتضمن هذا الأسئلة الأساسية المتعلقة بالمساواة والتنوع فيما يتعلق بمن ينفذ (ومن لا ينفذ) هذا الشيء أو ذاك باستخدام هذه التكنولوجيا الرقمية أو تلك. ويجب أيضا طرح أسئلة حول أسباب استخدام التكنولوجيات والنتائج المترتبة على ذلك. وبالمثل يجب طرح أسئلة حول كيفية استخدام التكنولوجيات الرقمية جنبا إلى جنب مع الثقافات والبنى الموجودة مسبقا للبيئات التعليمية. في كل هذه الحالات يجب أن يسعى علماء الاجتماع إلى تسليط الضوء على جوانب استمرار القضايا التعليمية طويلة الأمد المتعلقة بالبنية والفعل، وإعادة الإنتاج الاجتماعي للامساواة والتنظيم والقوة والهيمنة. ولكن كما ذكرنا أعلاه يمكن أيضا طرح أسئلة حول حالات التوقف المحتملة لاستخدام التكنولوجيات الرقمية في التعليم. على سبيل المثال، كيف يمكن تشجيع استخدامات التكنولوجيا الرقمية في بيئات تعليمية تتحدى أو تعرقل العلاقات الاجتماعية القائمة وأوجه اللامساواة؟ وأين توجد فرص للمتعلمين والمعلمين لإدراك خطابات الديموقراطية والتمكين التي تحيط بالتكنولوجيا الرقمية؟ وهل من الممكن استخدام التكنولوجيات الرقمية لمقاومة توسع الأيديولوجيات الليبرالية الجديدة؟ قد يبدو من غير المنطقي اختتام هذا الفصل بمجموعة من الأسئلة بدلا من الإجابات. لكن إذا كان التعليم في العصر الرقمي مُهما من الناحية الاجتماعية كما يريدنا كثيرون أن نعتقد، فمن الضروري طرح أسئلة مهمة اجتماعيا حوله. إن تطوير هذه الأسئلة إلى تحليلات تجريبية ونظرية مستدامة يجب أن يشكل الآن الخطوة التالية لإعادة التفكير السوسيولوجي الصارم بالتعليم في العصر الرقمي.

14

الصحةُ الإلكترونية والمقارباتُ السوسيولوجية المتجددةُ للصحة والمرض

جويل كيفيتز

«السؤالُ الذي يطرحُ نفسَه لا يتعلقُ بما إذا كان مستخدِم الإنترنت، الذي يبحث عن المعلومات الصحية، قد يصبح أكثر معرفة أو لا، بل يتعلق بحالة هذه المعرفة التي تتعارض أحيانا مع معرفة المهنيين»

مقدمة

ظهرتْ مجموعةٌ كبيرةٌ من الدراساتِ المتعلِّقةِ بالإنترنت والرعايةِ الصحيةِ على مدارِ العَقد الماضي. ويكشف البحث السريع على قواعد البيانات للمصادر الببليوغرافية الرئيسة عن الآلاف من المراجع حول استخدام تكنولوجيات المعلومات والاتصالات، وخاصة الإنترنت، في الطب أو الرعاية الصحية. تتمثل خصوصية هذه الدراسات في أنها تمزج بين مجموعة من التخصصات المختلفة: الطب، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والجغرافيا، وتكنولوجيا المعلومات، ودراسات المعلومات... إلخ. من المثير للانتباه رؤية هذه الدراسات كدليل على ظهور مجال جديد تماما للدراسة، وهو غالبا

ما يشار إليه باسم دراسات الصحة الإلكترونية. تتميز مناقشات الصحة الإلكترونية بكونها عامة، وتتضمن جميع الدراسات التي تدرس الصحة والإنترنت. ويوفر موقع eEurope التعريف التالي للصحة الإلكترونية:

«... تطبيق تكنولوجيا المعلومات والاتصالات عبر مجموعة كاملة من الوظائف التي تؤثر، بقدرٍ أو بآخرَ، في صحة المواطنين والمرضى»(*).

هذا التعريف هو انعكاس لعدد من الاهتمامات المتعلقة بإعادة تنظيم الرعاية الصحية، بما في ذلك إمكانيات الاتصال المبتكرة بالنسبة إلى مجموعة من المهنيين (كالممارسين العامين والصيادلة، والعاملين في الرعاية المنزلية، وما إلى ذلك) الذين يقدِّمون الرعاية والمعلومات للمرضى، والجمهور، وكذلك لمطوري منتجات الرعاية الصحية (الأدوية والأجهزة الطبية وتطبيقات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات... إلخ). كما يشير التعريف إلى عدد من القضايا والأجندات المهنية والاقتصادية والسياسية. ومن منظور أكاديمي فإن التركيز المحدد (لاسيما في مجال العلوم الاجتماعية) يتمثل في استخدام «الإنترنت والإعلام الإلكتروني لنشر المعلومات أو الخدمات المتعلقة بالصحة» (Gustafson and Wyatt, 2004: 1150).

يدرس مجال البحث المخصص للصحة وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات بوجهٍ عام الظروفَ التقنية والتكنولوجية للإمكانيات التي توفرها الإنترنت فيما يتعلق بالاتصال والتواصل الشبكي، والمراقبة الصحية. وقد تبنى علم الاجتماع هذا البحث. وعلى رغم ذلك فإن التركيز في الأبحاث الحديثة في هذا المجال لا يتعلق بالظروف التكنولوجية لتطبيقات الإنترنت في مجال الرعاية الصحية بقدر ما يتعلق بتأثير استخدام الإنترنت على تجربة الصحة والمرض. وبعد مرور عشر سنوات على نشر تحليلين سوسيولوجيين مبتكرين عن الصحة والإنترنت (Hardey, 1999; Burrows et al., 2000)، قد يُقال إنه قد ظهرت مفاهيم جديدة أو متجددة عن الصحة والمرض من خلال «مرشِّح» filter الإنترنت واستخداماته الحالية والمستقبلية في سياق الصحة والمرض.

(*) http://ec.europa.eu/information_society/activities/health/whatis_ehealth/index_en.html (آخر مرة حدث الدخول فيها إلى هذا الموقع كانت في 29 يوليو 2009). أُطلقت مبادرة أوروبا الإلكترونية The eEurope initiative في العام 1999 من قبل المفوضية الأوروبية. ونتيجة للخطة الأولى التي وُضعت في 2000 - 2002، فإن خطة عمل مبادرة أوروبا الإلكترونية للعام 2005 تروج لتبنٍّ واسع النطاق لتكنولوجيات الصحة الإلكترونية في جميع أرجاء أوروبا بحلول العام 2010. [المؤلف].

بعد عرضٍ موجَزٍ لملامح الصحة الإلكترونية وتطورها، يبحث هذا الفصل بناء الصحة والإنترنت بوصفهما موضوعين للبحث الأكاديمي. وبعد ذلك تُطوَّر مقاربات سوسيولوجية متجددة للصحة والمرض بناء على الأفكار التي توفرها الإنترنت والدراسات الصحية.

الصحة في العصر الرقمي أو «الصحة الإلكترونية»: ما الخطر؟

من المثير للاهتمام ملاحظةُ أن تعريف الصحة الإلكترونية إلى جانب التصنيف العام المذكور أعلاه أصبح موضوع نقاش أكاديمي مكثف: فقد استهلت «مجلة أبحاث الإنترنت الطبية» Journal of Medical Internet Research(*)، التي أُسست في العام 1999، هذا النقاش قبل عَقد من الزمن ببحث الطبيعة الدقيقة لمجال الصحة الإلكترونية ومجموعة الأنشطة التي تشملها (Eysenbach, 2001). وفي الآونة الأخيرة تركز النقاش حول تطوير الجيل الثاني من شبكة الإنترنت وتأثير ذلك في أبحاث الصحة الإلكترونية (Eysenbach, 2008). لقد رسَّخت هذه الدراسات موضوع الصحة في العصر الرقمي (وتحديدا «الصحة الإلكترونية») بوصفه نشاطا معقدا ومجالا بحثيا يشمل عددا كبيرا من الفاعلين في نطاق كامل من المجالات (بما في ذلك التجارة والأعمال) التي تنمو وتتطور باستمرار.

وعلى رغم ذلك يبدو أن مكون الاتصال التفاعلي قد ميَّز مجال الصحة الإلكترونية منذ البداية. وتوضح دراسة تطور هذا المجال على مدى السنوات الخمس عشرة الماضية هذا بنحوٍ خاص: وكانت التطورات الأولى في الصحة الإلكترونية - والأمل الجديد الذي أشاعته (Lloyd Williams and Denz, 2009) - تتعلق أساسا بخدمات الرعاية الصحية المستقبلية التي ستخدم فيها التكنولوجيات الجديدة العلاقات بين المهنيين والمرضى لتحسين تقديم الرعاية والعلاج. وقد اعتُبِر أن تحسين العلاقات بين الجهات الفاعلة في مجال الصحة، بما في ذلك المؤسسات والسياسات، وليس فقط المرضى وعامة الناس (Rice and Katz, 2001)، يشكل مفتاح التطورات المستقبلية في مجال الرعاية الصحية. وهكذا أصبح يُنظَر إلى الإمكانيات التي توفرها التكنولوجيات التفاعلية على أنها تفتح حقبة جديدة تماما من الرعاية الصحية.

(*) http://www.jmir.org

يشير الفحص الدقيق للتقدم التكنولوجي، والتحولات المتوقعة في الرعاية الصحية إلى ثلاث قضايا رئيسة. أولا: (وهذا ينطبق على أغلب أنشطة الصحة الإلكترونية)، برزت الصحة الإلكترونية نتيجةً للتطبيب من بُعد telemedicine، ثم ما لبثت أن تجاوزته (Della Mea, 2001). وقد سبق مجال التطبيب من بُعد ظهور الصحة الإلكترونية وتقديم الرعاية الصحية «من بُعد»: وكانت خطوط المساعدة الهاتفية (ومازالت) أمثلة على هذا النوع من التطبيب. منذ العام 2000 بدأ التطبيب من بُعد في الاستفادة من تطور التكنولوجيات التفاعلية، ونتيجة لذلك جرى تصور طرق جديدة لممارسة التطبيب من بُعد، بما في ذلك (من بين أمور أخرى) الترصُّدُ والمراقبة الصحية، خصوصا بالنسبة إلى المرضى الذين يعانون أمراضا مزمنة، والذين يمكنهم البقاء على اتصال بالمرضى والمهنيين الآخرين (Street and Piziak, 2001)، أو الوصول المعزَّز إلى الرعاية عن طريق البريد الإلكتروني (Menachemi and Brooks, 2006)، أو برامج التعليم الصحي التي ظهرت أخيرا، والتي تستند إلى التكنولوجيات التفاعلية (Gomez-Zamudio and Renaud, 2009). وقد ساعدت التطورات التكنولوجية التفاعلية في تحسين تقديم الرعاية الصحية، مما جلب التطبيب من بُعد إلى مجال الصحة الإلكترونية. وتتمثل القضية الرئيسة لتطوير الصحة الإلكترونية هنا في ظهور وسائل اتصال جديدة، وتمكين المهنيين الصحيين، والمؤسسات، والمرضى، وعامة الناس من البقاء على اتصال دائم. وكانت مسألة تحسين الوصول إلى الرعاية للجميع ومسألة المنظمات المهنية الجديدة هما القضيتين الرئيستين الموجودتين على المحك.

ثمة جانبٌ ثانٍ للتحولات التي تؤدي إلى بلورة مجال الصحة الإلكترونية، ويتمثل «ببساطة» في الابتكار الطبي. لقد حسَّنت التكنولوجيات الحديثة (بما في ذلك التكنولوجيات التفاعلية) إمكانات العلاج تحسينا كبيرا، مثل إمكانية الجراحة في مكانين مختلفين ماديا وجغرافيا (بالنسبة إلى الجراح والمريض). قد يبدو تميز التطبيب من بُعد، كما هو موصوف أعلاه، غيرَ ذي أهمية نظرا إلى أن الابتكار الطبي يشمل أيضا قابلية الاتصال. وعلى رغم ذلك فإن هذا التميز مهم وكبير. فنتائج الأداء التكنولوجي تُقاس من خلال النجاح والتقدم الطبي. والهدف هو الحصول على نتائج طبية أفضل باستخدام تكنولوجيا محسَّنة. العنصر التفاعلي يكون أساسا

بين التكنولوجيات نفسها، ما يؤدي إلى تهميش الاتصال بين الفاعلين بوصفه مسألة ذات أهمية ثانوية. فالقضية لا تتمثل في إمكانية الوصول إلى الرعاية الصحية بقدر ما تتمثل في التقدم الطبي.

يتعلق الجانب الثالث من مجال الصحة الإلكترونية بالصحة الافتراضية. نادرا ما تناقش الصحة الافتراضية اليوم في الدراسات الحالية. وعلى رغم ذلك كان هذا المفهوم محور نقاش حاد في أواخر التسعينيات وأوائل العقد الأول من القرن العشرين. وتشير الصحة الافتراضية إلى طرق جديدة لتجربة الصحة (وبنحوٍ أكثر تحديدا) طرق جديدة لتجربة الجسد. فمن ناحية، وعلى غرار نظريات ما بعد الحداثة ونظرية الجسد، تشير الصحة الافتراضية إلى احتمال أن يتفوق جسد جديد على إمكانياته وحدوده المادية من أجل اكتساب كفاءات جديدة في «الفضاء الإلكتروني» (Featherstone, 1996). فيصبح الجسد جسدا إلكترونيا cyberbody، أو «إنسانا خارقا» superhuman يتطور في عالم افتراضي. وتتأثر تجربة الصحة والمرض نظرا إلى أن المرض والإعاقات يختفيان حتما في العالم الافتراضي. ولكن لا يمكن تجاهل مشاكل الجسد تماما في الصحة اليومية (Bendelow and Williams, 1998). ولا يمكن أن تتأثر تجربة الصحة، وكذلك الأمراض والمتلازمات والإعاقات، بالفضاء الإلكتروني إلا بقدرٍ جزئي ولحظي، أما علاجها فيتطلب الوصول إليها خارج إطار الإنترنت (Hervier, 2009).

كما تشير الصحة الافتراضية إلى نوع من النشاط الصحي الذي أصبح مهما للمرة الأولى في بداية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين: وهو مجتمعات الصحة الافتراضية. فقد جمعت مجتمعات الصحة الافتراضية المرضى، أو الجماهير المعنية بالصحة معا على الإنترنت. وكان أفراد هذه المجتمعات المتباعدون جغرافيا، على رغم أنهم يتشاركون في الأسئلة نفسها أو المشكلات أو الحالات الصحية، قادرين على مناقشة وتبادل خبراتهم باستخدام الإنترنت. وفي الوقت الذي كانت تزداد فيه نسبة مشاهدة هذه المجموعات أو المجتمعات على الإنترنت، فإن السمة التي تفردت بها هي أيضا ازدياد نفوذها على العالم «الحقيقي» وداخله. وبدأ يصبح لبعض الجماعات صوت بوصفها أعضاء في تلك المجتمعات، بمن في ذلك المرضى والمواطنون والأفراد (الذين يعيشون جميعا من دون اتصال بالإنترنت). ولم يستطع المهنيون

الصحيون والمؤسسات وحتى السياسيون تجاهل صوتهم. وعززت مجتمعات الصحة الافتراضية النقاش العام حول الصحة (سواء عبر الإنترنت أو خارجها)، علما أنه كان في السابق مقتصرا على العلاقة بين المريض والمهني ومقيدا بها.

في هذه المرحلة دخل علماء الاجتماع إلى المشهد. وفي حين أنهم ظلوا بعيدين نسبيا عن التطورات في الصحة الإلكترونية - حيث تُركت هذه القضايا للمهنيين الصحيين وصانعي السياسات والمعلوماتية الطبية - وجد علماء الاجتماع في المجتمعات الصحية الافتراضية موضوعا ملهما للدراسة.

دراسة الصحة والإنترنت: النظرة الطبية في مقابل النظرة السوسيولوجية

منذ البداية، تنافس اثنان من التخصصات المختلفة للدفاع عن رؤيتيهما حول الإنترنت والصحة، وهما الطب وعلم الاجتماع.

مع زيادة عدد مستخدمي الإنترنت (أو الذين يُعرفون بالباحثين عن الصحة الإلكترونية أو الباحثين عن المعلومات الصحية عبر الإنترنت أو الباحثين عن المعلومات الصحية الإلكترونية (Kivits, 2004) الذين يزورون المواقع الصحية في بدايات القرن الحادي والعشرين، كان من الطبيعي أن يبدي المهنيون والباحثون الطبيون اهتماما بهذا الاتجاه الجديد. في ضوء الإحصاءات المتوافرة والفضاءات المتزايدة الممنوحة للصحة والمرض على الإنترنت (Fox, 2006)، بدا من المعقول افتراض أن المرضى لن يبقوا على الحال التي كانوا عليها. تبنت «المجلة الطبية البريطانية» The British Medical Journal هذا الجدل في عددها المنشور في العام 2002. وقد ناقش ذلك العدد، الذي يحمل العنوان الفرعي «ثق بي، أنا موقع إلكتروني» Trust me, I'm a website(*)، الملفاتِ الشخصيةَ الجديدة للمرضى الذين يستخدمون الإنترنت لأسباب صحية، ومواقع الشبكة الحالية المخصصة للطب والصحة والمرض، والأهم من ذلك أنه ناقش جودة المعلومات الموجودة على الإنترنت وكيفية تقييم مستخدمي الإنترنت للمعلومات الصحية. وبرزت جودة المعلومات بوصفها من أهم مسائل النقاش، إذ أظهرت الدراسات

(*) http://www.bmj.com/content/vol324/issue7337

(آخر مرة حدث الدخول فيها إلى هذا الموقع كانت في 29 يوليو 2009). [المؤلف].

أن المعلومات الموجودة على الإنترنت ليست دقيقة بنحوٍ ثابت، وأنها قد تكون في بعض الحالات خاطئة ومضللة، مما يمثل «خطرا» على المستخدمين. وقد تبين أيضا أن مستخدمي الإنترنت لا يتمتعون بالكفاءات اللازمة لتقييم دقة المعلومات، وأنهم غالبا ما يميلون إلى إلقاء نظرة سريعة على المعلومات من دون تقييم لمصداقية المواقع الإلكترونية وناشريها (Eysenbach and Köhler, 2002). في العام 2001 كانت بيرلاند Berland وبعض الباحثين الآخرين قد أعربوا عن قلقهم العميق بشأن إمكانية الوصول إلى المعلومات الصحية والطبية وإمكانية قراءتها. على الرغم من وجود بعض الآمال حول إمكانية تحسين تطوير الإنترنت على نحو يفيد الأطباء والمرضى وعامة الناس (Ferguson, 2002) فإن صورة الموارد المتاحة على الإنترنت والتي يقدِّمها المجال الطبي في مجال الصحة كانت (ولاتزال إلى حدٍّ ما) سلبية بوضوح.

ومن المثير للاهتمام أن العلماء الاجتماعيين المشاركين أيضا في دراسة استخدام الإنترنت تبنوا رأيا مخالفا تماما نظرا إلى أسباب تتعلق بالصحة والمرض. ففي دراسة رائدة، أشار هاردي Hardey (1999) بكل حماسة إلى أن مستخدمي الإنترنت يمكن أن يكتسبوا الخبرة من خلال الوصول إلى المواقع الصحية، وأن عصرا جديدا قد بدأ في الظهور بالنسبة إلى المرضى، الذين أصبحوا أكثر قوة بواسطة الإنترنت. وكان للدراسة التي أجراها باروز وباحثون آخرون (2000) رؤية هاردي نفسها المتفائلة للإنترنت، وذلك من خلال النظر في مجموعات الدعم الافتراضية. وقد تبنت أغلبية الدراسات السوسيولوجية في هذا المجال أيضا هذه المقاربة من خلال التفحص الدقيق للتمكين الذي تتيحه الإنترنت بوصفها أداة معلومات، إلى جانب تفحص إمكانيات الدعم التي توفرها الإنترنت المستخدمة بوصفها شبكة اجتماعية. والمعلومات التي توفرها الموارد المتاحة على الإنترنت لم تكن تشمل الأسئلة الصحية وطرق الحفاظ على صحة جيدة فقط، بل كانت تشمل أيضا أفكارا عن الأمراض المزمنة، كالسرطان والإيدز، والأمراض الخطيرة أو النادرة، والطريقة التي يمكن أن تؤثر بها الإنترنت في إدارة هذه الأمراض والحالات. وطُوِّرت منظورات أكثر دقة تدريجيا، بما في ذلك الدراسة التي أجراها هينوود Henwood (2003)

وباحثون آخرون، والتي أشارت إلى أن المرضى لا يحدثُ بالضرورة تمكينُهم أو إضعافُهم نتيجة استخدام الإنترنت. وفي الآونة الأخيرة ميَّزت الدراسة، التي أجراها لمير Lemire (2008) وباحثون آخرون، بين أنماط التمكين التي لا تُعتبَر فريدة ولكنها متعددة، ما أدى إلى إزالة الغموض عن الباحثين عن المعلومات الصحية عبر الإنترنت.

وحتى منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين ظهرت وجهات نظر سلبية وإيجابية على حدٍّ سواء حول الإنترنت في هذا المجال. ولكن على الرغم من أن الإنترنت ظلت محورا مهما للبحث، فإنها تنحَّت تدريجيا مُفسحةً المجالَ للقضايا السوسيولوجية ذات الصلة والتي ستصبح لها في نهاية المطاف مكانة محورية في هذا المجال. وحدثت العودة لتناول الأسئلة الكلاسيكية في علم اجتماع الصحة والمرض (مثل العلاقات بين الطبيب والمريض)، في حين طُوِّرت أيضا مقاربات جديدة للصحة والمرض في العهد المعاصر.

مقاربات متجدِّدة للصحة والمرض في عصر الإنترنت

من خلال مرشِّح الإنترنت والدراسات الصحية، ظهرت ثلاثة مواضيع بحثية رئيسة في علم اجتماع الصحة والمرض: أولا: مسألة الصحة والمرض وإدارة الأفراد والسكان للقضايا ذات الصلة. ثانيا: مسألة العناية بالمرضى وظهور «المريض المطلع» informed patient، ما يؤدي إلى إعادة تقييم للثقة والخبرات المنتشرة في العلاقة بين المهنيين الصحيين وعامة الناس. وثالثا: مسألة الفاعلية والتنظير للمفهوم، والتي أفادت من دون شكٍّ من دراسات الإنترنت والصحة.

الكشف عن الحالة الصحية: تجربة الصحة عبْر الإنترنت

يُعَد التنوع الهائل للخبرات الصحية والمرضية إحدى القضايا الرئيسة التي يُسلَّط الضوء عليها من خلال الدراسات حول الإنترنت والصحة. وهذا التنوع واضح من منظور المستخدم - المريض - الفرد. ولكن من المهم مناقشة الإنترنت والصحة بوجهٍ عام، وبناء تفرُّد الإنترنت بوصفها وسيطا للمعلومات، وتفرُّد المريض باعتباره باحثا دائما عن المعلومات الصحية عبر الإنترنت.

وانطلاقا من تركيزها على الباحثين عن المعلومات الصحية عبر الإنترنت، تميل الأبحاث السوسيولوجية إلى التركيز على تنوع هؤلاء الباحثين عن المعلومات الصحية التي توفرها الإنترنت. فالمرضى الذين يعانون السرطان والإيدز والأمراض النادرة وغيرها؛ أو أحد الوالدين الذي يوجد لديه طفل مريض أو يقدم الرعاية لشريكٍ يُحتضَر؛ أو الأشخاص الذين يتعايشون مع آلام الظهر والإكزيما ومرض السكري وغير ذلك؛ أو الأفراد الذين يبحثون عن المشورة بشأن إنقاص الوزن، وما إلى ذلك - كل هؤلاء يمثلون تجارب تحفز المرضى أو أولئك الذين يهتمون بالمرضى على استخدام الإنترنت. والباحثون عن المعلومات الصحية عبر الإنترنت يستخدمون شبكة الإنترنت بطرق مختلفة، ويصلون إلى فضاءات مختلفة من خلالها. فهُم بوصفهم مرضى قد يلجأون إلى إقامة لقاءات منتظمة أو مباشرة أحيانا مع أحد الاختصاصيين الطبيين. ونظرا إلى معاناة الأشخاص من الظروف الصحية أو الأمراض، تقترح الأبحاث السوسيولوجية عددا كبيرا من التجارب. ويتمثل الإسهام الأبرز لعلم الاجتماع في أنه عمَّق فهمنا للباحثين عن المعلومات الصحية عبر الإنترنت، لاسيما من خلال تصوير سلسلة من الملفات الشخصية للمرضى ومقدمي الرعاية. وخلال القيام بذلك، يُسلَّط أيضا الضوء على تنوع الإنترنت. وتوجد على الإنترنت مواقع تجارية، أو مؤسسية، أو علمية تحتوي على معلومات صحية أو أدوات ومنتجات وخدمات تفاعلية (Kivits, 2008)، وفي الفترة الأخيرة أصبحت هناك فضاءات إلكترونية شخصية معلنة على الملأ (Hardey, 2002; Legros, 2009)، وكل هذه الأمور يمكن استخدامها لأسباب صحية.

ويرتبط إسهام علم الاجتماع في قضية الإنترنت والصحة بتركيز بحثي معروف في علم اجتماع الصحة والمرض، وهو أن الشعور بالأمراض يختلف باختلاف الأشخاص، وأن طريقة شعور الأفراد بالظروف الصحية والمرضية يجب وضعها في سياق محدد. ويشكل التعليم والدخل والظروف المعيشية والمهنية وشبكات العائلة والأصدقاء أيضا جزءا من تجربة المرض، ومن ثم جزءا من تجربة الإنترنت والصحة (Kivits, 2009).

ولكن أحد الجوانب يشير إلى قضية ومقاربة جديدتين تماما: فقد عززت الإنترنت التعبير عن نوع لم يُكشف عنه سابقا من «التجارب الصحية». كانت حالة الباحثين عن المعلومات الصحية عبر الإنترنت في السابق ملتبسة بنحوٍ واضح. وبينما كان يُنظَر إلى الإنترنت، كما هو متوقع، بوصفها موردا يوفر إمكانات غير محدودة للوصول إلى المعلومات الصحية والدعم، فإن النقطة الأكثر إثارة للفضول هي أن الباحثين عن المعلومات المتعلقة بالصحة والمرض تبين عموما أنهم بصحة جيدة، مما يشير إلى أن ملفات تعريف الباحثين عن المعلومات تمتد إلى ما هو أبعد من الملف الشخصي القياسي للمريض (Ferguson, 2002). كما هو موضح أعلاه، يمثل مقدمو الرعاية الذين يبحثون عن المعلومات الصحية نيابة عن أفراد الأسرة أو الأصدقاء نسبة كبيرة من مجموع الأصحاء الباحثين عن المعلومات (Ferguson, 2002; Fox, 2006). وإلى جانب مقدمي الرعاية فإن عددا كبيرا من الباحثين عن المعلومات يعبرون أيضا عن اهتمامهم العام بـ (أو ميلهم نحو) الحفاظ على لياقتهم وصحتهم (Nicholas et al., 2001; Lemire et al., 2008). ومن ثم فإن الملفات الشخصية للمستخدمين الذين يلجأون إلى الإنترنت لأسباب صحية تواجه تحديا، وكذلك دوافعهم ودلالات مثل هذه الدوافع.

وهكذا تُعاد صياغة القضية الأساسية: فقد انتقلت الأبحاث السوسيولوجية من فهم استخدام الإنترنت لأسباب صحية إلى مسألة الصحة الشخصية ومكانتها في العصر الحالي بصفتها موردا وأسلوبَ حياة، ومن ثم اندمجت مع أدبيات السياسة الاجتماعية والسوسيولوجية التي تعمل حاليا على تطوير منظورات نقدية حول الصحة العامة، وتعزيز الصحة. فعلم الاجتماع يدافع عن استبدال نظرية «دور المريض» sick role عند بارسونز بـ «الدور الصحي» health role (Kivits, 2004)، وذلك استجابة لاهتمامات الناس العاديين والأصحاء، الذين يُحَضُّون على تحمل مسؤولية صحتهم وتحسينها على نحو مستمر (Bunton and Burrows, 1995; Lupton, 1995). وتتميز تجارب الصحة اليومية المعاصرة بثقافة الاستهلاك الصحي التي تُترك فيها الخيارات المتعلقة بالصحة الشخصية للفرد (Bauman 2000, Henderson and Petersen, 2002). وينظر

إلى الممارسات المتعلقة بالمعلومات، التي تُفسَّر في سياق الثقافة الاستهلاكية الجديدة في مجال الرعاية الصحية، على أنها مورد أساسي للترويج لتحسين الصحة (Shilling, 2002)، في حين يُنظر إلى البحث النشط عن المعلومات (على الإنترنت أو عبر مصادر أخرى) على أنه دليل على وعي الأفراد بالمسؤولية الشخصية. في المقابل، قد يُنظر إلى البحث عن المعلومات الصحية عبر الإنترنت على أنه فرض بالنسبة إلى الأفراد: فمن خلال تمكين الأفراد من اتخاذ خيارات بشأن الصحة وطرق المحافظة على صحتهم، فإن البقاء على اطلاع على المعلومات يصبح هو «المعيار المتَّبع» (Rose, 2000).

باختصار، يُنظر إلى الإنترنت على أنها جزء من طريقة جديدة «لممارسة الصحة». فقد أعادت الأفكار السوسيولوجية تحديد استخدام الإنترنت في بيئة إعلامية أوسع ليست مقصورة على الإنترنت (Seale, 2003 ;Kivits, 2008) وطورت طرقا جديدة لتصور الصحة والمرض في العصر الرقمي.

الثقة والخبرة في العلاقة بين العامة والمهنيين

لقد أعادت دراسات الإنترنت والصحة النظر أيضا في مفاهيم الثقة والخبرة. ففي سياق الرعاية الصحية يتركز الاهتمام الطبيعي على العلاقة بين المريض والمهني، أو بمزيد من الدقة على العلاقة بين عامة الناس والمهنيين (بما أننا بتنا نعلم الآن أن الباحثين عن المعلومات الصحية ليسوا بالضرورة مرضى). ويُنظر إلى الإنترنت على أنها هي من عطَّل هذه العلاقة، سواء بنحوٍ إيجابي أو سلبي وفقا لوجهات النظر المتنافسة التي تطورت مسبقا في هذا الفصل. فهذان المفهومان يرتبطان ارتباطا وثيقا بتغيير العلاقة.

احتلت الثقة والخبرة مكانة مركزية في المناقشات حول تأثير استخدام الإنترنت في تجارب الصحة والمرض؛ وذلك لأن هذه التجارب تشمل اللقاء مع اختصاصي طبي. وبدأ هذا الأمر يؤدي إلى نشوء تعارض واضح بين جانبي العلاقة بين العامة والمهنيين - أي الأشخاص العاديين الذين يتصفحون الإنترنت ويبحثون عن المعلومات ويتفاعلون مع المرضى الآخرين، ويتواصلون مع المهنيين والخبراء الطبيين عبر الإنترنت، والذين يميلون إلى التشكك في تطورات الإنترنت.

فالإنترنت يُنظر إليها باعتبارها أضرت بالثقة بالمهنيين الطبيين. وأظهرت بعض الدراسات كيف يمكن إعادة تفسير اللغة الطبية في ضوء المعلومات المتوافرة عبر الإنترنت (Akrich and Méadel, 2002). وتمثل مصداقية محتوى المعلومات ومصادرها بُعدا مهما للبحث عن المعلومات (Eysenbach and Köhler, 2002): فمستخدمو المعلومات الصحية قد يظهرون عدم الثقة تجاه الإنترنت، ومن ثم فإنهم قد يعبِّرون عن الحاجة إلى إنشاء ثقة تجاه المعلومات المتاحة على الإنترنت. وعلى رغم ذلك فإن الحاجة إلى الثقة لا تتضمن إثبات الصلاحية العلمية للمعلومات المتاحة على الإنترنت لأنها تنطوي على الاستخدام المباشر لمخزون يومي (Kivits, Henwood et al., 2003, 2006, 2009). إن القضية المثيرة للاهتمام تتمثل في كيف أن الثقة وعدم الثقة ينطبقان بالتساوي على الإنترنت والمهنيين. ففي حال أصبحت ثقافة الشك هي القاعدة السائدة في الحقبة المعاصرة (O'Neill, 2002)، فإن الخبراء سيميلون إلى الارتياب مثلهم مثل المصادر التي تزعم أنها تحل محل الخبراء. هنا تصبح الإنترنت في مرمى النيران. ومن ثم فإن تجربة الباحث عن المعلومات بوصفه مريضا أو مقدما للرعاية أو شخصا سليما أو أحد الوالدين تصبح ذات أهمية محورية وبارزة في الكفاءات اللازمة لتقييم صحة مصدر المعلومات (سواء كان ذلك يتمثل في الإنترنت أو في أحد المهنيين).

وهذا يثير مسألة الخبرة في العلاقة بين العامة والمهنيين. إن أكثر القضايا التي نوقشت في دراسات الإنترنت والصحة هي خبرة الباحث عن المعلومات. يتفق المنظوران المتنافسان في هذا المجال (أي الطب وعلم الاجتماع) على أن خبرة الشخص العادي تتغير. وتوصيف طبيعة هذا التغير وتأثيره في كلٍّ من الشخص العادي والمهني هو قضية أكثر إثارة للجدل. والسؤال الذي يطرح نفسه لا يتعلق بما إذا كان مستخدم الإنترنت الذي يبحث عن المعلومات الصحية قد يصبح أكثر معرفة أو لا، بل يتعلق بحالة هذه المعرفة التي تتعارض أحيانا مع معرفة المهنيين. وتفسيرات هذه المسألة تميل إلى التباين. بالنسبة إلى البعض، فمن المحتمل أن تشكل هذه المعرفة تحديا للعلاقة بين العامة والمهنيين بقدر ما تمثل نوعا جديدا من الخبرة (Ziebland, 2004). وفي المقابل قد تُوفر أيضا

الدعم للخبراء الطبيين من خلال تقديم شكل مكمل من الخبرة (Henwood et al., 2003; Kivits, 2006). وتربط الأبحاث السوسيولوجية حول الإنترنت والرعاية الصحية هذه القضية بدراسة أوسع نطاقا عن زعزعة استقرار الخبرة في الحقبة المعاصرة. وفي دراسات الإنترنت والرعاية الصحية تعقد مقارنة مع الفرد الذي يميل بقدرٍ متزايد إلى تأمل الذات (Giddens, 1991)، والذي يجب تزويده بالمعلومات ليتصرف بمسؤولية.

البحث عن المعلومات الصحية والتفاوض بشأنها: بعض الأفكار عن الفاعلية

تعمل شبكة الإنترنت بوصفها وسيلة للبحث عن المعلومات، ومناقشة المرض، وتبادل المعلومات، ومشاركتها مع الآخرين، ومواكبة التشخيص والعلاج، وما إلى ذلك. وقد أوضحت الدراسات التي أُجريت أخيرا عن الصحة والإنترنت (Kivits, 2009, Lemire et al., Legros, 2009) أن هذه الممارسات تستند إلى التجارب اليومية. وعلى الرغم من إدراكهم محيطَهم المعلوماتي وكمية المعلومات المتوافرة، فإن الباحثين عن المعلومات الصحية عبر الإنترنت يتعمدون الحد من استخدامهم إمكانيات المعلومات المتاحة لهم. والتجارب الشخصية بالدرجة الأولى هي التي تدفع المستخدمين للبحث عن المعلومات أو مشاركتها، ومن ثم إلى دمج الإنترنت في بيئة إعلامية وإقحام الصحة والمرض في سياق الحياة اليومية والحميمة.

وضعت دراسات الإنترنت والصحة الأسس اللازمة لتجربة صحية مستنيرة. ومن المنظور السوسيولوجي تجد هذه التجربة المستنيرة، باعتبارها من سمات العصر الرقمي، أرضية جديدة فيما تنطوي عليه تجارب الصحة والمرض من تعقيد وتنوع. كما توضح التذبذب بين البنية والفاعلية (Giddens, 1991). فمن ناحية تُبرز الإنترنت والصحة ضرورة الاطلاع على المعلومات الصحية، والتي هي بحد ذاتها انعكاس لمجتمع المعلومات الذي يتطلب من الأفراد أن يكونوا مطلعين، كما يفضي إلى التطوير الذاتي الفردي على أساس المعلومات. ومن ناحية أخرى فإن بُعد الفاعلية الخاص بالبحث عن المعلومات يتسم بالوضوح. فالحياة اليومية والتجارب الصحية توجه البحث عن المعلومات، وتحتم على الأفراد إيجاد

الروابط وإقامتها بين تجاربهم الشخصية والمعلومات المتاحة، ونبذ المعلومات التي لا تمت إلى التجربة بصلة مباشرة. باختصار، الباحث عن المعلومات هو عبارة عن عنصر فاعل متمركز حول التجارب الشخصية والحميمية، بما في ذلك الصحة والمرض، وفي الوقت ذاته هو أيضا كيان خاضع لمقتضيات المعلومات.

وبفضل التكنولوجيا الرقمية، أصبح مقتضى المعلومات في مواجهة «مقتضى الصحة» (Lupton, 1995). فالأفراد يُحَثُّون على أن يصبحوا أصحاء، خاصة من خلال الاطلاع على صحتهم. وفي حين أن نشر المعلومات على نطاق واسع يميل إلى تعزيز ثقافة المسؤولية الصحية الشخصية التي لا يمكن للأفراد الهروب منها (Nettleton, 2004; Lash, 2002)، فإن الأبحاث السوسيولوجية تُظهِر أيضا كيف تعمل المعلومات على تعديل (إن لم يكن التهرب من) المسؤولية الشخصية: فالوصول إلى المعلومات (وتحديدا البحث عن المعلومات ومشاركتها على الإنترنت) يعزز تعبير الفرد عن تجربته الشخصية الصحية. وبينما تزداد أهمية مقتضيات المعلومات والتمتع بالصحة، فإن البحث عن المعلومات يسمح للعنصر الفاعل بالتفاوض على هذه المقتضيات.

الخلاصة

كان الغرض من هذا الفصل هو مراجعةَ المقاربات السوسيولوجية للصحة والمرض في العصر الرقمي. وقد ركَّز بصفة خاصة على الإنترنت والدراسات الصحية التي جذبت اهتمام علماء الاجتماع في العقد الماضي، وأظهر كيف تطورت المقاربات المتجددة للصحة والمرض في الوقت الذي كان فيه محور اهتمام الأبحاث في طور التحول. فقد تحول البحث تدريجيا من الإنترنت بوصفها أداة معلومات للمرضى إلى استخدامات هذه الأداة وأهميتها السوسيولوجية في سياق الرعاية الصحية الأوسع نطاقا. وأُظْهِرت ملفات تعريف تتجاوز البيانات الشخصية القياسية للمريض، بالإضافة إلى تجارب أخرى تتعلق بالصحة والمرض. ومن المهم أنه في حين أن التكنولوجيا الرقمية (وبنحوٍ خاص الإنترنت) وفرت فرصة من أجل تجديد المقاربات الخاصة للمواضيع التقليدية للدراسة مثل الصحة والمرض، فإن علماء الاجتماع الذين يبحثون في الصحة والإنترنت قدموا

أيضا طرقا جديدة لفهم التكنولوجيات الرقمية. لقد وفَّر علم الاجتماع رؤية مختلفة عن الإنترنت في سياق الرعاية الصحية، وذلك مع إتاحة الإنترنت تجارب جديدة في مجال الصحة والمرض، والتي من المحتمل أن تصبح أكثر وضوحا مع تطور تقنيات الجيل الثاني من شبكة الإنترنت.

تتألف الرؤى السوسيولوجية والمفاهيم الجديدة للصحة والمرض في العصر الرقمي من شقين: الصحة وتكنولوجيا الإنترنت. ولكن المقاربات السوسيولوجية لاتزال تعاني الإفراط في الحماس تجاه الإنترنت بوصفها أداة توفر طرقا جديدة للشعور بالصحة. وستستفيد الأبحاث السوسيولوجية من المنظورات النقدية حول الإنترنت وتكنولوجيات الصحة الرقمية بوجهٍ عام. والمفاهيم التي وُضعت في هذا الفصل مثل الخبرة والثقة والفاعلية لتوفير أساليب جديدة في الرعاية الصحية والمرض في العصر الرقمي قد تميل إلى الحد من دور التكنولوجيا. ومن خلال تقويض التصورات عن الإنترنت بوصفها أداة صارمة وخطيرة على الصحة فإن علم الاجتماع قدَّم من دون شك إسهاما كبيرا في هذا المجال. ولكن التنحية التدريجية لدور التكنولوجيا لمصلحة تحليل الاستخدامات في الصحة اليومية والإمكانات الجديدة الإيجابية على صعيد تجربة الصحة أو المرض، هي التي يُرجح أنها تؤدي إلى التقليل من أهمية القيود المفروضة على التكنولوجيا الحالية. ومثلما حُجبت الأضواء ذات يوم عن التفوق التكنولوجي، فإنها مسلَّطة الآن على تفوق الخبرة.

لتجنب هذا الخلل ستحتاج الأبحاث السوسيولوجية، أولا وقبل كل شيء، إلى التركيز على التغيرات الحالية من خلال تبني منظور متعدد الأبعاد (بما في ذلك المنظور التكنولوجي). وقد يشكل تطوير الجيل الثاني من شبكة الإنترنت مرحلة ثانية في المقاربات السوسيولوجية الجديدة للصحة والمرض في هذا العصر الرقمي، مما يشير إلى منظور تكنولوجي. كما يبدو من المحتمل أن علماء اجتماع الصحة والمرض لن يكونوا قادرين على تجنب دور التكنولوجيا في بناء تجربة الصحة أو المرض. ثانيا: يجب أن تكون الرؤى السوسيولوجية أكثر شمولية على صعيد الجهات الفاعلة. ويُعد الأفراد والمهنيون الطبيون والصحيون عادةً الجهاتِ الفاعلةَ الرئيسة التي يدرسها علماء الاجتماع في الصحة والمرض. وعلى

رغم ذلك في العصر الرقمي يجب أخذ الجهات الفاعلة الأخرى في الحسبان في حال كانت تقدم أيضا معلومات صحية: إذ إن منتجي ومحرري المواقع الإلكترونية والصحافيين وصناع القرار يشكلون جميعهم جزءا من المشهد وقد أسهموا (بنحوٍ مباشر أو غير مباشر) في تجارب الصحة والمرض من خلال التكنولوجيا، وذلك نظرا إلى التحول الرقمي الذي طرأ على الصحة والمرض. وبهذا المعنى سوف يُنظر إلى تجارب الصحة والمرض المتغيرة على أنها ليست حكرا على الأفراد المُمَكَّنين فقط، بل هي تنتمي أيضا إلى الجهات الفاعلة التي تتطور على الإنترنت وحولها، وتسهم بوجهٍ عام في تطور عصر الصحة الرقمية.

15

كلمةٌ ختامية: التكنولوجيا الرقمية والنوافذ السوسيولوجية

أندرو ويبستر

يَبدو أن سوسيولوجيا التعليمِ والصحةِ في «العصرِ الرقميِ» لا تطلبُ منا حقا أن «نعيد النظر» كثيرا - على الأقل ليس في علم الاجتماع نفسه. ففي حين أن كلا من الفصلين [الثالث عشر والرابع عشر] يقدم إعادة نظر نقدية في التكنولوجيا، فإنهما يفعلان ذلك من خلال التوظيف التقليدي إلى حدٍّ ما لمبادئ النقد السوسيولوجي، وذلك عبر دراسة الطبيعة الطارئة (الفوضوية) والمتحيزة وغير المحددة للتكنولوجيات الإلكترونية مع الاعتراف بأن هذه التكنولوجيات نفسها تقدم وسائط جديدة يمكن من خلالها إزالة الحدود التقليدية والتسلسلات الهرمية أو على الأقل

«استخدامُ التكنولوجيات الرقمية داخلَ المنزل، كالأجهزَة المساعدة لرعاية المسنين على سبيل المثال، يؤدي إلى تغيير معنى المنزل نفسه»

التصدي لها وعرقلتها. ويُؤكد كلا الفصلين أيضا مرونة العمليات البنيوية والثقافية التي تُوزع من خلالها الميزة الاجتماعية والقوة، وإعادة تكوينهما جزئيا فقط من خلال الإمكانيات الديموقراطية التي تتيحها التكنولوجيا الرقمية.

وبدلا من إعادة النظر في الخيال السوسيولوجي، توفر هذه التعليقات نقدا متأصلا في التقاليد الأساسية لهذا الفرع المعرفي، وهي تُبلي بلاء حسنا في هذا الصدد، حيث تشير إلى الطرق التي تعمل فيها التكنولوجيات الإلكترونية على التمكين والتقييد في آن معا. وهذا التصور للتكنولوجيا يشير إلى شكل من أشكال التحليل لما تمكن تسميته «الهيكلة الرقمية» digital structuration، والذي يعكس الدراسة الكلاسيكية لدى غيدنز (1984)، وفي الوقت نفسه المشاركة في إنتاج المجتمع والتكنولوجيا، كما أظهر العاملون في الدراسات العلمية والتكنولوجية (مثل Rip et al, 1995؛ Bijker and Law, 1992؛ Jasanoff, 2004). لذلك فيما يتعلق بالأخير، كما ترى كيفيتز، فإننا رأينا «أنه من خلال مُرشِّح الإنترنت واستخداماته الحالية والمستقبلية في السياقين الصحي والمرضي، انبثقت في الحقيقة مفاهيمُ جديدة أو مجددة بشأن الصحة والمرض» (الصفحة 214)، وهي عملية تجديد أو تأكيد، وكذلك ابتكار وتفكك داخل الفهم التقليدي. وبطريقة مشابهة، يعتمد سيلوين على رؤية باروز وبير (2007) التي تشير إلى أنه بالنظر إلى الطبيعة التشاركية للشبكة، فإنها تعني أن «المستخدمين يشاركون بنحوٍ متزايد في إنشاء محتوى الشبكة وكذلك استهلاكه»، وهو ما يطلق عليه «مستهلج» للاقتصاد الرقمي وثقافة الجيل الثاني لشبكة الإنترنت. بالإضافة إلى ذلك، يؤكد كلا البحثين الطريقة التي تتداخل بها الحدود الرقمية والبيولوجية وتفضي إلى شكل من أشكال التجسيد في الفضاء الإلكتروني.

في الوقت نفسه، يؤكد كلا المقالين أنه كان ولايزال هناك كثير من التضخيم أو«المبالغة الحوسبية»، (Woolgar, 2002) المرتبطة بالتغييرات المفترضة التي قيل إن التكنولوجيات الرقمية توفرها في سياق التعليم والصحة الإلكترونية. الواقع أن كيفيتز تنتقد التحليلات السوسيولوجية للصحة الإلكترونية نفسها، لأنها تبالغ في كثير من الأحيان في الطبيعة التمكينية والتحويلية للإنترنت. ويشير كلا المؤلفين إلى إمكانية الاستمرار في الاستغناء عن الإنترنت في شكليها

المادي والمؤسسي وإلى «تضارب» الأوامر المؤسسية الحالية التي تقيِّد الحريات المحتملة والتمكين المرتبط بالشبكة. هذا أبعد ما يكون عن ادعاء فيريليو Virilio (2000) بأننا أصبحنا منفصلين مكانيا عن بيئتنا المادية. الواقع أن سيلوين يذهب إلى أبعد من ذلك حيث يزعم أنه في سياق التعليم على الأقل، فإن المجال الرقمي أبعد من أن يفضي إلى التغيير، بل يتبنى رؤية تناقض ذلك حيث يقول إن «... التعليم في العصر الرقمي يجب أن يُنظر إليه باعتباره يمثل مجموعة من الاستمراريات مع - بدلا من كونه مجموعة من الانقطاعات الجذرية عن - التعليم في العصور السابقة» (الصفحة 257). فضلا على ذلك، يشير سيلوين إلى أن التكنولوجيا الرقمية لا تؤدي إلى التمكين، بل هي تؤدي إلى الاعتماد على مصادر المعلومات، وإلى التراجع في الإبداع واستقلال التفكير. أما كيفيتز فتشير إلى أن هذه الأوصاف الازدواجية البسيطة للشبكة، سواء كانت تؤدي إلى التمكين أو لا، هي أعجز من أن تعكس موقفا يتسم بقدر أكبر من المصداقية والاستناد إلى التجربة (مثل موقف Henwood et al, 2003)، وهذا يوضح أن مستخدمي الشبكة، أو «الأشخاص الإلكترونيين» e-types، كما يسميهم نيتلتون Nettleton وباحثون آخرون (2004)، يمثلون نماذج مختلطة من التمكين وعدم التمكين.

يمكن تطبيق هذه الحجج على الأدبيات السوسيولوجية حول تأثير الشبكة/ التكنولوجيا الرقمية في مجالات أخرى، مثل السياسة (مثل: Loader, 2007) أو العلاقات في مكان العمل (مثل Mason et al; 2002)، والتي تشير في الأغلب إلى هذه الديناميكية من التمكين/ والإضعاف. حينئذٍ يبرز السؤال بشأن ما إذا كانت هناك مجالات أخرى يمكن استكشافها، وما هي الأشياء الممكنة الأخرى التي يمكن أن تسمح هنا بإعادة النظر بشكل جاد في المجال السوسيولوجي؟ وما النوافذ السوسيولوجية الجديدة - التي توفر نظرة رقمية جديدة - والتي قد نراها تظهر في العمل السوسيولوجي الحالي حول التكنولوجيا الرقمية؟ يمكن اقتراح عدد من هذه المجالات أو النوافذ.

أولا، بمعزل عما نتعلمه من هذين الفصلين، ثمة تقدُّم كبير يُحرَز اليوم في دراسة الطرق التي يمكن أن تحدث بها إعادة التشكيلين الزماني والمكاني

للعلاقات الاجتماعية عبر التكنولوجيا الرقمية، وقد ترتب على هذا الأمر حدوث مزاوجة بين علم الاجتماع والأبحاث في الجغرافيا الاجتماعية. ثانيا، هناك اهتمام متزايد بالطرق التي نحتاج إليها لفهم تدفقات البيانات المرتبطة بالعالم الرقمي بصفتها الذاتية، وليس باعتبارها مجرد تدفُّقات معلوماتية مستقرة ذات تأثيرات محددة ومقصودة. ثالثا، هناك كثير من الأعمال، التي لم يُتطرق إليها في أي من البحثين، وذلك حول الطرق التي تُتَبَنى فيها تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فعليا، ويعاد تعريفُها وإعطاؤُها معاني مختلفة في سياق استخدامها: وهذه النقطة الأخيرة لا تهدف فقط إلى تجنُّب أي شكل من أشكال الحتمية التكنولوجية، التي تُنتقَد في كلا البحثين. بل تهدف أيضا إلى استكشاف كيفية إعادة صياغة الحتمية الشاملة والمعيارية لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات مع الاحتفاظ بها إلى حدٍّ ما ضِمن البيئات المحلية، وكيفية ارتباط التكنولوجيات الرقمية، سواء في مجالَي الصحة أو التعليم أو في أي مجال آخر، بكثير من الاستخدامات الثابتة، بدلا من استخدام واحد على المستوى المحلي. وسأتحدث بإيجاز عن هذه النوافذ السوسيولوجية الثلاث بالترتيب.

تأتي واحدةٌ من أحدث الإسهامات في فهم العلاقة الرقمية/المكانية من خلال بحث أودشورن (2011 ;2009) Oudshoorn (انظر أيضا: Poland et al., 2005) الذي استكشف الطرق التي تعيد بها الرعاية الصحية من بُعدٍ توزيعَ مسؤولية الرعاية الصحية مكانيا، والأهم من ذلك العمل الذي يجب الاضطلاع به لتقديم هذه الرعاية. ويشمل ذلك المرضى ومقدمي الرعاية لهم والأطباء في «الجغرافية التقنية» الجديدة للرعاية، حيث يُوزع العمل في وقت واحد عبر عدد من الأماكن والفضاءات من خلال شبكات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات. ويكشف الجمع بين الجانب الافتراضي (من بُعد tele) والفضاء المادي (في المنزل/العيادة) عن نوع مختلف من العمل، الذي تُقدَّم من خلاله الرعاية، وأيضا عن نوع جديد من العمال (مثل الممرضة من بُعد telenurse). إحدى القضايا الرئيسة التي يثيرها بحث أودشورن تتمثل في تحديد الجهة التي تتولى إدارة الأمور وتتحمل المسؤولية الإكلينيكية، وفي كيفية الاضطلاع بذلك، عندما تكون المسؤوليات موزعة عبر مختلف المواقع والجهات الفاعلة.

فضلا على ذلك، في حين أن تكنولوجيا المعلومات والاتصالات المرتبطة بالرعاية الصحية من بُعد قد تكون نظريا موفرة للتكلفة بالنسبة إلى كل حالة على حدة، فإنه قد تترتب عليها تكاليف غير متوقعة، لأنها تساعد من غير قصد على إعادة تحديد عتبات المخاطر المرتبطة بالاضطرابات الصحية، وإنشاء طلب جديد من المريض أو مقدِّم الرعاية للتدخل والمراقبة، مما يزيد من صعوبة تحقيق هدف الرعاية من بُعد.

بالإضافة إلى ذلك، عندما يكون تصميم تكنولوجيا رقمية ما، أو أي تكنولوجيا صحية أخرى، يتضمن (أي يفترض) سياقات استخدام محددة، ولكن تستخدم تلك التكنولوجيا في بيئة مختلفة، فإنه يمكننا توقُّع أن يجد المستخدمون صعوبة في إعطائها قيمة وفق الطريقة التي تَصوَّرها المُبتكِر. وكمثال جيد على ذلك هناك الدراسة التي أجرتها هيتون Heaton وآخرون (2006) بشأن استخدام التكنولوجيات المساعدة على استمرار الحياة بالنسبة إلى الأطفال المصابين بأمراض خطيرة ومزمنة، وهي عبارة عن أجهزة طُورت في الأصل للاستخدام في بيئة المستشفيات. وتختلف هذه الأجهزة والأنظمة (مثل جهاز التهوية المساعدة assisted ventilation وجهاز التغذية عن طريق الوريد intravenous feeding)، من حيث أهميتها والدمج بينها وصلاحيتها للخدمة وفعاليتها، اختلافا كبيرا عندما تُستخدم في المنزل، حيث تتعين إدارة أنظمة الرعاية المعقدة من قبل أُسر الأطفال (بما في ذلك الأشقاء)، وذلك بالتعاون مع الهيئات القانونية والتطوعية. والكثير من هذه التكنولوجيات لا تعمل إلا من خلال المراقبة والتدخل المستمرين، اللذين يمكن تحقيقهما على نحو أسهل من خلال نوبات التمريض المستمرة على مدار الساعة في المستشفى. وكان الأهل أيضا مسؤولين عن تجهيز هذه المعدات وتوفير اللوازم: فكانت هذه المسؤوليات والمتطلبات تستهلك جزءا كبيرا من وقت الأهل. وكما تلاحظ هيتون (في Webster, 2006)، أنه «في حين أن الأسر كانت قادرة، بدرجات متفاوتة، على دمج جوانب أنظمة الرعاية في روتين حياتها اليومية، فإنها في الوقت ذاته كانت تواجه مجموعة من الصعوبات نتيجة لأن الوقت الذي تتطلبه أنظمة الرعاية يتعارض مع الجداول المنزلية والمؤسسية والاجتماعية الأخرى» (PP.138-39).

لذلك، إلى جانب المكان والفضاء، يصبح الوقت (أو التوقيت) عاملا حاسما في تحديد استخدام تكنولوجيات الرعاية الصحية وفائدتها، سواء كانت رقمية أو غير ذلك.

فضلا على ذلك، تبيَّن أن استخدام التكنولوجيات الرقمية داخل المنزل، كالأجهزة المساعدة لرعاية المسنين، على سبيل المثال، يؤدي إلى تغيير معنى المنزل نفسه. ومن خلال استكشاف ميليغان Milligan وباحثين آخرين (2011) ما يسمونه «طوبولوجيا الرعاية» topology of care، يتبين كيف أن معنى المنزل بوصفه «ملاذا» - أي باعتباره «منطقة ذات خصوصية شخصية يحدث فيها ابتكار «أنماط العمل» الاعتيادية وتنظيمها وتأديتها (الصفحة 33) - يختل عند إدخال تكنولوجيا الرعاية الرقمية إليه. ويتحدث هؤلاء الباحثون عن «ترحيل المكان» dis-placing of place، بمعنى أن مثل هذه التكنولوجيات تعمل على إعادة تعريف مفهوم احتلالها مكانا خاصا يسمى المنزل، والذي أصبح «بابه الأمامي» محاطا بمجموعة من التكنولوجيات الرقمية، ما أدى إلى إزالة الحدود بين الفضاءين العام والخاص.

إن القضية الثانية التي نحتاج إلى إيلاء مزيد من الاهتمام لها في دراساتنا لعلم الاجتماع الرقمي تتعلق بتدفق المعلومات أو البيانات، ولاسيما كيف يمكن أن يصبح للبيانات نفسها حياة خاصة بها. فالبيانات - كتلك التي يُحصل عليها من خلال نظام مراقبة الرعاية الصحية من بُعد، أو نظام المراقبة التعليمية – لا تضطلع فقط بتسجيل النتائج التي توفر سيرة ذاتية رقمية للمريض أو الطالب وقياس تلك النتائج والإبلاغ عنها، بل هي تمتلك أيضا سيرة ذاتية خاصة بها - فهي تنتقل عبر مجموعات البيانات والشبكات والمواقع المختلفة. وهناك عدد متزايد من الطرق التي يُحصل من خلالها على بيانات السير الذاتية biodata للأشخاص أو التي يقدم الأشخاص من خلالها مثل هذه البيانات (Kitchin and Dodge, 2011) سعيا إلى تحقيق نتائج (صحية أو تعليمية) معينة. وتنتقل هذه البيانات بعد ذلك وتُحوَّل وتُنسخ إلى صيغ «مشتقة» جديدة. وتُوظَّف وتُجمَّع هذه التحليلات لبيانات السير الذاتية biometries، التي تسرد التوقعات والممارسات المعيشة والمتجسدة - مع أنها تعيد صياغتها وفق منطقها

الخاص - وهو ما تترتب عليه مجموعة من الآثار المقصودة وغير المقصودة على حد سواء. وهذا بدوره يثير مسألة كيفية التفاعل مع هذه التحليلات لبيانات السير الذاتية ودحضها من قبل أصحاب البيانات ذواتهم الذين تشير إليهم. وكانت هناك مساهمات قيمة بشكل خاص من قبل آمور (2009)؛ (راجع أيضا: Amoore and Hall, 2009) وسافيج Savage وباروز، في هذا المجال البحثي، حيث تركز آمور اهتمامها على دور تحليلات بيانات السير الذاتية الناشئة باعتبارها خوارزميات بيانات في سياق مراقبة الحدود تتجاوز المجال التجريبي على هذا النحو، ولكنها تتيح إمكان إدارة المخاطر المجهولة والمحدقة التي يُنظر إليها باعتبارها مصدر تهديد للدولة. أما سافيج وباروز فيقدمان بدورهما دراسة مكمِّلة من الناحية التحليلية لدور بيانات الشركات المملوكة ملكية خاصة استنادا إلى معاملات المستهلك وتفضيلاته التي لا تسجل فقط خياراته بل تعمل أيضا بنشاط على تكوينها، وهذا يتضح لنا من خلال التوصيات التي تقدمها شركة أمازون: «ونوصيكم أيضا بـ «أو» العملاء الذين اشتروا العناصر الموجودة في سجلك الحديث اشتروا أيضا...».

يتعلق الموضوع الثالث بالحاجة إلى فهم سياق الاستخدام الذي يحدث من خلاله تبني التكنولوجيا الرقمية (أو عدم تبنيها) والاستفادة منها (أو عدم الاستفادة منها). وجميع هذه التكنولوجيات، وليست فقط الرقمية منها، يتخللها التعبير عن العلاقات الاجتماعية. ولذلك فإن الجانب «المبتكر» فيها يتجاوز الأبعاد الاجتماعية والمادية والتقنية وكيفية التعبير عنها ضمن سياقات محددة تماما. أو كما جادل باري Barry (2001) «الجانب المبتكر لا يتمثل في ابتكار الأدوات والأجهزة في حد ذاتها، ولكن في ابتكار ترتيبات الأشياء الأخرى والأنشطة التي تُنسب إلى هذه الأدوات والأجهزة، والتي قد تُنسب إليها أيضا في المستقبل» (P. 211-12). وهذا بدوره يعني أنه على الرغم من امتلاكها ميزات تصميم مشتركة - مثل خوارزميات التصميم التي تقوم عليها تكنولوجيا المنزل الذكي smart-home technology - فإن الطرق التي تُستخدَم بها ستؤدي إلى منحها العديد من الاستخدامات الثابتة بدلا من استخدام واحد فقط. وفي حين أن وولغار Woolgar (1991) كان محقا عندما تحدث عن الطرق التي تضطلع

من خلالها التكنولوجيات/المصممون «بتهيئة المستخدم أي تزويده بالإشارات والتعليمات حول الطريقة الأنسب و«الأفضل» لاستخدام الجهاز أو الأداة، فإن المستخدمين أنفسهم يضعون تصورات عديدة لاستخدام الأجهزة التكنولوجية» (Oudshoorn and Pinch, 2003). وفي حين أنه قد يُنظر إلى هذا الأمر في الأغلب باعتباره يمثل مشكلة بالنسبة إلى موردي التكنولوجيا نظرا إلى أنه يحد، كما يبدو، من الاستخدام الأمثل لجهاز ما، فإن هذه هي بالضبط الطريقة التي تُمنح من خلالها التكنولوجيات الجديدة قيمة وفائدة، والتي سماها ماكلوكلين McLaughlin وآخرون (1999) «سهولة الاستخدام» useability.

وتوسَّع ماي May وزملاؤه في هذا الطرح بقدرٍ أكبر، ودرسوا مجموعة العوامل التي تحدد مدى تقبُّل التكنولوجيا، وبناء على تحليل مفصل للغاية فإنهم واصلوا دراستهم حتى توصلوا إلى تطوير ما يسمونه «نظرية عملية التطبيع» normalisation process theory (May and Finch, 2009)، أي نموذج نظري يستكشف ويشرح كيفية تطبيع التكنولوجيات - وقد ركزوا في جزء كبير من دراستهم على الأنظمة الرقمية - وترويضها في البيئات المحلية. فالابتكار يُنفذ ويُنتج وتُثبَّت وظائفه مع مرور الوقت، ولكن بطرق تعتمد على توافقه مع القيم والمعايير الثقافية لسياق استخدامه، أو على حد تعبير ماي، يخضع الابتكار لعملية «اندماج سياقي» contextual integration.

وأود أن أقول إن هذه المواضيع الثلاثة تقدم تحديات جديدة لنوعٍ من علم الاجتماع الرقمي الذي يتطلب التعامل مع تخصصات أو وجهات نظر أخرى، مثل دراسات الجغرافيا الاجتماعية والعلوم والتكنولوجيا. فمن خلال معالجة هذه القضايا، سيكون علم الاجتماع أيضا أكثر قدرة على تطوير منظور أكثر دقة حول التكنولوجيات بنحوٍ عام، والابتعاد عن ازدواجية الحتمية التكنولوجية، أو الماهوية الاجتماعية social essentialism(*)، والتي إما تضخِّم من دور الحرفية والمادية والأشياء نفسها ومن فاعليتها، وإما تتجاهلها. من المهم ظهور

(*) الماهوية، (أو وهم الثوابت) الاجتماعية، هي الاعتقاد أن كل فئة اجتماعية (مثل النوع والعرق) تمتلك خواصَّ ماهويةً أو جوهرية تميزها عن بقية الفئات الاجتماعية، وأنه لا بد لكل فرد أن يمتلك خواص معينة حتى ينتمي إلى هذه الفئة أو تلك. [المحرر].

مزيد من هذا النوع من التحليلات في المجلات والكتب السائدة لعلم الاجتماع، والتي يُسهم هذا الكتاب نفسه إسهاما مهما وبارزا فيها. وهذا يُعتبر بمنزلة الرد على التحدي الذي حدده لاتور (1992) Latour.

منذ ما يقرب من عقدين من الزمان والذي اعتبر بموجبه أن التكنولوجيا والأجهزة والأدوات المرتبطة بها هي بمنزلة «الجماهير المفقودة» missing masses والغائبةِ بنحوٍ غريب عن أنظار علم الاجتماع، التي، كما بيَّنتُ في هذا الكتاب، يمكن تركيزها بنحوٍ أفضل عبْر تخصيص نافذة (أو نوافذ عدة) منه للمجال الرقمي.


البيليوغرافيا



Withe

المقدمة

Baym, N. (2010) Personal Connections in the Digital Age. Cambridge: Polity.

Beer, D. and Burrows, R. (2007) 'Sociology and, of and in Web 2.0: Some initial considerations'. Sociological Research Online 12(5): 17.

Bijker, W. and Law, J. (eds.) (1997) Shaping Technology/Building Society: Studies in Sociotechnical Change. Cambridge, MA: MIT Press.

Jones, S. (ed.) (1995a) Computer-Mediated Communication and Community.

London: Sage.

Jones, S. (ed.) (1995b) Cybersociety 2.0 Revisiting Computer-Mediated Communication and Community. London: Sage.

Jones, S. (1997) Virtual Culture: Identity and Communication in Cybersociety.

London: Sage

Wellman, B. and Haythornthwaite, C. (eds.) (2003) The Internet in Everyday Life. Oxford: Blackwell Publishing.

Wellman, B., Hogan, B., Berg, K., Boase, J., Carrasco, J.-A., Côté, R., Kayahara, J., Kennedy, T. L. M. and Tran, P. (2006) 'Connected Lives: The Project', in P. Purcell (ed.) Networked Neighbourhoods. London: Springer.

Woolgar, S. (ed.) (2002) Virtual Society? Technology, Cyberbole, Reality. Oxford:Oxford University Press.

الفصل الأول

Altman, D. (2001) Global Sex. Chicago: University of Chicago Press.

Attwood, F. (2009) ' "Deepthroat" and "Discerning Adonis": Men and Cybersex'. International Journal of Cultural Studies 12: 279–294.

Barker, A.J. (2007) 'Expressing Emotion in Text: Email Communications of Online Couples', in M.T. Whitty, A.J. Barker and J.A. Inman (eds.) Online Matchmaking. Basingstoke: Palgrave Macmillan: 97–111.

Baym, N. (2010) Personal Connection in the Digital Age. Cambridge: Polity.

Beck, U. (1992) Risk Society: Towards a New Modernity. London: Sage.

Berger, P. and Luckmann, T. (1966) The Social Construction of Reality. Harmondsworth: Allen Lane.

Bernstein, E. (2007) Temporarily Yours: Intimacy, Authenticity and the Commerce of Sex. Chicago: University of Chicago Press.

Biever, C. (2006) 'The Irresistible Rise of Cybersex'. New Scientist 190: 30–31.

boyd, d. (2007) 'Why Youth (Heart) Social Network Sites: The Role of Networked Publics in Teenage Social Life', in D. Buckingham (ed.) Youth Identity and Digital Media. Cambridge, MA: MIT Press: 119–142.

Butler, J. (1990) Gender Trouble: Feminism and the Subversion of Identity. New York: Routledge.

Castells, M. (2002) 'Series Editor's Preface', in B. Wellman and C. Haythornthwaite (eds.) The Internet in Everyday Life. Oxford: Blackwell: xxix–xxxv.

Chan, D.K.S. and Cheng, G.H.L. (2004) 'A Comparison of Offline and Online Friendship Qualities at Different Stages of Relationship Development'. Journal of Social and Personal Relationships 21: 305–320.

Daneback, K., Cooper, A. and Månsson, S.-A. (2005) 'An Internet Study of Cybersex Participants'. Archives of Sexual Behavior 34: 321–328.

Daneback, K., Mansson, S.A. and Ross, M.W. (2007) 'Using the Internet to Find Offline Sex Partners.' Cyberpsychology & Behavior 10: 100–107.

Doring, N. (2000) 'Feminist Views of Cybersex: Victimization, Liberation, and Empowerment'. CyberPsychology and Behavior 3: 863–884.

Duncombe, J. and Marsden, D. (1995) 'Can Men Love? "Reading", "Staging" and "Resisting" the Romance' in L. Pearce and J. Stacey (eds.) Romance Revisited. London: Lawrence & Wishart: 238–250.

Erikson, E.H. (1963) Childhood and Society. New York: Norton.

Foucault, M. (1978) The History of Sexuality Vol 1. London: Penguin.

Gershuny, J. (2003) 'Web-Use and Net-Nerds: A Neo-Functionalist Analysis of the Impact of Information Technology in the Home'. Social Forces 82: 141–168.

Giddens, A. (1984) The Constitution of Society: Outline of the Theory of Structuration. Cambridge: Polity.

Giddens, A. (1990) The Consequences of Modernity. Cambridge and Stanford: Polity and Stanford University Press.

Giddens, A. (1991) Modernity and Self-Identity: Self and Society in the Late Modern Age. Cambridge: Polity Press.

Giddens, A. (1992) The Transformation of Intimacy: Sexuality, Love and Eroticism in Modern Societies. Cambridge: Polity Press.

Granovetter, M. (1973) 'The Strength of Weak Ties'. American Journal of Sociology 78: 1360–1380.

Haraway, D.J. (1997) Modest_Witness@Second_Millennium: FemaleMan©_Meets_Oncomouse™. New York: Routledge.

Hewitt, J.P. (2007) Self and Society: A Symbolic Interactionist Social Psychology. Boston: Allyn and Bacon.

Holdsworth, C. and Morgan, D. (2007) 'Revisiting the Generalized Other: An Exploration'. Sociology 41: 401–417.

Holmes, M. (2010) 'The Emotionalization of Reflexivity'. Sociology 44: 139–154.

Holmes, M. (2011) 'Emotional Reflexivity in Contemporary Friendships: Understanding It Using Elias and Facebook Etiquette'. Sociological Research Online 16.

Jagger, E. (2001) 'Marketing Molly and Melville: Dating in a Postmodern, Consumer Society'. Sociology 35: 39–57.

Jagger, E. (2005) 'Is Thirty the New Sixty? Dating, Age and Gender in a Postmodern, Consumer Society'. Sociology 39: 89–106.

Jamieson, L. (1987) 'Theories of Family Development and the Experience of Being Brought Up'. Sociology 21: 591–607.

Jamieson, L. (1998) Intimacy: Personal Relationships in Modern Societies.

Cambridge: Polity Press.

Jamieson, L. (1999) 'Intimacy Transformed? A Critical Look at the Pure Relationship'. Sociology 33: 77–494.

Jamieson, L. (2005) 'Boundaries of Intimacy', in S. Cunningham-Burley and L. McKie (eds.) Families in Society: Boundaries and Relationships. Bristol: Policy Press: 189–206.

Jamieson, L. (2011) 'Intimacy as a Concept: Explaining Social Change in the Context of Globalisation or Another Form of Ethnocentricism?' Sociological Research Online 16.

Jeffreys, S. (2008) The Industrial Vagina: The Political Economy of the Global Sex Trade. London: Routledge.

Kennedy, T.L.M. and Wellman, B. (2007) 'The Networked Household'. Information, Communication and Society 10(5): 645–670.

Kurz, D. (2006) 'Keeping Tabs on Teenagers', in J. Gubrium and J. Holstein (eds.) Couples, Kids and Family Life. Oxford: Oxford University Press: 84–103.

Laing, R. D. (1960) The Divided Self: A Study of Sanity and Madness. London: Tavistock.

Lawson, H.M. and Leck, K. (2006) 'Dynamics of Internet Dating'. Social Science Computer Review 24: 189–208.

Lim, S.S. (2008) 'Technology Domestication in the Asian Homestead: Comparing the Experiences of Middle Class Families in China and South Korea'. East Asian Science, Technology and Society 2: 189–209.

Ling, R. and Yttri, B. (2006) 'Control, Emancipation, and Status: The Mobile Telephone in Teens' Parental and Peer Relationships', in R. Kraut, M. Brynin and S. Kiesler (eds.) Computers, Phones, and the Internet: Domesticating Information Technology (pp. 219–234). Oxford: Oxford University Press.

Livingstone, S. (2008) 'Taking Risky Opportunities in Youthful Content Creation:Teenagers' Use of Social Networking Sites for Intimacy, Privacy and Self-Expression'. New Media Society 10: 393–411.

Livingstone, S. (2009) Children and the Internet: Great Expectations Challenging Realities. Cambridge: Polity.

McKenna, K.Y.A. (2007) 'A Progressive Affair: Online Dating to Real World Mating', in M.T. Whitty, A.J. Barker and J.A. Inman (eds.) Online Matchmaking. Basingstoke: Palgrave: 112–124.

Mead, G.H. (1962) Mind, Self, and Society: From the Standpoint of a Social Behaviourist. Chicago: University of Chicago Press.

Mesch, G.S. and Talmud, I. (2010) Wired Youth: The Social World of Adolescence in the Information Age. London: Routledge.

Miller, D. (2011) Tales from Facebook. Cambridge: Polity Press.

Miller, D and Slater, D. (2000) The Internet: An Ethnographic Approach. Oxford: Berg.

Miyata, K. (2002) 'Social Support for Japanese Mothers Online and Offline', in B.Wellman and C. Haythornthwaite (eds.) The Internet in Everyday Life. Oxford: Blackwell: 520–548.

Morley, D. (1986) Family Television: Cultural Power and Domestic Leisure. London: Comedia.

Padilla, M.B., Hirsch, J.S., Munoz-Laboy, M., Sember, R.E. and Parker R.G. (eds.) (2007) Love and Globalization: Transformations of Intimacy in the Contemporary World. Nashville: Vanderbilt University Press.

Parreñas, R. (2005) 'Long Distance Intimacy: Class, Gender and Intergenerational Relations between Mothers and Children in Filipino Transnational Families'. Global Networks 5: 317–336.

Pascoe, C.J. (2007) Dude You're a Fag: Masculinity and Sexuality in High School. Berkeley: University of California Press.

Pascoe, C.J. (2009) 'Intimacy', in M. Ito, et al. (eds.) Hanging Out, Messing Around, and Geeking Out: Living and Learning with New Media. Cambridge, MA: MIT Press: 117–132.

Phua, V.C. and Kaufman, G. (2003) 'The Crossroads of Race and Sexuality – Date Selection among Men in Internet "Personal" Ads'. Journal of Family Issues 24: 981–994.

Rose, N. (1996) Inventing Our Selves: Psychology, Power and Personhood. Cambridge: Cambridge University Press.

Schutz, A. (1932) Der sinnhafte Aufbau der sozialen Welt. English translation: Phenomenology of the Social World. G. Walsh and F. Lehnert (Trans.). Evanston: Northwestern University Press, 1967.

Scott, S. and Thorpe, C. (2006) 'The Sociological Imagination of R. D. Laing'. Sociological Theory 24: 331–352.

Silverstone, R. (1994) Television and Everyday Life. London: Routledge.

Slater, D. (1998) 'Trading Sexpics on IRC: Embodiement and Authenticity on the Internet'. Body and Society 4: 91–117.

Smith, D. (1987) The Everyday World as Problematic: A Feminist Sociology. Milton Keynes: Open University Press.

Solomon, Y., Warin, J., Lewis, C. and Langford, W. (2002) 'Intimate Talk between Parents and Their Teenage Children: Democratic Openness or Covert Control?' Sociology 36: 965–983.

Stevenson, K. (1999) 'Book Review Lynn Jamieson Intimacy: Personal Relationships in Modern Society'. Sociology 848–850.

Sullivan, H.S. (1955) The Interpersonal Theory of Psychiatry. London: Tavistock.

Twigg, J. (2000) 'Carework as a Form of BodyWork'. Aging and Society 20: 389–411.

Tyler, T.R. (2002) 'Is the Internet Changing Social Life? It Seems the More Things Change, the More They Stay the Same'. Journal of Social Issues 58: 195–205.

Urry, J. (2002) 'Mobility and Proximity'. Sociology 36: 255–274.

Valentine, G. (2006) 'Globalizing Intimacy: The Role of Information and

Communication Technologies in Maintaining and Creating Relationships'.Women's Studies Quarterly 34: 365–393.

Wajcman, J. (2004) TechnoFeminism. Cambridge: Polity.

Wajcman, J. (2008) 'Life in the Fast Lane? Towards a Sociology of Technology and Time'. British Journal of Sociology 59: 59–77.

Wajcman, J., Bittman, M. and Brown, J.E. (2009) 'Families without Borders: Mobile Phones, Connectedness and Work-Home Divisions'. Sociology 42: 635–652.

Walby, S. (1997) Gender Transformations. London: Routledge.

Waskul, D. (2002) 'The Naked Self: Being a Body in Televideo Cybersex'. Symbolic Interactionism 25: 199–227.

Waskul, D., Douglass, M., and Edgley, C. (2000) 'Cybersex, Outercourse and the Enselfment of the Body'. Symbolic Interactionism 23: 375–397.

Wellman, B. and Haythornthwaite, C. (eds.) (2002) The Internet in Everyday Life. Oxford: Blackwell.

Wellman, B., Hogan, B., Berg, K., Boase, J., Carrasco, J.-A., Côté, R., Kayahara, J., Kennedy, T.L.M. and Tran, P. (2006) 'Connected Lives: The Project' in P. Purcell (ed.) Networked Neighbourhoods. London: Springer: 161–216.

Whitty, M.T. and Carr, A.N. (2006) Cyberspace Romance: The Psychology of Online. Basingstoke: Palgrave Macmillan.

الفصل الثاني

Adkins, L. (2004) 'Introduction: Feminism, Bourdieu and After', in L. Adkins and B. Skeggs (eds.) Feminism after Bourdieu, Cambridge: Blackwell: 3–18.

Allan, G (1996) Kinship and Friendship in Modern Britain, Oxford: Oxford University Press.

Bauman, Z. (2003) Liquid Love. Cambridge: Polity Press.

Beck, U. and Beck-Gernsheim, E. (2002) Individualization. London: Sage.

Beer, D. and Burrows, R. (2007) 'Sociology and, of and in Web 2.0: Some Initial Considerations'. Sociological Research Online 12(5), http://www.socresonline.org.uk/12/5/17.html (downloaded 11 November 2008).

Berger, P. and Luckmann, T. (1967) The Social Construction of Reality. New York: Doubleday.

Castells, M. (2003) The Internet Galaxy: Reflections on the Internet, Business and Society. Oxford: Oxford University Press.

Delamont, S. (2003) Feminist Sociology. London: Sage.

van Doorn, N., van Zoonen, L., and Wyatt, S. (2007) 'Writing from Experience: Presentations of Gender Identity on Weblogs'. European Journal of Women's Studies 14(2): 143–158.

Frissen, V. (1995) 'Gender is Calling: Some Reflections on Past, Present and Future Uses of the Telephone', in R. Gill and K. Grint (eds.) The Gender-Technology Relation: Contemporary Theory and Research. London: Taylor and Francis: 79–94.

Giddens, A. (1991) Modernity and Self-Identity: Self and Society in the Late Modern Age. Cambridge: Polity Press.

Green, E. (1998) ‘ “Women Doing Friendship”: An Analysis ofWomen’s Leisure as a Site of Identity Construction, Empowerment and Resistance’. Leisure Studies 17: 171–185.

Green, E. (2001) ‘Technology, Leisure and Everyday Practices’, in E. Green and A. Adam (eds.) Virtual Gender: Technology, Consumption and Identity. London: Routledge, pp. 173–188.

Green, E. and Adam, A. (1998) ‘On-Line Leisure: Gender and ICTs in the home’. Information, Communication and Society 1(3): 291–312.

Green, E. and Adam, A. (1999) ‘Special Issue on Gender and ICTs’. Information, Communication and Society 2(4): 399–583.

Green, E., Hebron, S., and Woodward, D. (1990) Women’s Leisure, What Leisure? Hampshire: Macmillan.

Green, E. and Singleton, C. (2007) ‘Mobile Selves: Gender, Ethnicity and Mobile Phones in the Everyday Lives of Young Pakistani Muslim Women and men’. Information, Communication and Society 10(4): 506–526.

Green, E. and Singleton, C. (2009) ‘Mobile Connections: An Exploration of the Place of Mobile Phones in Friendship Relations’. The Sociological Review 57(1): 125–144.

Haraway, D. (1985) ‘Manifesto for Cyborgs’. The Socialist Review 80: 65–107.

Harding, S. (2008) Sciences from Below: Feminisms, Postcolonialities, and Modernities. Durham: Duke University Press.

Herring, S., Kouper, I., Scheidt, L.A., and Wright, E.L. (2004) ‘Women and Children Last: The Discursive Construction of Weblogs’. Into the Blogosphere: Rhetoric, Community, and Culture of Weblogs, http://blog.lib.umn.edu/blogosphere/women_and_children.html (downloaded 2 July 2009).

Kennedy, H. (2005) ‘Subjective Intersections in the Face of the Machine’. European Journal of Women’s Studies 12(4): 471–487.

Jackson, S. (1999) ‘Feminist Sociology and Sociological Feminism: Recovering the Social in Feminist Thought’. Sociological Research Online 4(3), http://www.socresonline.org.uk/socresonline/4/3/jackson.html (downloaded 11 November 2008).

Larsen, J., Urry, J., and Axhausen, K. (2006) Mobilities, Networks, Geographies, Hampshire: Ashgate.

Liff, S. and Shepherd, A. (2004), ‘An Evolving Gender Digital Divide?’ Oxford Internet Institute, Internet Issue Brief (2): July 2004, http://www.oii.ox.ac.uk/people/researchassociates.cfm?id=46 (downloaded 2 July 2009).

Ling, R. (2004) The Mobile Connection: The Cell Phone’s Impact on Society. San Francisco: Elsevier.

Lohan, M. (2001) ‘Men, Masculinities and “Mundane” Technologies: The Domestic Telephone’, in E. Green and A. Adam (eds.) Virtual Gender: Technology, Consumption and Identity. London: Routledge: 189–205.

MacKenzie, D. andWajcman, J. (Eds.) (1998) The Social Shaping of Technology (2nd Ed.), Buckingham: Open University Press.

Mills, C.W. (1970) The Sociological Imagination, Harmondsworth: Penguin.

Morgan, D. (2005) 'Revisiting "Communities in Britain" ', The Sociological Review 53(4): 641–657.

Moyal, A. (1992) 'The Gendered Use of the Telephone: An Australian Case Study'. Media, Culture and Society 14: 51–72.

Ofcom (2008) Communications Market Report: UK, August http://stakeholders.ofcom.org.uk/market-data-research/market-data/communications-marketreports/cmr08/ (downloaded 18 August 2011).

Ofcom (2011) Communications Market Report: UK, 4 August 2011, http://stakeholders.ofcom.org.uk/binaries/research/cmr/cmr11/UK_CMR_2011_FINAL.pdf (downloaded 18 August 2011).

Office for National Statistics (2011) Internet Access Quarterly Update, 18 May 2011, http://www.statistics.gov.uk/articles/nojournal/internet-access-q1-2011. pdf (downloaded 18 August 2011).

Oudshoorn, N., Saetnan, A.R., and Lie, M. (2002) 'On Gender and Things: Reflections on an Exhibition on Gendered Artifacts'. Womens' Studies International Forum 24(4): 471–483.

Plant, S. (1997) Zeros and Ones: DigitalWomen and the New Technoculture. London: Fourth Estate.

Rakow, L.F. (1992) Gender on the Line: Women, the Telephone and Community Life. Urbana and Chicago: University of Illinois Press.

Shade, L.R. (2002) Gender and Community in the Social Construction of the Internet. New York: Peter Lang.

Silverstone, R. and Hirsch, E. (1992) 'Information and Communication Technologies and the Moral Economy of the Household', in R. Silverstone and E. Hirsch (eds.) Consuming Technologies: Media and Information in Domestic Spaces. London: Routledge, pp. 15–31.

Smart, C. (2008) Personal Life. Cambridge: Polity Press.

Spencer, L. and Pahl, R. (2006) Rethinking Friendship: Hidden Solidarities Today,New Jersey: Princeton University Press.

Urry, J. (2007) Mobilities. Cambridge: Polity Press.

Urry, J. and Sheller, M. (eds.) (2006) Mobile Technologies of the City. London: Routledge.

Wajcman, J. (2004) TechnoFeminism. Cambridge: Polity Press.

Wajcman, J. (2007) 'From Women and Technology to Gendered Technoscience'. Information, Communication and Society 10(3): 287–298.

Wajcman, J., Bittman, M., and Brown, J. (2008) 'Families without Borders: Mobile Phones, Connectedness and Work-Home Divisions'. Sociology 42(4): 635–652.

Walby, S. (2007) 'Complexity Theory, Systems Theory, and Multiple Intersecting Social Inequalities'. Philosophy of the Social Sciences 37(4): 449–470.

Wyatt, S. (2008) 'Feminism, Technology and the Information Society:

Learning from the Past, Imagining the Future'. Information, Communication and Society 11(1): 111–130.

الفصل الثالث

Back, L. (2007) The Art of Listening. Oxford: Berg.

Kuntsman, A. (2010) ' " With a Shade of Disgust": Affective Politics of Sexuality and Class in Memoirs of the Stalinist Gulag'. Slavic Review 68(7).

Kuntsman, A. and Karatzogianni, A. (2012) Affective Fabrics of Digital Cultures. Palgrave Macmillan

Clough, P. (2007) 'Introduction', in P. Clough and J. Halley (eds.) The Affective Turn. Durham: Duke University Press: 1–33.

Gamb, D. (2007) 'Myocellular Transduction: when my cells trained my bodymind', in P. Clough and J. Halley (eds.) The Affective Turn. Durham: Duke University Press: 106–118.

Gregg, M. (2007) 'Thanks For the Ad(d): Neoliberalism's Compulsory Friendship', Online Opinion, 21 September (online). Available at: http://www.onlineopinion.com.au/view.asp?article=6400. Accessed 1 September 2011.

Wajcman, J. (2004) Technofeminism, Cambridge: Polity Press.

الفصل الرابع

Beer, D. (2007) 'Thoughtful Territories: Imagining the Thinking Power of Things and Spaces'. City 11(2): 229–238.

Beer, D. (2009) 'Power Through the Algorithm? Participatory Web Cultures and the Technological Unconscious'. New Media & Society 11(6): 985–1002.

Beer, D. and Burrows, R. (2007) 'Sociology and, of and in Web 2.0: Some Initial Considerations'. Sociological Research Online 12(5), http://www.socresonline.org.uk/12/5/17.html

Bleecker, J. (2006) 'A Manifesto for Networked Objects – Cohabiting with Pigeons, Arphids and Aibos in the Internet of Things'. Available at: http://www.nearfuturelaboratory.com/index.php?p=185

Castells, M. (1996) The Rise of the Network Society, The Information Age: Economy,Society & Culture, Vol. I. Oxford: Blackwell.

Crang, M. and Graham, S. (2007) 'Sentient Cities: Ambient Intelligence and the Politics of Urban Space'. Information, Communication and Society 10(6): 789–817.

Dodge M. and Kitchin, R. (2004) 'Flying Through Code/Space: The Real Virtuality of Air Travel'. Environment and Planning A 36(2): 195–211.

Dodge M. and Kitchin, R. (2005) 'Code and the Transduction of Space'. Annals of the Association of American Geographers 95(1): 162–180.

Dodge, M. and Kitchin, R. (2008) Software, Objects and Home Space, NIRSA Working Paper Series No 35. Maynooth: National Institute for Regional and Spatial Analysis, National University of Ireland.

Ellison, N. and Burrows, R. (2007) 'New Spaces of (Dis)engagement? Social Politics, Urban Technologies and the Rezoning of the City'. Housing Studies 22(3): 299–316.

Ellison, N., Burrows, R., and Parker, S. (eds.) (2007) ‘Urban Informatics: Software, Cities and the New Cartographies of Knowing Capitalism’. Special issue of the Routledge Journal Information, Communication & Society 10(6): 785–960.

Foth, M. (ed.) (2009). Handbook of Research on Urban Informatics: The Practice and Promise of the Real-Time City. Hershey: Information Science Reference, IGI Global.

Gane, N. (2006) ‘Speed-up or Slow Down? Social Theory in the Information Age’. Information, Communication and Society 9(1): 20–38.

Gane, N., Venn, C. and Hand, M. (2007) ‘Ubiquitous Surveillance: Interview with Katherine Hayles’. Theory, Culture & Society 24(7–8): 349–358.

Gibson, W. (2003) Pattern Recognition, London: Penguin Books.

Gibson, W. (2007) Spook Country, London: Penguin Books.

Goffman, E. (1983) ‘The Interaction Order: American Sociological Association, 1982 Presidential Address’. American Sociological Review 48(1): 1–17

Graham, S. (ed) (2004) The Cybercities Reader, London: Routledge.

Hayles, K. (1999) How We Became Posthuman, Chicago: University of Chicago Press.

Hayles, N.K. (2006) ‘Unfinished Work: From Cyborg to the Cognisphere’. Theory, Culture & Society 23(7–8): 159–166.

Lash, S. (2002) Critique of Information, London: Sage.

Lash, S. (2006) ‘Dialectic of Information? A response to Taylor’. Information, Communication & Society 9(5): 572–581.

Lash, S. (2007a) ‘Capitalism and Metaphysics’. Theory, Culture & Society 24(5): 1–26.

Lash, S. (2007b) ‘New “New Media” Ontology’, a presentation at Toward a Social Science of Web 2.0, ESRC e-Society Research Programme Event, National Science Learning Centre, York, UK. 5 September 2007, http://redress.lancs.ac.uk/Workshops/Presentations.html#web2.0.

Lash, S. (2007c) ‘Power after Hegemony: Cultural Studies in Mutation’. Theory, Culture & Society 24(3): 55–78.

Mitchell, W. (2003) Me++: The Cyborg Self and the Networked City. Cambridge, MA: MIT Press.

Mitchell, W. J. (2005) Placing Words: Symbols, Space, and the City. Cambridge, MA: The MIT Press.

Osborne, T., Rose, N., and Savage, M. (2008) ‘Inscribing the history of British Sociology’. Sociological Review 56(4): 519–534.

Parker, S. (2004) Urban Theory and the Urban Experience: Encountering the City, London: Routledge.

Parker, S., Uprichard, E., and Burrows, R. (2007) ‘Class Places and Place Classes: Geodemographics and the Spatialisation of Class’. Information, Communication and Society 10(6): 902–921.

Savage, M. and Burrows, R. (2007) ‘The Coming Crisis of Empirical Sociology’. Sociology 41(6): 885–899.

Savage, M. and Burrows, R. (2009) ‘Some Further Reflections on the Coming Crisis of Empirical Sociology’. Sociology 43(4), forthcoming.

Sterling, B. (2005) Shaping Things. Cambridge, MA: The MIT Press.

Thrift, N. (2004a) ‘Remembering the Technological Unconscious by Foregrounding the Knowledges of Position’. Environment & Planning D: Society and Space 22(1): 175–190.

Thrift, N. (2004b) ‘Movement-Space: The Changing Domain of Thinking Resulting from the Development of New Kinds of Spatial Awareness’. Economy and Society 33(4): 582–604.

Thrift, N. and French, S. (2002) ‘The Automatic Production of Space’. Transactions of the Institute of British Geographers 27(4): 309–335.

Woolgar, S. (ed.) (2002) Virtual Society? Technology, Cyberbole, Reality. Oxford: Oxford University Press.

الفصل الخامس

Anderson B. (1983) Imagined Communities. London: Verso.

Boase, J. (2008) ‘Personal Networks and the Personal Communication System’. Information, Communication and Society. 11(4): 490–508.

Brent, J. (2009) Searching for Community: Representation, Power and Action on an Urban Estate. Bristol: Policy Press.

Carter, D. (1997) ‘ “Digital Democracy” or “Information Aristocracy”: Economic Regeneration and the Information Economy’, in Loader, B. (ed.) The Governance of Cyberspace: Politics, Technology and Global Restructuring. London: Routledge: 136–154.

Castells, M. (2001a) The Information Age: Economy, Society and Culture Vol 1 The Rise of the Network Society. London: Blackwell

Castells, M. (2001b) The Internet Galaxy: Reflections on the Internet, Business and Society. Oxford: Oxford University Press.

Delanty, G. (2003) Community. London: Routledge.

Department of Trade and Industry (1996) Welcome to ISI IT for All: Make the Most of IT London: DTI.

DiNucci, D. (1999). ‘Fragmented Future’. Print. 53(4): 32, http://www.cdinucci.com/Darcy2/articles/Print/Printarticle7.html [Accessed 19 February 2010].

Doheny-Farina, S. (1996) TheWired Neighbourhood. New Haven and London: Yale University Press.

Etzioni, A. (1997) The New Golden Rule: Community And Morality in a Democratic Society. London: Profile Books Ltd.

Evans, K.F. (2004) Maintaining Community in the Information Age: The Importance of Trust, Locality and Shared Experience. Basingstoke: Palgrave Macmillan.

Fischer, C. (1982) To Dwell among Friends. Chicago: University of Chicago Press.

Fisher B., Margolis M., and Resnick D. (1996) ‘Breaking Ground on the Virtual Frontier: Surveying life on the Internet’. American Sociologist 27(Spring): 11–29.

Freie, J.E. (1998) Counterfeit Community: The Exploitation of Our longing for Connectedness. Oxford: Rowman and Littlefield.

Giddens, A. (1990) The Consequences of Modernity. Cambridge: Polity Press.

Jones, S.G. (1997) Virtual Culture: Identity and Communication in Cybersociety. London: Sage.

Lai, L.S.L. and Turban, E. (2008) ‘Groups Formation and Operations in the Web 2.0 Environment and Social Networks’. Group Decis Negot 17: 387–402.

Logan, J.R. and Molotch, H.L. (1987) Urban Fortunes: The Political Economy of Place Berkeley and Los Angeles. Berkeley and Los Angeles: University of California Press.

Miller, S.E. (1995) Civilising Cyberspace: Policy: Power and the Information Superhighway. Boston: Addison Wesley.

Moore, B. (2008) ‘Using? Technology to Promote Communities of practice (CoP) in Social Work Education’. Social Work Education, 27(6): 592–600.

Negroponte, N. (1995) Being Digital. London: Hodder and Stoughton.

Poplin, D.E. (1972) Communities: A Survey of Theories and Methods of Research. New York: Macmillan.

Postill, J. (2008) ‘Localizing the Internet Beyond Communities and Networks’. New Media & Society 10: 413–431.

Putnam, R. (2000) Bowling Alone the Collapse and Revival of American Community. New York: Simon & Schuster.

Rheingold, H. (1994) The Virtual Community. Secker and Warburg.

Sennett, R. (1977) The Fall of Public Man. New York: Knopf.

Spender, D. (1995) Nattering on the Net:Women, Power and Cyberspace. Melbourne: Spinifex Press.

Stern, M. (2008) ‘How Locality, Frequency of communication and Internet usage Affect Modes of Communication Within Core Social Networks’. Information, Communication and Society 11(5): 591–616.

Tönnies, F. (1955) [1887] Community and Association. London: Routledge and Kegan Paul.

Wellman, B. (1979) ‘The Community Question’. American Journal of Sociology 84: 1201–1231.

Wellman, B. (ed.) (1999) Networks in the Global Village. Boulder: Westview.

Wittel, A. (2001) ‘Toward a Network Sociality’. Theory, Culture and Society 18(6): 51–76.

الفصل السادس

Abercrombie, N., Hill, S., and Turner, B.S. (1983) Sovereign Individuals of Capitalism. London: Allen and Unwin.

Castells, M. (2001) The Internet Galaxy: Reflections on the Internet, Business and Society. Oxford: Oxford University Press.

Crang, M. and Graham, S. (2007) 'Sentient Cities: Ambient Intelligence and the Politics of Urban Space'. Information, Communication and Society 10(6): 789–817.

Gandy, O. (2010) Coming to Terms with Chance: Engaging Rational Discrimination and Cumulative Disadvantage. London: Ashgate.

Introna, L. (2005) 'Disclosive Ethics and Information Technology'. Disclosing Facial Recognition Systems, Ethics and Information Technology 7: 75–86.

Kitchin, R. and Dodge, M. (2011) Code/Space. Cambridge, MA: MIT Press.

Lessig, L. (1999) Code and Other Laws of Cyberspace. New York: Basic Books.

Lyon, D. (2010) 'Liquid Surveillance: The Contribution of Zygmunt Bauman to Surveillance Studies'. International Political Sociology 4(4): 325–338.

Miller, D. (2011) Tales from Facebook. Cambridge: Polity.

Mosco, V. (2004) The Digital Sublime: Myth, Power and Cyberspace. Cambridge, MA: MIT Press.

Robins, K. (1995) 'Cyberspace and the World We Live in'. Body and Society 1(3–4): 135–155.

Scott, J. (1999) Seeing Like a State: How Certain Schemes to Improve the Human Condition Have Failed. New Haven: Yale University Press.

Turkle, S. (2011) Alone Together: WhyWe Expect More from Technology and Less from Each Other. Cambridge, MA: MIT Press.

Turkle, S. (1995) Life on the Screen. Cambridge, MA: MIT Press.

Wellman, B., Quan-Haase, A., Boase, J., and Chen, W. 2003. 'The Affordances of the Internet for Networked Individualism'. Journal of Computer Mediated Communication 8: 3.

Wertheim, M. (1999) The Pearly Gates of Cyberspace: A History of Space from Dante to the Internet. New York: Norton.

الفصل السابع

Anderson, P. (1999) 'Complexity Theory and Organization Science'. Organization Science 10, 216–232.

Barabási, A.-L. (2002) Linked: The New Science of Networks. Cambridge, MA: Perseus.

Bonfadelli, H. (2002) 'The Internet and Knowledge Gaps: A Theoretical and Empirical Investigation'. European Journal of Communication 17(1): 65–84.

Bruggeman, J. (2008) Social Networks: An introduction. London, New York: Routledge.

Buchanan, M. (2002) Nexus: Small Worlds and the Groundbreaking Science of Networks. New York, London: W.W. Norton & Company.

Castells, M. (1996) The Information Age: Economy, Society and Culture. Vol. I. The Rise of the Network Society. Oxford: Blackwell.

Castells, M. (1998) The Information Age: Economy, Society and Culture. Vol. III. End of Millennnium. Oxford: Blackwell.

Castells, M. (2001) The Internet Galaxy. Oxford, New York: Oxford University Press.

Cho, J., de Zúñiga, H., Rojas, H., and Shah, D. (2003) Beyond access: The digital divide and Internet uses and gratifications. IT & Society 1(4): 46–72.

Goldin, C. and Katz, L. (2008) The Race between Education and Technology. Cambridge, MA, London: The Belknap Press.

Granovetter, M. (1973) 'The Strength of Weak Ties'. American Journal of Sociology, 78(6): 1360–1380.

Hargittai, E. (2002) 'The Second-level Digital Divide: Differences in People's Online Skills'. First Monday: Peer-Reviewed Journal on the Internet 7(4). Retrieved 31 August 2004, from http://firstmonday.org/issues/issue7_4/hargittai/

Hargittai, E. (2004) How Wide a Web? Social Inequality in the Digital Age. Ph.D. Dissertation, Princeton, NJ: Princeton University, Sociology Department.

Hindman, M. (2009) The Myth of Digital Democracy. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Hirsch, F. (1976) The Social Limits to Growth. London: Routledge & Kegan Paul.

Holland, J. (1995) Hidden Order: How Adaptation Builds Complexity. Cambidge, MA: Perseus Books.

Horrigan, J. and Rainie, L. (2002a) Getting Serious Online: As Americans Gain Experience, They Pursue More Serious Activities. Washington, DC: Pew Internetand American Life Project. Retrieved 28 August 2004, from http//:www.pewinternet.org.

Howard, P., Rainie, L., and Jones, S. (2001) Days and nights on the Internet: The impact of a diffusing technology. In B.Wellman and C. Haythornthwaite (eds.) The Internet in Everyday Life. Oxford: Blackwell: 45–73.

IMF (International Monetary Fund) (2007) World Economic Outlook 2007, (Hoofdstuk 4 Globalization and Inequality). Retrieved 8 October 2007, from http://www.imf.org/external/pubs/ft/weo/2007/01/index.htm

Kauffman, S. (1995) At Home in the Universe: The search for the Lawes of Self-Organization and Complexity. New York, Oxford: Oxford University Press.

Krackhardt, D. (1990) 'Assessing the Political Landscape: Structure, Cognition and Power in Organizations', Administrative Science Quarterly 35: 342–369.

Lyon, D. (2007) Surveillance Studies: An Overview. Cambridge, Malden, MA: Polity.

Merton, R. (1968) 'The Matthew Effect in Science'. Science 159: 56–63.

Monge, P. and Contractor, N. (2003) Theories of Communication Networks. Oxford, New York: Oxford University Press.

Nahuis, R. and de Groot, H. (2003) Rising Skill Premia: You Ain't Seen Nothing Yet (CPB Discussion Paper No. 20). The Hague: Centraal Plan Bureau, Netherlands Bureau for Economic Policy Analysis. Retrieved 7 February 2004, from http://ideas.repec.org/p/cpb/discus/20.html

Park, H.W. (2002) 'The Digital Divide in South Korea: Closing and Widening Divides in the 1990s'. Electronic Journal of Communication/Revue de Communication Electronique 12: Nrs. 1 & 2.

Rawls, J. (1971) A Theory of Justice. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Sen, A. (1985) Commodities and Capabilities. Amsterdam: North-Holland.

Sen, A. (1992) Inequality Reexamined. Oxford: Oxford University Press.

Tilly, C. (1998) Durable Inequality. Berkeley, CA, London: University of California Press.

UCLA, University of California, Los Angeles, Center for Communication Policy (2003) The UCLA Internet Report: Surveying the Digital Future, Year Three. Los Angeles, CA: Author. Retrieved 2 March 2004, from http://www.ccp.ucla.edu/pages/internet-report.asp

van Deursen, A. and van Dijk, J.A.G.M. (2008) Measuring digital skills Paper presented at the 58th Annual Conference of the International Communication Association. Montreal, 22–26 May.

van Deursen, A. and van Dijk, J.A.G.M. (2009) Improving digital skills for the use of online public Information and services. Government Information Quarterly 26: 333–340.

van Dijk, J.A.G.M. (1991, 1994, 1997, 2001) 'De Netwerkmaatschappij: Sociale aspecten van nieuwe media. 1st, 2nd, 3rd edns. Houten: Bohn Stafleu van Loghum.

van Dijk, J. (1999/2006) The Network Society: Social Aspects of New Media. 1st, 2nd edns. London: Sage Publications.

van Dijk, J.A.G.M. (2001) Netwerken, het zenuwstelsel van onze maatschappij (Networks, The nervous system of our Societies), Inaugural Lecture. Enschede: University of Twente, Department of Communication.

van Dijk, J.A.G.M. (2004) 'Divides in Succession: Possession, Skills, and Use of New Media for Societal Participation', in E. Bucy and J. Newhagen (eds.) Media Access: Social and Psychological Dimensions of New Technology Use. London: LEA: 233–254.

van Dijk, J.A.G.M. (2005) The Deepening Divide: Inequality in the Information Society. Thousand Oaks, London, New Delhi: Sage Publications.

van Dijk, J.A.G.M. (2009) 'One Europe, Digitally Divided', in A. Chadwick and P. Howard (eds.) Routledge Handbook of Internet Politics. New York: Routledge: 288–304.

van Dijk, J. and Hacker, K. (2003) The digital divide as a complex and dynamic phenomenon. Information Society 19: 315–326.

Wellman, B. (2001) 'Computer Networks as Social Networks. Science 293(14 September 2001): 2031–2034.

الفصل الثامن

Baker, W. (1984) 'The Social Structure of a National Securities Market'. American Journal of Sociology 89: 775–811.

Baudrillard, J. (1994) Simulacra and Simulation. Ann Arbor, MI: The University of Michigan Press.

Beunza, D. and Stark, D. (2004) 'Tools of the Trade: The Socio-Technology of Arbitrage in a Wall Street Trading Room'. Industrial and Corporate Change 13: 369–400.

Callon, M. (1998) The Laws of the Markets. London: Blackwell Publishers.

Castells, M. (2000a) 'Information Technology and Global Capitalism', in A. Giddens & W. Hutton (eds.) On the Edge. London: Jonathan Cape: 52–74.

Castells, M. (2000b) 'Materials for an Exploratory Theory of the Network Society'. The British Journal of Sociology 51: 5–24.

Farrell, D., Lund, S., Skau, O., Atkins, C., Mengeringhaus, P. J., and Peirce, M. (2008) Mapping Global Capital Markets: Fifth Annual Report. San Francisco: McKinsey & Company. Ref Type: Report

Fukuyama, F. (1992) The End of History and the Last Man. New York: Penguin.

Granovetter, M. (1985) 'Economic Action and Social Structure: The Problem of Embeddedness'. The American Journal of Sociology 91: 481–510.

Grundfest, J. (1988) International Cooperation in Securities Enforcement: A New United States Initiative. Washington: U.S. Securities and Exchange Commission. Ref Type: Report

Knorr-Cetina, K. and Bruegger, U. (2002) 'Global Microstructures: The Virtual Societies of Financial Markets'. The American Journal of Sociology

107: 905–950.

Knorr-Cetina, K. and Preda, A. (2001) 'The Epistemization of Economic Transactions'. Current Sociology 49: 27–44.

Lash, S. (2002) Critique of Information. London: Sage.

Latham, R. and Sassen, S. (2005) Digital Formations. Princeton, NJ: Princeton University Press.

MacKenzie, D. (2007) 'The Material Production of Virtuality: Innovation, Cultural Geography and Facticity in Derivatives Markets'. Economy & Society 36: 355–376.

MacKenzie, D. (2008) 'End-of-the-World Trade'. London Review of Books 30: 9, 8 May: 24–26.

MacKenzie, D. (2009) Material Markets: How Economic Agents are Constructed. Oxford: Oxford University Press.

MacKenzie, D. and Millo, Y. (2003) 'Constructing a Market, Performing Theory: The Historical Sociology of a Financial Derivatives Exchange'. The American Journal of Sociology 109: 107–145.

Merton, R. K. (1948) 'The Self-Fulfilling Prophecy'. The Antioch Review 8: 193–210.

Muniesa, F. (2005) 'Contenir le marché: la transition de la crieé a la cotation électronique a la Bourse de Paris'. Sociologie du Travail 47: 485–501.

O'Brien, R. (1992) Global Financial Integration: The End of Geography. London: The Royal Institute of International Affairs.

Pardo-Guerra, J. P. (2010) ‘Creating Flows of Interpersonal Bits: The Automation of the London Stock Exchange, 1955–1990’. Economy & Society 39: 84–109.

Pareto, V. (1991) The Rise and Fall of Elites: An Application of Theoretical Sociology. New York: Transaction Publishers.

Podolny, J. (1993) ‘A Status-Based Model of Market Competition’. The American Journal of Sociology 98: 829–872.

Pollock, N. and Williams, R. (2009) ‘The Sociology of a Market Analysis Tool: How Industry Analysts Sort Vendors and Organize Markets’. Working Paper.

Preda, A. (2007) ‘The Sociological Approach to Financial Markets’. Journal of Economic Surveys 21: 506–533.

Preda, A. (2010) Information, Knowledge and Economic Life: An Introduction to the Sociology of Markets. Chicago: Chicago University Press.

Simmel, G. (2004) The Philosophy of Money. London: Routledge.

Smith, C. (1989) Auctions: The Social Construction of Value. New York: Free Press.

Thrift, N. (1996) Spatial Formations. London: SAGE Publications.

Thrift, N. (2005) Knowing Capitalism. London: SAGE Publications.

White, H. (1981) ‘Where Do Markets Come From?’. American Journal of Sociology 87: 517–547.

White, H. (2002) Markets as Networks: Socioeconomic Models of Productions. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Wilson, N., Foroma, J., and Prendergast, C. (2007) Capital Stocks, Capital Consumption and Non-Financial Balance Sheets. London: The Office for National Statistics. Ref Type: Report.

World Federation of Exchanges (2007) The Annual Statistics. Ref Type: Report. http://www.world-exchanges.org/statistics. Accessed 9/8/12.

Zaloom, C. (2006) Out of the Pits: Traders and Technology from Chicago to London.

Chicago: The University of Chicago Press.

Zukin, S. and DiMaggio, P. (1990) Structures of Capital: The Social Organization of Economic Life. Cambridge: Cambridge University Press.

الفصل التاسع

Amoore, L. (2009) ‘Lines of Sight: On the Visualisation of Unknown Futures’. Citizenship Studies 13: 17–30.

Amoore, L. (forthcoming) ‘The Line of Flight’. Theory, Culture and Society.

Beer, D. and Burrows, R. (2007) ‘Sociology and, of and in Web 2.0: Some Initial Considerations’. Sociological Research Online 12(5). http://www.socresonline.org.uk/12/5/17.html

Bennett, T., Savage, M., Silva, E, Warde, A., Gayo-Cal, M., and Wright, D. (2009) Culture, Class, Distinction. London: Routledge.

Ball, S. (2003) The Middle Classes and the Education Market. London, Falmer.

Burt, R. (2005) Brokerage and Closure: An Introduction to Social Capital. Oxford: Oxford University Press.

Halford, S. and Savage, M. (2010), ‘Reconceptualizing Digital Social Inequality’. Information, Communication & Society 13(7): 937–955.

Hanquinet, L. and Callier L. (with Genard, J.-L. and Jacobs, D.) (2011) Analyse détaillée des données quantitatives de l’enquête générale relative aux pratiques et consommation culturelles de la population en Communauté française. ULB/Observatoire des politiques culturelles en Communauté française de Belgique.

Knox, H., O’Doherty, D., Westrup, C., and Verdubakis T. (2007) ‘Transformative Capacity, Information Technology, and the Making of Business “Experts” ’. The Sociological Review 55(1): 22–41.

Lash, S. (2002) Critique of Information. London: Sage.

Lockwood, D. (1964) ‘Social and system integration’, in G.K. Zollschan and W. Hirsch (eds.) Explorations in Social Change. London, Routledge & Kegan Paul: 249–267.

Reay, D., Crozier, G., and James, D. (2011) White Middle Class Identities and Urban Schooling. Basingstoke: Palgrave.

Ruppert, E. (forthcoming) ‘The Governmental Topologies of Database Devices’. Theory, Culture & Society, 29(4–5).

Ruppert, E. and Savage, M. (2012) ‘Transactional Politics: The Case of MP’s Expenses’, in L. Adkins, R. Burrows and C. Lury (eds.) Value and Measure in Sociology. UK: Blackwell, Sociological Review Monograph.

Savage, M. (2009) ‘Against Epochalism: Numbers, Narrative and Socio-cultural Change’. Cultural Sociology 3(1): 217–238.

Savage, M. (2010) Identities and Social Change in Britain Since 1940: The Politics of Method. Oxford: Oxford University Press.

Savage, M., Warde, A., and Devine, F. (2005) ‘Capitals, Assets and Resources’. British Journal of Sociology, 56(1): 31–47 (17).

Thrift, N. (2005) Knowing Capitalism, London: Sage.

Woolgar, S. (ed.) (2002) Virtual Society? Technology, Cyberbole, Reality. Oxford: Oxford University Press.

الفصل العاشر

Arnett, P. (1998) ‘Goodbye, World’. American Journalism Review November: 51–67.

Baudrillard, J. (1995). The Gulf War Did Not Take Place. Bloomington: Indiana University Press.

Beck, U. (2007) World at Risk. Cambridge: Polity.

Blair, T. (2007) Transcript: Prime Minister Tony Blair Speaks at RUSI. Rusi.org, 11 January. Available at: http://www.rusi.org/events/ref:E45A6104E7E1A8/info:public/infoID:E45A611EFEA3F2/

Busari, S. (2008) ‘Tweeting the Terror: How Social Media Reacted to Mumbai’. CNN, 27 November.

Castells, M. (2000) The Rise of the Network Society, 2nd edn. Oxford: Blackwell.

Cottle, S. (2009) Global Crisis Reporting. Maidenhead and New York: Open University Press.

Crichton, T. (2007) 'Blair and Bush's Latest Weapon of War: YouTube'. Sunday Herald 14 January.

Cumings, B. (1992) War and Television. London: Verso.

Curtis, N. (2006) War and Social Theory: World, Value and Identity. Basingstoke: Palgrave Macmillan.

Der Derian, J. (2001) Virtuous War: Mapping the Military-Industrial-Media-Entertainment Network. Boulder: Westview Press.

Der Derian, J. (2004) 'James Der Derian on Imagining Peace'. Transcript of Radio Interview, Massive Change Radio. Available at: http://www.massivechange.com/media/MIL_JamesDerDerian.pdf

Hammond, P. (2007) Media, War & Postmodernity. London: Routledge.

Hedges, C. (2002) War is a Force that Gives us Meaning, 1st edn. New York: Public Affairs.

Hoskins, A. and O'Loughlin, B. (2010) War and Media: The Emergence of Diffused War. Cambridge: Polity.

Ignatieff, M. (2001) Virtual War. London: Vintage.

Jones, S.H. and Clarke, D.B. (2006) 'Waging Terror: The Geopolitics of the Real', Political Geography 25(3): 298–314.

Kaldor, M. (2003) Global Civil Society: An Answer to War. Cambridge: Polity Press.

Kaldor, M. (2006) New & Old Wars, 2nd edn. Cambridge: Polity Press.

Keeble, R. (1997) Secret State, Silent Press. Luton: John Libbey.

Kellner, D. (2004) 'The Persian Gulf TV war revisited', in: Allan, S. and Zelizer, B. (eds.) Reporting War: Journalism in Wartime. London and New York: Routledge, pp. 136–154.

Khan, S. (2008) 'Twitter Cause a Little Controversy After Mumbai Attacks: What About Pakistan?' Green & White 27 November. Available at: http://greenwhite.org

Knightley, P. (1991) 'Here Is the Patriotically Censored News'. Index on Censorship 20(4/5): 4–5.

Matheson, D. and Allan, S. (2009) Digital War Reporting. Cambridge: Polity.

Megna, M. (2003) 'Embedded in Technology'. Daily News, 6 April.

Merrin, W. (2005) Baudrillard and the Media. Cambridge: Polity.

Moeller, S. (2009) Packaging Terrorism: Co-opting the News for Politics and Profit. Malden: Wiley-Blackwell.

Morozov, E. (2011) 'Facebook and Twitter are Just Places Revolutionaries Go'. Guardian 7 March.

Norris, C. (1992) Uncritical Theory: Postmodernism, Intellectuals and the Gulf War. London: Lawrence and Wishart.

Reese, S.D. (2004) 'Militarized Journalism: Framing Dissent in the Gulf Wars' In: Allan, S. and Zelizer, B. (eds.) ReportingWar: Journalism inWartime. London and New York: Routledge: 247–265.

Rosen, J. (2006) 'The People Formerly Known as the Audience'. PressThink 27 June.

Seib, P. (2004) Beyond the Front Lines: How the News Media Cover a World Shaped by War. New York: Palgrave Macmillan.

Shaw, M. (2005) The New Western Way of War: Risk Transfer and Its Crisis in Iraq. Cambridge: Polity.

Snow, T. (2007) 'White House Press Secretary, Tony Snow, plugs LiveLeak'. LiveLeak, 10 January. Available at: http://www.liveleak.com/view?i=829607785c

Sontag, S. (2003) Regarding the Pain of Others. New York: Farrar, Straus and Giroux.

Taylor, P.M. (1992) War and the Media: Propaganda and Persuasion in the Gulf War. Manchester: Manchester University Press.

Tumber, H. and Webster, F. (2006) Journalists Under Fire: Information War and Journalistic Practices. London: Sage.

الفصل الحادي عشر

Barabasi, A. (2003) Linked: How Everything is Connected to Everything Else and What it Means for Business and Everyday Life. New York: Plume/Penguin.

Barney, D. (2004) The Network Society. Cambridge: Polity.

Bourdieu, P., Camboredon, J.-C., and Passerson, J.-C. (1991) (trans. Richard Nice) (Beate Krais (ed)) The Craft of Sociology: Epistemological Preliminaries. Berlin and New York: Walter de Gruyter (1stHautes Etudes en Sciences Sociales, Paris: 1968).

Callon, M. (1986) 'Some Elements of a Sociology of Translation: Domestication of the Scallops and the Fishermen of St Brieuc Bay', in J. Law (ed.) Power, Action and Belief: A New Sociology of Knowledge. London: Routledge and Kegan Paul: 196–233.

Cavanagh, A. (2007) Sociology in the Age of the Internet. Maidenhead: Open University Press.

Crossley, N. (2005) 'The New Social Physics and the Science of Small World Networks'. The Sociological Review 53 (2): 351–8.

Crossley, N. (2008a) 'Pretty Connected: The Social Network of the Early UK Punk Movement'. Theory, Culture & Society 25(6): 87–114.

Crossley, N. (2008b) '(Net)Working Out: Social Capital in a Private Health Club'. British Journal of Sociology 59 (3): 475–500.

Gilder, G. (2002) Telecosm: The World After Bandwidth Abundance. New York: Free Press.

Hardt, M. and Negri, A. (2004) Multitude: War and Democracy in the Age of Empire. New York: Penguin Press.

Haythornthwaite, C. (2002) 'Strong,Weak and Latent Ties and the Impact of New Media'. The Information Society 18 (5): 385–401.

Latour, B. (2005) Reassembling the Social: An Introduction to Actor-Network Theory. Oxford: Oxford University Press.

Law, J. (1992) 'Notes on the Theory of the Actor-Network: Ordering, Strategy and Heterogeneity' Centre for Science Studies, Lancaster University, England available at http://www.comp.lancs.ac.uk/sociology/papers/Law-Notes-on-ANT.pdf

Monge, P. and Contractor, N. (2003) Theories of Communication Networks. New York: Oxford University Press.

Nadel, S. (1957) The Theory of Social Structure. London: Cohen and West.

Peters, J.D. (1999) Speaking into the Air: A History of the Idea of Communication. Chicago: University of Chicago Press.

Radcliffe-Brown, A. (1940) 'On Social Structure Journal of the Royal Anthropological Society of Great Britain and Ireland'. v. 70 reproduced pp. 221–32 in S. Leinhardt (ed.) Social Networks: A Developing Paradigm (1977) New York and London: Academic Press.

Savage, M. (2000) Class Analysis and Social Transformation. Buckingham: Open University Press.

Scott, J. (1991), Social Network Analysis: A Handbook. London: Sage.

Terranova, T. (2004) Network Culture: Politics for the Information Age. London: Pluto.

Urry, J. (2003) Global Complexity. Oxford: Polity.
Urry, J. (2004) 'Small Worlds and the New 'Social Physics', Global Networks 4(2): 109–130.

Watts, D. (2004) Six Degrees: The Science of a Connected Age. London: Vintage/ Random House (first published 2003, Heinemann).

Wellman, B. (1988) 'Structural Analysis: From Method and Metaphor to Theory and Substance' in B. Wellman and S.D. Berkowitz (eds) Social Structures: A Network Approach. Cambridge and New York: Cambridge University Press: 19–61.

Witheford, N. (1994) 'Autonomist Marxism and the Information Society'. Capital and Class 52: 85–125.

Wittel, A. (2001) 'Towards a Network Sociality'. Theory Culture and Society 18(6): 51–76.

Whyte, J. (2003) Bad Thoughts. London: Corvo.

الفصل الثاني عشر

Bolter, D. and Grusin, R. (1999) Remediation: Understanding New Media. London: MIT Press.

Born, G. (2005) 'On Musical Mediation: Ontology, Technology and Creativity'. Twentieth-Century Music 2/1: 7–36.

DeNora, T. (2000) Music in Everyday Life. Cambridge: Cambridge University Press.

Gibson, J. (1966) The Senses Considered as Perceptual Systems. Boston: Houghton Mifflin.

Hennion, A. (1997) 'Baroque and Rock: Music, Mediators and Musical Taste'. Poetics 24: 415–435.

Hennion, A. and Latour, B. (1993) 'Objet d'art, objet de science: note sur les limites de l'anti-fétichisme'. Sociologie de l'Art 6: 7–24.

Jenkins, H. (2006) Convergence Culture: Where Old and New Media Collide. NewYork and London: New York University Press.

Kittler, F. (1999) Gramophone, Film, Typewriter. Stanford: Stanford University Press.

Orton-Johnson, K. and Prior, N. (2011), 'Unbinding Cybermedia: The Case of Lost', unpublished conference paper, BSA Annual Conference, London School of Economics, April 2011.

Ritzer, G. and Jurgenson, N. (2010) 'Production, Consumption, Prosumption: The Nature of Capitalism in the Age of the Digital "Prosumer" '. Journal of Consumer Culture 10/1: 13–36.

Thrift, N. (2005) Knowing Capitalism. London: Sage.

Virilio, P. (1997) Pure War. New York: Semiotext(e).

الفصل الثالث عشر

Anderson, C. (2006) The Long Tail. New York: Hyperion.

Apple, M. (1994) 'Computers and the Deskilling of Teaching'. CPSR Newsletter 12(2): 3–5.

Apple, M. (2004) 'Are We Wasting Money on Computers in Schools?' Educational Policy 18(3): 513–522.

Bauman, Z. (2005) Liquid life. Cambridge: Polity.

Beer, D. and Burrows, R. (2007) 'Sociology and, of and in Web 2.0: Some Initial Considerations'. Sociological Research Online 12(5), www.socresonline.org.uk/12/5/17.html.

Bennet, A. and Bennet, D. (2008) 'E-learning as Energetic Learning'. VINE: The Journal of Information and Knowledge Management Systems 38(2): 206–220.

Bolter, D. and Grusin, R. (1999) Remediation: Understanding New Media. Cambridge MA: MIT Press.

Bottery, M. (2004) The Challenges of Education Leadership. London: Sage.

Brabazon, T. (2007) The Google Generation. Aldershot, Ashgate.

Buckingham, D. and Scanlon, M. (2005) 'Selling Learning: Towards a Political Economy of Edutainment Media'. Media, Culture & Society 27(1): 41–58.

Cavanagh, A. (2007) Sociology in the age of the Internet. Buckingham, Open University Press.

Cooley, M. (1999) 'Human-centred Design', in R. Jacobson (ed.) Information Design. Cambridge MA: MIT Press: 59–82.

Crook, C. (2008) 'Theories of Formal and Informal Learning in the World of Web 2.0', in S. Livingstone (ed.) Theorising the Benefits of New Technology for Youth: Controversies of Learning and Development. University of Oxford/ London School of Economics, www.education.ox.ac.uk/esrcseries/uploaded/08_0314%20ESRC%20report_web.pdf.

Crook, C. and Harrison, C. (2008) Web 2.0 use for Learning at Key Stage Three and Four: Final Report. Coventry: Becta.

Davies, P. (1998) 'Formalising Learning: The Role of Accreditation', paper presented to ESRC Learning Society. Bristol: Seminar.

Delamont, S. (2000) 'The Anomalous Beasts: Hooligans and the Sociology of Education'. Sociology 34(1): 95–111.

Department for Education and Skills [DfES] (2002) Get on with IT: The Post 16 E-learning Strategy Task Force Report. London: Department for Education and Skills.

Dreyfus, H. (2001) On the Internet. London: Routledge.

Fearn, H. (2008) 'Grappling with the Digital Divide'. Times Higher Education Supplement 14 August: 36–39.

Gane, N. (2005) 'An Information Age Without Technology'. Information, Communication and Society 8(4): 471–476.

Garnham, N. (2000) 'Information Society as Theory or Ideology?'. Information, Communication and Society 3(2): 139–152.

Green, H., Facer, K., Rudd, T., Dillon P., and Humphreys, P. (2006) Personalisation and Digital Technologies. Bristol: Futurelab.

Hinchey, P. (2008) 'Educational Technology', in D. Hill (ed.) Knowledge and Power in the Global Economy. New York: Lawrence Erlbaum: 297–302.

Hirschheim, R. (2005) 'The Internet-based Education Bandwagon: Look Before you Leap'. Communications of the ACM 48(7): 97–101.

Kerr, S. (1996) 'Toward a Sociology of Educational Technology', in

D. Jonassen (ed.) Handbook of Research on Educational Communications and Technology. New York: Macmillan: 113–142.

Kirkpatrick, G. (2004) Critical Technology: A Social Theory of Personal Computing. Aldershot: Ashgate.

Lash, S. (2002) Critique of Information. London: Sage.

Laurillard, D. (2008) Digital Technologies and Their Role in Achieving Our Ambitions for Education. London: Institute of Education.

Leadbetter, C. (2008) We-Think. London: Profile.

Lefebvre, H. (1981/ 2007) Critique of Everyday Life: Volume Three – From Modernity to Modernism. London: Verso [trans. Elliott, G.].

Lovink, G. (2004) Uncanny Networks. Cambridge MA: MIT Press.

Monahan, T. (2005) Globalization, Technological Change, and Public Education. London: Routledge.

Monke, L. (2008) 'Better Informed – But Poorly Educated?' The Guardian 23 September, Time to Learn supplement, p. 4.

Nicholas, D., Rowlands, I., and Huntington, P. (2008) 'Information Behaviour of the Researcher of the Future – Executive Summary', www.jisc.ac.uk/media/documents/programmes/reppres/gg_final_keynote_11012008.pdf.

Nunes, M. (1997) 'What Space is Cyberspace?' in D. Holmes (ed.) Virtual Politics. London: Sage: 163–178.

Nunes, M. (2006) Cyberspaces of Everyday Life. Minneapolis: University of Minneapolis Press.

Oakley, A. (2000) Experiments in Knowing: Gender and Method in the Social Sciences. Cambridge: Polity.

Orton-Johnson, K. (2007) 'The Online Student: Lurking, Chatting, Flaming

and Joking'. Sociological Research Online 12, 6, www.socresonline.org.uk/12/6/3.html.

Negroponte, N. (1995) Being Digital. London: Coronet.

Papert, S. (1984) 'Trying to Predict the Future'. Popular Computing. October 1984.

Selwyn, N., Gorard, S., and Furlong, J. (2005) Adult Learning in a Digital Age. London: Routledge.

Shaffer, D. (2008) 'Education in the Digital Age'. The Nordic Journal of Digital Literacy 4(1): 39–51.

Suppes, P. (1965) Computer-Assisted Instruction in the Schools: Potentialities, Problems, Prospects. Stanford University, Institute for Mathematical Studies in the Social Sciences, Technical Report Number 81, http://suppes-corpus.stanford.edu/techreports/IMSSS_81.pdf.

Urry, J. (2007) Mobilities. London: Sage.

Ziegler, S. (2007) 'The (mis)education of Generation M'. Learning, Media and Technology 32(1): 69–81.

الفصل الرابع عشر

Akrich, M. and Méadel, C. (2002) 'Prendre ses médicaments/prendre la parole: les usages des médicaments par les patients dans les listes de discussion électroniques'. Sciences Sociales et Santé 20(1): 89–114.

Bauman, Z. (2000) Liquid Modernity. Cambridge: Polity Press.

Bendelow, G. andWilliams, S. (1998) The Lived Body: Sociological Themes, Embodied Issues. London: Routledge.

Berland, G.K., Elliott, M.N., Morales, L.S., Algazy, J.I., Kravitz, R.L., Broder, M.S., Kanouse, D.E., Muñoz, J.A., Puyol, J.A., Lara, M., Watkins, K.E., Yang, H., McGlynn, E.A. (2001) 'Health Information on the Internet. Accessibility, Quality, and Readability in English and Spanish'. Journal of American Medical Association 285(20): 2612–2621.

Menachemi, N. and Brooks, R. (2006). 'EHR and Other IT Adoption among Ambulatory Physicians: Results of a Large-Scale Statewide Analysis'. Journal of Healthcare Information Management 20(3): 79–87.

Bunton, R. and Burrows, R. (1995) 'Consumption and Health in the 'Epidemiological' Clinic of Late Modern Medicine', in R. Bunton, S. Nettleton and R. Burrows (eds.) The Sociology of Health Promotion: Critical Analyses of Consumption, Lifestyle and Risk. London and New York: Routledge: 206–222.

Burrows, R., Nettleton, S. Pleace, N., Loader, B., and Muncer, S. (2000) 'Virtual Community Care? Social Policy and the Emergence of Computer Mediated Social Support'. Information, Communication and Society 3(1): 95 121.

Della Mea, V. (2001) 'What is e-Health (2): The Death of Telemedicine?' Journal of Medical Internet Research 3(2): e22.

Eysenbach, G. (2001) 'What is E-Health?' Journal of Medical Internet Research 3(2): e20.

Eysenbach, G. (2008) 'Medicine 2.0: Social Networking, Collaboration, Participation, Apomediation, and Openness'. Journal of Medical Internet Research 10(3): e22.

Eysenbach, G. and Köhler, C. (2002) 'How Do Consumers Search for and Appraise Health Information on theWorldWideWeb? Qualitative Study Using Focus Groups, Usability Tests, and in-Depth Interviews'. British Medical Journal 324(7337): 573–577.

Featherstone, M. (ed.) (1996) Cyberspace/Cyberbodies/Cyberpunk: Cultures of Technological Embodiment. London: Sage publications.

Ferguson, T. (2002) 'From Patients to End Users. Quality of Online Patients Networks Needs More Attention than Quality of Online Health Information'. British Medical Journal 324(7337): 555–556.

Fox, S. (2006) Online Health Search 2006. Washington: Pew Internet & American Life Project. 29 October 2006. Available at: http://www.pewinternet.org/Reports/2006/Online-Health-Search-2006.aspx (last accessed on 29 July 2009).

Giddens, A. (1991) Modernity and Self-Identity: Self and Society in the Late Modern Age. Cambridge: Polity Press.

Gomez-Zamudio, M. and Renaud, L. (2009) 'Impact d'un site internet dans une champagne de promotion de la santé: le 'Défi Santé 5/30'. Santé publique 21(hs): 105–15.

Gustafson, D.H. and Wyatt, J.C. (2004) 'Evaluation of E-Health Systems and Services'. British Medical Journal 328(7449): 1150.

Hardey, M. (1999) 'Doctor in the House: The Internet as a Source of Lay Health Knowledge and the Challenge to Expertise'. Sociology of Health and Illness 21(6): 1545–1553.

Hardey, M. (2002) ' "The Story of My Illness": Personal Accounts of Illness on the Internet'. Health: An Interdisciplinary Journal for the Social Study of Health, Illness and Medicine 6(1): 31–46.

Henderson, S. and Petersen, A. (2002) 'Introduction: Consumerism in Health Care', in S. Henderson and A. Petersen (eds.) Consuming Health: The Commodification of Health Care. London and New York: Routledge: 1–10.

Henwood, F., Wyatt, S., Hart, A., and Smith, J. (2003) ' "Ignorance is Bliss Sometimes": Constraints on the Emergence of the "Informed Patient" in the Changing Landscape of Health Information'. Sociology of Health and Illness 25(6): 589–607.

Hervier, D. (2009) 'Le role des espaces d'expression internet proposes par Fil Santé Jeunes dans la prévention'. Santé publique 21(hs): 73–87.

Kivits, J. (2004) 'Researching the "Informed Patient": The Case of Online Health Information Seekers'. Information, Communication & Society 7(4): 510–530.

Street, R. and Piziak, V. (2001) 'Improving Diabetes Care With Telecomputing Technology', in R. Rice and J. Katz (eds.) The Internet and Health Communication: Experiences and expectations. Thousand Oaks: Sage Publications: 287–308.

Ziebland, S. (2004) 'The Importance of Being an Expert: The Quest for Cancer Information on the Internet'. Social Science and Medicine 59: 1783–1793.

الفصل الخامس عشر

Amoore, L. (2009) 'Lines of Sight: On the Visualization of Unknown Futures'. Citizenship Studies 13: 17–30.

Amoore, L. and Hall, A. (2009) 'Taking People Apart: Digitized Dissection and the Body at the Border'. Environment and Planning d: Society and Space

27: 444–464.

Barry, A. (2001) Political Machines: Governing a Technological Society. London and New York: Athlone Press.

Beer, D. and Burrows, R. (2007) 'Sociology and, of and in Web 2.0: Some Initial Considerations'. Sociological Research Online, www.socresonline.org.uk/12/5/17.html, 2007.

Bijker, W. E. and Law, J. (1992) (eds.), Shaping Technology/Building Society: Studies in Sociotechnical Change. Cambridge, MA: MIT Press.

Kitchin, R. and Dodge M. (2011) Code/Space: Software and Everyday Life. Cambridge, MA: MIT Press.

Giddens, A. (1984) The Constitution of Society: Outline of the Theory of Structuration.

Berkeley: University of California Press.

Heaton, J., Noyes, J., Sloper, P., and Shah, R. (2006) 'The Experiences of Sleep Disruption in Families of Technology-Dependent Children Living at Home'. Children & Society 20(3): 196–208.

Henwood, F., Wyatt, S., Hart, A., and Smith J. (2003) ' "Ignorance is Bliss Sometimes": Constraints on the Emergence of the "Informed Patient" in the Changing Landscape of Health Information'. Sociology of Health and Illness 25(6): 589–607.

Jasanoff, S. (2004) States of Knowledge: The Co-Production of Science and Social Order. London: Routledge.

Latour, B. (1992) 'Where are the Missing Masses?: The sociology of a Few Mundane Artifacts', in W. Bijker and T Hughes (eds.) Shaping Technology/Building Society. Cambridge, MA: MIT Press: 225–258.

Loader, B. D. (2007) (ed.) Young Citizens in the Digital Age. London: Routledge.

Mason, D., Button, G., Lankshear, G., and Coates, S. (2002) 'Getting Real about Surveillance and Privacy at Work', in S. Woolgar (ed.) Virtual Society? Oxford: OUP: 137–152.

May, C. and Finch, T. (2009) 'Implementation, Embedding, and Integration: An Outline of Normalization Process Theory'. Sociology 43(3): 535–554.

McLaughlin, J., Rosen, P., Skiiner, D., and Webster, A. (1999) Valuing Technology: Organisations, Culture and Change. London: Routledge

Milligan, C., Mort, M., and Roberts, C. (2011) 'Cracks in the Door? Technology and the Shifting Topology of Care', in M. Schillmeier and M. Domenech (eds.) New technologies and Emerging Spaces of Care. Farnham: Ashgate: 19–38.

Nettleton, S., Burrows, R., and O'Malley, L. (2004) 'Health 'E-types': An Analysis of the Everyday Use of the Internet for Health'. Information Communication and Society 7(4): 531–553.

Oudshoorn, N. (2009) 'Physical and Digital Proximity: Emerging Ways of Health Care in Face-to-Face and Telemonitoring of Heart-Failure Patients'. Sociology of Health & Illness 31(3): 390–405.

Oudshoorn, N.E.J. and Pinch, T.J. (eds.) (2003) How Users Matter: The Co-Construction of Users and Technologies. Cambridge, MA: MIT Press.

Oudshoorn, N. (2011) Telecare Technologies and the Transformation of Healthcare. Basingstoke: Palgrave/Macmillan.

Poland, B., Lehoux, R., Holmes, D., and Andrews, G. (2005) 'How Place Matters: Unpacking Technology and Power in Health and Social Care'. Health and Social Care in the Community 13: 170–80.

Rip, A., Misa, T., and Schot, J. (eds.) (1995) Managing Technology in Society: The Approach of Constructive Technology Assessment. London and New York: Pinter.

Savage, M. and Burrows, R. (2007) 'The Coming Crisis of Empirical Sociology'. Sociology 41(5): 885–899.

Virilio, P. (2000) Polar Inertia. London: Sage.

Webster, A. (ed.) (2006) New Technologies in Health Care: Challenge, Change and Innovation. Basingstoke: Palgrave: 131–145.

Woolgar, S. (1991) 'Configuring the User – The Case of Usability Trials', in J. Law (ed.) A Sociology of Monsters – Essays on Power, Technology and Domination. London: Routledge, pp. 58–99.

Woolgar, S. (2002) Virtual Society?: Technology, Cyberbole, Reality. Oxford: OUP.

ستيوارت آلن

- أستاذُ الصحافة في كلية الإعلام، جامعة بورنيموث، المملكة المتحدة.

ديفيد بير

- محاضرٌ أول في علم الاجتماع في قسم علم الاجتماع، جامعة يورك، المملكة المتحدة.

روجر باروز

- أستاذُ علم الاجتماع في جامعة غولد سميث، المملكة المتحدة.

أليسون كافانا

- محاضرٌ وباحث في الاتصالات بجامعة ليدز، المملكة المتحدة.

كارين إيفانز

- محاضرٌ أول في علم الاجتماع، والسياسة الاجتماعية وعلم الإجرام في جامعة ليفربول، المملكة المتحدة.

ديبرا فيرداي

- محاضرٌ في مجال الإعلام والدراسات الثقافية في جامعة لانكستر، المملكة المتحدة.

إيلين غرين

- أستاذٌ فخري في علم الاجتماع بجامعة تيسايد، المملكة المتحدة.

لين جيميسون

- أستاذُ علم الاجتماع في جامعة إدنبره، الولايات المتحدة.

جويل كيفتز

■ باحثٌ في جامعة نانسي، فرنسا.

ديفيد ليون

■ أستاذُ ورئيسُ مركز أبحاث ودراسات المراقبة، جامعة كوينز، كندا.

دونالد ماثيسون

■ محاضرٌ أول في مجال الإعلام والاتصال في جامعة كانتربري، نيوزيلندا.

كيت أورتون - جونسون

■ محاضرٌ في علم الاجتماع، جامعة إدنبره، المملكة المتحدة.

خوان بابلو باردو غيرا

■ محاضرٌ في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، المملكة المتحدة.

نيك بريور

■ محاضرٌ أول في علم الاجتماع، جامعة إدنبره، المملكة المتحدة.

مايك سافيج

■ أستاذُ علم الاجتماع، كلية لندن للاقتصاد، المملكة المتحدة.

نيل سيلوين

■ عضوٌ في كلية التربية بجامعة موناش، أستراليا.

كاري سِنغلتون

■ زميلُ أبحاث في جامعة تيسايد، المملكة المتحدة.

جان إيه جي إم فان دايك

- أستاذُ علم الاتصال في جامعة تفينتي، هولندا.

أندرو وبيستر

- أستاذُ علم اجتماع العلوم والتكنولوجيا بجامعة يورك، المملكة المتحدة.

المترجم في سطور

هاني خميس أحمد عبده

- أستاذُ علم الاجتماع في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية.
- وكيل الكلية لشؤون الدراسات العليا والبحوث.
- تخرج في كلية الآداب، قسم علم الاجتماع، 1995.
- حصل على درجة الماجستير في علم الاجتماع، 2002.
- حصل على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع، 2007.
- صدرت له ترجمات منها:

– «تخفيض معدلات الفقر والعنف ضد المرأة»، مجلة الثقافة العالمية (2009).

– «علم اجتماع النوع»، المركز القومي للترجمة (2014).

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير من العام 1978.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة:

1 - الدراسات الإنسانية: تاريخ ـ فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار.

2 - العلوم الاجتماعية: اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبليات.

3 - الدراسات الأدبية واللغوية: الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة.

4 - الدراسات الفنية: علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية.

5 - الدراسات العلمية: تاريخ العلم وفلسفته، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة، فلك) ـ الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم)، والدراسات التكنولوجية.

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية ـ المترجمة أو المؤلفة ـ من شعر وقصة ومسرحية، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي.

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين، على ألا يزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته وفي حالة الترجمة ترسل نسخة مصورة من الكتاب بلغته الأصلية كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب، وكذلك يجب أن تدوّن أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة، والسلسلة لا يمكنها النظر في أي ترجمة ما لم تكن مستوفية لهذا الشرط. والمجلس غير ملزم بإعادة المخطوطات والكتب الأجنبية في حالة الاعتذار عن عدم نشره. وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع ـــ المؤلف أو المترجم ـــ تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألفا دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل ثلاثين فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي (وبحد أقصى مقداره ألفان وخمسمائة دينار كويتي).

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	دينار كويتي
الدول العربية	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية
الاشتراكات	
دولة الكويت	
للأفراد	15 د. ك
للمؤسسات	25 د. ك
دول الخليج	
للأفراد	17 د. ك
للمؤسسات	30 د. ك
الدول العربية	
للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	
للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات والمبيعات مقدما نقدا أو بشيك باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت، ويرسل إلينا بالبريد المسجل على العنوان التالي:

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب 23996 الصفاة - الرمزي البريدي 13100

دولة الكويت

بدالة: 22416006 (00965)

داخلي: 1196/ 1195/ 1194/ 1153/1193/ 1152

أسماء وأرقام وكلاء التوزيع
أولاً: التوزيع المحلي – دولة الكويت

م	الدولة	وكيل التوزيع	رقم الهاتف	رقم الفاكس	الإيميل
1	الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	00965 24826820 /1/2	2482682300965 /	im_grp50@yahoo.com
ثانياً: التوزيع الخارجي					
2	السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	00966114871414	121277400966 /12121766 –	bander.shareef@saudidistribution.com babiker.khalil@saudidistribution.com
3	البحرين	مؤسسة الأيام للنشر	3661616800973 /17617733 –	1761774400973 /	cir@alayam.com rudainaa.ahmed@alayam.com
4	الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	00971 43916501 /2/3	4391801900971 /43918354 –	eppdc@emirates.net.ae info@eppdco.com essam.ali@eppdco.com
5	سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	2449139900968 /24492936 – 24496748 –	2449320000968 /	alattadist@yahoo.com
6	قطر	شركة دار الثقافة	4462218200974 /44621942 –	4462180000974 /	thaqafadist@qatar.net.qa
7	مصر	مؤسسة أخبار اليوم	00202 25782700/1/2/3/4/5 00202 25806400	2578254000202 /	ahmed_isaac2008@hotmail.com
8	لبنان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	00961 1666314 /15	165325900961 / 165326000961 /	topspeed1@hotmail.com
9	تونس	الشركة التونسية	7132249900216 /	7132300400216 /	sotupress@sotup.com.nt
10	المغرب	الشركة الشريفية للتوزيع	00212522589912		المغرب - الدار البيضاء - سيدي معروف - ش ابوبكر القادري
11	الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	79720409500962 /6535885 –	6533773300962 /	alshafiei.ankousha@aramex.com basem.abuhameds@aramex.com
12	فلسطين	شركة رام الله للتوزيع والنشر	2298080000970 /	2296413300970 /	wael.kassess@rdp.ps
13	اليمن	القائد للنشر والتوزيع	124088300967 /	124088300967 /	alkaidpd@yahoo.com
14	السودان	شركة دار المصري للتوزيع	00249123078223		العنوان: السودان - الخرطوم - شارع البلدية - جنوب برج التضامن

اتحاد الموزعين العرب

ARAB DISTRIBUTORS UNION

تنويــه

للاطـلاع علـى قائمـة كتـب السلسـلة انظـر عدد ديسـمبر (كانـون الأول) مـن كل سـنة، حيـث توجد قائمة كاملة بأسماء الكتب المنشورة في السلسلة منذ يناير 1978.

يمكنكم الاشتراك والحصول على نسختكم الورقية من إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب من خلال الدخول إلى موقعنا الإلكتروني:

https://www.nccal.gov.kw/#CouncilPublications

البيان	عالم المعرفة		الثقافة العالمية		عالم الفكر		إبداعات عالمية		جريدة الفنون		المسرح العالمي	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
مؤسسة داخل الكويت	25		12		12		20		12		20	
أفراد داخل الكويت	15		6		6		10		8		10	
مؤسسات دول الخليج العربي	30		16		16		24			36	24	
أفراد دول الخليج العربي	17		8		8		12			24	12	
مؤسسات خارج الوطن العربي		100		50		40		100		48		100
أفراد خارج الوطن العربي		50		25		20		50		36		50
مؤسسات في الوطن العربي		50		30		20		50		36		50
أفراد في الوطن العربي		25		15		10		25		24		25

قسيمة اشتراك في إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:	
العنوان:	
المدينة:	الرمز البريدي:
البلد:	
رقم الهاتف:	
البريد الإلكتروني:	
اسم المطبوعة:	مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:	نقدا / شيك رقم:
التوقيع:	التاريخ: / / 20م

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - إدارة النشر والتوزيع - مراقبة التوزيع

ص.ب: 23996 - الصفاة - الرمز البريدي 13100

دولة الكويت

نموذج الصين:
الجدارة السياسية وحدود الديموقراطية

The China Model:
Political Meritocracy and the Limits of Democracy

تأليف: دانييل بيل
ترجمة: عماد عواد

بخلاف القالب المعتاد (الشيوعي أو السلطوي) الذي يستخدمه الغرب في خطابه السائد لتصنيف النظام السياسي الصيني، فإن دانييل بيل يقدم تحليلا يرمي إلى الوصول إلى حقيقة وماهية النظام، مستخدمًا توصيف «نظام الجدارة السياسية»؛ الأمر الذي يفسح المجال لفهم جديد للنظام السياسي الصيني، بل ربما يكون «نموذج الصين» مثالًا مرغوبًا فيه، ومصدر إلهام لإصلاحات سياسية في الديموقراطيات الانتخابية الغربية.


المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب

هذا الكتاب...

يهدفُ هذا الكتابُ إلى دراسة وتحليل التكنولوجيات الرقمية الجديدة في إطار سوسيولوجي من خلال تعزيز النقاش حول ملامح العلاقات الاجتماعية والمؤسسات والبنى في عصر المعلومات، بالإضافة إلى تقديم تمهيد شامل للتحولات التكنولوجية وتأثيراتها في المجتمعات الإنسانية، والتعرف على دور التكنولوجيا الرقمية في إعادة تشكيل الأدوات والمفاهيم داخل علم الاجتماع.

وقد شارك في هذا الكتاب مجموعة من الباحثين من خلال دراسة علم اجتماع التكنولوجيا باعتباره أحد أفرع علم الاجتماع الذي يتناول الجوانب الاجتماعية للتكنولوجيا، ويطرح عدة تساؤلات يحاول الباحثون الإجابة عنها، ومن أبرزها: هل المفاهيم السوسيولوجية السائدة تظل مناسِبة للغرض؟ أو هل يمكن أن يكون هناك إدراك يتسع للتطبيقات الجديدة والسياق الاجتماعي المتغير؟ كيف يمكن لعلم الاجتماع إعادة تقييم أفكاره الأساسية من خلال مدخل للعلوم البينية المتداخلة؟ وإلى أي حد يكون الخيال السوسيولوجي sociological imagination أساسًا كافيًا يصلح للبحوث في العوالم الرقمية digital worlds عبر تجاوز الحدود المعرفية؟ وإذا كانت المعرفة مطلوبة، فأي نوع من المعارف المستعارة والتوافقات والتعارضات نتوقعها أو حتى نشجعها؟

ISBN 978 - 99906 - 0 - 676 - 8



إصدارات المجلس متوافرة إلكترونيا على موقعنا:
WWW.NCCAL.GOV.KW/PUBLICATIONS